مصر والشرق الأدنى القديم
(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة فى ماهية التاريخ وكتابته ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة



التـــاريخ والتـــاريخ

دراسة فى ماهية التاريخ وكتابته

ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

مصر والشرق الأدنى القديم

(١٢)

التاريخ والتأريخ

دراسة في ماهية التاريخ وكتابته ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة
الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

مولانا وسيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

[اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد]

إهداء

الى من هــو اعــز من نفسى

الى زينة الدنيا ، ودعوة الآخرة

الى ولــدى ابراهــيم

أهــدى هــذه الدراسـة

تقديم

التاريخ هو المصدر الأساسى للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخالد الذى يحو بين دفتيه كل التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى مرت بها البشرية ، منذ أن قدر الله تعالى للانسان أن يبــدأ حياته على الأرض ، وحتى يغير الله الأرض غير الأرض ، ومن ثم فالانسان هو الوحيد ـ بين الكائنات الحية ـ ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ، ويصنعه التاريخ .

ولاريب فى أن الانسان قد بدأ يكتب تاريخه منذ أن نقش على الحجر، ثم بعد أن كتب على الورق ، ايمانا منه بان تسجيل تاريخه ، لأمر جد عظيم ، ذلك لأن التاريخ ، سواء أدرك ذلك أو لم يدرك ، انما هو ـ كما يقول ابن خــلدون فى مقدمته المشهورة ـ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا .

ومن هنا كانت أهمية التاريخ ، فهو يبحث فى المجتمع الانســانى ، وفى حكايته ، وكيف أصبح كما هو الآن ، وبدهى أن معرفتنا لما كانت عليه المجتمعات فى الماضى ، انما تبصرنا بالعوامل التى تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التى تحركها ، الى جانب الدوافع والمصادمات التى تشكلها ـ عامة كانت أم خاصة ـ انه بحث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت ، وهنــــا تبرز أهمية تراجم الشخصيات التاريخيــة ، ويتضح ـ بالتالى ـ ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقــدمه من متعة عقلية .

فالتاريخ لا يتناول حياة القادة فحسب ، وانما يمكن أن يقال ـ على

صورة ما ــ انه يتكون من رواسب حياة الملايين من الرجال والنساء، من غمار الناس وأواسطهم ، ممن لم يخلفوا أسماء لامعة فى صفحات التاريخ. وانما حسبهم أنهم قدموا نصيبهم من المشاركة فى بناء تاريخ أممهم، الأمر الذى يجعل مادة التاريخ أشبه ما تكون بالشعب المرجانية ، التى تتكون من حياة ملايين المخلوقات البحرية الصغيرة والتى قد تكون قليلة الأهمية.

وهكذا يمكن القول : انه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه ، باعتباره كائنا اجتماعيا ، ومن ثم ينبغى عليه أن يعرف تاريخ تطوره القريب والبعيد ، فضلا عن تاريخ آثاره المادية ، وغير المادية .

على أن دراسة أحداث التاريخ ــ بارزها وماخفى منها فى الاعماق ــ ليس لها فى حد ذاتها ــ من حيث هى حوادث مجردة ــ كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الانسانى ، ذلك أن حوادث التاريخ انما تصبح ذات قيمة ، عندما ينطقها المؤرخ بعد خرس ، باستفساره اياها ، والحاحه فى سؤالها ، عن قدر مسئوليتها ، ومدى تأثيرها ، فى تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره .

ومن ثم ، فالتاريخ اذن غايته وضالته ، أن يفهمه الناس ، وأن يربطوا الأسباب بالمسببات ، وأن يجعلوا من كامل الواقع المتشعب ، والمترامى الأطراف ، شيئا له نظامه وانسجامه ــ اضطرارا والزاما ــ بحكم التسلسل والتولد المنطقى ، ذلك لأن التاريخ انما هو بناء منطقى لعالم الانسان .

ولاريب فى أن الفكر الوضعى لابد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذى يعيشه ــ سلبا وايجابا ، بدرجة أو بأخرى ــ وهذا التأثير المحتوم ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، وفى كل من الحالين انما يقوم الجانب التأثيرى الانفعالى ، والاسقاطات الظاهرة والخفية فى الوعى واللاوعى ، بدوره فى الرؤية التى يمارسها المفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء .

فاذا كان ذلك كذلك ، وكان المفكر مفسرا للتاريخ ، وتفسير التاريخ

ـ فيما نعلم ـ انما هو توسيع للتحليل صوب الماضى والمستقبل اللذين يندان كثيرا عن الحصر والضبط والتحليل ، فان لنا ، دونما ريب ، أن نتصور كم سيجىء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذى يعيشه المفسر ، وكيف أن الأشياء والوقائع والأحداث فى الماضى والمستقبل ، سوف تأخذ اللون الذى يجد المفسر نفسه مضطرا الى النظر من خلال زجاجته التى اسقطت عليها مواضعات العصر ، الظلال والأضواء ؟ وهذا بدوره سوف يؤدى الى أن تبعد التفاسير الوضعية ـ وليس السماوية ـ بدرجة أو بأخرى ، عن العلمية ، فضلا عن الموضوعية والحياد .

ومن هنا ، فان أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفى الراهن ، وعروض المكتبة المعاصرة ، انما تطلعنا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعى للتاريخ ، والتى تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمى ، يهدف الى ارساء قواعد ثابتة ، تصبح معها أحداث التاريخ مجرد تفاصيل أو تجارب ، ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج ، وهكذا ظهر عدد من المذاهب المختلفة لتفسير التاريخ ، يكاد يجمعها طابع واحد هو : أنها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبل أن يكون سجلا لأعمال الأفراد ، وان اختلفت فيما بينها فى تحديد الاتجاه الذى يسلكه هذا التطور ، والدافع الذى يكمن وراءه ، والنتيجة التى يهدف اليها .

وبدهى أن التاريخ لا يدرس عفوا ، ولا يكتب اعتباطا ، وبدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخا ، كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب ، حينما يسطرون صفحات طويلة عن أحداث ماضية كانت أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ، ماداموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملأت كتاباتهم رفوف المكتبات ، ذلك لأنه من الضرورى أن تتوافر فى المؤرخ الصفات الضرورية ، وأن تتحقق له الظروف التى تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته .

ومن هنا فلقد وضع العلماء صفات خاصة للتاريخ ، بعضها يتصل بشخصية المؤرخ ، وبعضها الآخر يتصل بقدراته العلمية ، ذلك لأن البحث العلمى انما هو موهبة فنية يمنحها الله تعالى لبعض الناس ، ولا يمنحها لآخرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها بالعناصر الكافية وحدها لانتاج بحث علمى أو رسالة أكاديمية فى التاريخ وانما يجب أن تتوفر القدرة على البحث عند المؤرخ أولا ، ذلك لأن جمع المادة العلمية وترتيبها ، شىء ، وتفسيرها وابراز أهميتها ، واستخلاص النتائج شىء آخر ، بل ان هذا الأمر الأخير انما هو الصعب والمهم فى كتابة الرسائل العلمية والأبحاث التاريخية .

وانطلاقا من كل هذا ، فان الباحث يجب أن يكون له مقدرة يستطيع أن يستقل بها فى فهم الحقائق وفى تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شىء قابل للاختلاف من شخص لآخر ، فاذا لم يكن الباحث قد وهب هذه المقدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمنهاج العلمى المطلوب .

وليس هناك من ريب فى أن هناك خصالا خلقية معينة يجب توافرها فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمى ، أهمها : الصدق والأمانة والاخلاص والنزاهة والشجاعة ، ذلك لأنه من البديهيات المسلم بها علميا أنه يستحيل على مؤرخ الحقائق العلمية أن يكون انسانا مزورا ، أو كاذبا ، أو غير معبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا ، أن الثقافة الاسلامية انما قد أبدعت فى تقويم الرجال فنا قائما بذاته ، هو «الجرح والتعديل» ، فقد كان المسلمون يأخذون الأخبار من أفواه الرجال ، وما قيدوه فى نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاحه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه ، فالفرد ـ فى نظرهم الصائب ـ وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن ـ علم الله ـ أن ثقافة فى الأرض قامت على مثل هذا الأساس النقدى المنهجى النزيه ، فذلك شىء انما تفرد به المسلمون وحدهم .

وهناك صفات أخرى تتصل بقدرات المؤرخ العلمية ، اذ اشترط العلماء

أن تكون لدى المؤرخ قدرات واستعدادات تدريبية فى الناحية اللغوية والعلمية تتصل بصفة خاصة بفرع التاريخ الذى يدرسه ، ذلك لأن توفر الصفات الخلقية النبيلة فى المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لأداء عملية التأريخ ، وانما تكملها عملية الاستعداد العقلى والعملى لأداء هذه المهمة، ولاريب فى أن أول جوانبها قدرة المؤرخ اللغوية ، وخاصة لغة العصر ، التى كتبت بها وثائقه ، ذلك لأن اللغة هى وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحس بمدلولها ، وما تريد أنتعبر عنه ، وهكذا كان على دارس التاريخ الفرعونى - مثلا - أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، وعلى دارس التاريخ الاسلامى أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

ومن البدهى أن ملكة النقد انما هى من الصفات الضرورية للمؤرخ، فلا يجوز له أن يقبل كل ما هو مكتوب ، أيا كان صاحبه من ذوى الشهرة والرنين ، وعليه أن يتمسك بالمقولة الحقة ، أن كل رجل يؤخذ من قوله ، ويرد عليه ، ماعدا سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فهو وحده المعصوم عن أن يقول ، الا ما هو حق وهدى ، وصدق ربنا - جل جلاله - فى قوله تعالى عن نبيه الكريم ﷺ «وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى»(١) ، وروى عنه ﷺ أنه قال : «لا أقول الا حقا»(٢) .

وعلى المؤرخ كذلك ألا يصدق كل وثيقة أو مصدر ، بغير الدرس والفحص والاستقصاء ، فيأخذ ما يثبت له أنه الصدق ، ويترك ما دون ذلك ، حتى ان كان هذا الصدق لا يتفق مع عواطفه الشخصية أو الوطنية،

---

(١) سورة النجم آية ٤ (٢) روى الامام أحمد فى مسنده (١٦٢/٢) عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ ، أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : انك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر ،يتكلم فى الغضب ،فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «أكتب فو الذى نفسى بيده ، ما خرج منى الا الحق» ، وروى الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «لا أقول الا حقا» ، قال بعض أصحابه : فانك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال : «انى لا أقول الا حقا» (مسند الامام أحمد ٣٤٠/٢ ، تحفة الأحوذى ٣١٦/٣ ، سنن ابن ماجه ٥٨٩/١ ، تفسير ابن كثير ٣٨٣/٤ (بيروت ١٩٨٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران : السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث - بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

فالحق أحق أن يتبع ، ولا ريب فى أن كل وثيقــة أو مصدر يؤخذ منه ، ويرد عليه ، الا القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»(٣) .

وفى الواقع أن المؤرخ اذا أعوزته ملكة النقد ، سقطت عنــه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واقعة ، ومن ثم فمن الواجب على المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقا فى نقــل عباراته ، فكثيرا ما يقع بعض الباحثين فى أخطاء جسيمة بالنسبة لآراء الآخرين ، اما لخطأ فى النقل أو لسوء فهم ـ كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيــه وقلبه لما يقــرأ ، وأن يكون على حــذر ، فلا يسـلم بكل ما قرره باحثون من قبــله من آراء ، وانما عليه أن يفكر فيها طويلا ، وأن يمعن النظر فى كل ما يذهب اليه بفكر ثاقب ، وعقل متفتح ، وما أكثر الأمثلة التاريخية التى خالف فيها اللاحقون السابقين .

وانطلاقا من كل هــذا ، فمن أوجب واجبــات المؤرخ أن يدرس بنفسه الأحداث والأسباب التى أدت اليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن يبرز فى كل مراحل البحث شخصيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار من المبالغة فى ذلك ، ثم حذار من أن يحــاول بالحق وبالباطل أن يصل الى ما يريد ، فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد ، فالحق أحق أن يتبع .

هذا ومن المعــروف أن التاريخ انما يتصل بكثير من فروع المعــرفة الانسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابة التاريخ أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه ان أحسنها ، فهو بالتــالى انما يحسن ما يكتبــه من الدراسات التاريخية ، ذلك لأن المؤرخ قد يصادف فى دراسته للماضى مسائل فى الفلسفة والقانون والاقتصاد وغــيرها ، وبقدر ما تتعدد معرفته بفــروع المعرفة المختلفة ، بقدر ما يكون أكثر استعدادا لعمله كمؤرخ .

---

(٣) سورة فصلت : آية ٤٢ ، وانظــر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ، آل عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ٢٣ ، فاطر : آية ٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية : ٦ ، محمد : آية ٢ .

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المعارف المختلفة باسم «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهى بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلاف العصر أو الموضوع مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلا ، انما تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الوسيط ، وهذه تختلف عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث ۰

وبدهى أنه ليس من الضرورى أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة فى أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقا لمقتضى الحال ، بما يخدم الموضوع الذى يدرسه ، أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع بذاته ، ولا يستخدمها عند دراسته لموضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل محدود ۰

وأخيرا ، وليس آخرا ، فلقد تعرضت هذه الدراسة لموضوعات مختلفة عن التاريخ وكتابته ، وعن مقومات هذه الكتابة ، فضلا عن منهج البحث التاريخى ، وان أعطت أهمية خاصة لكتابة الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه) ، وكل ما يبغيه صاحبها أن يكون فيها بعض النفع ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ۰

«وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب» ۰

دكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

بولكلى ـ رمل الاسكندرية فى { الاول من ذى القعدة عام ١٤١١هـ
الخامس عشر من مايو عام ١٩٩١م }

الفصل الأول

التاريخ : ماهيته وأهدافه ومكانته

بين الفنون والعلوم

(١) تعريف التاريخ :

يدل لفظ «التاريخ» على معان متفاوتة،ففى لغة القرآن الكريم — أى لغتنا العربية — تأتى كلمة التاريخ والتأريخ والتواريخ بمعنى الاعلام بالوقت ، وتاريخ شيء من الاشياء قد يدل على وقته الذى ينتهى اليه مضافا اليه ما وقع خلال هذا الوقت من حوادث ووقائع[١] ٠

ويقول شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ — ٩٠٢هـ =١٤٢٧ — ١٤٩٧ م) : التاريخ فى اللغة الاعلام بالوقت ، يقال : أرخت الكتاب وورخته ، أى بينت وقت كتابته ، وفى الاصطلاح : التعريف بالوقت الذى تضبط به الاحوال من مولد الرواة والائمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وماأشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم،ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة — وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه وانتقال دولة ، وربما يتوسع فيه لبدىء الخلق وقصص الانبياء ، وغير ذلك من أمور الامم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتى ، أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مشاهد أو خفى سماوى كجراد وكسوف وخسوف ، أو أرضى كزلزال وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان وغيرها من الايات العظام والعجائب الجسام ٠

والحاصل : أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت عما كان فى العالم ، وأما موضوعه فالانسان والزمان ، ومسائلة

---

(١) محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الخامس ـ العدد الاول ١٩٧٤ ص ١١٥ ٠

أحوالها المفصلة للجـزئيات تحت دائرة الاحـوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان[٢] ٠

ويقول الجوهرى : التاريخ تعريف الوقت ، والتوريخ مثله ، يقال : أرخت وورخت ، وقيل اشتقاقه من الارخ ، يعنى بفتح الهمزة وكسرها، وهو الانثي من بقر الوحش ، لانه شيء حدث كما يحدث الولد ، هذا وقد فرق عبد الملك الباهلى الاصمعى (٧٤٠ ـ ٨٣١هـ) بين اللغتين،فقال: بنوتميم يقولون : ورخت الكتاب توريخا ، وتقول قيس : أرخته تأريخا، وهذا يؤيد كونه عربيا ، وقيل انه ليس بعربى محض ، بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية ، ومعني «ماه» القمـر ، و «روز» اليوم ، وكان الليل والنهار طرفـة ، قال «أبو منصور الجواليقى» (١٠٧٣ ـ ١١٤٤) فى كتابه «المعرب من الكلام الاعجمي» يقـال : ان التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربى ، وانما أخذه المسلمون عن أهل الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة ، كتب فى خلافة عمر ، رضى الله عنه ، فصار تاريخا الى اليوم[٣] ٠

وعلى أية حـال ، فلقد أكد جب H. Gibb : أن لفظ تاريخ ، انما هو لفظ عربى ، بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت ، أى تحديد الوقت وتحديد الشهر[٤] ٠

ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب (٨٨٨ ـ ٩٥٨هـ) فى كتابه «الخراج» : تاريخ كل شيء آخره ، فيؤرخون بالوقت الذى فيه حوادث مشهورة ، ونحوه قول «ابراهيم بن العباس الصولى» (٧٩٢ ـ ٨٥٧هـ): تاريخ كل شيء نهايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه ، ومنه قيل لفـلان تاريخ قومه، اما لكون اليه المنتهى فى شرف قومه ـ كما قال المطرزى ـ

---

(٢) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ بيروت ـ دار الكتاب العربى ـ ١٩٨٣ ص ٦ ـ ٧ ٠

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦ ـ ٧ ٠

(٤) هـ٠ جب : علم التاريخ ـ تعـريب لجنة ترجمة دائرة المعـارف الاسلامية ـ بيروت ـ دار الكتاب اللبنانى ـ ١٩٨١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

وذلك بالنظر لاضافة الامور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوهما اليه ، واما لكونه ذاكرا للاخبار وما شاكلها[٥] .

وعلى أية حال ، فلفظ التاريخ ، انما يدل على معان متفاوتة ، فهو — فى نظر الكتاب — انما يشتمل على المعلومات التى يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله ، بما يحويه من أجرام وكواكب ، ومن بينها الارض ، وما جـرى على سطحها من حـوادث الانسان[٦] ، ومن ثم فقد بدأ المؤرخـون الاقدمون كتاباتهم عن نشأة الارض — فعـل ذلك مؤرخو التوراة ، كما جاء فى سفر التكوين[٧] — وفعـله المؤرخون المسلمون كالطبرى (٢٢٤ — ٣١٠هـ) وابن الاثير (٥٥٥— ٦٣٠هـ) وابن كثير (٧١٠ — ٧٧٤هـ) كما فعله بعض المؤرخين المحدثين ، مثل «هربرت جورج ويلز» (١٨٦٦ — ١٩٤٦م) ، حيث بدأ كتابه «الموجز»[٨] — وكذا المعالم —[٩] بدراسة نشأة الكون ، والارض وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة ، ثم تدرج فى عـرض تواريخ الامم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث ، معبرا فى ذلك عن وحـدة البشرية ، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها[١٠] .

على أن جمهرة المؤرخين انما تذهب الى أن معنى التاريخ انما يقتصر على بحث واستقصاء حوادث الماضى ، كما يدل على ذلك لفظ (Historia)

(٥) السخاوى : المرجع السابق ص ٧ .
(٦) حسن عثمان : منهج البحث التاريخى — القاهرة — دار المعارف ١٩٦٥ ص ١١ .
(٧) انظر : الاصحاحات العشر الاولى من سفر التكوين .
(٨) هـ . ج . ويلز : موجز تاريخ العالم — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ومراجعة محمد مأمون نجا — القـاهرة — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧ ، وانظر الاصل :
H. G. Wells, A Short History of the World, (Penguin Books), 1965.
(٩) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الانسانية — المجلد الاول — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — القاهرة — لجنة التاليف والترجمة والنشر — ١٩٦٧ ، وانظر الاصل :
H. G. Wells, The Outline of History, London, 1963.
(١٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١١ .

المستمد من الأصل اليوناني القديم ، أي كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والارض[11]،بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي ألمت بالشعوب والافراد ، غير أن هذا الماضي ليس ماضيا قارا ذا حدود معينة ثابتة •

ومن ثم فقد عرف فريق آخر التاريخ : بأنه ذلك الذي يجري مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الابطال والشعوب ، والتي وقعت منذ أقدم العصور ، واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتي الوقت الحاضر[12] •

على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن التاريخ انما هو «علم الماضي»،غير أن الماضي انما هو وعاء لكل مظاهر الكون،بمختلف أشكالها وأنواعها ، يتسع للجيولوجيا ، ؤلعل تطؤر الحياة ونشوئها وارتقائها ، ولعلم الفلك وغيره ، ولكل صنف من أصناف الكائنات ، من جماد ونبات وجيوان ، وهذا التاريخ له علماؤه ، وله اختصاصيوه ، ومن هنا فقد حاول البعض زيادة الايضاح فقالوا : انه معرفة الماضي الانساني،فمادته اذن هي ما جرى في الزمن السالف[13] •

فالتاريخ اذن : هو المصدر الأساسي للمعرفة الانسانية ، وهو ذلك السفر الخالد الذي يحوى بين دفتيه التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مرت بها البشرية منذ قدر الله للانسان أن يبدأ حياته على الارض ، وحتى يغير الله الارض غير الارض •

---

11. C. Oman, in the Writing of History, London, 1939, p. 2.

(١٢) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٢ ، ف• هرنشــو : عــلم التاريخ ــ ترجمه وزاد عليه عبد الحميد العبادي،القاهرة،١٩٣٧ ص٨ •

(١٣) شاكر مصطفى : التاريخ هل هو علم أم فن ؟ مجلة عالم الفكر المجلد الاول ــ العدد الاول ــ ١٩٧٤ ص ١٧٤ وانظر تعريفات أخرى في : و• ن• ولش : المدخل الى فلسفة التاريخ ــ ترجمة أحمد حمدى محمود ــ القاهرة ١٩٦٢ ، وانظر الاصل:

W. N Walsh, Introduction to the Philosophy of History, London, 1951.

هذا ويتناول التاريخ حياة الانسان ــ من حيث هو انسان ــ وليس موضوعه حياة الانسان ــ من حيث هو كائن حي ــ فذلك شأن العلوم البيولوجية ألتى تبحث فى أثر الزمن فى الكائنات الحية من حيث النمو والتطور والانحلال ، أما الانسان فهو الوحيد بين الكائنات الحية الذى يدرك معنى الزمن ، وبالتالى فالانسان هو الوحيد ذو التاريخ ، وهو الكائن الحى الوحيد الذى يصنع التاريخ ويصنعه التلويخ ، ومن ثم فاذا تناول المؤرخون بعض الاحداث الطبيعية ، مثل حدوث زلزال أو فيضان، فأنما يهدفون من وراء ذلك الى دراسة أثر تلك الاحداث الطبيعية على الانسان بالذات[١٤] .

(٢) غاية التاريخ وأهدافه :

يقول المسعودى (ت ٣٤٥هـ ــ ٩٥٧م) عن التاريخ : انه علم يستمتع به العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، فكل غريبة منه تعـرف ، وكل أعجوبة منه تستظرف ، ومكارم الأخـلاق ومعاليها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرها منه تلتمس ، يجمـع لك الاول والاخر ، والناقص والوافر والبادى والحاضر ، والموجود والغابر ، وعليه مدار كثير من الاحكام ، وبه يتزين فى كل محفل ومقام...»[١٥].

ويقول ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ) : اعلم أن فـن التاريخ عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الامم فى أخلاقهم والانبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا[١٦] .

ويقول أبو الفرج الاصبهانى (٨٩٧ ــ ٩٦٧) فى مقدمة كتابه الاغانى

---

(١٤) عـادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : فى منهج البحث التاريخى ــ الاسكندرية ــ دار المعرفة الجامعية ــ ١٩٨٩ ص ١٣ ــ ١٤ .

(١٥) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ الجزء الاول ــ بيروت ١٩٧٣ ، أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ ــ الاسكندرية ــ مؤسسة الثقافة الجامعية ص ١٠٤ .

(١٦) مقدمة ابن خلدون ــ دار القلم ــ بيروت ١٩٨١ ص ٩ .

ان القارىء اذا تأمل ما فيه (أى التاريخ) من الفقر ونحوها ، لم يزل متنقلا بها من فائدة الى فائدة ، ومتصرفا منها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار ، متصلة بأيام العــرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك فى الجاهلية ، والخلفــاء فى الاسلام ، يجمل بالمتأدبين معرفتها ، وتحتاج الاحــداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، اذا كانت منتحلة من غرر الاخبار ، ومنتقاة من عيونها ، ومأخــوذة من مظانها ، ومنقولة عن أهل الخبرة بها[17] .

ويقول المقــريزى (٧٦٦ ـ ٨٤٥هـ = ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢م) فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار» : ومنفعته (أى التاريخ) أن يشرف المرء فى وقت قصير على ماكان من الحوادث والتغييرات فى الازمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة،فتتهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ، ويكره الشر ويجتنبه[18] .

ولعل ابن الاثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ = ١١٦٠ ـ ١٢٣٢م) انما قد فصل القول أكثر من غيره فى مفهوم العبرة أو المغــزى من دراسة التاريخ ، فجعلها منافع دنيوية وأخروية ، فأما الدنيوية ، فمنها أن الانسان لايخفى أنه يحب البقاء ، ويؤثر أن يكون فى زمن الاحياء ، فياليت شعرى ، أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؟ فاذا طالعها فكأنه عاصرهم ، واذا علمها فكأنه حاضرهم ، ومنها أن الملوك ومن اليهم الامر والنهى اذا ما وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجــور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس ، فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا الى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الاحدوثة ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهــاب الاموال ، وفساد الاحوال ، استقبحوها وأعرضــوا عنها وأطرحوها ،

---

(١٧) أبو الفــرج الاصفهانى : الاغانى ـ الجــزء الاول ـ القاهــرة ١٩٢٩ ، أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٤ .
(١٨) نفس المرجع السابق ص ١٠٤ .

واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن ممالكهم وبلادهم عمرت ، وأموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الاراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الاعداء،وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا ، لكفى به فخرا •

ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير اليه عواقبها ، فانه لا يحدث أمر ، الا قد تقدم هو أو نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدى به أهلا ، ومنها ما يتجمل به الانسان فى المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائقها، فترى الاسماع مصغية اليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره •

وأما الفوائد الاخروية ، فمنها أن العاقل اللبيب اذا تفكر فيها،ورأى تقلب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها الى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم ، فلم تبق على جليل وحقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها،ورغب فى دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم أهلها من هذه النقائص •

ومنها التخلق بالصبر والتأسى ، وهما من محاسن الاخلاق ، فان العاقل اذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ، ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر ، علم أن يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم ، ومن أجل هذه الحكمة وردت القصص فى القرآن المجيد،قال تعالى «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»، فان ظن قائل أن الله سبحانه وتعالى ، أراد بذكرها الحكايات والاسمار،

فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها حيث قالوا : هــذه أساطير الأولين[19] .

ويقول السخاوى : وأما فائدته (أى التاريخ) فمعــرفة الامور على وجهها ، ومن أجــل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ فى أحــد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما ، ويقــول محمد ابن ابراهيم بن ساعد بن الاكفانى فى «ارشــاد القاصدين الى أسنى المقاصد» : وكتب التاريخ ينتفع بها فى الاطــلاع على أخبار الملوك والعلماء والاعيان وحدوث الحــدثان فى الماضى من الزمان ، وفى ذلك ترويح للخاطر ، وعبر لاولى الابصار .

ويقول الموفق أبوالحسن على بن أبى بكر الخزرجى فى مقدمة«تاريخ اليمن» : حدانى على جمعه ما رأيت من اهمال الناس لفن التاريخ ، مع شدة احتياجهم اليه ، وتعويلهم عليه فى كثير من الامور ، ولما يندرج فى ضمنه من المواعظ والاداب ، وتفصيل شوابك الاحكام والانساب ، قال: ولولا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشىء من أخبار السلف، ولا عرف فاضل مفضول ، ولا امتاز معروف عن مجهول .

ويقول العز الكنانى الحنبلى : لاشك فى جلالة علم التاريخ ، وعظم موقعه من الدين ، وشدة الحاجة الشرعية اليه ، لان الاحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية ، مأخوذة من كلام الهادى من الضلالة ، والمبصر من العمى والجهالة ، والنقلة لذلك هم الواسطة بيننا وبينه ، فوجب البحث عنهم ، والفحص عن أحوالهم ، وهذا أمر مجمع عليه ، والعلم المتكفل بذلك ، هو علم التاريخ ، ولهذا قيل انه من فروض الكفاية[20] .

وعلى أية حال،فان الامر الذى لاريب فيه،أن الجامعات الان فى كل أنحاء العالم ، انما تمتلىء بأعداد كبيرة من الطلاب الذين يدرسون فى

---

(١٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ـ المجلد الاول ـ بيروت ـ دار صادر ودار بيروت ـ ١٩٦٥ ص ٦ ـ ٩ .

(٢٠) السخاوى : المرجع السابق ص ٧ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، ٥٥ .

أقسام التاريخ «بمرحلة الليسانس» فضلا عن مرحلة الدراسات العليا للحصول على درجتى الماجستير (M. A. Thesis) (M. A = Master of Arts) والدكتوراه (Doctorate) ، وليس هناك من شك فى أن هذه الاقسام ، انما تعمل على تكوين أجيال متخصصة فى الدراسات التاريخية بين طلاب كليات الاداب فى كل الجامعات ، وهكذا يفتح التـاريخ لهم مستقبلا أكاديميا (Academic) ثم ان هناك سبلا أمام معلمين أحسن اعـدادهم لهذه المادة فى كليات ومدارس من كل المستويات وتحيط بهيئة التدريس وظائف ثقافية معينة يشغلها أمناء المكتبات وموظفو السجلات وأمنـاء المتاحف وسكرتاريو المعاهد وموظفو الخدمة الاجتماعية ، ولا مراء فى أن تلك الوظائف آخذة الان فى الازدياد تبعا لمطالب العصر الاجتماعية .

وثمة مهنة أخرى ـ ذات أهمية لا ريب فيها ـ وهى مهنة الصحافة وغيرها من وسائل الاعلام ، كالاذاعة والتليفزيون ، وانها لمزية كبرى لمحفى الشئون السياسية ولمراسلى الشئون الخـارجية والحربية أن يكونوا قـد توفروا على دراسات تاريخية ، وذلك أن كثيرا جـدا من الشئون التى عليهم أن يتناولوها تفتقر الى ذلك الاساس ، لكى يتفهمها هؤلاء ويشرحونها ، وليس يخلو من مغـزى أن تكون طائفة من أقدر الصحفيين الذين أسهموا بقسط كبير فى تكوين رأى عام أريب فى الشئون العامة ، توفرت جميعا على أساس من الدراسـة التاريخية ، ولو لم يتوفـر لاولئك الصحفيين خلفية من هـذه الدراسة التاريخية ، لكان تفسيرهم للحوادث ، وتعقيبهم عليها أقل وزنا .

وربما كان أهم من ذلك الخدمة المدنية التى تتزايد أهميتها اليوم فى كل البلاد ، تبعا لتزايد المصالح العامة ، ويعد احدى السبل المسلم بأهميتها لتولى المناصب الكـبرى ، وذلك حـق اذ أنه يهيىء الخلفية المناسبة لأغلب الشئون التى علينا تناولها فى الوظائف الادارية[٢١] .

---

(٢١) أ. ل. راوس : التاريخ : أثره وفائدته ـ ترجمة مجـد الدين =

وأما بالنسبة لرجال السياسة ، فالتاريخ أكثر من ضرورى لمباشرة أعمالهم بمهارة وجدية ، فان جهـــل ذوى المناصب الكبرى فى المجـــال السياسى بالتاريخ ، انما نتيجته المؤكـــدة جهلهم بفهم تطورات العالم السياسية بعقلية تاريخية ، ومثالنا على ذلك بريطانيا التى دفعت ثمنـــاً باهظاً لجهل قادتها قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـــ ١٩١٨) بحقائق التاريخ الاوربى ومتجهاته ، ولم يكن أنصار العزلة فى أمريكا خيراً من أولئك ، ذلك لان انسحاب أمريكا فى عام ١٩٢٠م من مكانها الطبيعى فى السياسة الدولية ، انما قد أفضى فى النهاية الى اعتداء اليابان وألمانيا، ونشوب الحرب العالمية الثانية(١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)[٢٢] .

غـــير أن أهمية التاريخ أهم من ذلك وأخطـــر بكثير ، أنه يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى حكايته ، وكيف أصبح الانسان كما هو الان ، وأن معرفة ما كانت عليه المجتمعات فى الماضى ، وكيفية تطورها لتبصرك بالعوامل التى تؤثر فيها ، فضلا عن التيارات والقوى التى تحركها الى جانب الدوافع والمصادمات التى تشكلها ـــ عامة كانت أم خاصة ـــ انه بحيث تتناول فيه الطبيعة البشرية فى كل وقت ، وهنا تبرز أهمية تراجم حياة الشخصيات التاريخية ، ومن ثم يتضح مقدار ما تقدمه قراءة تلك التراجم من فائدة ، فضلا عما تقدمه من متعة عقلية ، فالتاريخ لايتناول حياة العظماء من الافراد وحسب ، فلقد يقال على صورة ما انه يتكون من رواسب حياة ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم ، والذين لم يخلفوا اسما ، بل قدموا فقط حصتهم من المشاركة ، ان حياة هؤلاء لتجعل مادة التاريخ أشبه بالشعب المرجانية التى تتكون من حياة ملايين من المخلوقات البحرية الصغيرة القليلة الاهمية[٢٣] .

وهكذا يمكن القول : انه لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه باعتباره

حفنى ناصف ، ومراجعة محمد أحمد انيس ـ القاهرة ـ مؤسسة سجل العرب ـ ١٩٦٨ ص ٥ ـ ٦ وانظر الاصل :

A. L. Rowse, The use of History, London, 1946.

(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٩ .

(٢٣) نفس المرجع السابق ص ١٥ .

كائنا اجتماعيا ، ومن ثم ينبغى عليه أن يعــرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماقه وآثاره[٢٤]، على أنه يجب أن نلاحظ أن دراسة الاحداث التاريخية — بارزها وما خفى منها فى الاعماق — ليس لها فى حد ذاتها — من حيث هى حوادث مجرد — كبير فائدة ، ما لم تتفاعل مع الفكر الانسانى، ذلك أن الحوادث انما تصبح ذات قيمة عندما ينطقها المؤرخ بعــد خرس ، باستفساره اياها ، والحاحه فى سؤالها ، عن قــدر مسئوليتها ومدى تأثيرها فى تغيير وضع الانسان وتوجيه مصيره ، فالتاريخ اذن غايته وضالته أن يفهم ، وأن يربط العلل بالمعاملات والاسباب بالمسببات، وأن يجدل من كامل الواقع المتشعب والمترامى الاطراف ، شيئا له نظــامه وانسجامه — اضطرارا والزاما — بحــكم التسلسل والتولد المنطقى ، فالتاريخ بناء منطقى لعالم الانسان[٢٥] .

وانطلاقا من كل هذا ، وبناء عليه ، فمن واجب المؤرخ أن يدرس — مثلا — العوامل التى أدت الى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك ، وما خلفته من الاثار ، ويتتبع — مثلا — حركة الكشف الجغرافى فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى ، وما ترتب على ذلك من تغيير طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب ، وما أدى اليه من تدهور أمم وارتفاع أخرى ، وينبغى عليه — مثلا — أن يتبين أثره فى هيئة الحاكمين وفى مجموع الشعب ، كما عليه — مثــلا — أن يدرس الاسباب التى أوجدت أنواعا من الادب ، — أو ألوانا جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة ، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى ، وأن يبين الى أى مدى ارتبط ذلك كله بالعصر ، وبالبيئة وبالعبقريات الادبية والفنية التى أوجدت هذه النماذج المبتكرة فى مختلف مجالات الادب والفن ، وما الى ذلك من أوجه النشاط الانسانى ، ومقومات الحضارة[٢٦] .

واذا كان الامر كذلك ، فانه ينبغى — كى يكون البناء متين الاساس

---

(٢٤) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .
(٢٥) محمد الطالبى : التاريخ ومشاكل الغد — مجلة عالم الفكر — المجلد الخامس — العدد الاول ١٩٧٤ ص ١٤ — ٢٥ .
(٢٦) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٥ .

وفى مأمن من مزالق الخيال – أن لا يهمل المؤرخ فى مظهر من مظاهر الواقع ، ذلك لان الاغفال هنا قد يؤدى الى عدم الفهم ، أو الى شر من ذلك ، الى سوء الفهم ، واشادة قصـــور من ورق ، سرعان ما تنهار ، وتسلم أصحابها الى أوخم العواقب ، اذ أنه يستحيل عليه – مثلا – أن يفهم الانسان فهما صحيحا مفيدا اليوم وغدا – والانسان هو موضوع علم التاريخ – اذ اكتفى باحصاء الكوارث ، واذا أجتهد فى وضع قوائم الحوادث ، ذلك لان الانسان لايفهم ما لم نعتن كذلك بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقـــدية والادبية والفنية بصفة عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، ومن ثم فان المؤرخ انما يلجأ اليوم الى تخصص أدق ، حتى يتمكن من آداء رسالة التاريخ على وجهها الصحيح ، أى حتى يتمكن من اعانتنا على فهم ذاتنا أكثر فأكثر (٢٧) .

ولعل السبب فى ذلك ، أن التاريخ – كما يقول سير تشارلز فيرث – ليس فرعا من التحصيل يدرس لذاته ، ولكنه نوع من المعرفة يفيد الناس فى حياتهم اليومية ، وأن غاية كل مناحى التـــاريخ – فيما يرى سير ووالتر رالى – هى تعليمنا ، عن طريق عبر الماضى ، الحكمة التى قـــد توجه أعمالنا ورغباتنا ، الامر الذى دفع «بيكون» أن يبحث مزايا أنواع الدراسات المختلفة ، وأن يقول : قراءة التاريخ تلقن الناس دروسا فى الحكمة ، وعلى أن يقول «سيلى» عبارته المشهورة التى طـــال الجدل حـــولها : «التاريخ هو السياســـة الماضية ، والسياسة هى التاريخ الحاضر» .

غير أن التاريخ لا يمكن أن يؤدى وظائفه هذه ، الا بشرط مطابقته للواقع ، حتى لا يكون بناء الحاضر والمستقبل على مقدمات واهية ، ومن أسف ، فان توفر هذا الشرط الذى يحلم به كل مؤرخ مخلص لعمله ، ليس عسيرا فحسب ، بل هو مستحيل تماما فى كافة العلوم الانسانية ، وفى التاريخ على وجه الخصوص ، ومن ثم فان كل كتابة للتاريخ – مهما

---

(٢٧) محمد الطالبى : المرجع السابق ص ١٥ .

احتطنا — ليست هى الحقيقة الكاملة ، ذلك لان التاريخ الذى نكتبه ليس أبدا عين الحقيقة فى ذاتها المجردة .

ثم هناك مشكلة الوثائق التى يعتمد عليها المؤرخ فى كتابة التاريخ فهذه الوثائق لا تمثل أبدا كل الواقع — مهما كان التاريخ الذى نكتبه قريبا أو بعيدا — وخاصة اذا ما كان بعيــدا ، فان ما يبلغنا من وثائق لا يحيط بجميع نواحيه ، ذلك أن يد الدهــر ، ويد الانسان ، وأنواع الصدف فى النهاية ، انما تضمن البقاء للبعض ، بينما تعــرض البعض الاخر للتلف ، الأمر الذى يترك ثقوبا فى نسيج التاريخ تكثر أو تقل ، ويتسع خرقها ويزيد بمرور الزمن أو يضيق ، وكل هذا يختم فى النهاية بألوان من التحريف لاسيما عندما يستعين المؤرخ بالخيال ليرتق الفتق ويملأ البياض ، ويرفو الثقب .

ومع ذلك ، فهناك أخطر من هذا كله ، فقد يتقصد أحيانا ، لأسباب شتى ، التزوير عن قصد بطرق مختلفة ، تتراوح أحيانا ، مابين التدليس الصراح ، والافتراء السافر ، الى الاغفــال المدبر ، وغض الطرف ، واسدال الستر ، ومن أسف ، فان الامثلة على هذا جد كثيرة ، تجدها فى أقدم عصور البشرية ، كما تجدها فى عصرنا الحاضر هذا[٢٨] .

(٣) مكانة التاريخ بين الفنون والعلوم :

فى أخريات القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، قام جدل شديد بين رجالات العلم والتاريخ والادب فى وصف التاريخ بصفة العلم ونفيها عنه ، وكان الجدل على أشده فى أوربا ، وقد ظل هكذا محتدما زمنا ، وخاصة فى ألمانيا ، حيث أمسى جــزءا من مناهضة شهيرة بين المؤرخين والفلاسفة ، ومن ثم فقد انقسم العلماء الى فريقين :

ذهب الفريق الاول — ومنهم وليام ستانلى جيفونز (William Stanley Gevons) (١٨٣٥ — ١٨٨٢م) — أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما ،

(٢٨) نفس المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٠ ، وانظر عن فلسفة التاريخ: احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٢٣ — ١٣١ .
وكذا K. Jaspers, The Origin and Goal of History, p. 232, 271.
وكذا B. Croce, History, its Theory and Practice, pp. 51-83, 104-153.

لانه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ومن ثم فلن نستخلص من دراسته قوانين علمية يقينية ثابتة ، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو الكيمياء مثلا ، ومما يبعد التاريخ عن صفـــة العلم ـ فى نظرهم ـ قيام عنصر المصادفة ، ووجـــود عنصر الشخصية الانسانية وحرية الارادة ، مما يهدم الجهود الرامية الى اقامة التاريخ على أسس علمية ، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم .

هذا ويذهب رجال الادب الي أنه ـ سواء أكان التاريخ علما أم لم يكن ـ فهو فن من الفنون ، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضى، سوى العظام المعروفة اليابسة ، وأنه لابد من الاستعانة بالخيال لكى تنشر تلك العظام ، وتبعث فيها الحياة ، ثم هى بحاجة كذلك الى براعة الكاتب حتى تبرز فى الثوب اللائق بها(٢٩)، فمثلا لا يستطيع العـــلم الطبيعى أن يفسر لنا حريق موسكو فى عهد «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) فى عام ١٨١٢م ، على أساس قـــوانين الاشتعال ، ولابد من تدخل المؤرخ أو الاديب ، لكى يصف لنا الحريق وما تركه من آثار ، وقبل ذلك لابد من تدخـــل المؤرخ لكى يشرح لنا الاسباب والظروف السياسية والعسكرية التى أدت الى ذلك الحريق،وهكذا فكل من المؤرخ وعالم الطبيعة انما يشرح الحادث بطريقته ، وكل منهما يكمل الاخر ، وكلاهما ضرورى لتقدم المعرفة الانسانية(٣٠) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن المدرسة التاريخية انما تصر على التفرقة بين التاريخ والعلوم الطبيعية ، وتتضح هذه التفرقة عند «فيلهلم فيندلباند» (Wilhelm Windelband) الذى ميز بين علوم «واضعة

---

(٢٩) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٣ ـ ٤ .

(٣٠) حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ، وكذا

F. M. Fling, The Writing of History, An Introduction to Historical Method, New Haven, Yale Un. Press, 1926, p. 20.

للقوانين» وبين علوم «مصورة للافكار» ، فالعلوم الطبيعية واضعة للقوانين ، لانها تهدف الى صياغة قوانين عامة ، وأما العلوم الانسانية، ومناهجها مختلفة ، فهى «مصورة أفكار» ، ومنها «علم التاريخ»،وتدرس العلوم واضعة القوانين ما يتكرر على نمط واحد ، بينما تدرس العلوم «مصورة الافكار» — كالتاريخ مثلا — ما حدث مرة ، ولا يحدث مرة أخرى •

* واذا نظرنا الى طريقة تفكير كل من العالم والمؤرخ ، لوجدنا العالم انما يهدف الى المعرفة ، وهذه هى غاية العلم ، بينما يهدف المؤرخ الى التقويم ، ومن ثم فيمكن أن يعد التاريخ من علوم القيم ، فالأحكام الاخلاقية التى يصدرها المؤرخون ، والتي تشكل ما يعرف باسم «حكم التاريخ» تجعل هذا العلم قريبا من علم الاخلاق •

هذا وقد اكتملت النزعة التاريخية عند المفكر الايطالى «بندتيو كروتشه» (Benedetto Croce) الذى أنتقد الاسس التى تستند اليها النزعة الطبيعية ، أما الاهتمام بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التاريخية ، فلا يجعل التاريخ — فى نظره — الا مجرد سرد ، أو تقويم، حيث الاهتمام بمجرد التحليل والتصنيف ، دون بحث عما وراء القصص فلا يعد تاريخا ، وانما هو مجرد تسجيل للوقائع الماضية الميتة[٣١] •

على أن هناك من اعتمد على أن التاريخ انما يهتم أساسا بتسجيل الماضى ، حيث يسعى المؤرخ الى تقديم وصف دقيق للفترة الطويلة التى عاشها الانسان على الارض ، وهو بذلك انما يصف الحوادث بطريقة موضوعية،ويحاول أن يربطها فى سياق زمنى ، بغية تقديم قصة مستمرة من الماضى الى الحاضر ، الأمر الذى دفع الى تطوير المعرفة التصويرية Idiographic فى التاريخ ، ومن ثم فقد ذهب الكثيرون الى القول بأن

---

(٣١) احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٣٩ •

التاريخ لا يعد علما ، وانما هو منهج له تطبيقاته فى ميادين مختلفة من ميادين المعرفة[٣٢] .

ويرى «هرنشو» (Hearnshaw) أنه على الرغم من أننا لا نستطيع أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة ، على غرار ما هو كائن فى العلوم الطبيعية ، فان هذا لا يجوز أن يجرد التاريخ من صفة العلم ، وأن العجز عن بلوغ أغراض محددة فى دراسة «المتيورولوجيا» Metallurgy مثلا ، بسبب عدم دقة قوانينها ، لا يجوز نفى صفة العلم عنها ، ومن ثم ، فالرأى عنده ، أنه يكفى فى اسناد صفة العلم الى موضوع ما ، أن يمضى الباحث فى دراسته ، مع سعيه لتوخى الحقيقة، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد طرح عنه هوى النفس ، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع امكان التصنيف والتبويب فيه[٣٣] .

ويرى «لويس جوتشلك» (Louis Gottschalk) فى كتابه «كيف تفهم التاريخ» : من المؤكد أن التاريخ علمى فى منهجه ، فان ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصين والخبراء سواء بسواء فالمنهج التاريخى علمى فى حدود،أى أن نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعدم الاتفاق بينهم ، عن فهم وادراك[٣٤] .

على أن هناك فريقا ثالثا انما يذهب الى أن التاريخ علم من العلوم، فالمؤرخ الانجليزى «ج.ب. بيورى» (J. B. Bury) (١٨٦١ — ١٩٢٧م) يقول فى محاضرته الافتتاحية فى كمبردج (تاريخ حرية الفكر) : ان التاريخ قد عانى من كونه جزءا من الادب ، بينما التاريخ علم لا أكثر

---

(٣٢) محمد على محمد : علم الاجتماع والمنهج العلمى ـ الاسكندرية دار المعرفة الجامعية ـ ١٩٨٨ ص ١٣٩ ، وكذا

E. G. Seignobes, Methode Historique Applique aux Seince Social, Paris, 1907.

(٣٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ٦ ـ ٧ ، حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٦ ـ ١٧ .

(٣٤) حسان حلاق : مقدمة فى منهج البحث التاريخى ـ بيروت . دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٦٣ .

ولا أقل ، وأن وقائعه ، يمكن أن تدرس موضوعيا كوقائع الجيولوجيا والفلك ، أى أن تدرس على أنها أشياء خارج الذات ، اذ لا يتسنى قيام علم على أساس ذاتى ، وأن الوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف وتفسر ، كما هو الحال فى أى علم ، ثم يقول : ما بقى التاريخ يعد أدباء فليس فى الامكان التثبت جديا من الصدق ومن الدقة ، ثم يورد عبارة أكثر حزما ، يقول فيها : أحب أن أذكركم أن التـــاريخ ليس فرعا من الادب[٣٥] .

هذا وقد كرر هذا التأكيد — قبل بيورى وبعـــده — جميع أولئك المؤرخين الذين أصروا أمام انتصارات العلوم الطبيعية وفوزها بتسليم الجميع ، وبقيادة الرفاه الانسانى ، على الصاق التاريخ بالعلم الطبيعى ووضع عنوان «العلم» على بابه بالمسامير ، وقد كانوا يريدون من خلال هذا التوكيد على علمية التاريخ نفى تلك الريبة التى تلاحقهم حول قيمة التاريخ العلمية ، ومن ثم فقد ذهب «كارل همبـــل» Carl Hempel الى : أن التاريخ يمكن أن يستوعب فردية وقائع لا تقل ولا تزيد عن الطبيعة والكيمياء ، وأن المؤرخ يستطيع أن يفسر اغتيال القيصر تماما، كما يفسر الجيولوجى زلزالا ، اذ يبين أن الحادثة لم تقع مصادفة،وانما وفقا لظروف معينة ، فمنطق التفسير واحد فى جوهره فى كل من التاريخ والعلوم الطبيعية ، وليست النبوءة فى التاريخ تكهنية ، ولكنها تنبـــؤ علمى قائم على افتراض قوانين عامة لا غنى للمؤرخ عنها ، وان كانت هذه القوانين لا تعنى الحتمية،وانما تدع مجالا للامكان والاحتمال[٣٦] . والى مثل هـــذا ذهب «باتريك جـــاردنر» فى كتابه «طبيعة التفسير

---

(٣٥) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤ ، أ٠ل٠راوس : المرجع السابق ص ٨٣ ، وكذا

T. R. Tholfsen, Historical Thinking, p. 218.

(٣٦) أحمد صبحى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ ، وكذا

C. Hampel, The Functions of General Laws in History

التاريخى»[٣٧] و «وليم دراى» فى كتابه «القــوانين والتفسيرات فى التاريخ»[٣٨] •

واذن ، فالتاريخ الحديث اليوم سوف يعنى ما قد يسمى بالتاريخ الجديد ، وذلك لكى يتيسر التمييز بينه وبين التاريخ القديم ، فالتاريخ الجديد : تاريخ يكتبه أولئك الذين يعتقدن أنه ليس قسما من «العلوم الادبية» ، وأنه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة ومسلية ، وانما هو نوع من العلوم ، وهذا العلم ــ ككثير من العلوم الاخرى ــ انما هو من ابتكار القرن التاسع عشر الميلادى الى حد كبير[٣٩] •

هذا وقد آثار الذين ينادون بأن التاريخ ليس علما أمرين ، الواحد: أن المؤرخ لا يلاحظ الظواهر التى يدرسها بطريقة مباشرة ، وانمــا عن طريق السمع والنقل عن الاخرين ، أو الاخــذ عن بعض الوثائق التى كتبها أشخاص شاهدوا هذه الظواهر أو سمعوا عنها ، وبدهى أن نتعامل مع هذه الطريقة بحذر ، فضـــلا عن الشك فى نتائجها ، ذلك لان كثيرا ما يشوه البعض الحقائق عند نقلها ، خاصة تلك الحقائق التى تضرب بأغوار بعيدة فى الزمان والمكان •

وأما الأمر الثانى : فليس من حقنا أن نطلق على أى بحث نظرى اسم البحث العلمى،الا اذا أمكن استخدامه فى التنبؤ بالمستقبل،وبمعنى آخر : الا اذا مكننا من الكشف عن بعض العلاقات أو القوانين العامة التى يمكن تطبيقها على الظواهر ، مهما اختلفت أزمانها وأماكنها ، الأمر الذى لا يمكن تحقيقه فى التاريخ،ذلك لاننا لانستطيع القول بأن المؤرخ يمكنه أن يستخلص القوانين العامة التى تمكنه من التنبؤ بالحوادث قبل وقوعها •

---

(٣٧) انظر :
Patrick Gardiner, Theories of History, London, 1954

(٣٨) انظر :
William Dray, Laws and Explanation in History

(٣٩) راوس : المرجع السابق ص ٨٣ •

غير أن الذين يتبنون فكرة «التاريخ العلمى» ، أو الدعوة الى أن التاريخ انما شأنه شأن أى علم آخر ، انما يردون على القضية الاولى بأن التاريخ انما قد أخذ فعلا ببعض الشىء من العلوم الاستقرائية،ذلك لان المؤرخين اليوم يبتعدون عن مجرد وصف الحوادث وتتابعها،محاولين تفسيرها ، فضلا عن الكشف عن العناصر الجوهرية فى النظم السياسية والاجتماعية ، بغية أن يقفوا على أسباب الظــواهر التاريخية ، وبهذا أصبحوا أشبه بعلماء الاجتماع،وان خالفوهم فى الاعتراف بتأثير العوامل الفردية ، وعلى أية حال ، فان المؤرخــين اليوم لا يعتمدون على سماع الأخبار ونقلها ، ولا يقبلون الخبر ، الا بعد نقده وتمحيصه ، والا بعد المقارنة بين مختلف الروايات ، رغبة فى الوصــول الى حقيقة تاريخية مجردة من كل طابع شخصى ، وهكذا ضاقت الهوة التى تفصل التاريخ عن العلوم التجريبية منذ أن طبق المؤرخون أساليب التفكير الاستقرائى على بحوثهم ، فهم يبدأون بجمع الوثائق وتحليلها ، ثم وضع الفروض التى يمكن التأكد من صدقها ، عن طريق الحوادث التاريخية ، وقد تكون الوثائق ناقصة ، وهنا تبدو حاجة المؤرخ الى المقــارنة حتى يستطيع التثبت من صدق توقعاته .

وأما القضية الثانية ، فيذهبون فى الرد عليها الى أنه يجب التوسع فى مفهوم العلم ، صحيح أن العلم لا يدرس سوى العام أو الكلى،وأنه يكشف عن العلاقات السببية التى توجــد بين الاشياء ، ولكنه صحيح كذلك أن تعريف العلم على هذا النحو انما يخــرج منه بعض البحوث النظرية التى لاشك فى أنها علمية ، كعلم الجيولوجيا الذى لا يدرس سوى حالات خاصة عندما يبين الاطوار الخاصة التى مرت بها طبقات الارض فى مختلف العصور ، والواقع أنه ليس ثمة فارق كبير بين التاريخ وعلم الجيولوجيا ، فالتاريخ انما يدرس ماضى المجتمعات الانسانية ، ويدرس علم الجيولوجيا ماضى الكرة الارضية ، هــذا الى أن التاريخ — كما أشرنا آنفا — انما يدرس الحوادث الماضية ، فضلا عن الكشف عن العلاقات السببية التى توجد بينها ، لتفسيرها وتحليلها .

على أن التاريخ بمعناه العام انما يبحث فى الظواهر الانسانية ، الحاضرة والماضية، ومن ثم فهو يدرس ماضى الطبيعة وماضى المجتمعات ويمكن معالجة جميع الظواهر على أساسين ، الواحد نظرى ، والآخر تاريخى ، فمثـــلا يستطيع العالم دراســـة تاريخ الارض والمجموعة الشمسية ، والقوانين التى تخضع لها هذه الاجرام فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأما التاريخ بمعناه الخـــاص ، فرسم صورة واضحة عن الانسانية ، اعتمادا على ما تركه الانسان من آثار مادية وأدبية ودينية، فالظاهرة التاريخية ظاهرة اجتماعية فى جوهرها ، وان كانت محـــدودة الزمان والمكان ، بمعنى أن التاريخ لا يعالج نشأة الديانات بصفة عامة، مثلا ، وانما يدرس كيف ظهرت احدى الديانات كالاسلام أو المسيحية، كما لا يقف التاريخ عنـــد دراسة المجتمعات الانسانية ، وانما يدرس حياة الافراد أيضا ، الى جانب تأثيرهم فى أقوامهم أو عصورهم ، ومن ثم فهو يؤرخ لأبطال التاريخ الذين حلقوا فـــوق عصورهم ، وقادوا أممهم ، وطبعوها بطابع خاص[٤٠] .

وهكذا ، ومنذ أعلن «ليوبولد فون رانكه» (Leopold Von Ranke) (١٧٩٥ — ١٨٨٦م)ـ أشهر مؤرخى الالمان فى القرن التاسع عشر،ورائد المدرسة العلمية الالمـانية — أن التاريخ يبين بوضوح وبساطة كيف انبثقت الاشياء ، وأن الغاية القصوى منه أن يصور ما حدث بالضبط ، وأن يستبعد المؤرخ جميع عواطفه ليصبح تاريخه صورة صادقةللحوادث كما حدثت دونما زيادة أو نقصان ، ودونما أى تدخل منه ، وهذا يعنى أن يكون رائده الموضوعية المطلقة والتجرد التام ، وهذه من مطـــالب المدرسة الوضعية فى التاريخ .

وهكذا اعتبر المؤرخون أنهم ظفروا أخيرا بمنتهى الموضوعية التى يطلبها العلم ، وأن «رانكه» انما أعلن ميلاد «التاريخ العلمى» ، ولم يبق عليهم الا تحديد الطريق الذى يصلون به الى «ماحدث بالضبط» .

---

(٤٠) محمد على : المرجع السابق ص ١٣٩ — ١٤٢ .

غير أن «رانكة» من ناحية أخرى ، انما يعتبر الواقعة التاريخية فردية، لها طابعها الذى تنفرد به ، ومن ثم لا تتماثل واقعتان ، ولا تندرجان تحت نوع ، كما يندرج الأفراد فى العلوم الطبيعية ، ذلك لأن ديمقراطية أثينا — مثلا — ليست هى الديمقراطية بمفهومها الحديث ، ومن ثم فلا تندرج الوقائع التاريخية تحت مقولات عـــامة ، وأن التعلق بالمقولات العامة نزعة صورية تتنافى مع واقعية الدراسة التاريخية[41] .

ولعل سائلا يتساءل : اذا لم يكن التاريخ علما بالمفهوم الفيزيائى للعلم ، فما هو التاريخ اذن ، وما منهجه ؟

ان الفرق بين العلم والتاريخ هو الفرق بين الممكن والواقع ؛ بين الكلى والجزئى ، بين المنهج الاستقرائى والمنهج الحـــدسى ، ذلك لان التاريخ لا يستدل ، انه يسرد ، ولكنه لا يقف عند مجرد السرد الظاهرى اذ أن موقف المؤرخ انما هـــو أقرب الى موقف الفنان ، حيث يتمثل كلاهما الواقع بنظرة فردية ، فمثلا ، اذا أردت أن تدرك عن قرب تاريخ رجل صقلى من العصر الحجري الحديث ، فحاول أن تكون صقليا من نفس العصر ، أى أن تفكر مثل تفكيره ، فان لم تستطع أو لا تريد أن تكون كذلك، فاقنع نفسك بالوصف والتصنيف الى جماجم وآلات ورسوم تخص أناس العصر الحجرى الحديث ، ولكن ذلك لا يشكل تاريخا .

وأما اذا لم تستطع أن تدخل فى فكر الصقلى ، ولا أن تفكر كمـــا يفكر ، وأن تتعمق فى أسلوب حياته وفكره الى حد أن تجعل أفكاره كما لو كانت لك ، فليس ذلك تاريخا ، قد يندرج ذلك تحت علم آخر ، كعلم الاجناس أو الاثار ، وهكذا ينصح «كروتشه» من يعجز عن أن يتعايش

---

(٤١) شاكر مصطفى : المرجـــع السابق ص ١٨٨ ، احمـــد صبحى : المرجع السابق ص ٣٥ ، وكذا
T. R. Tholfsen, Op. Cit., pp. 157-185.

مع العصر ، أو الفرد الذى يؤرخ له ، أن لا يصبح مؤرخا ، حيث تعوزه البصيرة التاريخية[٤٢] .

على أننا يجب أن نلاحظ ، أن التاريخ – فيما يرى هرنشو – ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأن أقرب العلوم الطبيعية شبها به هو «علم الجيولوجيا» ، بل ان «ادولر كار» انما يذهب الى أن الهوة التى تفصل المؤرخ عن الجيولوجى ، ليست أعمق أو أكثر من تلك التى تفصـــل الجيولوجى عن الفيزيائى ، ذلك لان كلا من الجيولوجى والمؤرخ انما يدرس آثار الماضى ومخلفـــاته ، لكى يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر ، سواء بسواء ، ويزيد عمل المؤرخ عن الجيولوجى من حيث اضطرار الاول الى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الارادى الانفعالى ، حتى يقترب ، قدر الامكان ، من الحقائق التاريخية ومن ثم فالتاريخ مزاج من العلم والادب والفن فى آن واحد[٤٣] .

وهكذا يمكن القـــول بأن التاريخ بما يتميز به من صفـــات مرنة ، باستطاعته أن يحوى كل العلوم ، اذ بامكان المؤرخ ، ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخا للشعوب والدول والاحداث ، وفى نفس الوقت يمكن أن يكون مؤرخا للعلوم والهندسة والطب والفلك والرياضيات ، ذلك لانه كان ، وما يزال ، هناك تاريخ للهندســـة وتاريخ للطب وتاريخ للفلك والكيمياء والفيزياء وللرياضيات ، وبمعنى آخر ، فان التاريخ باستطاعته أن يستوعب مختلف العلوم والاداب ، وهو الوحيد القادر على احتوائها فى قالبه التاريخى المميز ، فالملاحظ أن هناك تاريخا للعـــلوم كالهندسة والطب مثلا ، ولكن ليس فى المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخى، وانما هناك تاريخ للطب[٤٤] .

---

(٤٢) احمد صبحى : المرجع السابق ص ٣٢ – ٣٣ ، وكذا
B. Croce, History as the Story of Liberty, 1941.

(٤٣) ف. هرنشو : المرجع السابق ص ١٢ – ١٣ ، حسن عثمان : المرجع السابق ، ص ١٧ ، وكذا
E. Carr, What is History (Penguin Book), 1961.

(٤٤) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٦٣ .

الفصل الثانى

المذاهب المختلفة فى تفسير التاريخ

لاريب فى أن الفكر الوضعى لابد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذى يعيشه — سلبا وايجابا ، وبدرجة أو بأخرى — وهذا التأثير المحتوم ينعكس على معطياته الفكرية ، سواء كانت صيغة هذا التأثير بشكل تقبل لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه ، أو رفض لها وتمرد عليها ، ففى كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثيرى الانفعالى ، والاسقاطات الظاهرة والخفية فى الوعى واللاوعى ، دوره فى الرؤية التى يمارسها المفكر تجاه الاوضاع والاحداث والاشياء .

فاذا ما حدث ، وكان المفكر مفسرا للتاريخ ، وتفسير التاريخ — فيما نعلم — توسيع للتحليل صوب الماضى والمستقبل اللذين يندان كثيرا عن الحصر والضبط والتحديد ، فان لنا أن نتصور كم سيجىء هذا التفسير مطبوعا بطابع العصر الذى يعيشه المفسر ، وكيف أن الاشياء والوقائع والاحداث ، فى الماضى والمستقبل ، ستأخذ اللون الذى يجد المفسر نفسه مضطرا الى النظر من خلال زجاجته التى أسقطت عليها مواضعات العصر الظلال والاضواء ، وهذا يؤدى — بدوره — الى أن تبعد التفاسير الوضعية — بدرجة أو بأخرى ، عن العلمية والموضوعية والحياد[1] .

ومن هنا فان أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفى الراهن، وعروض المكتبة المعاصرة ، انما تطلعنا على حشد كبير من الابحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعى للتاريخ[2] ، والتى تختلف طبقا لوجهة نظر أصحابها .

---

(١) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ — بيروت — دار العلم للملايين — ١٩٨٣ ص ١٠ — ١١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨ .

وهكذا بدأ عدد من المفكرين يحاولون تقنين التاريخ على أساس علمى يهدف الى ارساء قواعد ثابتة تصبح معها الحوادث التاريخية مجـــرد تفاصيل أو تجارب ينتظمها ما تضمنته هذه القواعد من مقدمات ونتائج، وهكذا ظهر عدد من التفسيرات ــ بجانب التفسير الفردي للتاريخ،الذى يمجد الاشخاص البارزين ويضخم من دورهم ــ يجمعها طابع واحد هو : أنها تنظر للتاريخ على أنه تطور للمجتمع ، قبـــل أن يكون سجلا لاعمال الافراد ــ وان اختلفت فيما بينها فى تحديد الاتجاه الذى يسلكه هذا التطور والدافع الذى وراءه ، والنتيجة التى يهدف اليها[٣] •

وسوف نتعرض هنا بالمناقشة للمذاهب التالية فى تفسير التاريخ :

١ ــ التفسير الدينى ٢ ــ التفسير الفردى ٣ ــ التفسير النفسى
٤ ــ التفسير الطبيعى ٥ ــ التفسير المادى ٦ ــ التفسير الحضارى
٧ ــ التفسير الاخلاقى ٨ ــ التفسير الاسلامى •

(١) التفسير الدينى :

يذهب أصحاب هذا التفسير الى أن حركة التاريخ انما تقوم على معتقدات دينية لعبت دورا حاسما فى تقدم الانسان وبناء حضارته •

ولاريب فى أن المعتقدات الدينية انما كان لها أثرها فى حركة التاريخ ــ سواء كانت هذه المعتقدات سماوية أو انسانية ــ وتاريخ الاديان ــ السماوية والانسانية ــ خير شاهد على ذلك ، ولنأخذ مثالين على ذلك ، الاول بشرى (وضعى) من مصر الفرعونية ، والثانى سماوى من بلاد العرب عند ظهور الاسلام ، دين الله الحنيف •

فلنا فى مصر الفرعونية ــ وعلى أيام الوثنية ــ فتحدثنا نصوص الدولة الحديثة (١٥٧٥ ــ ١٠٨٧ ق٠م) أن المعبود الوثنى «أمون» انه كان ــ فى نظر القوم ــ هو الذى يمنح الفرعون البأس والنصر،ويعطيه

---

(٣) لطفى عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخى ــ بيروت ــ مكتب كريدية ــ ١٩٧٩ ص ٧ ، ٨ •

كل الاراضى والبـــلاد الاجنبية خاضعة ذليلة تحت قدميه ، وأن هناك ما يشير الى أن الفرعون انما كان يتلقى تفويضا الهيا من آمون الذى كان يبعثه بقوة وحزم ليقضى على أعـــدائه ، وقد عثرت بعض الأدلة الاثرية على ممارسة آمون لهـــذا الاختصاص بتقديمه سيف خشبى للفرعون ليذبح به أعـــداءه ، وفى الواقع ، فان حروب الدولة الحديثة انما كانت حروبا دينية ، بقـــدر ما كانت حروبا وطنية ، أو على الأقل فان القوم وقت ذاك انما كانوا يظهرونها ، وكأنها ذات صبغة دينية ، وأنها كانت تحت لواء أمون ، أكثر من غيره من معبودات القوم ، نرى ذلك واضحا فى حرب التحرير ضد الهكسوس،وفى حروب فراعين الدولة الحديثة ، كما نرى القوات المصرية على أيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق٠م) تنتظم فى فيالق أربعة ، تحمل أسماء معبودات أربع (أمون ورع وبتاح وست)(٤) .

وهكذا اعتقد المصريون القدامى أن الفضل فى انتصاراتهم ، ثم فى تكوين الامبراطورية المصرية الشاسعة انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش ، والى الاله أمون الذى بارك تلك الحروب ، وأعار سيفه وعلمه الالهى للملك لكى يقود الجيوش فى طريقها الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة ، لانه قد رعاها وحماها من الخطر(٥) ، هذا فضـــلا عن أن القوم انما كانوا مطالبين بأن يزيدوا من القرابين التى يقدمونها اعترافا بجميل أمون ، وقد أدى ذلك — مع مرور الايام — الى زيادة ثروة أمون زيادة كبيرة، وبمرور الزمن تكونت ملكية خاصة بآمون ، ذات نظـــام يشبه نظام

---

(٤) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — الاسكندرية — دار المعرفة الجامعية ١٩٨٨ ص ١٣٥ — ١٣٦ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 189.
وكذا J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 243 F.
وكذا H. Goedicke, JEA, 52, 1960, p. 72-80.
5. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 185.

الحكومة ، فكان لها خزائنها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، ثم سرعان ما شملت هذه الاملاك مناطق أخرى فى خارج مصر ، وخاصة فى النوبة التى أصبح ذهبها وقفا على آمون ، الامر الذى أدى الى زيادة قوة كهان أمون ، وأن يصبح لهم فى البلاد نفوذ سياسى كبير ، لاريب فى أنه يفوق غيرهم من طبقات الشعب ، بل وأن يهدد هذا النفوذ بعض الفراعين فى بعض الاحايين(٦) .

وفى شبه الجزيرة العربية ، وفى الثلث الاخير من القرن السادس الميلادى (٥٧١م) تهدى مكة المكرمة الى الدنيا كلها ، أشرف الخلق جميعا مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وما أن يمضى حين من الدهر،حتى يسبغ الله فضله على الدنيا فينزل الوحى بالقرآن الكريم ، وهناك ، وفى مكة المكرمة ، وفى بيت رسول الله ﷺ تبدأ الدعوة الى الاسلام ، دين التوحيد المطلق ، ومن هناك ، ومن هذه الارض الطيبة — من الحجاز الشريف — تنتشر راية الاسلام الى جميع أنحاء المعمورة ، تدعو الى التوحيد والحب والعدل والاخاء والمساواة ، وكل ما هو طيب وجميل .

وفى حياة الرسول الأعظم ﷺ تقوم فى بلاد العرب — ولأول مرة فى تاريخ هـذه الدنيا — بفضل الله ، وبهداية رسول الله ﷺ ، تقوم قوة عظمى ، لم ينبغ لأحد مثلها من قبل فى بلاد العرب ، التى كان أمرها مفرقا بين قوى متناحرة ، وعشائر بعضها لبعض عدو ، فاذا هى الان — بهدى الاسلام ، وبنبوة محمد ﷺ — دولة موحدة ، لها زعيم واحد، وقائد سياسى واحد ، وقائد عسكرى واحد ، لا ينازعه سلطانه أحد،لان سلطانه فوق مستوى البشر ، فهو لسان السماء — وهو نبى الله ، وكل فى دولته مأمور بطاعته ، كما يطيع الله تعالى ، يفتديه بحياته ، بل وتهون عليه حياته فى سبيل ما أمر به ، تطلعا الى الجنة التى وعد الله المتقين من عباده ، وأعدها للشهداء من المجاهدين ، وهكذا أصبحت شبه

---

(٦) انظر عن كهانة آمون (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ — ١٥٤ ، ٣٣٣ — ٣٤٨) .

الجزيرة العربية دولة واحدة ، تدين بدين واحد ، وتعبد ربا واحدا ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير[٧] .

ولا ريب فى أن الحروب فى الاســــلام انما كانت حروبا دفاعية ، تستهدف أمرين : صد العدوان ودفعه ، ثم حماية الدعوة حتى تصل الى الناس كافة[٨] .

وعلى أية حال ، فما كان بعيدا فى منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة ، لكن الاسلام ــ بتقريره حق العقيدة ، وعدم الاكراه فى الدين ، أصلا من أصول دعوته ــ استصفى من قريش والموالى بمــكة وسابقى الانصار ، الجنود الاولين لحزب الله ، لم ينتظروا حتى يحسبوا حسابا بالمكسب أو الخسارة ، بل استجابوا لداعى الاســـلام بمحض ارادتهم ، عن اعتقاد راسخ وضمير حر ، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم ، أو يبالون الموت فى سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم .

ومن هنا كان قول المقداد بن عمرو لرسول الله ﷺ قبيل معركة بدر ، وهو يستشير أصحابه : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقــاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغمام لجالدنا معك دونه حتى نبلغه» .

ويقول سعد بن معاذ:والله لكأنك تريدنا (أى الانصار) يارسول الله، قال : أجل ، قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطــاعة ، فامض

---

(٧) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ــ الاسكندرية ــ دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩ ص ٢٢ ــ ٢٣ .

(٨) انظر عن الحرب فى الاسلام (محمــد بيــومى مهران : السيرة النبوية الشريفة ــ الجزء الثانى ــ بيروت ــ دار النهضة العربية ــ ١٩٩٠م ص ٤٥ ــ ٥٠) .

يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله»[9] .

وهكذا كان المسلمون يخوضون حروبهم فى سبيل الله بعقيدة راسخة وايمان قوى بأن للمحاربين فى سبيل الله احدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، وقد جاء فى الصحيحين : «تكفل الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه الا جهاد فى سبيلى وتصديق برسلى ، بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه الى منزله الذى خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»، هذا الى ايمان لا حدود له بقول الله تعالى «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»[10] .

وهكذا كان للدين الاسلامى دوره الكبير فى ذلك الامتداد الاسلامى الى بلدان مختلفة ، وفى تلك الانتصارات التاريخية الحاسمة التى حققها المسلمون الذين كانوا — قبل الاسلام — يفتقدون وسائل التقدم والنصر لكن العقيدة الاسلامية هى التى دفعت حركة التاريخ أمامهم .

غير أن ذلك لا يعنى أن العامل الدينى انما يظل — دائما وابدا — يفعل فعله فى كيان الامم ، فالعقائد الدينية لا تكون أبدا مؤثرة ودافعة، وانما تنتاب الامم فترات من الضعف والتأخر بسبب ابتعادها عن تعاليم الدين ، وانشغالها بأمور الدنيا ، الامر الذى يضعف أثر العامل الدينى فى حركة الشعوب ، غـــير أن الدين انما يظل فى أعماقها حتى تراجع

---

(٩) نفس المرجع السابق ص ١٠٤ ، وانظر : ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ١٧٣/٣ — ١٧٤ (بيروت ١٩٨٥) ، الواقدى : المغازى ٤٨/١ — ٤٩ (بيروت ١٩٨٤) ، ابن هشام : سيرة النبى ٤٠٧/٢ — ٤٠٨ .

(١٠) سورة التوبة : آية ١١١ .

نفسها ، أو يقوم فيها مصلح أو داعية فتعاود تمسكها بدينها ، ومن ثم يستعيد الدين أثره القوى فى حركة تلك الشعوب •

وهكذا فالتفسير الدينى للتـــاريخ يمكن استخدامه بشكل خاص فى حالة ارتباط أمة من الامم بعقيدتها حيث تؤدى تلك العقيدة دورها فى تقدم الانسان وتطوره ، أو تدفعـــه الى استغلال الدين لصالح قضايا دنيوية أو سياسية[11] •

(٢) التفسير الفـــردى :

ويذهب أصحاب هـــذا التفسير الى أن عظماء الرجـــال هم الذين يحركون التاريخ ، وهم الذين ينهضون بأممهم ، وهم الذين يسيطرون على ما يحيط بهم من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية ، ومن البدهى أن لعظماء الرجال دورهم فى صنع التاريخ[12] •

غـــير أن معظم المؤرخين كانوا ــ وما يزال بعضهم حتى الان ــ يبالغون فى أهميـــة الدور الذى يقوم به الافـــراد فى صنع الاحداث التاريخية ، وهى مبالغة جعلت من هؤلاء الافراد فى أغلب الاحايين عمالقة وربما آلهة ، تدور حـــولهم المجتمعات بكل ما فيها من حوادث ، وبكل ما لها من تاريخ ، وبكل ما تمر به من تطور ، بحيث كدنا ننسى أن فى هذه المجتمعات أفرادا آخرين ، لهم ارادة وعقول ، وعواطف ومصالح ، وأن هناك ظروفا قد تساير كل هذه ، وقد تعارضها ، وقد تطغى عليها، وحقيقة أن هذه المبالغة من بعض المؤرخين الذين دفعوا بها الى أبعاد غير معقولة ، انما قد تجعلنا نعيد النظر فى كتاباتهم ، بل قـــد تغرينا بالتخلى كلية عن التفسير الفـــردى الذى مسخوا به التاريخ مسخا ، وخرجوا عن طريقه بالمجتمعات والافراد عن حجمها الطبيعى لتبدو لنا، وكأنها كائنات من عالم أسطورى •

---

(١١) عادل حسن غنيم وجمـــال محمود حجـــر : المرجع السابق ص ٥٧ •

(١٢) نفس المرجع السابق ص ٥٧ •

ومع ذلك ، فيجب أن نحترس من الأندفاع الى النقيض الاخر،ذلك لان الدور الذى يقوم به الافراد انما يمثل فى الواقع بعدا من الابعاد التى يجب ألا نتجاهلها ، اذا كان للصورة التاريخية التى نرسمها أن تمثل الحقيقة ، فالتـــاريخ ملىء بالمواقف التى لا يمكن أن نفسرها فى ضوء الظروف الطبقية أو الجماعية فحسب ، وانما لزاما علينا ــ لكى نفهمها على حقيقتها ــ أن نرد جانبا منها الى تصرفات الافراد الذين أمسكوا بزمام الامور تحت هذه الظروف ، سواء أكان هؤلاء الافراد أنبياء ، أو كانوا ساسة أو قوادا أو مصلحين أو مخترعين،أو زعماء من أى طراز ــ والدور الذى قام به هؤلاءالافراد فى توجيه مقدرات الامور فىالمجتمعات التى ظهروا فيها ، دور لايمكن أن نخرجه نهائيا من الاعتبار ، ومصداق ذلك أننا نجد فى تاريخ المجتمعات مواقف كثيرة لا تؤدى فيها الظروف المتشابهة الى نتائج متشابهة لسبب واحد ، هو أن الأفراد الذين وجد فى أيديهم زمام الامور ، لم يوجهوا هذه الظروف أو ينتفعوا بها بطريقة واحدة أو بدرجة واحدة ، ولنأخذ مثالا على ذلك من التاريخ الحديث ، مما حدث فى روسيا فى عام ١٩١٧م ، وفى ألمانيا فى عام ١٩١٨ــ١٩١٩م .

لقد تعرض كل من البلدين لهزيمة حربية من الخارج ، ونشبت فيها ثورة على الوضع الطبقى القديم فى الداخل ، غير أن الثورة نجحت فى روسيا ، وفشلت فى المانيا ، وكان أوضح الاسباب فى ذلك هو اختلاف القادة فى الثورتين ، ففى روسيا كان أول عمـــل قام به البلاشفة ، بعد استيلائهم على الحكم هو : تحطيم الاساس القـــانونى للنظام الذى أطاحوا به واقامة تنظيم جديد يرتكز على مبادئهم ، ويخضع لتوجيههم ومن ثم فقد أبعدوا عن السلطة كل من لم يثقوا به ، بل وضربوا بيد من حديد على كل الحركات المعادية للثورة .

وأما فى ألمانيا ، فقد كان الامر على النقيض ، فبعد انهيار النظـــام الامبراطورى فى أعقاب هزيمة ١٩١٨م وقع زمام الامور فى يد الحزب الاشتراكى ، غير أن «ايبرت» وأعوانه من زعماء الحزب لم يكن لديهم من صفات القادة ما يمكنهم من توجيه الثورة فى طريق النجاح ، وهكذا

وجدوا أنفسهم فى حالة ارتباك تدفعهم فيها الجماهير بدلا من أن يدفعوا هم الجماهير ، كما أبقوا على الاسس القانونية والدعائم الطبقية للنظام القديم ، فتركوا زعماء الاحتكار الصناعى فى مراكز السيطرة الاقتصادية وأبقوا على القوانين المدنية والجنائية ، التى كانت تعكس سيطرة هذه الطبقة فى ظل النظام الامبراطورى ، ولم يغيروا من موظفى العهد القديم الا فى أضيق الحدود ، وحتى بعد أن دبرت بعض المؤامرات ضد حكومتهم كان موقفهم من مدبريها غاية فى اللين الذى يخرج عن حدود الرحمة أو التآلف السياسى ، الى نطاق التهاون وعدم الحكمة كما حدث فى مؤامرة «كاب» أو فى مؤامرة «هتلر — لوتندورف» فى عام ١٩٢٢م ، وهكذا فقدت جمهورية «فايمار» دعائمها منذ اليوم الاول لقيامها ، ولم تكن حـــركة النازيين التى أطاحت بها فى عام ١٩٣٣م ، الا الضربة الاخيرة التى قضت على شكل كان قد فقد موضوعه قبل ذلك بخمسة عشر عاما(١٣) .

وعلى أية حال ، فدور الفـــرد فى التاريخ ليس دورا مجردا ، غير متأثر بما حوله من أوضاع داخلية وخارجية ، وانما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات تجسدت فى النهاية فى دور هذا الزعيم أو ذاك ، وهناك شروط لابد من توافرها لظهور الزعيم ، وحسن أدائه لدوره ، منها أن يكون عصر ظهوره يسمح بتفوق بعض الافراد على غيرهم ، ومنها أن تتجمع ظروف موضوعية مختلفة — داخـــلية وخارجية — تهيىء الجو المناسب لبروز الزعيم ، ومنها أن يتمكن فـــرد بعينه من تفهم الظروف واستشعار آمال أمته وآلامها(١٤) .

ولاريب فى أن التاريخ انما يسجل لنا أسماء كثير من الرجال الذين أثروا فى مجتمعاتهم ، بدرجـــة أدت الى أن يكونوا على رأس عصور تميزت عن غيرها — مما سبقها أو لحق بها — وآخرين كانوا علامة مميزة فى تاريخ أممهم .

---

(١٣) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٨ — ١٠ .

(١٤) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ .

ففى التاريخ المصرى القديم : كان مينا ومنتوحتب الاول وأحمس الاول – كما تظهر صورهم فى معبد الرمسيوم فى طيبة الغربية (الاقصر) – مؤسسين للدولة القديمة والوسطى والحديثة من تاريخ مصر الفرعونية على التوالى ، فالثلاثة يبدأون تقريبا من خط الصفر ، ويحاولون جاهدين ، اقامة دولة متينة البنيان ، على أنقاض أمة ممزقة بين عشرات الوحدات المتناحرة ، ومن ثم فمن العدل أن يوضع كل منهم على رأس حقبة كاملة من تاريخ مصر القديمة ، وهكذا رأينا تماثيل هؤلاء الملوك الثلاثة على أيام الرعامسة ، تتصدر تماثيل غيرهم ، باعتبارهم قادة للحضارة المصرية القديمة .

وفى التاريخ العراقى القديم ، كان سرجون الاول وحمورابى مثلا ، علامة مميزة فى تاريخ ميزوبوتاميا .

وفى التاريخ اليونانى والرومانى : كان الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر كذلك .

وفى التاريخ الاسلامى : كان الفاروق عمر : رضوان الله عليه ، مثلا يحتذى للحاكم العادل الحازم الكفؤ ، كما كان الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، فى فروسيته وعدالته وزهده ، وامامته فى العلم والتقى ، كما كان عمر بن عبد العزيز ، مثلا فريدا للعدالة فى دولة بنى أمية ، كما كان الرشيد مثلا لعظمة الدولة العباسية .

وفى التاريخ المصرى الحديث : كان محمد على وسعد زغلول وجمال عبد الناصر أمثلة بارزة[١٥] .

---

(١٥) لاريب فى أننا حين نذكر بعض الاسماء العظيمة التى أثرت فى حركة التاريخ الانسانى ، لن نتعرض للانبياء ، والا فاعظم هذه الاسماء – على وجه اليقين – انما هم أولو العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، بل اننا حين نذكر أعظم الاسماء قاطبة فى تاريخ الانسان ، فلن يكون هذا العظيم ، سوى مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ ، فليس قبله ولا بعده عظيم فى تاريخ هذه الدنيا .

ولعـــل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ليس ضروريا أن يكون القائد أو الزعيم متسما بمواهب معينة لابد من توافرها ، فقد يكون لدى القائد مكونات القيادة المطلوبة ، غير أن توفر الظروف قد يتيح له أن يؤدى دورا مميزا ، لكنه لا يصل الى مرتبة القادة الذين يتحلون بكثير من الصفات التى تتيح لهم أن يؤدوا أدوارا حاسمة فى التاريخ .

وليس ضروريا أن تكون صفات القائد صفات ايجـــابية أو خلقية ، فبينما كان عدل الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، هـــو أبرز صفاته ، فان همجية «تيمورلنك» ودكتاتورية «هتلر» وروح «تشرشل» الاستعمارية ، كانت كلها عوامل أساسية فى بروزهم ، لكن تلك الصفات السلبية كانت فى النهـــاية نفس العـــوامل التى قضت على مطامعهم ومخططاتهم .

وهناك من الزعماء من يتحلى بكثير من الصفات التى تؤهلهم للقيادة غير أن عدم توفـــر الظروف الموضوعية لا يتيح لهم أداء الدور الذى يريدون،ومن هؤلاء،فيما يرى البعض،عمر بن عبد العزيز ، على أن هناك من الزعماء من تتوفر فيهم كثير من صفات القيادة ، فيتمكنون عند توفر تلك الظروف الموضوعية من آداء دورهم ، فاذا ما تغيرت الظروف فانهم سرعان ما يفشلون فى متابعة انجازاتهم ومن هؤلاء ، جمال عبدالناصر.

والخلاصة أن دور عظماء الرجال دور هام وواضح فى حركة التاريخ غير أن هذا الدور مرتبط فى النهاية بالظروف الموضوعية التى تتيح لهؤلاء العظماء أن يؤدوا دورهم ، والى المدى الذى تستمر فيه تلك الظروف فعالة ومؤثرة[١٦] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن التفسير الفردى للتاريخ انما قد تعرض لحملة من الباحثين الذين ينـــادون بالتفسير الجماعى ،

---

(١٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر ، المرجع السابق ص ص ٥٨ ـ ٥٩ .

وخاصة أولئك الذين يربطون التاريخ بتطور الظروف المادية التى يمر بها المجتمع ممثلا فى شتى طبقاته ، ونقطة البدء فى هذا التفسير أن فردا واحدا — أو حتى مجموعة من الافراد — لا يمكن أن يكون لديهم — كأشخاص لا يمثلون الا أنفسهم — القوة المادية التى تمكنهم من السيطرة على مجريات الامور فى مجتمع بأكمله ، الا اذا توافرت فى هذا الفرد ، أو هؤلاء الافراد ، صفات معينة تجعلهم يمثلون مصالح طبقة أو أكثر من طبقات المجتمع الذى يظهرون فيه ، بحيث تدعم هذه المصالح وتنمو بالالتفاف حولهم ، وتشجيعهم على الحصول على مراكز الرياسة أو الزعامة ، وتأييد حقهم فى القبض على زمام الامور — وهكذا يصبح تعضيد المبدأ أو النظام الذى يسيرون عليه أمرا ضروريا لهذه الطبقة أو الطبقات ، كما يصبح الابقاء عليهم فى مراكزهم هذه غاية تستحق أن يدافع عنها ، ويكافح فى سبيلها .

وانطلاقا من كل هـذا ، فالافراد الذين تتكون منهم الحكومات لا يمثلون مراكزهم هذه بصفة فردية ، أو بنـاء على تفويض من قوى الهية خارجة عن مجتمعهم ، وانما هم فى حقيقة الامر ممثلون لطبقات معينة وصلت بقدرتها فى الدفاع عن حقوقها ، وبراعتها فى الانتفـاع بالظروف المحيطة بها ، والفرص التى أمامها فى سوق المساومة الاجتماعية مع الطبقات الاخرى الى مركز الصـدارة أو السيادة الذى يمكنها من السهر على مصالحها ورعايتها ودعمها — وهم حين يصدرون قوانينهم أو يقومون بأعمالهم الداخلية أو يمارسون سياستهم الخارجية فى اتجاه أو فى آخر ، انما تكون تصرفاتهم تعبير خارجى عن احتكاك مصالحهم كطبقة بمصالح الطبقات الاخرى التى تكون الشق الاخر من المجتمع، ونفس الشىء يقال عن الاتجاهات التى تتخذها تصرفات الطبقة المحكومة فى شتى صور اتفاقها أو اختلافها مع حكوماتها .

وهكذا يصبح من العبث — فى ضوء هذا التفسير — أن نقتصر على الترجمة للافراد أو ذكر أعمالهم وتصرفاتهم ، سواء كانوا من صفوف

الحكام أو المحكومين ، دون النظر الى البواعث الطبقية التى أدت اليها، لان ذلك لن يعطينا سوى نتائج الاحتكاك أو الصراع الاجتماعى مجردة من مقدماتها ، وهذه لن تزيد — فى خير صورها — على مجمـــوعة من الحوادث لا يربط بينها سوى التتابع الزمنى ٠

على أن هذا التغيير رغم الاخطاء التى ينطوى عليها ، فقد أظهر لنا محركا آخر يكمن وراء التطور الاجتماعى ، هو المصالح الطبقية ، وما يقوم بينها من تنافر أو توافق ، وقد ألقى هذا دون شك ضوءا جديدا على مراحل كثيرة من التطور التاريخى ، بعد أن ظلت حتى وقت قريب تفهم وتعالج من ناحية واحدة ، وهكذا بدأت تتضح أمامنا عناصر كانت خافية أو غامضة من قبل ، وكانت هذه العناصر بمثابة بعد جديد أسهم فى مواقف تاريخية كثيرة كان ينقصها التجسيم ٠

ومثالنا على ذلك : المقاومة التى لقيها داعية التوحيد «اخناتون»[١٧] (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق٠م) من كهنة آمون ، ومن القائد «حور محب» (الملك حور محب فيما بعد ١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق٠م) الذى وقف فى صفهم ، لم تعد مجرد ثورة دينية على ملك أراد احلال عبادة جديدة[١٨] محل العبادة الوطنية القديمة ، وانما ظهر لها وجه آخر ، وهو الصراع بين طبقتين هما : كهنة الدين القديم ، وأصحاب الدعوة الجديدة — وعلى رأسهم الفرعون — بما يملكون من نفوذ وأتباع ، حول امتيازات الكهانة القديمة من أرضين واسعة كانت توقف على آمون — اله الدولة الرسمى — ومن رسوم كانت تفرض على التجار الذين يبيعون سلعهم للذين يؤمون معابده ومن هدايا ونذور للمعبود ، وكل ذلك كان يذهب فى النهاية الى هؤلاء الكهنة ، وغير هذه من جوانب الكسب المادى ، وما يصحبه من تقـــوية لمراكزهم الاجتماعية[١٩] ٠

---

(١٧) قدم الباحث دراسة مفصلة عن اخناتون (انظر محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩) ٠
(١٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ — ٤٨٤ ٠
(١٩) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١١ — ١٣ ٠

وما أن أغلقت معابد الالهة فى أنحاء الامبراطورية المصرية،وصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها وضرب الحجز على خزائن الكهنوت،ومحيت كلمة «الآلهة» ــ بدأ الكهنــــة يتكتلون ، وأصبح النزاع بين الفرعون والكهانة على أشده،ولم يعد إخناتون يتسامح مع الالهة،وخاصة أمون ــ استغل ذلك كله الحاقدون من كهان أمون ، والمنتفعون من معابده ، وبقايا أبناء الارستقراطية القـــديمة الذين ساءهم أن يسود عليهم محدثو النعمة من أنصار الدعوة الجديدة ، وبقايا الكهنة العاديين الذين ارتبطت مصالحهم بمعابد الارباب المحليين ، وطالت مؤامرات هؤلاء وهؤلاء ، واستمروا يهـــونون من شأن الدعوة الجديدة ، ويشوهون أهـــدافها ويوقدون نار الفتنة فى البلاد ، حتى جعـــلوا طوائف الشعب تحمل فى قلوبها كل البغض للدعـــوة الجـــديدة ولصاحبها ، حتى أثقلوا كاهله بالاحزان ، وجعلوه يحس بخيبة لا حدود لها ، وكان ذلك كله واحدا من أهم أسباب عدم انتشار الدعوة بين العامة من الناس ، ثم القضاء عليها بعد موت الداعية فى عام ١٣٥٠ ق٠م[٢٠] ٠

وهكذا فما قيل عن هذا المثال : انما ينطبق دون شك على عشرات غيره ، وان اختلفت التفاصيل ، بل يكاد ينطبق على شتى مراحل التطور التاريخى ، وهى تشير ، فى أغلب الاحايين ، الى أن الظروف التى تمر بها المجتمعات ممثلة فى طبقة أو أكثر من طبقاتها ، وما يقوم بين هـــذه الطبقات من تآلف وترابط وصراع وتنافر ، هو المحـــرك الاول للتطور التاريخى ، والى أن التفسير الفردى للتاريخ كان فى الواقع نظرا للامور من جانب واحد ، وتجاهلا لجوانب أخرى لا ينبغى تجاهلها[٢١] ٠

---

(٢٠) محمد بيومى مهران : المرجـــع السابق ص ٣٥٢ ، ٣٩٠ ، عبد العزيز صالح : الوحدانة فى مصر القديمة ص ٢١ ، وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, p. 280, 391.

F. Daumas, Le Civilisation De L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956, p.326.

C. Aldred, A Khenaten, Pharaoh of Egypt, London, 1972, p. 62-63.

Freud, Moses and Monotheism, Trans. by K. Jones, N. Y, 1939, p. 21-25.

(٢١) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١٤ ٠

(٣) التفسير النفسى :

ويعنى هذا التفسير أن تكون لمشاعر الزعماء أو الجماعات أو الشعوب ردود فعلها النفسية التى تترك آثارها على حـــركة التاريخ ، ويضرب المؤرخون أمثلة كثيرة على أهمية التفسير النفسى للتاريخ ، ومنها : تلك العصبية الجاهلية فيما قبل الاسلام ، والشعوبية فى الاسلام ، وحملات نصارى أوربا لتخليص قبر السيد المسيح ، عليه السلام فى فلسطين من أيدى المسلمين (الحروب الصليبية) ، والاثار الكبيرة التى تركها سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣م على الممالك الاوربية بصفة خاصة[٢٢] .

واذا عدنا الى الوراء ، الى عام ٥٣٩ ق.م ، وتذكرنا مدى الاثر النفسى الذى تركه سقوط بابل فى هذا اليوم ، على الشعوب السامية لرأينا مدى أثر العـــامل النفسى على تلك الشعوب ، حيث انتهت فيه سيادة العناصر السامية ، وبدأت سيادة العناصر «الهندو — أوربية» — من فرس واغريق ورومان — والتى استمرت ما يقرب من اثنى عشر قرنا ، حتى جاء الاســـلام الحنيف ، فحـــرر الارض والقوم من ذل الاستعمار ، فضلا عن تحرير العقول من وثنية الماضى البغيضة ، وبدأ القوم يؤمنون بالله الواحد الاحد ، الذى لا شريك له ، له الملك والحمد، وهو على كل شىء قدير[٢٣] .

والامر كذلك فى مصر ، حين استولى الفرس عليها فى عام ٥٢٥ ق.م، ويحدثنا التاريخ أن قمبيز(٥٢٥ — ٥٢٢ق.م) أراد أن يسخر من الفرعون «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ — ٥٢٥ ق.م) فأجلسه على عرش رمزى ، ثم ثم أمر أن تمر أمامه ابنته على رأس مجموعة من فتيات الاسرات العريقة يرتدين زى الاماء ، ويحملن الجـــرار فوق رؤسهن ، ثم ابن بسماتيك وخلفه ألفان من خيرة شباب مصر ، مربوطين فى حبال من أعناقهم،ولجم

---

(٢٢) عادل حسن غنيم وجمال محمــود حجر : المرجع السابق ص ٦٠ — ٦١ .

(٢٣) محمد بيومى مهران : حركات التحـــرير فى مصر القديمة — القاهرة — دار المعارف ١٩٧٦ ص ٣٤٤ .

فى أفواههم ، مسوقين الى مصيرهم التعس ، وشهد بسماتيك ذلك كله، وكظم غيظه ، ولم يظهر جزعه ، حتى رأى أحد رجال بلاطه المترفين فى خرق بالية ، يسأل الناس ويستجديهم ، فدمعت عيناه ، وعجب قمبيز من ذلك ، وحين سأله عن السبب ، جاءه الجواب : «أى ابن كيروش ، ان خطبى أكبر من أن يستثير دموعى ، ولكن أمر الرجل أثار شجونى»[٢٤] •

وعلى أية حال ، فلا ريب أن العوامل النفسية ، كالحب والكراهية والحقد ومركبات النقص ، انما تترك آثارها على تصرفات وسلوكيات بعض الزعماء والقادة ، أكثر منها على تصرفات الجماعات والشعوب ، وذلك لان تأثيرها على الشعوب انما هو ــ فى الاغلب الاعم ــ وقتى ، لا يشكل عاملا أساسيا فى حركة التاريخ •

هذا ويذهب كثير من المؤرخين الى أن التفسير النفسى انما يساعد على تفسير أهمية حادثة تاريخية لفرد ، ولكنه لا يفسر الحادثة ذاتها ، ومن ثم فمهمة المؤرخ ليست فى البحث عن الحالة النفسية لفرد ، وانما فى الحالة النفسية للمجتمع ، وعلى سبيل المثال ، فان الذى يهم المؤرخ هو معرفة الاثار النفسية لهزيمة ١٩٦٧م على الامة العربية ، أكثر منه على نفسية «جمال عبد الناصر» فى أعقاب تلك الهزيمة ، وبالتالى يكون التفسير النفسى أكثر مصداقية كلما طبقناه على الجماعات ، لا الزعماء والقادة ، وان كان التفسير النفسى للتاريخ فيما يتصل بالزعماء والقادة انما يساعدنا على فهم المؤثرات المختلفة التى دفعت هذا الزعيم مثلا، الى اتخاذ قرار بعينه أو تبنى اتجاه بذاته،وان كان ذلك ليس بالضرورة تعبيرا عن الحـــالة النفسية للمجتمع الذى يقوده الزعيم ، فقد يقـــدم الزعيم على اتخاذ خطوة كبرى تتفق ومصالحه هو ، بدعوى أنها تخدم

---

(٢٤) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجــزء الثالث ــ الاسـكندرية ١٩٨٨ ص ٦٦٥ •

مصالح شعبه ، وقد تؤيد ظواهر الامور فى حينه هذا الادعاء ، ثم يتضح بعد ذلك أن نتائج تلك الخطوة لم تكن أبدا فى صالح الشعب[٢٥] •

(٤) التفسير الطبيعى :

ويراد به تفسير التاريخ وفقا لقوانين محـــددة مماثلة للقوانين فى العلوم الطبيعية ، ومن ثم فقد أتجه أصحابه الى عدة أتجاهات ، منها : التفسير الجغرافى للتاريخ ، ويعتبر العوامل الجغرافية المختلفة هى التى تؤثر فى نشـــاط الانسان وتاريخـــه ، ومنها : التفسير الانثروبولوجى للتاريخ :ويعتبر الاجناس المتميزة هى التى تصنع حركة التاريخ،ومنها: تفسير الدورات التاريخية : وتذهب الى نظـــام دورى ثابت فى حياة الانسان أو الامم ، وهو ما يعبر عنه أحيانا بأن التاريخ يعيد نفسه •

هذا ويمكن فهم تفسير الدورة التاريخية ، اذا قسمنا حياة الانسان الى ثلاثة أقسام : الحياة الداخلية وتتمثل فى مشاعر الانسان وغرائزه، وهذه الحياة لاأثر للزمن فيها ، والحياة العقلية للانسان : ويمثل تاريخها خطا بيانيا متصاعدا على الدوام ، والحياة الخارجية للانسان : وتتمثل فى النشاط الانسانى الخارجى — اجتماعيا كان أو اقتصاديا أو سياسيا — وتتأثر هذه الحياة الخارجية بعوامل الزمن ، وهى الحياة التى تمر بتلك الدورية التى تتراوح بين الصعود والهبوط ، وبين المد والجزر •

ولنأخذ الاستعمار العـــالمى كمثال : وهنا نجـــد الاستعمار العالمى الحديث قد بدأ فى الدول الاوربية فى فترات متقاربة ، وكان الاستعمار الاسبانى أسبق الجميع ، غير أنه لم يلبث أن ضعف ، ثم جاء الاستعمار الفرنسى الذى بلغ أوجه فى القرن الثامن عشر الميلادى،ثم كان الاستعمار البريطانى الذى بلغ أشده فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين •

---

(٢٥) عادل حسن غنيم وجمال محمـود حجر : المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢ •

هذا وقد شهدت المرحلة التالية للحـــرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨م) انحسار الاستعمار العـــالمى رويدا رويدا ، وتحـــول الدول الاستعمارية — خاصة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥م) — الى دول من الدرجة الثانية ، وهذا يعنى أن الاستعمار العالمى انما قد مر بدورية معينة ، بدأت بنشأته ثم صعوده الى قمته ، ثم انحداره بعد ذلك[٢٦] .

(٥) التفسير المـادى :

وهو التفسير الذى يعنى أن حركة التاريخ تقوم على الجوانب المادية البحتة والتى تعتمد على عدة عناصر : منها قوى الانتاج : ويقصد بها نشاط الانسان الناتج من محاولاته استخدام الطبيعة أو السيطرة عليها، لتطوير انتاجه الاقتصادى فى مختلف جوانبه ، ومنها : علاقة الانتاج ، ويقصد به ذلك الجانب من نشاط الانسان بينه وبين الاخرين فى اطار العملية الانتاجية ، والذى يأخذ أشكالا مختلفة ، طبقا للقوى الانتاجية السائدة ، ومنها : وسائل الانتاج ، أى الوسائل التى تتم بها العملية الانتاجية ، كالالات والمعدات والمصانع والقوى المحركة والطرق ووسائل المواصلات المختلفة ، ومنها : أهداف الانتاج ، أى ما يهدف اليه الافراد من تلك العملية الانتاجية التى يقومون بها .

وعلى أية حال ، فرغم اعترافنا بأهمية العــوامل المادية فى حركة التاريخ ، غير أننا لا يمكن أن نضع تلك العوامل فى المرتبة الاولى ، ذلك لان للعوامل الاخرى تأثيرها فى حــركة التاريخ كذلك ، بل ان لبعضها الدور الحاسم فى حركة التاريخ فى مرحلة بعينها من تاريخ البشرية[٢٧] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك مذاهب مادية كثيرة فى تفسير الوقائع التــاريخية ، فلقد رد كل من «ابن خلدون» (١٣٣٢ —

---

(٢٦) عادل حسن غنيم وجمــال محمود حجر : المرجع السابق ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ — ٦٣ .

١٤٠٦م) و «ومنتسكيو» (١٦٨٩ – ١٧٥٥م) على سبيل المثال هذه الوقائع الى عوامل بيئية جغرافية ، كذلك أشار «باكل» الى أهمية القوى الفيزيقية وأثرها على انتاج الثروة ، بل لقد شاع التفسير المادى بوجه عام – والاقتصادى بوجه خاص – لدى مفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلقد أشار «هارنجتون» الى أن أشكال الحكومات تستند الى حيازة وتوزيع الاراضى ، كما أشار «جارينه» فى فرنسا ، و و «دارليمبل» فى انجلترا ، الى أثر ملكية الاراضى على السياسة ، وفى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، كان الاشتراكيون – من أمثال فوربيه وسان سيمون وبرودان – يؤكدون أثر الظروف الاقتصادية على السياسة فى عصرهم[٢٨] .

مع ذلك فهؤلاء لا يعدون روادا للنظرية الماركسية – كهيجل مثلا – لانهم جميعا لم يراعوا عوامل التطور فى التفسير ، ومن ثم فان منطق «الديالكتيك» هو وحده الذى يصلح لتفسير ديناميكية التاريخ بجميع مظاهره،بل لقد عد«كارل ماركس» هذه المذاهب المادية صورا من النزعة «الميتافيزيقية» لانها تجعل من الظواهر – طبيعية أو انسانية – أشياء منعزلة ، وتخضعها لمقولة العلية ، بصوريتها وجمودها ، دون اعتبار للتشابك بين الظواهر أو التفاعل بين المعلول والعلة .

وعلى أية حال ، فجميع المذاهب المادية تشترك فى عيب جوهرى : ان المادية فيها آلية ، حيث أخفقت فى أن تصل الى أن العوامل المادية انما تفهم فى ضوء مقولات التاريخ ، فلا يكفى بيان أثر الملكية الخاصة على النظام السياسى ، لان الملكية الخاصة انما تتغير فى كل حقبة تاريخية فى سلسلة من العلاقات الاجتماعية المختلفة ، كما أن العوامل الجغرافية تشكل فقط الاطار العام الذى ينبثق عنه موارد الانتاج ، لان الظروف

---

(٢٨) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٦ ، وانظر
Darlymple, As Easay Towards a General History of Feudal Property in Great Britain, 1750.
Garnier, De la Proriete dans ses raports avec le droit Politique, 1792.

الطبيعية تمنح الامكان ، دون أن تفيد الواقع الفعلى ، فليس الامر مجرد خصوبة التربة لتفسير نشأة حضارة ما ، وانما يلزم أن تكون الموارد الطبيعية خاضعة لتحكم الانسان واستثماره ، ثم ما يلزم عن ذلك من تنوع الانتاج وتوزيع الملكية ، وهذه بدورها يتحكم فيها تقسيم العمل ، فضلا عما يستثير الانسان من احتياجات ، فليست موارد الانتاج قوانين ثابتة دائمة ، ولكنها تتغير وفقا لحياة الانسان فى مجتمعه ، وعلاقته بسائر قوى الانتاج ، وليست العوامل المادية مؤثرات حتمية ولكنها أفعال الانسان ، وعلاقاته المادية مع آخرين[٢٩] .

هذا وكان «كارل ماركس» (Karl Marx) (١٨١٨ — ١٨٨٣م) من أبرز أصحاب نظرية التفسير المادى للتاريخ ، وان لم يكن هو منشئوها، وانما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه،وصب فلسفته فى القالب الذى اقترحه ديالكتيك هيجل ، فالمادة التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو فى بحث أعدة «هولباخ» (Holbach) وطبع قبل قرن وهى أيضا مدينة بالكثير الى الفيلسوف الهولندى «باروخ سبينوزا» (B. Spinoza) (١٦٣٢ — ١٦٧٧م) ، وقد أعاد «فويرباخ» (Feuerbach) تقرير شكل مجدد منها ، على أيام «كارل ماركس» نفسه ، ويمكن أن نرى النظرة الى التاريخ الانسانى على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند «سانت سيمون» (Saint Simon) ، وقد اعتنقها الى حد بعيد مؤرخون فرنسيون من معاصريه،مثل «تيرى» (Thierry) و «مجنيه» (Mignet) وكذلك «جيزو» Guizot .

وكان «سيسموندى» (Sismondi) أول من وضع النظرية العلمية لحتمية حدوث الازمات الاقتصادية حدوثا منتظما ، وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة (Fourth Estate) فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ، ودعا اليها فى المانيا على أيام «كارل ماركس» كل من «فون

(٢٩) أحمد محمود صبحى ، المرجع السابق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧،وانظر
E. Seligman, The Economic Interpretation of History, p. 61.

شتاين» (Von Stein) و «هيس» (Hess) ، وأما التسلط المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع «بابويف» (Babeuf) خطوطه الكبرى بشكل ظلال فى آخر عقود القرن الثامن عشر ، ثم وضع هذه الفكرة بشكل واضح فى القرن التاسع عشر ، وبأشكال مختلفة كل من «فايتلنج» Weitling و «بلانكى» (Blanqui) ، وقد زاد فى ايضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم فى الدولة الصناعية «لوى بلون» (L. Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملا ، مما يوافق «ماركس» على قراره •

وأما نظرية القيمة المبنية على العمل ، فتستمد من «لوك» (Locke) و «آدم سميث» (A. Smith) والاقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين) ، وأما «نظرية الاستغلال وقيمة الفائض» (Theory of Exploitation and Surplus Value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة ، فيمكن أن ترى عند كل من «فورييه» (Fourier) وفى كتابات الاشتراكيين الاوائل مثل «برى» (Bray) و «تومبسن» (Thompson) و «هولجسكن» (Hologskin) (٣٠) •

ونستطيع أن نضيف هنا الى أن محاولات عديدة أخرى ، قد نسقت فى اطار فكرى ، أو نفذت عبر تجربة عملية ، شهدها تاريخ الشرق ، قبل قرون عديدة لمعطيات هؤلاء ، نكتفى منها بالاشارة الى حركات مزدوك، على أيام الملك الفارسى «قباذ» (٤٨٨ — ٥٣١م) ، و «بابك الخرمى» على أيام الخليفة «المعتصم» (٨٣٢ — ٨٤٢م) والقرامطة فى الربع الاول من القرن العاشر الميلادى •

---

(٣٠) عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ ـ ترجمة كاظم الجوادى الكويت ص ٨٧ ـ ٨٨ ، فردريك انجلز : التفسير الاشتراكى للتاريخ ، ترجمة راشد البراوى ـ بيروت ١٩٦٨ • وانظر : عماد خليل : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤١ وكذا

Isaih Berlin, Karl Marx and his Life Envirenment, pp. 14-15.

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أن «كارل ماركس» انما يبدأ كتابه «رأس المال» بأن يسأل : ما هو المبدأ الذى يحكم كل العلاقات بين البشر ؟

ثم يجيب على ذلك ، بأنه الهدف المشترك الذى يسعى كل النـــاس لبلوغه ، وهو انتاج الوسائل التى يديمون بها حياتهم ، وبعد الانتاج تبادل الاشياء التى أنتجوها ، فان على الانسان أن يعيش ، ثم يستطيع أن يبدأ يفكر ، ومن ثم فالذى يقرر التغير الاجتماعى لا يوجد فى أفكار الناس عن الحقيقة الابدية والعدالة الاجتماعية ، وانما فيما يحصل من تغير فى أسلوب الانتاج والتبادل ، ومن ثم تطرح الماركسية الفـــروض الرئيسية التالية :

أولا : يدخل الناس ، فى غمرة الانتاج الاقتصادى الأجتماعى ، فى علاقات معينة ، ويضطرون الى أن يكونوا ظروفا معينة ، تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى الفكرية ، وثانيا : ان ظروف الانتاج ــ اذا أخذت ككل ــ تكون الكيان الاقتصادى للمجتمع ، وهذه هى القاعدة المادية التى يقام عليها بنيان للقوانين والانظمة السياسية ، التى يرجع اليها بعض أشكال الوعى السياسى ، وثالثا : ليس وعى الانسان هـــو الذى يعين أشكال الوجود ، بل ان أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هى التى تعين الوعى • ورابعا : أن قوى الانتاج المادية انما تصطدم ــ بعد أن تبلغ مرحلة معينة من التطور ــ مع ظروف الانتاج الموجودة ، أى مع نظام الانتاج الذى تعمل فى ظله ــ وخامسا : أن تاريخ المجتمع ــ منذ وجوده وحتى الان ــ انما هو تاريخ صراع طبقات ، كانت تقف موقف المعارضة الدائمة لبعضها ، وتقوم بحروب لا انقطاع لها ، تنتهى اما باعادة بناء المجتمع كليا ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة ، وبتطبيق هذا الاسلوب فى البحث نرى أن التـــاريخ انما يدل على أن تطور المجتمع الانسانى سار من نظام المشاعية البدائية أو الجماعية الى نظام الطبقات متمثلا فى انقسام المجتمع الى سادة وعبيد فى العصور القديمة ، والى سادة واقطاعيين وأقنان فى العصر الاقطاعى ، ورأسماليين وعمال أجراء فى العصر الحديث ، وأن هذا التطور يتجه ــ بفعل القوانين التى تتحكم

فيه ــ الى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة ، أى علاقات الجماعات بقوى الانتاج[٣١] .

وفى المقدمة التى صدر بها «ماركس» كتابه «نقد للاقتصاد السياسى» نلتقى بتركيز شامل للعلاقات الاساسية بين الانتاج وبين الحركة السياسية ، وفى رسالته الى أنتكوف (ديسمبر ١٨٤٦م) يؤكد مسألة استبعاد الحرية الانسانية فى صياغة واختيار القوى الانتاجية التى هى أساس الابنية التاريخية والحضارية[٣٢] .

وعلى أية حال ، فان مفهوم المادية عند «كارل ماركس» لم يكن هو نفس المفهوم عند الفلاسفة الماديين ، مجرد اعتبار المادة الحقيقة الموضوعية الوحيدة ، ولكنها تعنى عنده (أى ماركس) من حيث علاقتها بالانسان المتطور ، والتى يعد الانتاج أهم مظهر لهذه العلاقة ، ومن ثم تصبح المادة لديه عمليا لفظا مرادفا للاقتصاد[٣٣] ، ثم يرى أن يتحرر العقل من النظام الصراعى ــ بين رأس المال والعمال ــ الذى يعيش فيه ، ويحتم عليه الحرب ، عليه أن يقضى على الاستعمار أولا ، ثم يفرغ لتنظيم اقتصادى جديد ، يسلم فيه مفتاح المصنع ومفتاح الدكان للدولة ، ويقضى على الحرب الصامتة بين صاحب المصنع والعامل، ويحول المجتمع الى أسرة واحدة ــ أى الى مجتمع ذى طبقة واحدة ، هى طبقة العمال ــ والحكومة الى أب ، والعالم الى دول متآخية ، وبذلك يصبح سوق الشرف هو العمل والانتاج ، لا الكسب والاستغلال ، ويتحول الانسان مرة أخرى الى جده البدائى المسالم الذى كان يحارب الطبيعة القاسية[٣٤] .

---

(٣١) عماد خليل : المرجع السابق ٤٤ ــ ٤٥ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٨٩ ــ ٩٠ ، فردريك أنجلز : المرجع السابق ص ١٧ ــ ١٨ (من مقدمة المترجم) .

(٣٢) انظر التفاصيل فى : نفس المرجع السابق ص ١١٩ ــ ١٢١ .

(٣٣) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٢٩ ، وكذا
B. Russell, History of Western Philosophy, p. 812.

(٣٤) مصطفى محمود : الله والانسان ــ القاهرة ١٩٥٧ ص ٩٢ ، محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ــ القاهرة ١٩٨١ ص ٣١٦ .

ثم سرعان ما يتسع مفهوم الاقتصاد عند «ماركس» ليشمل عمليات التملك والانتاج والتوزيع والاستهلاك فى تفاعلها مع الانسان ، ومايتنتج عن ذلك من علاقات اجتماعية ، ثم ليشمل أيضا العوامل التكنولوجية والجغرافية والجنسية ، وكل هذه تفرض نفسها على صور الفكر ومظاهر الثقافة ، فالدين والفلسفة والفن فى مجتمع ما ، انما كل هذا على ماعليه أساليب التكنولوجيا والاقتصاد ، وليس الجدل بين المدارس الفلسفية أو حركات الاصلاح الدينى أو الثورات السياسية الا انعكاسات لواقع النشاط البشرى ممثلا فى الانتاج والعلاقات المادية ، ومن ثم فان أى تغيير فى الظروف المادية لابد أن يجلب معه تغـــيرات هامة فى الانظمة السياسية والتشريعية والايديولوجية ، بينما هذه الانظمة ليست بقادرة من تلقاء نفسها على احداث تأثير جوهرى فى عملية التطور الاجتماعى.

غير أن ذلك لا يعنى أن العوامل الاخرى ليس لها أى أثر ، ذلك لان العامل الاقتصادى انما يتفاعل معها ، ومن ثم فان «ماركس» و «انجلز» لم يقصدا تفسير التاريخ فى ضوء مصطلحات الاقتصاد وحده ، ولكن الاعتبارات الاجتماعية انما هى من الأسس فى تقدم الانسان ، وان كان العامل الاقتصادى هو الرئيسى بينها[٣٥].

هذا وقد بلغ ذيوع التفسير الاقتصادى (المادى) للتاريخ حدا جعل بعض المؤرخين يشيرون اليه ، باعتباره قضية مسلما بها ، ومن ثم فقد امتد هذا التفسير الاقتصادى الى مختلف المجالات فى مختلف العصور ، فاليه ترجع الحروب الصليبية وقيام البروتستانتية والثورات الامريكية والفرنسية والحرب الاهلية الامريكية والحركات الاستقلالية القومية فى أوربا والامريكتين ، وقد يكون فى ذلك بعض الحق ، ولكن بعض المؤرخين قد تجاوزوا الحدود الى شىء من الشطط والتعسف ، فلقد أغفلت العوامل الاخرى اغفالا يكاد يكون تاما ، ليكون العامل الاقتصادى هو الوحيد فى تفسير التاريخ ، رغم أن كلا من «ماركس» و «وانجـــلز» ، كما أشرنا

---

(٣٥) احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

آنفا ، لم يدعيا الصحة المطلقة للاعتبارات الاقتصادية الى حد استبعاد العوامل الاخرى(٣٦) .

وعلى أية حال فهناك عــدة نقاط ضعف فى نظرية التفسير المادى للتاريخ ، منها (أولا) أن مذهب «ماركس» ــ شأنه فى ذلك شأن غيره من المذاهب الفلسفية ــ انما يستند الى بعض قضايا يعدها مسلمات لا تحتاج الى استدلال ولا تقبل الشك ، وقد اعتبر ماركس مذهبه ذات طبيعة تخالف سائر المذاهب الفلسفية ، ومن ثم فهو يجبها جميعا ، وأن مذهبه ــ وان كان ماديا ــ فهو يختلف عن ســائر الفلاسفة الماديين ، والواقع انه ــ وان افترق عنهم فى منحى المذهب ــ لا يختلف عنهم فى الاسس والمسلمات .

ومنها (ثانيا) أن نظريته يسودها منطق الحتمية القاسية التى تنعدم فيها حرية الارادة الانسانية ، فالقوى الاقتصادية أقــوى من سيطرة الافراد ، بل ارادة الطبقات ، ومع هذه الجبرية القاسية التى لا يملك أى فرد ازاءها شيئا ، فان ماركس ادعى أنه ــ من الناحية العملية ــ يعمل على تغيير العالم الذى وقف الفلاسفة جميعا عند حد تفسيره(٣٧) .

ومنها (ثالثا) أن ما أغرى ماركس بفكرته المادية ، ما كان للعــلوم الطبيعية من بريق خارجى ، ولما كان هو نفسه يتصور أن الانسان مجرد آلة ، فلقد حاول أن يصوغ القوانين الاجتماعية على غــرار القوانين الطبيعية ، ولكى يبلغ غايته فلقد حرف الحقائق ، فقد كان فى ذهنه هدف واحد ، وهو أن يثبت أن أسلوب الانتاج فى الحياة المادية هو الذى يعين الطابع العام لطرف الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية ، فانسانه

---

(٣٦) نفس المرجع السابق ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ ، وكذا
E. Seligman, Op. Cit., pp. 62-63, 70-86, 144.

(٣٧) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٣٩ ــ ٢٤١ ، كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى ــ ترجمــة الدكتور عبد الحميــد صبرة ص ٦٦ ــ ٦٨ .

مجرد تماما من حرية الارادة ، وهــدفه الوحيد الحصول على وسائل الراحة المادية ، وأن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التى عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية ، وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل فى البناء القائم عليها ، ولذا فان وسائل الانتاج هى الحكم الفصل الحقيقى الذى يقرر مصير البشر ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن الجماعة وحدها هى الحقيقة ، وأن الوجود المستقل للافراد هو مجرد وهم •

ومنها (رابعا) أن الرابطة بين التغير الاجتمــاعى وعملية التطور الاقتصادى أقل بكثير — تأثيرا وبساطة وكفاية — مما يقره علم النفس الماركسى الذى يفتقر الى الكفاءة ، والذى ربما هو الضعف القتــال للحتمية كلها ، فلقد أكــد ماركس أن الانسان يستجيب للتغيرات التى تدخل فى نظام الانتاج ، وأما كيف تدخل ؟ فهو لا يقول لنا،لانه يتكلم كما لو كان الاسلوب الفنى المتغير فى الانتاج هو نفسه يوضح نفسه،ان ماركس يتجاهل تعقيدات التعود من جهة ، والنفور من جهة أخرى ، فهو يبسط النظرات التى تتجمع حول الانظمة،فالتماسك والاخلاص بالنسبة للعائلة ، والمهنة والامة ، كلها خاضعة للطبيعة الاقتصادية ، وهكذا فالحل الذى استهدفته هذه المحــاولة انما يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جدا[٣٨] •

ومنها (خامسا) أن «كول» يرفض الاعتراف بأن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد الذى يقرر الكيان الاجتماعى لاية أمة فيقول فى كتابه «معنى الماركسية» : من السهل أن نتتبع التشابه الكبــير بين الهياكل الاقتصادية التى تبنى عليها أنواع المجتمعات المختلفة،وتنظيمها السياسى وأجهزتها الاجتماعية،وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية فى الماضى وفقا لتغير الظروف الاقتصادية الاساسية ، الا أنه من الخطر

---

(٣٨) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣،عمادالدين خليل : المرجع السابق ص ٥٠ — ٥١ •

أن نؤكد على هذا الى حد مفرط فى البعد،وليست الحال قط أن المجتمعات التى فى مستوى واحد فى أسلوب انتاج ، يجب أن يكون لها حتما نفس الانظمة أو نفس الاشكال الاجتماعية للعائلة ، والعلاقات الجماعية والمنظمات السياسية والدينية ، أو الافكار الخاصة بالقيم والاخلاق ، فلقد أظهرت بحوث الانثروبولوجيا (علم الانسان) أشكالا حضارية مختلفة جدا ، لا يمكن قط أن تفسر تفسيرا اقتصاديا محضا ، وأن أقصى ما يثبته هذا التشابه بينها انما هو مجرد الاقتناع بأن الانظمةالاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية ، ذلك لان الأساس الاقتصادى انما هو عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم العوامل(٣٩) .

ومنها (سادسا) أنها نظرية واحدية فى التفسير التاريخى ، اذ تجعل العوامل الروحية والفكرية تابعة للعامل الاقتصادى ، وهى بذلك تغفل الصفة الفردية للواقعة التاريخية ، وفى الواقع ليست أحادية التفسير هى التى تصلح للانسان ، وانما منهج تكامل العوامل الذى يثبت تكافؤ العوامل ، ثم تفاعلها ، ثم بروز أهمية احداها فى عصر دون آخر ، وفى مجتمع دون آخر ، أما اخضاع المجتمعات العشائرية أو حركات الاصلاح الدينى لتصورات عصر النظام الرأسمالى ، ففيه تعسف فى التفسير .

ومنها (سابعا) أن ماركس — وكذا انجلز — قد عرض المادة التاريخية ، باعتبارها تفسيرا لواقع التاريخ ، وتحليلا علميا له ، ومع ذلك تخلط نظريته بين عالم الواقع وعالم القيم ، فبالرغم من أنه ينتقد الرأسمالية عى ما تتضمنه من متناقضات ، وليس على ما يصيب العمال من ظلم ، فانه يبشر بالشيوعية باعتبار مجتمعه هو الذى تتحقق السعادة فيه للانسانية ، فهو مجتمع يمنح العمال أمل تحقيق الفردوس على الارض،وهذه نبوءة أخلاقية تذرع لها بأسس ادعى انها علمية موضوعية

---

(٣٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٥ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١٠٣ — ١٠٤ ، وكذا
P.G.D.H. Cole, The Meaning of Marxism, p. 57.

وبالتالى فنظرية ماركس نظرية فى التطور ، وليس فى التقدم ، فهو لا يصف الواقع ، وانما يتنبأ بأفضلية المجتمع اللاطبقى ، حيث نهاية آلام البشر، وذلك حكم تقييمى يتعارض مع النزعة العلمية الواقعية[٤٠] .

ومنها (ثامنا) اذا كان أسلوب الانتاج هو العامل الحاسم فى حياة الفرد أو المجتمع ، وجب أن يتصرف الاشخاص أو المجتمعات التى تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية ، وفق نفس الاسلوب ، لكن الذى يحدث فى كثير من الاحايين ، انما هو العكس ، فمثلا كانت الولايات الاغريقية ، فيما بين عامي ٧٣٣ ، ٣٢٥ قبل الميلاد ، تجابه مشكلة زيادة السكان ، فقامت بحلها بطرق مختلفة ، فبعضها مثل «كورنثوس» و «خاليسيس» لجأ الى حلها باغتصاب أرضين زراعية فى الخارج — فى صقلية وجنوب ايطاليا — بينما لجأت ولايات أخرى الى التغيير فى طريقة حياتها ، كما فعلت اسبرطة حين هاجمت أقرب جيرانها من الاغريق واحتلت أراضيهم ، غير أن نتيجة ذلك انما كانت حروبا لا تنتهى مع شعوب مجاورة ، الامر الذى أدى الى أن تعيش اسبرطة حياة عسكرية من رأسها الى قدمها ، ولجأت أثينا الى وقف تصدير انتاجها الزراعى ، ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التى أوجدها هذا التجديد الاقتصادى ، وبتعبير آخر ، فقد تفادى رجال الحكم فى أثينا من ثورة اجتماعية ، بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية ، وهكذا يمكننا أن نقدم الكثير من الامثلة التاريخية على تنوع «ردود الافعال» ازاء تحديات الاوضاع المادية[٤١] .

ومنها (تاسعا) أن النظرة المادية للتاريخ التى جاء بها «ماركس» انما تذهب الى أن اتجاهات وأفكار عصر ما، انما هى نتاج مرحلة التطور الاقتصادى التى تم بها الوصول اليها ، ومن ثم فليس هناك قانون

---

(٤٠) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٤١) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٨ ، عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥٢ — ٥٣ ، وكذا
Arnold Toynbee, A Study of History, London, 1948, p. 4.

مطلق أو أخلاق مطلقة فى هذا العالم ، وانمــا هى انعكاسات لاسلوب الانتاج ، وهذا يؤدى بدوره الى تناقض خطير فى هذه النظرية ، فهو من ناحية لا يرى شيئا أبدا ، ومن ناحية أخرى ، فهو يعــرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة ، الامر الذى لم يستطع أحد من تلاميذ ماركس أن يزيله ، وهكذا ، فاذا كانت فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له ، فبالتالى فان فلسفة ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الازمنة ، لانها هى أيضا انعكاس لعصره ، وكل ما جاء به ربما كان ملائما لزمنه ، وليس للعصور التالية له ، فمع تغير الزمن لابد لفلسفته أن تتغير ، غير أن الماركسيين لا يقبلون ذلك ، اعتقادا منهم أن نظراته صحيحة فى كل الازمان ، أى أنها قيم دائمة للمجتمع الانسانى،لاتتغير بتغير الزمن[٤٢] •

ومنها (عاشرا)أن ماركس يخضع حركة التاريخ — بدولها وحضاراتها وتجاربها — لحتمية تبادل وسائل الانتاج وانعكاسه على الظروف،وأن كل وضع تاريخى مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكى الدائم ، ثم ما يلبث ماركس أن يقع فى تناقض أساسى مع نظريته عنــدما يقرر «الدوام» و «الثبات» لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البروليتاريا) حيث لا زوال بعدها ، وهذا يشبه — فى احدى جوانبه — الديالكتيك الهيجلى، الذى يؤول بحركة العالم الى السكون وعــدم التغيير ، بمجرد بلوغها مرحلة تجلى المتوحد[٤٣] •

ومنها (حادى عشر) أننا اذا افترضنا — طبقا للتفسير المادى — أن الاخلاق فى عصر معين هى مجرد انعكاس لاسلوب الانتاج الذى يعيش فيه جماعة الناس ، نتج عن ذلك أن الاخلاق فى كل حقبة تاريخية تالية، لابد أن تكون — حتما — أسمى من أخلاق العصر الذى سبقها ، طبقا لما يراه ماركس من أن النظام الاقتصادى الذى يوجد فى حقبة معينة من

---

(٤٢) عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١٢٢ ، عماد الدين خليل : المرجع السابق •
(٤٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٥ •

التاريخ يحل محله دائما نظام أرفع ، لان قوى الانتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت فى هدمه ، وبما أن النظام الاقتصادى الجديد الناشىء من القديم ، هو بصورة عامة تقدمى ، ويصور درجة أرفع من العدالة الاجتماعية ، فمن الواضح أنه يجب أن يأتى معه بأخلاق أسمى ، لو كان التاريخ سجلا لتقدم مستمر من جميع نواحيه ، ولكنه بنفس المقدار سجل لفساد وانحطاط ، ورغم الخطوات الهائلة التى خطاها الانسان فى تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية،ورغم التقدم الذى يحرزه العلم فى كل يوم ، فى شكل اختراعات لا تخطر فى الخيال ، فان الانسان ليس بخير أبدا من ناحية الاخلاق ، ومن ثم ، فمن أجل هذا الخطأ فى مسألة التقدم البشرى ، يجب أن نفرق بين تقدم الفن الآلى والتقدم الاخلاقى ، وبين المدنية والحضارة(٤٤) .

(٦) التفسير الحضارى :

يخالف «أرنولد توينبى» (Arnold Toynbee) نهج المؤرخين الذين يعتبرون الامم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية ، ويرى : أن المجتمعات الاعظم اتساعا فى الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة ، أو أية جماعات سياسية أخرى ، هى المجالات المعقولة للدراسة التاريخية ، وبمعنى آخر ، أن المجتمعات الاعظم اتساعا فى الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة أو أية جماعات سياسية أخرى ، هى المجالات المعقولة للدراسة التاريخية وبمعنى آخر ، أن المجتمعات ــ وليس الدول ــ هو الوحدات الاجتماعية التى يجب أن يعنى بها دارسو التاريخ .

ثم يدرس «توينبى» بعد ذلك ما إنطوى عليه التاريخ الحضارى من المجتمعات دراسة مقارنة ، فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات

---

(٤٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، عبد الحميد صديقى : المرجع السابق ص ١١٥ ــ ١٢٠ ، وانظر
Joal, A Guide to the Modern Wickedness, pp. 262-263.

الاجتماعية التى تميزها خصائص معينة ، وتجمعها أطوار حضارية متشابهة وتصلح وحدها للدراسة التاريخية ، وهو يفرق بين المجتمعات البدائية والحضارية ، فى أن عدد الحضارات المعروفة أقل بكثير من عدد المجتمعات البدائية التى وجدت واندثرت منذ فجر التاريخ البشرى،وأن الجماعة التى يتكون منها المجتمع البدائى ، والرقعة الجغرافية التى تسكنها ، ومدى عمرها ، كل ذلك أصغر وأقل بكثير مما تبينه المؤرخ فى كيان الحضارات المعروفة،والتى من أهمها : الحضارة المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والمينوئية والهلينية والايرانية والعربية الاسلامية والهندية والصينية والانديانية والمايانية والارثذوكسية المسيحية ــ البيزنطية والروسية ــ والحضارة الغربية ، وان كان أكثر هذه الحضارات قد اندثر .

ثم يتناول «توينبى» ــ بحذر شديد ــ افتراض علم النفس الاجتماعى بوجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وطبيعة المزايا الفزيولوجية المتفاوتة فى الاجناس البشرية المختلفة ، ويذهب الى أن علم النفس الاجتماعى لم يتجاوز بعد مرحلة الطفولة ، وبالتالى لايصح الوثوق المطلق بنتيجة أبحاثه ، ثم يستعرض بعد تحفظه هذا عددا من النظريات العرقية ، ويبين ــ على ضوء ما قدمته الاجناس المختلفة من مشاركة فى انتاج الحضارات المتعددة ــ اخفاق تلك النظريات الاثنولوجية فى تفسير عملية النشوء الحضارى ، ومن ثم فالقول بتفوق الجنس الابيض بفروعه الثلاثة ــ النوردى والالبينى والأيبيرى ــ والادعاء بأن أبناء هذا الجنس هم الذين أنشأوا الحضارات وأمدوها بالعبقريات فى شتى مناحى الابداع ، والقول بامتياز العنصر الجرمانى على غيره من العناصر ، كل هذه الأقوال وغيرها تتهافت عند الوقوف على نتائج الدراسة الحضارية المقارنة التى تبين أن جميع الاجناس : الابيض ــ بفروعه الثلاثة ــ والبولينزى ــ الكورى والياباني ــ والاسمر والأصفر والاحمر ــ ماعدا الاسود ــ قد أسهمت فى العمران الحضارى .

هذا ويرى «توينبى» أيضا أن نظرية البيئة الجغرافية لا يمكن الاخذ

بها كذلك ، الا اذا قامت حضـارة مستقلة فى بيئات متماثلة جغرافيا ، صحيح ان حضـارتين أو ثلاثة على الاكثر ـ المصرية والسـومرية والسندية ـ من مجموع احدى وعشرين حضارة نشأت بصورة مستقلة فى بيئات متماثلة جغرافيا ، ولكنه صحيح كذلك أن نشوءها على هـذا الشكل لا يصح أتخاذه قاعدة،وانما حالة شاذة لا يصح اتخاذها قاعدة ومن ثم فان البيئة الجغرافية وحـدها ليست عاملا أساسيا فى نشوء الحضارات الاولى ، فهناك مثلا،أحواض أنهار تشبه وديان النيل ودجلة والفرات جغرافيا ، لم تنشأ فيها حضارة مستقلة مطلقا ، ولكن عندما استوطنتها جماعات ـ كالاوربيين المحـدثين ـ وعرفت كيف تستجيب استجابة ناجحة لتحدى البيئة الطبيعية هناك ـ نشأت فيها حضارات ، لم يتمكن السكان القدامى من انشائها بدافع البيئة الجغرافية وحدها •

ويذهب «توينبى» الى أن الحضارات قد نشأت فى بيئات مختلفة ، فقد تكون البيئة الطبيعية التى تساعد على قيام الحضارات بيئة رسوبية ـ كما فى مصر والسند والعراق ـ وقد تكون هضبة ـ كما فى موطن الحضارة الحثية والمكسيكية ـ أو قد تكون أرخبيلية ـ كما فى حضارتى الاغريق واليابان ـ وهذا يدل على أن أى نوع من المناخ والطوبوغرافية يمكن أن يكون بيئة طبيعية مساعدة للنشوء الحضـارى ، عندما يتوفر الحافز الاساسى ، ومن ثم فان السبب فى نشأة الحضارات متعددا،كما أنه ليس وحدة مستقلة ، ولكنه علاقة مشتركة •

ثم يعرض «توينبى» لعمليات«التحدى والاستجابة» وأثرها فى نشوء الحضارات ، حيث يبين أن أصول هذه العلاقة تتجلى فى التراث الدينى ـ الميثولوجى،حيث تتعدد الشواهد على ماكان للتحديات من أثر فعال فى شتى مناحى الابداع والتكامل ، كما فى قصة الحيـة ، وهناك نوع من الحضارات ينشأ نتيجة تحد بشرى يتمثل فى تحدى الفئة المسيطرة فى المدنية المنهارة للبروليتاريا الداخلية المتخيلة عن تلك الفئة بسبب فشلها، وللبروليتاريا الخارجية التى تقبع على حدود المواطن الحضارية ، والتى تتحفز لتقويض سيطرتها المتداعية ، وهو تحد تزيله الاستجابة الظافرة

المؤدية الى نشأة حضارة جديدة عن الحضارة الزائلة ، وهناك حضارات عليها أن تتغلب — الى جانب التحدى البشرى — على عقبات فى المواطن الجغرافية الجـديدة التى تستوطنها ، والتى لم تكن من قبـل موطنا للحضارة الزائلة ، وهناك حضارات كان عليها أن تتحدى البيئة الطبيعية — كما فى حوض النهر الاصفر — ومن هذا النوع الحضارة المصرية ، حيث استجابت جماعات — بعد انتهاء عصر الجـليد — لتحدى البيئة الطبيعية برحيلها الى وادى النيل ، حيث النهر العظيم والدلتا الخصيبة والمناخ الملائم ، وتغلبت عليها وسخرتها لاغراضها ، وأنشأت الحضارة المصرية العظيمة ، والأمر كـذلك الى حد قريب ، فيما يتصـل بنشأة الحضارة السومرية .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن لهذه التحديات — البشرية والطبيعية — مدى معينا لا تتعداه ، حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة فهى ليست مما يعجز البشر عنه ، ولا مما ينقاد له بسهولة ، ولكنها مما يثير أقصى طاقته على الكفاح ، وأن يفيد من هذا الكفاح ، فالرخاء المفرط فى البيئة عـدو الحضـارات اللدود ، ولذا ظلت الشراذم البشرية فى «نياز الاند» مثلا ، بدائية فى حياتها ، كغـيرها من المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية ، وفى نفس الوقت فـان قسوة العوائق فى البيئة قسوة خارقة انما تشل كذلك النشاط الانسانى ، وتسقط الاجنة الحضارية قبل تكاملها فى بطون الارضين العاقرة التى تحملها مدة ثم تلفظها عاجزة ضعيفة ، ومن ثم فقد ظل سكان بعض المناطق القطبية — كالاسكيمو — والصحراوية — كالبدو — عاجزين عن اللحـاق بأدنى المستويات الحضارية،وهكذا يبدو واضحا أن الدافع الحيوى فى عمليات النشوء الحضارى ، هو الاستجابة الظافرة لتحدى البيئة المناسبة[٤٥] .

وعلى أية حال ، فدور النمو فى الحضـارات ليس امتدادا طبيعيا

---

(٤٥) منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى — بيروت — دار العلم للملايين ١٩٦٠ ص ١١ — ٤٦ ، عمـاد خليل : المرجع السابق ص ٧٠ — ٧٧ .

ملازما لدور النشوء ، ومن ثم فهناك عدد من المجتمعـــات نشأت فيها حضارات،ولكنها توقفت عن النمو لعجز الاقلية فيها عن مغالبة التحديات القهارة فى بيئاتها الطبيعية الصارمة ــ كمناطق الاسكيمو والبدو ــ أو البشرية ــ كالمحيط البشرى للمجتمعين العثمانى والاسبارطى ــ كذلك لا يكفى أن تكـــون الاستجابات ناجحة بذاتها ، وانما يجب أن تستثير تحديات جديدة ، تتبعها استجابات جديدة ناجحة ، وهكذا يتكامل النمو •

ثم يتناول «توينبى» النظريات الشائعة التى تفسر النمو الحضارى، ويقيسه بمقياس ما تحققه الامة المتحضرة من انتصـــارات على البيئة الخارجية ، وهى انتصارات فى ميادين الفتوحات الجغرافية والصناعات والعلوم التقنية ، ويرى أن هذه النظريات تخلط بين الاغراض والجواهر وتعتبر التقدم «الكمى» سببا للازدهار ، وهو فى أكثر الاحايين ، ظاهرة سقوط وانحلال ، فالتوسع الجغرافى مثلا ، يحدث عادة فى زمن النهضات العسكرية فى تاريخ الحضارات ، وهو زمن «الدولة الجـــامعة» التى تؤسسها الاقليات المسيطرة للتعويض عن الانتصارات البناءة[٤٦] •

وأما عن سقوط الحضارات وانحلالها ، فان «توينبى» يدحض أهم الآراء التى ترد السقوط الحضارى الى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الانسان وارادته ، ومن ثم فهو ينفى السقوط على الاسس التالية :

١ ــ المبدأ القائل بصيرورة الكون الى الشيخوخة ، وانتهائه الى العدم المحتوم ، ويرى ــ مع الطبيعيين ــ أن هذا لن يحدث الا فى الابد السحيق ، ومن ثم فهو يستبعد تأثيره الفعلى على سقوط الحضارات •

٢ ــ الخضوع للمؤثرات البيولوجية ، ولناموس الكائنات الحية فى

---

(٤٦) نفس المرجع السابق ص ٧٧ ــ ٧٨ ، أرنولد توينبى : دراسة فى التاريخ ١١٩/٣ ، وانظر الاصل

A. Toynbee, A Study of History, London, Oxford Univ. Press, 1948.

الولادة والموت ، مرورا بأدوار العصر المختلفة ، والرأى عند توينبى أن المجتمعات ليست كائنات عضوية ، ومن ثم فهى لا تخضع لنواميسها .

٣ ــ التقيد بقانون التشابه ، أو مبدأ الحركة الدورية فى التاريخ، ويرى «تينبى» أن التشابه أو التكرار ظاهرة تقع فى مجرى الحوادث التاريخية ، ولكن الدولاب الذى يحمل عربة التاريخ ، ويدور على نفسه دورة رتيبة ، لا يستبقى العربة فى اطاره الثابت المحدود ، بل يدفعها نحو غايتها الكبرى فى حركة تقدمية مستمرة .

٤ ــ فقدان السيطرة على المحيط الانسانى ، والعجز عن صد الاعتداءات الخارجية على كيان الحضارات ، ويرى «توينبى» أن هذه الظاهرة ليست فى الواقع سببا للسقوط ، ولكنها نتيجة انهيار سابق كان قد حدث فى قلب الحضارات نفسها ، ويجد الدليل القاطع على هذا الانتحار الحضارى فى تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية .

٥ ــ النقص فى الميادين العلمية والتقنية ، ويرى «توينبى» أن سقوط الحضارات هو العلة ، وأن التأخر فى الميادين التقنية هو النتيجة.

على أن الرأى عند «توينبى» أن سقوط الحضارات انما يرجع الى أمور ثلاثة ، أولها : ضعف القوة الخلاقة فى الاقلية الموجهة ، وانقلابها الى سلطة تعسفية ، وثانيها : تخلى الاكثرية عن موالاة الاقلية الجديدة المسيطرة ، وكفها عن محاكاتها ، وثالثا : الانشقاق وضياع الوحدة فى كيان المجتمع كله[٤٧] .

ومن البدهى أن نظرية «أرنولد توينبى» فى تفسير التاريخ لم تسلم من نقد كثير من الباحثين ، وأشهرهم «بترم سوروكن» و«بيترجيل»[٤٨] .

---

(٤٧) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٨١ ــ ٨٣ ، منح خورى : المرجع السابق ٤/٤٠ .

(٤٨) انظر :

P. Geyl, Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, (Beacon Press) 1949, P. 107-126.

وكذا : منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ص١٠٧ ــ ١١٢ .

فأما «سوروكن» فالرأى عنده أن النظرية متهافتة فى مبدأين أساسيين، أولهما : اعتبار الحضارة وحدة معقولة للدراسة التاريخية ، وثانيهما : اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء الى النمو ثم السقوط ثم الانحلال أساسا لفلسفته التاريخية •

ويذهب «سوروكن» الى أن «توينبى» لايعنى بالحضارة مجرد مجال للدراسة التاريخية ، وانما يعنى نظاما موحـــدا أو كيانا كليا مرتبطة أجزاؤه بعضها بالبعض الاخر ، ارتباطا سببيا بحيث تستتبع التغير فى الجزء الواحد تغيرا فى الكل ، وبالعكس ، فان الحضارات ــ كما يقول توينبى ــ هى كيانات كلية،جميع أجزائها ملتحمة بعضها بالبعض الاخر، وجميعها مؤثرة بعضها فى البعض الاخر ، ومن خصائص هذه الحضارات فى دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ، ومظاهرها المختلفة منسقة فى كيان اجتماعى واحد ، كيـــان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية بعضها مع البعض الاخـــر فى حياة الجسم الاجتماعى النامى[٤٩] •

ويرى «سوروكن» أنه لو صح افتراض «توينبى» أن الحضارات كيانات حقيقية،لاستلزم التغير فى أحد مقوماتها تغيرا فى مجموع المقومات الاخرى ، ومن ثم فان حضارات «توينبى» ليست كيانات حقيقية،بدليل ما يذكره هو نفسه ، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيرا ما تتغير فى الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الاخرى ثابتة ، أو أن العكس هو الذى يحدث أحيانا ، أو أن الظواهر الاقتصادية فى حالات أخرى تتغير فى اتجاه ، بينما تتغير العناصر الباقية فى اتجاه مقابل ، بل ان توينبى انما يذهب الى أن العنصر الدينى أو الفنى أو السياسى كثيرا ما يبدو مستقلا عن غيره من العناصر فى ذلك الكل الحضارى ، ومن ثم فـــان «توينبى» ــ فيما يرى سوروكن ــ انما يقوض بنفسه أساس نظريته

---

(٤٩) أرنولد توينبى : دراسة فى التاريخ ٣/٣٨٠ •

القـــائلة : بأن الحضارات وحـــدة حقيقية ملتحمة الاجزاء بعضها مع البعض الاخر •

ثم يذهب «سوروكن» الى عدم وجود الوحدة الحضارية ، حتى فى ذلك الانسان الواحد ، فضلا عن وجودها فى مجالات ثقافية ، كالحضاره الهلينية أو الصينية ، وأن ما يسميه «توينبى» وحدة حضارية ، انما هو مجـــال ثقافى توجد فيه معا عناصر عـــديدة من الانظمة والتكتلات «الاجتماعية ـــ الثقافية» ، الكبيرة والصغيرة ، منسجمة فى جانب منها، ومتجاورة أو متباينة فى الجانب الاخر •

ومن ثم فان مبدأ الادوار الحضارية فى التفسير التوينبى انما يصبح فاسدا من أساسه ، فما ليس فى أصله بنية حية كاملة ، لايمكن أن يولد وينمو ويموت ، وبالتالى لا يصح اعتبـــار التفسير التوينبى نظرية فى التطور الحضارى ، بقدر ما هى نظرات تقييمية لاعراض التقـــدم أو التأخر الحضارى •

ثم ينتهى «سوروكن» الى أن هناك أخطـــاء أخرى فى مبدأ توينبى (الوحدة الحضارية ـــ الادوار الحضارية)منها (أولا) أن تقسيم توينبى الحضارات الى دنيا وعليا ، والى مجهضة ومتوقفة ومتحجرة ، تقسيم اعتباطى لا يعتد به ومنها (ثانيا) تفاوت مدد الادوار المختلفة التى تمر بها الحضارات يصبح هو الاخر تفاوتا مصطنعا لا تقره حقيقة الظاهرات التاريخية ، ولقد ظلت عملية الحياة الحضارية نفسها : متى وكيف نشأت سرا مغلقا ، كان على «توينبى» أن يعنى به قبل أن يعنى بدراسةأعراض المرض والانحـــلال والموت ، ومنها (ثالثا) أن اعتبار «توينبى» دور النشوء الحضارى فترة سلام دائم ، لا يؤيده واقع الاحداث التاريخية، وهو مردود بأكثر من شاهد ، فضلا عن أن أدوار الانحلال فى عدد من الحضارات ، كانت فى أحوال كثيرة ، أعمـــر بالسلام من أدوار النشوء والازدهار • ومنها (رابعـــا) أن ما يسنده «توينبى» الى الحضارات ـــ بتأثير فلسفة «اشبلنجر» على تفســـيره للتاريخ ـــ من الخصائص

الغالبة المميزة (جمالية عند الاغريق ، دينية عند اليهود ، آلية تقنية عند الغربيين) يدحضه كذلك الواقع التاريخى ، فقد كانت الحضارة الغربية متميزة بطابع دينى ، ولم تكن آلية تقنية على الاطلاق ، وكانت الحضارة الاسلامية ـ من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى ـ متميزة بطابع علمى ، لا تدانيها فيه الحضـارة الغربية ، ومن ثم فـان ما يسميه «توينبى» خصائص مميزة لطابع الحضارات ، ليس فى الواقع سـوى أحوال حضارية متبدلة تتناوبها الحضارات المختلفة ، وليست وقفا على واحدة منها دون الاخـرى ، ومنها (خامسا) ينتزع «توينبى» أغلب شواهده من تاريخ الدول القـومية ، مع أنه لا يعترف بها كوحدات للدراسة التاريخية ، وكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات ، لو صح وجودها كوحدات مستقلة ، ففى عمله هذا اذن تناقض صريح(٥٠) .

بقيت الاشارة الى أن «أرنولد توينبى» ـ رغم كل هـذا ـ فانه يقترب بنا خطوات واسعة صـوب الرؤية الصحيحة ، والنظرة الاكثر انفتاحا ، عندما يضع على ساحة الصراع والحركة ، طرفى المسألة،وهما: البيئة والانسان والجماعة ، ويعطى للجانب الاخر اختياره وحريته فى تقرير المصير .

وأما «جورج فلهلم فردريك هيجل» (G. W. F. Hegal) (١٧٧٠ ـ ١٨٣١م) فيقصر الصراع على نطاق الافكار ، ويرده الى مشيئة العقل الكلى الذى يعمل من خلال العالم نفسه ، لا من واقع فـوقى ، كما قد يتوهم البعض ، فيقربه خطأ من التصور الدينى ، وهو بهذا يجـرد الانسان والجماعة البشرية من اختيارها الحـر ، ودورها الارادى فى حركة التاريخ ، والماديون يفعـلون الشىء نفسه ، ولكن على مستوى المادة التى يجد الانسان والجماعة البشرية أنفسهم حيالها غير قادرين

---

(٥٠) عماد الدين خليل : المرجـع السابق ص ٨٩ ـ ٩٢ ، ارنولد توينبى : المرجع السابق ص ٣٨٠ .

على تغيير منطقها الجدلى الصارم الذى يمضى لغايته دونما لختيار أو تدخل بشرى فى علاقاته الديالكتيكية[٥١] •

غير أن أيا من رواد المذاهب التفسيرية الثـلاثة للتاريخ (المثالية والمادية والحضارية) لم يأتوا بجديد فى أهم معطياتهم على الاطلاق ، وهو التأكيد على أن محور الفاعلية الحضارية ، وأس الاسس فى الحركة التاريخية ، هو الصراع أو الجدل (الديالكتيك) أو تحـاور النقائض المتقابلة •

وأما الموقف الاسلامى — مستمدا من كتاب الله — فبمجرد أن نرجع الى واقعة خلق آدم ، سنلتقى بقوله تعالى «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافـرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين»[٥٢] ، فالصراع اذن من أول لحظة ، لان ذلك هو جوهر الحياة البشرية وتميزها عن سائر الحيوان الادنى أو الارقى[٥٣] •

ولعـل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك تفسيرين للتاريخ يرتبطان — الى حد كبير — بالقرآن الكريم ، هما : التفسير الأخلاقى والتفسير الاسلامى ، وان كان الثانى أشد ارتباطا بالقرآن من الأول •

(٧) التفسير الاخـلاقى :

لعل من الجدير بالاشارة هنا أن اصطلاح «حكم التاريخ» ، هو لفظ كثير التداول على الالسنة ، خاصة عندما تختل الموازين ، ويكثر الجدل

---

(٥١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٢ — ٢٣٣ •
(٥٢) سورة البقرة : آية ٣٤ — ٣٦ •
(٥٣) انظر عن أنواع الصراع ، كما جاء فى القرآن الكريم : الانبياء: آية ٣٥ ، طه : آية ١٢٣ — ١٢٤ ، العنكبوت : آية ٢ — ٣ ، ص : آية ٢٤ ، البروج: آية ١٠ ، وانظر : عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٢٣٣ — ٢٥١ •

حول تقويم شخصية تاريخية ، فان لم ينل فـــرد جليل القدر ، عظيم الشأن قدره بين الناس ، بل ربما انقلبوا عليه ، وطاردوه ، مع صواب آرائه ، حتى مات شريدا طريدا ، وربما قتيلا شهيدا ، فان عزاء الناس بعد موته ، حين تتبين حكمته ، وسداد آرائه ، قيـــل : ان التاريخ قد حكم له ، والعكس صحيح ، فاذا ما أحاطت بالشخص بطولة زائفة ، اصطنعها لنفسه ، وروجتها له حاشية من الأتباع ، وجماهير من الغوغاء حتى تأسف القلة الراشدة من اضطراب الاحكام ، وانقلاب الموازين ، فان العزاء أيضا فى «حكم التاريخ» الذى سيحكم عليه بما هو أهل له.
على أن هناك تناقضا فى مقولة «حكم التاريخ» هذه ، ذلك أن مفهـــوم التاريخ انما له دلالة الى الماضى ، بينما ينطوى القول بحكم التاريخ على المستقبل ، فحكم التاريخ فينا ، أى حكم الاجيال القادمة علينا ، فكيف هو يتعلق بالماضى ، بينما تتعلق أحكامه بالمستقبل ؟ وهنا قد يقال ، ولكن التاريخ لايحكم علينا ، الا بعد أن نصبح جـــزءا من الماضى ، ومن ثم ندخل فى مجال موضوعه ، ولكن هل يصـــدر التاريخ أحكاما على من اصطلح على تسميتهم : أنهم دخلوا التاريخ ، وهنا يذهب الباحثون الى مذهبين مختلفين .

الاول : يعارض أصحـــابه ادانة الشخصيات التاريخية ، مادام صاحبها قد مات وهو على كرسى الحكم — وهذا هو الاغلب — فانه لم يحاكم فى حياته ، فان كان طاغية فان أحدا من المؤرخين من مواطنيه ، لا يجرؤ على نقد أفعاله ، وقد جرب «كروتشه» صاحب هذا الاتجاه ذلك على أيام «موسولينى» (١٨٨٣ — ١٩٤٥م)[٥٤] .

والثانى : أن الحكم على من أصبحوا فى ذمة التاريخ ، لاسيما اذا ما مر على وفاتهم زمن طويل،أكثر موضوعية من الحكم عليهم فى حياتهم والعكس صحيح أن قرب العهد بوفاتهم ، اذ أن مرجل الاحداث مازال

(٥٤) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٠ — ٩١ ، وكذا
B. Croce, History of Liberty, p. 47.

يغلى ، فلا تتضح الرؤية السياسية ، فضلا عن أن ضحاياه مايزالون على قيد الحياة ، وبالتالى فهم يؤثرون عاطفيا على حكم المؤرخ ، بخلاف من أصبح هو وضحاياه فى ذمة التاريخ ، مثل شرلمان أو نابليون[55] .

وعلى أية حال ، فان حكم التاريخ لا يتعـــلق بالسيرة الشخصية ، مادامت لا تتعلق بأعمال الشخصية التاريخية العامة ، وعلى العكس،فان كثيرا من مؤسسى الدول — كما لاحظ ابن خلدون بحق — تكون حياتهم الشخصية على درجة كبيرة من الاستقامة لأن شدة الصراع لا تدعهم فى حالة من الدعة ، حتى ينغمسوا فى الترف والملذات ، مع أن حياتهم العامة انما تنطوى على شىء كثير من الظلم وسفك الدماء ، حتى يغرس المهابة فى قلوب الرعية ، على نحـــو ما ادعى مؤسسا الدولة العباسية السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ) والمنصور[56] (١٣٦ — ١٥٨هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥م) .

ولعل سائلا يتساءل : لماذا يحجم المؤرخـــون عن اصـــدار أحكام أخلاقية ، ولماذا اتهم «كروتشه» من يفعل ذلك منهم بأنه تجـــرد من الحاسة التاريخية ؟

ولعل الاجابة تكمن فى نقاط ، منها (أولا) أن كثيرا من المؤرخين انما يذهبون الى أن التقويم الاخلاقى خروج عن الموضوعية،لان مهمة المؤرخ — فيما يرى رانكه — تصوير الواقع ، كما كان صورة مطابقة بقـــدر الامكان ، فالوصف التاريخى صورة تقريرية ، بينما الاحكام التاريخية تقديرية ، ومن ثم فاذا كان التاريخ علما ، فان من خصـــائص العلم التجرد عن الاهواء الذاتية ، وأن انتماء الذات والموضـــوع الى مقولة واحدة (هى الانسان) فى التاريخ ، لا يعنى التهاون فى الموضوعية،ومنها (ثانيا) أن الانسان يميل الى تشخيص ما هو عام،ومن ثم فاذا مااعتبرنا الزعيم أو الحاكم حصيلة مجتمعه ، وكانت الكوارث نتيجة خطأ شعب بأكمله ، فان المؤرخ لن يجد سوى شخص الحاكم أو الزعيم يحمـــله

55. E. Carr, What is History, Penguin, 1961, p. 78.

(٥٦) احمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩١ — ٩٢ .

مسئولية هذه الشرور ، وعلى سبيل المثـــال ، فشرور الحرب العالمية الثانية ، والكوارث التى حاقت بألمانيا ، قد ألقيت تبعيتها على «أدولف هتلر» (١٨٨٩ — ١٩٤٥م) ، بينما قد شارك فى خلق العسكرية الالمانية والنزعة العنصرية كثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة الالمان .

ومنها (ثالثا) أن الاحكام التاريخية قد تعوق المؤرخ عن أن يتعمق فى فهم الشخصيات — موضوع دراسته — فضلا عن أن فى ذلك اضفاء تصورات الحاضر وتقييماته على الماضى ، ذلك لان التقويم انما ينطوى على معايير نسبية ، تختلف من عصر الى آخر ، بل من مجتمع الى آخر ، ومن ثم يتعذر حكم التاريخ موضوعيا أو محايداً ، الأمر الذى دفع كثيرا من المؤرخين أن ينصبوا أنفسهم قضاة لمحاكمة الشخصيات التاريخية ، بدعوى الحياد من جهة ، واستقلال التاريخ عن الاخلاق من جهة أخرى وقد ذهب «هيجل» الى أن معنى الدولة خارج عن نطاق التقييم الاخلاقى العادى للافراد ، وهذا ينطوى على اعتبار شخصيات التاريخ السياسية والعسكرية فوق مستوى القيم الاخلاقية .

على أن هذه الاعتبارات — مع وجاهتها الى حد ما — لا تعنى أبداً أن تصبح الدراسة التـــاريخية لا طعم لها ، أو أن يصبح المؤرخ بليد الحس ، والا فلا قيمة للدراسات التاريخية ، وانما أريد لهذه الاعتبارات أن تضع على حكم المؤرخ قيوداً تكون بمثابة قانون أو تشريع يلتزم به القاضى ، فليس من حقه أن يحيد عنه،وبمعنى آخر ، أن يتساءل المؤرخ قبل أن يصدر حكمه : هل لزم عن هذه الشرور انجازات حضارية أفادت الانسانية عامة ، ووطن الزعيم خاصة ؟ وهل لم يجد هذا الزعيم بديلا عن الطرق التى سلكها حتى يجنب وطنه ما وقع بسببه من ويلات الحروب والمظالم والاعتقال والتعذيب ؟ وهل أسرف فى سفك الدماء والتخريب والهدم دون مبرر ، وفى ضـــوء مثل هذه التساؤلات ، لا يجد المؤرخ حرجا فى أن يدين أمثال نيرون (٣٧ — ٦٨م) وجنكيزخـــان (١١٦٧ — ١٢٢٧م) من الساسة والقواد الذين لم تنطـــو أعمالهم على أية قيمة حضارية ، بل على العكس هدم لكل حضارة ، بل ليس من حرج على

المؤرخ أن يحاكم أولئك الذين تسببت رعوناتهم فى كوارث لأوطانهم ، ما كانت هذه لتقع لولا مجرد شهوة التسلط والحكم ، وما أكثرهم فى عصور التاريخ المختلفة •

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أن المؤرخين حين يتجاهلون التقويم الاخلاقى انما يفرضون هذا الحياد على الدراسات التاريخية ، بينما لم يفترضه الاشخاص — موضوع الدراسة — ليس لان أعمالهم منافية للاخـــلاق فحسب ، بل لانهم أيضا انما يتلمسون مبررات أخلاقية لتبرير شرورهم ، والواقع أن قليلا أو كثيرا من كتب التاريخ ، انما كتبت تمجيدا لفرد — سواء أكان ذلك عن رغبة أو رهبة — كما أن تطويع الماضى لمقتضيات الحاضر — أى النزعة المثالية التى تريد أن تجعل التاريخ عصريا — أفليس من واجب المؤرخ أن يعيد الحق الى نصابه ، باعادة تقويم الشخصيات التاريخية ، ومن ثم اصدار الاحكام الاخلاقية ، حتى يظل لفظ «حكم التاريخ» ، كما تتصوره الاذهان، سلطة مهابة تتجاوز حدود الزمان والمكان هى سر هيبة التاريخ ، وقداسته[٥٧] •

وهنا لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك نوعين من حكم التاريخ ، الواحد : أخلاقى ، والثانى : غير أخلاقى •

وأما الاخلاقى فيمثله العرض التاريخى لقصص القرآن الكريم ، والذى يهدف الى أمرين : الحق والموعظة كما تحددهما الآية الكريمة «وجاءك فى هذا الحـــق وموعظة وذكرى للمؤمنين»[٥٨] ، بل ربما تكاد الموعظة أن تكون فى المحل الاول من الاعتبار ، «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى»[٥٩] ، وهكذا استبدل القرآن مقولتى الزمان والمكان فى قصص التوراة (العهد القديم) مقولة الموعظة أو الذكرى أو الهدى ، وكان لابد أن يتخذ القرآن طابعا أخلاقيا حتى

---

(٥٧) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٥ •
(٥٨) سورة هود : آية ١٢٠ •
(٥٩) سورة يوسف : آية ١١١ •

نتبين فيه الموعظة ومن ثم فقد نقح قصص التوراة من كثير مما جاء فيها من كبائر منسوبة الى الانبياء ، وأبرزهم فى صورة تليق بهم ، لانهم الاسوة الحسنة للناس جميعا .

والواقع أن من يقرأ ما كتب عن الانبياء فى توراة يهـــود المتداولة اليوم ، ليصاب بالغثيان ، والا فكيف يتصور عاقل ما ترويه التوراة من أن ابراهيم عليه السلام قد هاجر بزوجه «سارة» الى مصر ، يطلب فيها الشبع والرى من بلاد كنعان التى ضربها القحـــط والجفاف ، وعندما أشرف على تخوم مصر ، اتفق معها أن تقول : انها أخته ، وليست زوجه لان المصريين ان علموا أنها زوجـــه قتلوه ، وأما ان كانت أخته ، فمن أجلها أكرموه[60] .

وسرعان ما يحدث ما توقعه أبو الانبياء ، عليه السلام ، فبرت سارة بوعدها ، وأخذت الى بيت الملك ونال ابراهيم خيرا بسببها ، اذ أسبغ عليه فرعون بسبب سارة وافر نعمه من غنم وبقر واتن وحمير وجمال واماء ، غير أن المصائب سرعان ما توالت على ملك مصر وقومه ، مما اضطره الى أن يستدعى ابراهيم ويؤنبه على فعلته هذه ، ثم أمر بطرده هو وزوجه ، وان سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه من قبل[61] .

وهكذا كان ابراهيم المجـــاهد بنفسه وولده وماله ، والذى حطم الأصنام ، وتحدى الجبابرة الطغاة ، وألقى به فى النار ، فأنجاه الله فى كفاح طويل ، وجهاد موصول ، كان للناس اماما ، وعلى مدراجه أو من نسله درج الانبياء[62] ، ابراهيم العظيم هذا لم تراه توراة يهود — وليست توراة موسى — الا رجلا لا هم له سوى الغنم والبقر والاتن والجمال

---

(٦٠) التوراة : سفر التكوين ١٢/١٠ — ١٣ .
(٦١) تكوين ١٢/١٤ — ٢٠ .
(٦٢) انظر : سورة التوبة : آية ١١٤ ، النحل : آية ١٢٠ — ١٢٢ ، مريم : آية ٤١ — ٤٨ ، الانبياء : آية ٥١ — ٧٣ ، العنكبوت : آية ١٦ — ٢٧ ، الصافات : آية ٨٣ — ٩٩ ، الممتحنة : آية ٤ .

والاماء والعبيد ، متخذا من الوسائل أحطها ، ومن الطرق أحقرها،فحاشا ابراهيم العظيم أن يكون سفيها ، وحاشا سارة أن تكون بغيا[٦٣] .

ومن ثم فان القرآن الكريم انما يحرص على أن يقدم لنا ابراهيم عليه السلام ، على أنه كان وحده أمة من الامم ، جامعا لكل الفضائل النبيلة ، يقول تعالى «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لانعمه ، اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وانه فى الاخرة لمن الصـــالحين»[٦٤] ، ومن هنا كان ابراهيم فى القرآن الاسوة الحسنة للمؤمنين جميعا «لقد كان لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه»[٦٥] .

وينظر القرآن الى ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أنه أبو الانبياء،فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الانبياء ـ بعد ابراهيم ـ فمن ذريته وشيعته[٦٦] ، وهذه مرتبة لابراهيم لا يعلو عليها أية رتبة، ذلك أن الله تعالى انما أخرج من صلبه أنبيـــاء بررة ، حملوا الراية ، وتوارثوا المشعل ، فكان منهم : اسماعيل واسحاق ويعقوب ، وكان يحيى واليسع وزكريا والياس ، وكان داود وسليمان ويوسف وهارون ، وكان موسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٦٧] ، بل ان القرآن انما يقول لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ «ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا»[٦٨] ، ويقـــول «ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الاخرة لمن الصالحين[٦٩] ، وابراهيم ـ فى نظر القرآن ـ أحد أولى العـــزم

---

(٦٣) انظر : محمد بيومى مهـــران : اسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٦٧ ـ ١٨٢ .

(٦٤) سورة النحل : آية ١٢٠ ـ ١٢٢ .

(٦٥) سورة الممتحنة : آية ٤ .

(٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ١٦٧/١ (بيروت١٩٦٥) .

(٦٧) سورة الانعام : آية ٨٣ ـ ٨٧ .

(٦٨) سورة النحل : آية ١٢٣ .

(٦٩) سورة البقرة : آية ١٣٠ .

الخمسة : محمد وابراهيم ونوح وموسى وعيسى[٧٠] ، وهو — فى نظر المسلمين — أفضل الانبياء والمرسلين — بعد سيدنا محمد ﷺ — وليس أدل على هـذه الافضلية من أن المسلمين يصلون على ابراهيم وآله ويباركونهم ، كما يصلون على نبيهم محمد وآله ويباركونهم ، كما علمهم نبيهم ﷺ[٧١] .

ويدهى أن ما يقال عن ابراهيم فى القرآن ، يقال عن غيره من الانبياء والمرسلين ، تلك الصفوة المختارة من عباده ، بعثوا بأمر ربهم هـداة راشدين ، واختارهم — سبحانه وتعالى — مبشرين ومنذرين واصطفاهم من خلقـه ، وصدق الله العظيم حيث يقـول «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٧٢] ، ومن ثم فقـد أوجب لهم العصمة الكاملة ، لتصح بهم القدوة ، وتقوم بهم الحجة ، فلا يكون من أحدهم عمل ينال من كرامته ، أو يقدح فى عدالته ، أو يحط من منزلته العلية بين ذوى المروءات والعقول الراجحة ، وذلك بعكس ما جاء عنهم فى التوراة[٧٣] .

هذا وقد حدد الثعالبى الحكمة من قصص القرآن ، وما ذكره عن أخبار الأنبياء والامم السالفة ، فقال : قالت الحكماء ان الله تعالى قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الانبياء والامم الخالية لخمسة أمور ، أى حكم ، الحكمة الاولى : أنه اظهار لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته ، والثانية ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والانبياء المتقدمين ، والثالثة : تثبيتا واعلاما بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، والرابعة : تأديبا وتهذيبا لامته ، والخامسة : احياء لذكرى الانبيـاء

---

(٧٠) سورة الاحزاب : اية ٧ ، الشورى : آية ١٣ .

(٧١) صحيح مسلم بشرح النووى ٤٧/٢ — ٥٠ .

(٧٢) سورة الانعام : آية ١٢٤ .

(٧٣) انظر عن لوط (تكوين ١٩/٣٠ — ٣٨) واسحاق «تكوين ٣٦/١ — ١١» ويعقون (تكوين ٢٧/٣٠ — ٣٦) وموسى (تثنية ٣/٢٥ — ٢٨ ، ٣٢/٣٨ — ٥٢ ، عدد ٣١/١ — ١٨) وهارون (خروج ٢/٢ — ٦ ، عدد ١٢/١ — ١٥) وداود (صموئيل ثان ١١/٢ — ٢٧ ، ٢٢/٢ — ٢٥) وسليمان (ملوك أول ٤٢/ — ٥٣ ، ٥/٢ — ٤٦) ، وانظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/١٦٢ — ٢١٨ .

والصالحين وآثارهم ، ليكون المحسن منهم فى ابقاء ذكره ، مثبتـــا له تعجيل جـــزاء فى الدنيا ، حتى يبقى ذكـــره وآثاره الحسنة الى قيام الساعة[٧٤] .

ولا ريب فى أن المؤرخين المسلمين انما قد تأثروا فى كتاباتهم بالهدف الاساسى الذى حدده القرآن ــ أى العبرة والموعظة ــ وهكذا فما من مؤرخ الا وقدم لكتابه بتحديد هدف التاريخ ، وهو العبرة ، يقـــول المسعودى (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) : انه علم يستمتع به الجاهل والعالم ... ومكارم الاخلاق ومعاليها منه تقتبس ، وآداب سياسة الملوك وغيرهـــا منه تلتمس»[٧٥] ، ويقول ابن خلدون : اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الامم فى أخلاقهم ، والانبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا[٧٦]،ويقول المقريزى (٧٦٦ ــ ٨٤٥هـ) فى كتابه «المواعظ والاعتبـــار بذكر الخطط والاثار» : ومنفعته (أى التاريخ) أن يشرف المرء فى وقت قصير على ما كان ... من الحوادث والتغييرات فى الازمنة المتطاولة والاعـــوام الكثيرة ، فتتهذب بتدبير ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه ، فيحب الخير وينفعه ، ويكره الشر ويجتنبه[٧٧] .

وهكذا تحدد مفهوم التاريخ عند المؤرخين المسلمين فى أمرين،الواحد أن أحداث التاريخ ــ بصرف النظر عن الارتباط بينها ــ انما تكشف عن معنى أو مغزى ، أنها للعظة والاعتبار ، والثانى : أن يكون للتاريخ هدف آخر ، خارج عن نطاق هذا العالم ــ أى هدف أخروى ــ ولما كان من

---

(٧٤) الثعالبى : قصص الانبياء ــ المسمى عرائس المجالس ــ القاهرة ط : الحلبى ١٩٧٦ ص ٢ ــ ٣ .

(٧٥) على بن الحسين المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجـوهر ــ الجزء الاول ــ بيروت ١٩٧٣ .

(٧٦) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ــ بيروت ــ دار القلم ــ ١٩٨١ ص ٩ .

(٧٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار .

المتعذر أن يستخلص الهدف الإخلاقى من سير معظم الملوك والحكام ، كان لابد أن يتسع مفهوم التاريخ ، ليشمل أصحاب السيرة الحسنة من الانبياء والعلماء والحكماء ، ومن ثم فقد كانت «كتب الطبقات» ، ومن ثم فقد كان هؤلاء أيضا محور لتاريخ ، وليس أشخاص الحكام والقواد أو أخبار السياسة والحرب ، فحسب[78] .

على أن المؤرخين المسلمين لم ينفردوا بهذا المضمون الخلقى للتاريخ ومن ثم فقد رأينا «مارتن لوثر» (١٤٨٣ – ١٥٤٦م) – زعيم الإصلاح البروتستانتى – يقول عن التاريخ : انه يرينا أنفسنا على حقيقتها ، وكأنما ننظر فى مرآة تنعكس عليها خلجاتنا ، وأنه لابد من الافادة به فى سلوكنا ، واتخاذه معيارا نحكم به على أعمال الافراد على اختلافهم ، حتى يكون حكمنا عليهم أقرب الى العدالة ، ويقول أيضا : ان دراسة التاريخ ترينا كيف تحسن خاتمة المتمسكين بالفضيلة والتقوى ، وكيف يسوء مصير من يسلمون أنفسهم للشيطان ، ويبدو أن رأيه هذا ، انما كان انعكاسا لايمانه الدينى ، ومن ثم فهو يقول : ان المادة التاريخية قادرة على أن تهدينا الى آيات الله البينات ، وتبصرنا بكل ما يبهرنا من أعمال هذا الكون الفسيح[79] ، وفى العصر الحديث يذهب «لورد اكتون» فى رسالته الى «كريتون» الى نفس المعنى ، حيث يقول : ان القانون الخلقى هو سر سلطة التاريخ وهيبته وفائدته ، وأن التاريخ يجب أن يكون حكما بين المتخاصمين ، ودليلا للحائرين[80] .

وأما الاتجاه الثانى غير الاخلاقى – فهو الاتجاه «المكيافيلى» والذى ينادى بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو مبدأ نادى به «نيقولا مكيافيلى» (N. Machiavelli) (١٤٦٧ – ١٥٢٧م) فى كتابه «الامير» ، وخلاصته : طلاق تام لا رجعة فيه بين السياسة والاخلاق ، بعد أن كان «أرسطو»

---

(٧٨) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٧٩) حكمت أبو زيد : التاريخ وتعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر – القاهرة – مكتبة الانجلو – ١٩٦١ ص ١٧ .

80. E. H. Carr, What is History, (Penguin, 1961), p. 77.

(٣٨٤ — ٣٢٢ ق٠م) قد عقد زواجا بينهما ، ولازال الطلاق قائما بين السياسة والاخلاق لسوء حظ الانسانية ، ولما كان التاريخ — تاريخ أفراد — يتبع السياسة كظلها ، فقد انعكس ذلك على اتجاه خطير فى التاريخ لا يتخذ موقف الحياد الاخـــلاقى فحسب ، بل يتبنى موقفا لا أخلاقيا ، اذ يمجد كل عمل لا أخلاقى مادامت الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فان منطـــق الدولة (Raison d'Etat) يقتضى المحافظة عليها بأى ثمن ، وأية وسيلة ، ان تأسيس دولة من القانون والنظام انما يكون بوسائل غير قانونية ، وان الحاكم من أجل الاحتفاظ بالسلطة فى الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة ، وبغـــير اخلاص ، وأن يتجـــرد من الانسانية،بل حتى من تعاليم الدين ، فكل شىء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة ، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ به هو الهدف ، كما أن الطلاق قائم بين الاخلاق والسياسة ، لان فلاسفة الأخلاق يخلقون فى دنيـــا الاحلام ، بينما السياسة تستند الى قوى الواقع والحقائق الملموسة •

هذا وقد عبر «ماينكه» — أشهر مؤرخى الالمان المعاصرين — بعبارته «القوة للدولة كالغذاء للانسان» ، كما تهكم من المؤرخين الذين يريدون تقويم التاريخ وفقا لقيم أخـــلاقية ، انهم كرهبان العصور الوسطى يتحدثون عن الوقائع السياسية بلغة منبرية ، وان مظهرهم ليبدو كمن يسير فى الطريق فى عصرنا مرتديا زيا من العصور القديمة ، انه نشاز من الماضى يعيش فى الحاضر ، ثم يقول : لا توجد صداقات دائمة،وانما هناك مصـــالح دائمة ، أنا مع وطنى دائما ، على الحـــق كان أم على الباطل[٨١] •

على أن «ميكافيلى» لا يعد وحده مسئولا عن الاتجاه اللا أخلاقى للدولة ، وانما قد مكن لهذا الاتجاه أن هناك — سواء فى السياسة أو الحرب — فلاسفة ألمان على رأسهم «جـــورج فلهلم فردريك هيجل»

---

(٨١) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٩٩ — ١٠٠،وكذا Friedrich Meinecze, Machiavellism, in Politics and History, Transl. by Douglas Scott, 1975.

(١٧٧٠ — ١٨٣١م) ، الذى فصل بين أخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، ثم أوجد لأخلاق الدولة مبرراتها من فلسفته للتاريخ •

ثم جاء مواطنه «فردريك فلهلم نيتشه» (١٨٤٤ — ١٩٠٠م) فمزق تلك العلاقة الرقيقة من القيم الخلقية التى كان أبطال التاريخ مايزالون متقنعين خلفها ، ومع أن «نيتشه» انما يعنى فى فلسفته بالفرد ، وليس بالدولة ؟ فان الانسان الاعلى ، كما رسم صورته ، لابد أن يكون مستندا الى منطق القوة ، فليس فى الحياة شئ ذو قيمة الا بالقوة ، ثم أعلن صراحة ادانته لما أسماه «أخلاق العبيد» لانها تهدف الى سيطرة المنحطين من البشر وقيمهم ، ولا غرض الا اخضاع السادة لهم بما يعلنونه من مبادئ الشفقة والاحسان والمساواة والحرية ، وليست هــذه سوى أكاذيب كبرى فى وجه طبيعة الاشياء التى تقتضى سيادة القوة •

ثم يمجد «نيتشه» ذلك الانسان الاعلى ، والذى تصدر جميع أفعاله عن ارادة القوة ، فلا يرى فى الحياة الا ارادة الاستيلاء على الاخرين وهضم حقوقهم ، واغتصاب أملاكهم ؟ ان الحياة لديه عنصر افناء وهدم وايذاء ، وأن هذا الانسان الاعلى انما يلخص حيوية عصره وقوته ، ولو كان ذلك على حساب الاخرين من الاغلبية الساحقة كما لخص «نابليون» تاريخ أوربا فى الفترة (١٧٨٩ — ١٨١٥م) فتجسدت آمال عصره فى شخصه ، وكان بذلك أمشاجا من اللاانسان والانسان الاعلى •

هذا وبقدر صراحة «نيتشه» هــذه وجرأته فى هدم القيم الخلقية السائدة ، كان جريئا فى التعبير عن مآل الدولة التى تصل الى هذا الحال من هدم القيم وعدم الاكتراث ببؤس الجماهير ، وازدراء أخلاقهم ، وتمجيد الحرب ، وتقديس البطل الذى تجرد من الاخلاق[٨٢] •

---

(٨٢) عبد الرحمن بدوى : نيتشه — ط الثالثة ١٩٥٦ ص ١١٩ ، ١٦٤ ، أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠١ ، وكذا
B. Russel, Op. Cit., p. 790-800.

(٨) التفسير الاسلامى :

ان القرآن الكريم لا يقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهنى ، أو اشبع حاجة المؤمنين الى القصص والصور والمشاهدات ، ولا لنزعة «أكاديمية» فيه تسعى الى تتبع ما حدث فعلا بأكبر قدر من الامانة ، ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذى حدث واشاراته الاخلاقية ، انما يجىء القرآن بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن يحرك الانسان صوب الاهداف التى رسمها الاسلام[٨٣] ، ويبعده — فى الوقت ذاته ، فردا وجماعــة — عن المزالق والمنعرجات التى أودت بمئات من الامم والشعوب ، هذا فضلا عن ابراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والاسلامية (بعموم معنى الاسلام) ، فالحركة — لا مجرد الاستقصاء الاكاديمى ، أو السرد الفنى ، الذى هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوى — أبدا هدف العروض التاريخية للقرآن الكريم ، كما أنها — فى الوقت نفسه — هدف «الايديولوجيات» المعــاصرة التى سبرت — بدرجــة أو أخرى — أغوار التاريخ البشرى ، وقــدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التى تمخضت عن تلك الرحــلات الطويلة فى ميادين التاريخ[٨٤] ، قال تعالى «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ، هذا بيان للنــاس وهدى

---

(٨٣) الاسلام فى لغة القرآن ، ليس اسما لدين خاص ، وانما هــو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الانبياء ، أو انتسب اليه كل أتباع الانبياء ، ومن ثم فهو دين الاولين والاخرين ، وهو الطاعة والامتثال لله تعالى ، ويقول ابن تيمية : الاسلام : هو أن يستسلم الانسان لله لا لغيره، فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ، ويتوكل عليه وحــده ، ويرجوه ويخــافه وحده ، ويحب الله المحبة التامة ، ولا يحب مخلوقا كحبه لله ، ويوالى لله ، ويعادى لله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلما ومن يعبد مع الله غيره لم يكن مسلما (ابن تيمية : كتــاب النبوات ص ٨٧ ، محمــد الراوى : الدعوى الاسلامية دعوة عالمية ص ٥٦ ، محمد بيومى مهــران : اسرائيل ٣/١٧٩ — ١٨٠ .

(٨٤) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ ــ بيروت ، دار العلم للملايين ــ ١٩٨٣ ص ٨ .

وموعظـــة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحـــزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين»[٨٥] .

وهكذا نستطيع أن نعرف من قصـــة قوم «مدين»[٨٦] أن مجتمع مدين ـــ[٨٧] زيادة على ماكانت تسوده من وثنية ـــ كان مجتمعا جشعا يستغل المال على حساب قوت الناس ومعيشتهم بتنقيص الكيل والميزان عند البيع ويبخس الناس أشياءهم عند الشراء، كما كانوا مفسدين فى الارض يقطعون الطريق على الناس ، ويفتنون بالمؤمنين فى دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ، فقد روي عن ابن عباس ـــ حـــبر الامة وترجمـــان القرآن ـــ أنهم كانوا يجلسون فى الطريق ، فيقول عن نبيهم : ان شعيبا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ، ورغم تكرار النصح لهم من نبيهم ، فقد تمادوا فى الشرك والظلم والفساد ، فكانت عاقبتهم ذلك الزلزال الذى دمرهم ، ودمر كل ما جمعوا وشيدوا .

وهكذا لكل قصة[٨٨] فى القرآن الكريم أبعاد ، ففى قصـــة مدين يعرف الناس كيف تتصل المعاملات بالعقيدة ، وكيف يتدخل الدين فى الاقتصاد ، فيربط بين الايمان بالله ، والسـلوك الشخصى فى الحياة ، والمعاملات المادية فى الاسواق ، وكيف تمر الاشياء بمراحل تحول نتيجة لظروف معينة ، ولكن ما يترتب عليها من نتائج الخير أو الشر لايتغير باختلاف الازمان والاشكال ، فلئن وقع بالأمس ظلم للانسان باستعباده وجعله سلعة تباع وتشترى فى أســواق النخاسة ، فانه يقبــع اليوم

---

(٨٥) سورة آل عمران : آية ١٣٧ ـــ ١٣٩ .

(٨٦) سورة هود : آية ٨٣ ـــ ٩٥ .

(٨٧) انظر : عن قصة مدين ، ونبيهم شعيب عليه السلام (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الرياض ـ جـامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ ١٩٨٠ ص ٢٨٩ ـ ٣٠٧ .

(٨٨) ان اشتراك كلمة التاريخ وكلمة القصة فى أصل واحد فى اللغة الانجليزية History - Story يدلل على أن القصـة هى عصب التـاريخ (أ. ل. راوس : التاريخ ـ ترجمة مجد الدين حفنى ناصف ـ القـاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤ ـ ٤٥) .

باضطهاده وحرمانه من حرياته الفردية والاجتماعية[89] .

ومن ثم فمن هذه الاحداث تتفاعل وتتشابه فيها الظروف والاسباب والنتائج ، نستخلص سنن الله فى الأمم ، وهى التى تقودنا الى معرفة قواعد العمران ، وأصول الاجتماع ، على أساس أن نفس الاسباب آنما تؤدى الى نفس النتائج ، اذا تحققت نفس الظروف ، يقـول «رينيه ديكارت» (١٧٧٩ - ١٨٢٠م) : ان فكرة السببية فكرة فطرها الله فى نفوسنا ، فمحال أن تكون خاطئة ، وان فطريتها دليل على صدقها[90] .

وفى هذا ، وفى أكثر من موضوع ، يؤكد لنا القرآن الكريم ان سنن الله فى التـاريخ ثابتة ماضية ازاء الجماعات البشرية التى تتنكب عن الطريق - بغض النظـر عن حجم هذه الجماعة ، وعن مدى دورهـا الحضارى ومقدار منجزاتها المادية والادبية فى مقاييس الكم ، ومعايير المساحة والاحجام - فدائما يكمن وراء هذه المعايير والمساحات،المقياس الحقيقى ، والمؤشر النهائى اللذان نستطيع بالتمعن فيهما ، أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع ، ذلك لان وراء العطاء والتعامل الحضارى شيئا أكبر وأخطر وأشد تأثيرا على المصـير ، انه نفسية الامة - أفرادا وجماعات - وأخلاقيتها ونظرتها الشاملة الى الحياة ، وطبيعة علاقاتها الانسانية ، والمواقع التى تتخذها بمواجهة الله تعالى والعالم[91] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن احدى الملامح الرئيسية التى تميز التفسير الاسلامى للتاريخ عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الغيبى - ماضيا وحاضرا ومستقبلا - مساحات واسعة،ويجعله أحد الشروط

---

(٨٩) التهامى نقرة : سيكولوجيـة القصة فى القرآن - تونس ١٩٧٤ ص ١٨٤ - ١٨٩ ، محمد البهى : الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم بيروت ١٩٧١ ص ١١ .
(٩٠) نفس المرجع السابق ص ١٨٩ ، محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٨١ - ٨٢ .
(٩١) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١١٤ .

الاساسية للايمان ــ بل أهمها على الاطلاق ــ اذ بدونه لن تتحقق أية تجربة ايمانية ، ايمان بالله الذى لا تدركه الابصـــار ، وبعملية خلقه الدائمة التى تند عن احاطة الانسان ــ ذى المنافذ الحسية المحدودة ، والقدرات العقلية النسبية ــ وبوحيه الذى ينقل للبشرية تعاليم السماء عن طريق أنبياء الله ورسله ، ومعطيات هذا الوحى البعدية ، من ايمان بالبعث والحساب والجـــزاء ، ومن ثم كان أى تردد ازاء اليقينيات الغيبية التى يطرحهـــا القرآن ، أو التى تنبثق من أعمـــاق البداهات الفطرية ، انما هو رفض للقاعدة التى لا يقوم بدونها ايمان[92] .

ومن ثم فاننا نلتقى فى أول سورة البقـــرة بهذه البديهية ، والتى تتوالى بعد ذلك فيما يزيد على الخمسين موضعا ، يقول الله تعالى «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون»[93] .

ومن ثم ، فان لنا ــ على مستوى الحركة التاريخية ــ أن نتصور مدى المساحة التى يشغلها الغيب فى صياغة الاحداث وتوجيهها ، ابتداء من خلق الاشياء والاحداث بقوة الكلمة «كن» والتى لا ندرى بمقاييسنا النسبية المحدودة كنهها وأبعادها ، وانتهاء بمصائرنا اليومية ــ الفردية والجماعية ــ والتى يختم عليها الموت الذى يجيء على حـــين غفلة . متخطيا أى تحديد مسبق ، متحديا أية قدرة طبيعية على صده عن آداء مهمته ، وبين هذا وذاك كل أحداث التاريخ ووقائعه التى أخـــذت هذا الاتجاه أو ذاك ، واكتسبت هذه السمة أو تلك ، والتى لم يكن للانسان أو الطبيعة فيها سوى استمرار ــ حر أو مقـــدر ــ لما يدور فى ساحة الغيب ، وفق مقاييس الحق والعدل الابديين[94] .

---

(٩٢) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣٢
(٩٣) سورة البقرة : آية ١ ــ ٥ .
(٩٤) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .

هذا وليست الاحـــداث التاريخية فى القصص القرآنى متسلسلة الحلقات فى السرد ، ذلك لان التـــاريخ فيه لم يقصـــد لذاته ، وانما لاستخلاص العبرة منه ، والتفكير فى العـــلاقات السلبية بين مقدمات الاحداث ونتائجها وفق السنن الآلهية التى يصلها بالانسان مافى كيانه من نوازع الخير والشر ، ومن ثم فقد أخضع القرآن فى قصصه وقائع التاريخ الى حقائق دينية ، ووضع الدين فى سجل الاحداث الكونية ، الى جانب قوانينها الطبيعية أو الاجتماعية ، فليس فى مجـــرى هذه الاحداث ما يحدث بمحض الصدفة ، أو بتأثير الظروف المادية وحدها ، وعلى المتـــأمل أن يبحث ليصل الى معـــرفة بعض السنن التى تساير الارادة الآلهية فى الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء ، فما الظروف المادية الا وسائل تنفيذ ، وما الصدفة الا محض افتراض ، فهناك ظـــواهر تخضع لقوانين تصدق دائما بحيث يمكن التنبؤ بحدوثها ، متى تحققت شروط وجودها [٩٥] .

ويكاد العلماء يجمعون على أن فكرة الاستثناء أو الصـــدفة وليدة الجهل بالقوانين ، فلا يلجأ المرء الى تفسير وقـــوع بعض الحوادث بالصدفة ، الا عندما يتبين له جهله وعجزه عن تفسير ما يرى [٩٦] » .

وهكذا فان القرآن الكريم لم يربط بين الدين وأحداث التاريخ فى الافراد والمجتمعات ، الا لتقرير أن تلك الاحداث ــ وان ارتبطت بقوانين أخرى غير دينية ــ انما ترجع كلها الى السبب الاول ، أو العلة الاولى للوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ذلك لان ادخال قدرته ومشيئته فى تصريفها وتدبيرها ، لا يعنى الغاء البحث عن العلل والاسباب التى يعنى بها علم الطبيعة أو علم الاجتمـــاع ، بل ان القـــرآن انما يدعو الى الاستقراء فى البحث ، لمعرفة الظواهر المختلفة التى تنتهى الى نتائج

---

(٩٥) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٩٦) محمود قاسم : المنطق الحـــديث ومناهج البحث ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٦١٠ .

معينة تفسر سنن الله تعالى فى الخلق والتدبير ، وليس القرآن بحاجة الى مبادىء تخالف القوانين التجريبية .

ومن ثم ، فلا تعارض اذن بين الفكر العلمى والفكر الدينى ، كما يزعم «أوجست كونت» (١٧٩٨ — ١٨٥٧م) ، الذى يرى استحالة التوفيق بين الطريقة الوضعية (Methode Positive) وهو التى يبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية ، وبين الطريقة الميتافيزيقية (Methode Metaphisique) ، وهى التى تفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوة مريدة ، بصرف النظر عن طبيعتها وسببها المباشر ، وما تخضع له من قوانين[٩٧] .

واذا كان «كونت» يرى فى الجمع بين الطريقتين تناقضا ، فذلك لان الروح اللاهوتية عند النصارى هى التى كانت تسيطر على التاريخ ، وعلى مجرى الاحداث ، فتطبع جميع الاراء بطابع علم اللاهوت ، ومن ذلك مثلا ، أن ملك فرنسا «لويس الحادى عشر» (١٤٢٣ — ١٤٨٣م) انما كان ينفق جل ماله لينال حماية العذراء ، وأبرار الفردوس ، مقتنعا بما يرويه له أحد المؤرخين : أنهم يتدخلون فى أعمال الانسان دائما ، وهم القادرون على ضمان الانتصارات[٩٨] .

وأما فى القرآن الكريم ، فانا نجد فيما ترويه قصصه من أحداث التاريخ ، ما يفيد بأن سنن الحياة مخلوقة لله ، «سنة الله فى الذين خلو من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا»[٩٩] ، «وخلق كل شىء فقدره تقديرا»[١٠٠] ، فلا منافاة اذن بين البحث عن هذه السنن أو القوانين ،

---

(٩٧) على عبد الواحد وافى : ابن خلدون منشىء علم الاجتماع ص ١٣١ — ١٣٤ .
(٩٨) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ — ترجمة عادل زعيتر ص ٥١ — ٥٧ .
(٩٩) سورة الاحزاب : آية ٣٨ .
(١٠٠) سورة الفرقان : آية ٢ .

وبين الاعتقاد بخالقها ، ولا بين الاعتقاد باقتران المقدمات بالنتائج ، أو ترتيبها عليها ، والايمان بالله ، باعتباره خالقا للمقدمة السابقة والنتيجة اللاحقة ، وما بينهما من ارتباط ، ومن ثم فلم يحـــدث أي تناقض فى الفكر الاسلامى بين مبدأ السببية أو القانون العلمى من جهة ، والايمان بأن الله هو المصرف للامور ، طبقا لما نعلمه من سنن ، أو ما لا نعلمه من جهة أخرى ، وموقع المعجزة من التفكير السليم أنها شىء لايخالف العقل ولكنه يخالف المألوف والمتواتر والمحسوس ، فتعـــذيب بعض الاقوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح ، لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا العذاب الذى صبه الله عليهم ، قد حصـــل بتوافر أسبابه الطبيعية المألوفة ، كارسال السحب التى تنزل منها الصـــواعق القاتلة بسبب احتكاك طبقاتها ، غير أن ذلك لم يكن نتيجة نهائية لما يتولد عن التفاعل القسرى للمادة التى لا تبصر ولا تعى ، لان السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرة الانطلاق والتوافق التى يقع بها ألف حـــادث على نسق واحد ، بل لابد له من القدرة التى يتابع بها هذا التسبيب مرة ومرة وحادثا حـــادثا[101] ، قال تعالى «ويرسل الصـــواعق فيصيب بها من يشاء»[102] .

وهكذا ، فهذه السنن جـــزء من المخطط الالهى ، فهى مخلوقة له ، وليست بديلا عنه ، خلافا لمزاعم القائلين بأن اكتشاف القوانين العلمية قد أغنى عن الايمان بالله تعالى ، ولما يزعم «ماركس» وغيره من الماديين من أن المادة هى أصل الوجود ، وكل ما عداها انعكاس لها ، ومن ثم ، فتفسير التاريخ ــ فى نظر الماركسية ــ انما يقوم أساسا على هذا العالم المحسوس ، وعلى الايمان بحتمية التاريخ ، وهى : أن كل خطوة تؤدى حتما الى الخطوة الموالية بطريقة حتمية ، وبالتـــالى فان المجتمع يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها .

هذا وقد أنكر العالم الالمانى «هيزنبرج» (Heisenberg) فكرة الحتمية

---

(١٠١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٧ ــ ١٨ .
(١٠٢) سورة الرعد : آية ١٣ .

فأثار الشكوك القوية من حولها ، مقررا : أن التجارب الطبيعية لاتتشابه على الاطلاق ، ولا تأتى تجربة منها وفقا للاخرى تمام الموافقة ، حتى وان اتحدت الالات والظروف ،وسمى مذهبه هذا باسم «اللاحتمية»[١٠٣] .

وأما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآنى ، فينبىء على أن الحاضر انما نتيجة الماضى ، وأن المستقبل متوقف على الحاضر ، يقول تعالى «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال»[١٠٤] ، ويصحب هذا المبدأ شعور فردي وجماعي بملكوت الله فى الارض ، وايمان بأن الله قد سن نظاما يساغ واقع البشر فى اطاره .

ولعل من الاهمية بمكان أن هذا النظام الالهى لا يمنع مبدأ الحرية والاختيار ، ولا يغلق الباب على الايمان بما وراء الحس ، فهو يناقض «الحتمية» (Determinism) التى يقـول بها الماركسيون ، كمـا يناقض «الجبرية» (Fatalism) التى يقـول بها الجبريون ، ذلك لان القائلين بالحتمية انما يؤمنون بالنظم الالية وحدها ، ولا يؤمنون بارادة الهية قد تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل عند الاقتضاء ، والقـائلون بالجبرية يفسرون أحداث التاريخ وحـركات الوجود بالارادة الالهية وحدها ، وينكرون ارادة الانسان المثبت لشخصه ، المؤمن بوجوده ايمانه بوجود خالقه ، فكل أعماله وتصرفاته هي لله ، وليست له ، وان نسبت اليه ظاهرا ، وقد يكون هذا الاعتقاد سبيلا الى التواكل ، وذريعة الى المعاصى .

والحقيقة أن الله تعالى ، وان أوجد الانسان حرا ، قادرا مريدا ، فانه يريد أن ينبهه الى أنه ما يزال فى حضرة وجـوده ، ومرتبطا به ،

---

(١٠٣) عباس محمـود العقاد : المرجـع السابق ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، التهامى نقرة : المرجع السابق ص ١٧٦ ـ ١٨٠ .
(١٠٤) سورة الرعد : آية ١١ .

وداخلا في نطاق الملك الالهى ، رغم حريته وقدرته وارادته[١٠٥] .

وهكذا فالتفسير التـــاريخى فى القرآن انما ينبثق عن رؤية الله سبحانه وتعالى ، وهى تختلف عن الرؤية الوضعية فى أنها تحيط علما بوقائع التاريخ ، بأبعادها الزمنية الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع الذى يغيب كثيرا عن ذهن الانســـان ، مهما كان على درجة من اللماحية والبصيرة والذكاء ، البعد الذى يغور فى أعماق النفس البشرية ، فيلامس فطرة الانسان وتركيبه الذاتى ، والحركة الدائمة فى كيانه الباطنى ، وينسرب بعيدا صوب اهتزازاته العقـــلية والعاطفية والوجدانية ، وارادته المسبقة ، وما تؤول اليه هذه جميعا من معطيات تمنح حركة أبعادهـــا الحقيقية ، ويمتد كذلك لكى يشتبك فى العلاقات الشاملة للمصير ، ذلك أنهـــا رؤية الذات الالهية التى وسعت كل شىء علما ، والتى صنعت الواقعة التاريخية ووضعتها فى مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشرى والكونى ، سواء بسواء .

ومن ثم فان التفسير القرآنى للتاريخ ليس أبدا مجرد مسلمات بعدية تسعى الى تقولب حوادث التاريخ القبلية فى اطارها المعتسف ، وانما هى مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعى «عما حدث فعلا» ، وليس «عما يجب أن يكون» ، وعن طبيعة التصميم التاريخى للبشرية ، فهو اذن تبلور للخطوط الاساسية لحركة التاريخ ، يصوغها القرآن الكريم فى مبادىء عامة يسميها «سننا» ، ويعتمدها المفسرون الاسلاميون منطلقا — لا لتزييف التاريخ — وانما لتفسيره وفهمه وادراك عناصر حـــركته ومصائر وقائعه ، ومسالكها المعقدة المتشعبة ، ومن ثم فهو اذن : تفسير شامل محيط ، يعطى أصدق صورة للسنن التى تسير هذا التاريخ ، وبما أن هذه السنن من صنعه تعالى — ارادة وعلما ومصـــيرا — فان هذا الموقف القرآنى من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال»[١٠٦] .

---

(١٠٥) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ١٨٠ — ٢٨١ ، وانظر : دى بوار : تاريخ الفلسفة فى الاسلام — ترجمة أبو ريدة — القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٨ ، محمد متولى الشعراوى — القضاء والقدر — القاهرة ١٩٨٩ .

(١٠٦) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٣ .

ومن هنا ، فعلى دارس قصص القـــرآن ، ألا يقتصر على معرفة الوقائع ، وانما عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها ، وسننها ، ليتعمق فى فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله، وهي على أكمل نظام ، وأتقن ترتيب ، ذلك لإن القرآن الكريم لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضى الانسانية فى صراع قوى الخير والشر، وأنما كان يهدف الى بعث المثال من التاريخ ، لاثارة الانفعالات الموحية بالهداية والايمان ، واستغلال الاحداث التاريخية فى التربية ومعالجة النزعات النفسية فى الانسان ، وأمراض المجتمع الذى يعيش فيه بما لتلك الاحداث من قوة مفروضة على النفس ، تحدث فيها انصهارا ووعيا ويقظة احساس ، ومن هنا كان القصص التاريخى أشد تأثيرا وأسمى طموحا من التاريخ ، لأنه يمد الانسان بسلاح الايمان والثبات،ويعرفه بما لله من نواميس قارة فى نظام الخلق والابداع ، ومن سنن مطردة فى نظام الاقوام والامم ، سنن خاضعة لارادة الله ، وليست مقيدة لها ، تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، فلا تتغير أو تتحول محاباة لأحد من الناس ، لانها محور عـــدل الله وحكمته فى تدبير الامور[١٠٧] ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول : «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»[١٠٨] .

ومن أجل هذا يغدو التاريخ فى القرآن الكريم وحدة زمنية،تتهاوى الجدران التى تفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هـــذه الازمنة الثلاثة عناقا مصيريا ، ثم أن هذا الانتقـــال السريع بين هذه الازمنة المختلفة ، انما يوضح حرص القرآن على ازالة الحدود التى تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة ، فتغدو حركة التاريخ، التى يتسع لها الكون ، حركة واحدة تبدأ يوم خـــلق الله السماوات والأرض وتتجه نحو يوم الحساب[١٠٩] .

---

(١٠٧) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(١٠٨) سورة يوسف : آية ١١١ .
(١٠٩) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن عناية القرآن بالتاريخ،انما هى أكثر من مجرد عرضه للاحداث الماضية ، فلقد وضع لنا قواعد النقد التاريخى فى رواية ما يكون مادة للتاريخ،وهى التى تقرر أن ثقة الراوى عامل هام فى الحكم على الاخبار المنقولة وعلى المرويات ، قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ان جـــاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»[110] .

ولاريب فى أن تطبيق هــــذا الاصل على رواة الاحــــاديث النبوية الشريفة خاصة ، انما كان عنصرا هاما فى تطور النقد التاريخى ، وكان من عمل المسلمين به أن ألفوا الكتب فى تراجم الرواة لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعـــرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا فى الكتب المؤلفة متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ؟ وبينوا حقيقة التواتر الذى يفيد اليقين ، والفــــرق بينهم وبين ما اشتهر من روايات الآحاد ، ولم يقتصر ذلك على علوم الدين ، وانما امتد الى كتب التاريخ والادب ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من حوادث التاريخ ووقائعه التى جرت فى العالم بعد الاسلام،وما اختلف الرواة والمصنفون فى جزئيات من تاريخ الاسلام وغيره تسهل تصنيفه ، وأخذ المصفى منه لأجل الاعتبار به ، ومعرفة سنن الاجتماع عنه ، جريا على هدى القرآن فيه[111] .

ومن هنا فان الثقافة الاسلامية قد أبدعت فى تقويم الرجال فنـــا قائما بذاته ، هو «الجرح والتعديل» فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال ، ومما قيدوه فى نسخهم ، ناظـــرين دائما الى هيئة الرجل وصلاحه ، فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفـــرد وسلوكه ، فالفرد ــ فى نظرهم الصائب ــ وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على علمه ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ، يتناول أدق

---

(١١٠) سورة الحجرات : آية ٦ .
(١١١) تفسير المنار ٢/٤٦٥ ــ ٤٦٦ .

تفاصيل حياته الذهنية والسلوكية ليمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن أن ثقافة فى الارض قامت على مثل هذا الاساس النقدى المنهجى النزيه فذلك شئ تفرد به المسلمون[112] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه يجب أن ينظر الى القصص القرآنى على أنه منهج تربية ، وأسلوب تعليم وتربية ، وغذاء للفكر والروح ، ومن كان منظورا اليه ، من خلال الانسان،باعتبار أن ماتضمنه من دعوة الى الدين الحنيف ،كان دعوة انسانية شاملة ، لا تعرف حدود الاوطان ، ولا تقسم الناس طوائف وألوانا وعناصر ، وانما تنفذ الى قلوبهم مباشرة ، حيث يكسون الانسان الجـوهر الذى تتكون منه الانسانية[113] ، ومن ثم فان الدارس للقصة القرآنية انما يدرك الدور العظيم الذى قامت به فى تربية العقيدة وتعهدها وتنميتها ، ذلك لان الغاية من التربية ليست سوى تكوين العواطف الصالحة ، غير أن هذه العواطف لا تصبح أساسا للخلق الكريم ، الا اذا تحولت الى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة ، مصدر الايمان والامان والخير ، ومن هنا كان جل القصص القرآنى انما يهدف الى غرس عقيـدة التوحيد ويدعو الى التصديق بالرسالة المحمدية ، وبرسالات الانبياء قبلها ، حتى

---

(١١٢) عبد الصبور شاهين : تاريخ القـرآن ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٢ ـ ٨٣ ، وانظر عن : الجرح والتعديل : أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٢١٦ ـ ٢١٨ ، محمود أبو رية : أضواء على السنة المحمدية ـ القـاهرة ١٩٦٠ ص ٣٣١ ـ ٣٤١ ، محمد الصباغ : الحديث النبوى ص ١٤٣ ـ ١٤٦ ، مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث (بيروت ١٩٧٨) ، النيسابورى : كتاب معرفة علوم الحديث ص ٥٢ ـ ٥٨ ، الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ـ تحقيق على البجاوى ـ القاهرة ـ ط الحلبى ـ ١٩٦٣ ،عثمان موافى : منهج النقد التاريخى الاسلامى ـ الاسكندرية ـ دار المعرفة الجامعية ١٩٨٤ ص ٩٩ ـ ٢٣٩ ، فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ـ ترجمة أنيس فريحة ـ بيروت ١٩٦١ ، محب الدين الخطيب وآخرون : دفاع عن الحديث النبوى ـ القاهرة ١٩٥٨ ،جمال الدين قاسم : قواعد التحديث ـ دمشق ١٩٢٥ ، الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤٠٦هـ .

(١١٣) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ص ١٤ ـ ١٥ .

يعتز المسلمون بالحق وحـــده ، ويصبروا على الاذى فى سبيل اعلاء كلمته[١١٤] .

على أن القرآن الكريم انما يعتمد فى عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب ، ومن ثم فقد قدم لنا القرآن الكريم نمـــاذج عديدة للمعطيات التاريخية ، فحدثنا عن الماضى فى جل مساحاته ، لكن ما يلبث أن يخرج بنا الى تبيان الحكمة من وراء هذه العــروض ، والى بلورة عدد من المبادىء الاساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثى لهذه العروض ، تلك المبادىء التى سميناها «سننا» ، ودعانا أكثر من مرة الى تأملها واعتمـــاد مدلولاتها فى أفعالنا الراهنة ، ونزوعنا المستقبلى ، ومن ثم يتأكد لنا مرة أخـــرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقى المتعة فى نفوس المؤمنين ـ كما هو الحال فى أى نشاط فنى ، قبل أن تبرز الاتجاهات التعليمية الحديثة ، فى ميادين الفنون ـ وأنما جاءت لكى تعلمهم من خلال تجاربهم الماضية ، وتجـــركهم عبر الاضواء التى أشعلتها لهم هـــذه التجارب فى طريق الحيـــاة المزدحم الطويل[١١٥] .

بل ان بعض آيات القرآن انما تتجاوز الماضى والحاضر ، لكى تمهد رؤيتها الى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية ، يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية ، وقد نفذت بعض هذه التنبوءات فى عهد الرسول ﷺ ، وظل بعضها الاخر ينتظر التنفيذ، اذ لم يحدد له زمن بالذات،ومن النوع الاول انتصار الروم على الفرس كما حدثتنا عنه سورة الروم[١١٦] ، وقد شهد العصر المكى نفسه تنفيذ هذه النبوءة ، بعد سنوات قلائل من نزولها ، ومن النوع الثانى فساد بنى اسرائيل فى الارض مرتين[١١٧] .

---

(١١٤) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠ .
(١١٥) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(١١٦) سورة الروم : آية ١ ـ ٧ .
(١١٧) سورة الاسراء : آية ٤ ـ ٨ .

على أن القـــرآن الكريم ـ المنبثق عن علم الله الكامل ، ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان كله ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ـ لم يسرف فى نبوءاته التاريخية ، واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين ، لانه لم يجىء ليكون كتاب تنبوءات ، هــذا بينما أسرف عدد من الوضعيين ـ مثل هيجل وشبنجلر وماركس ـ فى تفسيرهم للتاريخ ، اسرافا خياليا بل ان بعضهم أطلق على نبوءاته سمة العلمية ، الامر الذى يتعــارض أساسا والمنهج التجريبى الذى يرفض الحـــدس والتخمين ، وتجاور الوقائع الى ما وراءها .

هذا وقد أشار القرآن ـ فى الاية ٧٨ من سورة غافر ـ تعقيبا على موقفه من العروض والاحداث التاريخية ، أنه ما جـــاء ليكون «بحثا تاريخيا» يستقصى كافة نشاطات الانبياء ، ويحصيهم عدداً وأن ماقدمه كان لادراك الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشرى[١١٨] ، يقول تعالى «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك»[١١٩] .

---

(١١٨) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٠٣ ـ ١٠٦ .
(١١٩) سورة غافر : آية ٧٨ .

الفصل الثالث

تاريخ الكتـــابة التــاريخية

(١) فكرة التاريخ :

يقول الاستاذ «شتول» انه الى وقت قريب انما كان يتقص التاريخ المؤرخين ، فقد كتب تاريخ لكل ما تحت الشمس ، للأدب والفلسفة والفنون والعلوم ، ولذا استثنينا مؤلفات قليلة ، فان قصة التاريخ لم تكن قد كتبت بعد[1] .

ولا ريب فى أن فكرة التاريخ — بوضعها الحالى — جديدة ، فالعلماء المحدثون انما يعتقدون أن للتاريخ كفكرة ، انما يدور حول محاور أربعة هى :

الاول : أنه علم كسائر العلوم يجيب على أسئلة معينة .

الثانى : أنه يتصل بمجهود الانسان فى الماضى .

الثالث : أن طريقته هى تفسير للوثائق التاريخية .

الرابع : أنه يهدف الى تعريف الانسان بذاته .

وهذه الفكرة — بأركانها الاربعة — لم تكن هى فكرة الناس عن التاريخ فى كل العصور ، فقديما ، وبالنسبة للسومريين[2] — على سبيل المثال — كانت كتابة للتاريخ انما تتمثل فى النقوش الرسمية وشبه الرسمية ، التى يقصد بها احياء ذكرى ملك أو أمير ، أو تمجيد معبود ، أو الانتصار فى الحروب وفى العصور الوسطى — وفى حكومة الكنيسة — اصطلح الناس على أن كل شىء مردم لفعل «القدر» .

---

(١) انظر :

I. J. Shatwell, Introduction to the History of History.

(٢) انظر عن «السومريين» (محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء العاشر — تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٨٣ — ١١٤) .

ومن البدهى أن هذه الصور من الكتابة التاريخية لا تعطينا تاريخا حقيقيا ، وان كانت تقدم لنا صورا تتصل بالتاريخ فى بعض النواحى ، هى فى حقيقتها تعبير عن بعض ألوان الفكر ، لا نستطيع أن نسميه «تاريخا» لأنه يفتقد الطابع العلمي ، فهو لا يجيب على سؤال محدد، لا يعرفه الكاتب أصلا ، وانما هو تسجيل لامور يعرف الكاتب أنها حقيقة ، ثم ان هذه الامور ليست فى الغالب من عمل الانسان ، فهى لاتتصل بمجهوده ، وانما هى من عمل الالهة (الوثنية) ، والانسان فيها مجرد أداة ، وتبعا لذلك فانها تكون تاريخية بالنسبة الى طريقتها ، لانها لا تعتمد على وثائق ، فضلا عن أنهـا كذلك ليست تاريخية من حيث قيمتها ، لانها لا تستهدف معرفة الإنسان لذاته ، وانما تخدم معرفة الانسان بمعبوداته[3] .

(١) فى الشرق الادنى القديم :

لاريب فى أن كتابة التاريخ بمعناها المعروف اليوم ، انما كانت عند سكان الشرق الادنى القديم نادرة ، وان كان اكتشاف الكتابة وبدء قياس الزمن ، جعلا من الممكن الاحتفاظ بوثائق فى المعابد ، وهى تحوى حوليات تاريخية ، ومع ذلك ـ ورغم تقدم الحضارة فى مصر والعراق القديم ـ فانها لم تخرج ما يستحق أن نسميه تاريخا ، بالمعنى الحديث المتعارف عليه اليوم ، والملاحظات اليسيرة عن حروب الفراعين ، والقوائم الحاوية لأسماء الملوك التى حفظت انما كان باعثها جميعا الرغبة فى اكبار شأن الفرعون الحاكم ، وذكر أحداث حياته ، الامر الذى سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن مصادر التاريخ المصرى القديم .

وفى بابل ، أخذت الكتابة التاريخية صورة الرسوم المنقوشة على المبانى ، كما ظهرت عند الآشوريين وثائق وحوليات ملكية فى تسلسل

(٣) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢١ .

حول مغامرات الحكام فى الحروب والصيد والقيام ببناء بعض القصور، وان لم يظهر أثر للحاسة التاريخية الناقدة فى هـذا التسجيل البدائى للتاريخ ، وكان الهدف من هذه النقوش تمجيد الحاكم واعلاء شأنه فى نظر الاجيال التالية ، وكانت الحقائق التى تزرى به وتشوه ذكـراه ، تحذف جميعها ولا يشار اليها ، وتغلب على تلك الوثائق المبالغة والتهوين والروح الدينية ، ونسبة المبانى المشيدة للالهة(٤) .

ولعل أقدم الوثائق التاريخية فى العراق القديم انما تلك التى كتبها الكتاب السومريون ، فمثلا قائمة الملوك السومرية ــ والتى تتحدث عن حدوث طوفان ، انما كتبت بالخـط المسمارى بعد عـام ٢٠٠٠ قبل الميلاد(٥) ، أو فى فترة لا تتأخر كثيرا عن منتصف عهد أسرة أور الثالثة (٢١١٣ ــ ٢٠٠٦ ق٠م) ، وربما قبيل عهـد «أوتوحيجال» من أسرة الوركاء الخامسة (٢١٢٠ ــ ٢١١٣ ق٠م)(٦) ، وان كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة ، ربما ترجع الى أخريات العهـد الاكدي (٢٣٧٠ ــ ٢٢٣٠ ق٠م) ، وعلى أية حال ، فانها تتضمن معلومات تاريخية ترجع الى بداية العصر التاريخى فى العراق القديم ، وربما ترجع الى أقدم من ذلك(٧) .

هذا وتبدأ قائمة الملوك السومرية بقولها : «عندما أنزلت الملكية من السماء،أصبحت أريدو مقرا للملكية ثم تذكر خمسة مدن،وثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان والمدن هي : أريدو،وبادتيبيرا (تل المدائن) ولارك (الوركاء) وسيبار وشوروباك،وأن هؤلاء الملوك قد حكموا ٢٤٢٠٠ سنة،وأن آخرهم كان «وبار ــ توتو» الذى حكم شوروباك لمدة ١٨٦٠٠ سنة ،

---

(٤) على ادهم : تاريخ التاريخ ــ القاهرة ــ دار المعارف ١٩٧٧ ص ١١ ــ ١٢ .

5. S. L. Woolley, Excavations at Ur, London, 1963, p. 14.

6. CAH, I, Part, 2, p. 998, (Chronological Table of The Sumerian Period),

7. J. Finegan, Light from The Ancient Past ..., Princeton, 1969, p.29. وكذا S. L. Woolley, Op. Cit., p. 14.

ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الارض ، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية من السماء ثانية ، وأصبحت «كيش» مقرا للملكية ، ثم تعود القائمة مرة أخرى الى ذكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك ، مثل أور ، ولدب ، وأكشاك ، وماري .

هذا ورغم الارقام الاسطورية التي تقدمها قائمة الملوك السومرية كفترة لحكم ملوكها ، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها : متى انتهى العصر الاسطوري ؟ ومتى بدأ العصر التاريخي ؟ رغم ذلك ، فالوثيقة ، دونما ريب ، انما تحمل بين طياتها كثيرا من المعلومات التاريخية الصحيحة ، كما أنها تتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم ، الواحدة سابقة له ، والاخرى تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء الى «كيش» ثم الوركاء ثم أور ، ومن ثم فهي تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم ، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي[8] .

وأما البابليون ، فهناك ما يشير الى أنهم قد جمعوا قوائم كثيرة بأسماء الملوك ، وان كانت وثائق البابليين — وكذا الاشوريين — التاريخية ، لم تتجاوز في الغالب أنساب الملوك ، وتسجيل الحملات الحربية ، والاماديح الموجهة الى العواهل ، والملابسات التاريخية والاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ الممل غير الشائق ، لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ أرقى مستوى

---

(٨) انظر : محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦ ، وكذا
J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.
A. L. Oppenheim, ANET, P. 265-267.
S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328-9.
T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, 11: 1939.
S. L. Woolley, Op. Cit., p. 249-253.
G. A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad London, 1929, pp. 346 F.

وأكثر أصالة ، وازدهار فن كتابة التاريخ كان يستلزم جواً من الحرية تنمو فيه الملكات ، وتتفتح المواهب ، ولا يقتصر فيه التاريخ على أخبار قلة من الملوك وأعيان الدولة وتدوين بعض الاحداث العامة ، منفصلة عن الاسباب التى مهدت لوقوعها ، والاكتفاء بأخبار طبقة خاصة قليلة العدد ، مرهــوبة السلطة ، وقد كان الملوك ـ فى نظر أنفسهم ، وفى نظر رعاياهم ـ آلهة تمشى على الارض[٩] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه كان هناك فى النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وابان حكم السلوقيين ، وعلى أيام الملك «أنتيوخس الاول» (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) على وجه التحديد،أحد كهنة المعبود «مردوك» البابلى يدعى «بيروسوس» (Berossos) قد كتب تاريخ العراق القــديم منذ أول الخليقة والطوفان ، وحتى عهــد الاسكندر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق.م) باللغة اليونانية فى ثلاثة أجزاء ، ومن أسف أن كتابات «بيروسوس» ـ شأنها فى ذلك شأن كتابات المؤرخ المصرى «مانيتو» (٣٢٣ ـ ٢٤٥ ق.م) ـ والتى تقدم وجهة النظر القومية عن تاريخ العراق القديم، لم تصل الينا كاملة ، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الاغارقة[١٠] .

(٢) كتابة التاريخ عند اليهود :

يقول «بارنز» : ان شرف اخراج أول سرد تاريخى حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة انما يعزى الى يهود فلسطين القديمة[١١] ويعلل «بارنز» ذلك بأن الرخاء العظيم الذى استمتع به اليهود ، فضلا عن المكانة التى ظفروا بها على أيام «طالوت» (شاؤل ١٠٢٠ ـ ١٠٠٠ ق.م) وداود عليه السلام (١٠٠٠ ـ ٩٦٠ ق.م) وسليمان عليه السلام (٩٦٠ ـ ٩٢٢ ق.م) ـ أى على أيام المملكة المتحــدة ـ من البواعث

---

(٩) على ادهم : المرجع السابق ص ١٣ ـ ١٤ .
(١٠) محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم ـ الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

11. H. E. Barnes, A History of Historical Writing, p. 19.

الحافزة على كتابة التاريخ ، وأقدم محاولاتهم للكتابة التاريخية عهداً، انما هى المحاولة التى قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصـــول الإسفار الخمســـة الاولى من التوراة (التكوين والخـــروج والعدد والتثنية واللاويون) ، فضـــلا عن أسفار : يشـــوع وصموئيل الاول والثانى والملوك الاول والثـــانى[١٢] ، وطبقـــا لرواية «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥م) فان هذه الاسفار انما هى أقدم ما نملك من الكتابات التاريخية عند أى قوم من الاقوام ، ومؤلفها المجهول هو أقدم مؤرخ وجدناه فى العالم القديم[١٣] •

ومن البدهى أن هذه الكتابات انما هى جزء من توراة يهود،والتوراة ــ على أية حال ــ كلمة عبرية تعنى الهـــداية والارشاد ، ويقصد بها الاسفار الخمسة الاولى ، والتى تنسب الى موسى عليه السلام ، وهى جزء من العهد القـــديم ، والتى يطلق عليها تجـــاوزا اسم «التوراة» (Torah) من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ، ونسبتها الى موسى عليه السلام •

والتوراة ــ أو العهد القديم ، تمييزا لها عن العهد الجديد ، كتاب المسيحيين المقدس ــ هو كتاب اليهود الذى يضم ، الى جانب تاريخهم عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار اليهـــود فى فلسطين الى أقسام ثلاثة[١٤] : ١ ــ الناموس (التـــوراة أو الشريعة) ويشمل الاسفار الخمسة الاولى ، والتى اعتبرت أسفار قانونية منذ حـــوالى عام ٤٤٠ ق•م ، وقد أطلق عليها منذ القرن الثانى الميـــلادى لفظ «البنتاتوك» (Pentateuch) [١٥] •

---

(١٢) انظر عن كتابة أسفار التوراة (محمد بيومى مهران ــ اسرائيل ــ الجزء الثالث ــ الحضارة ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٨ ــ ١٣٤) •

13. H. E. Barnes, Op. Cit., p. 22.

(١٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣ ــ ٤ • وكذا

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chiccago, 1970, p. 1109.

J. Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 23.

15. M. F. Unger, Op. Cit., p. 841.

J. E. Steinmuller, Comparion to Scripture Studies, II, 1942.

٢ ــ الانبيـــاء : (نبئيم Nebim) ، وتشمل الانبيـــاء المتقدمون والمتأخرون والصغار •

٣ ــ الكتابات (كتوبيم Kathubim) ، وهى المزامير والامثال ونشيد الانشاد وراعوث والجامعة وأستير ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الايام الاول والثانى[١٦] •

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أنه منذ أن عاد اليهود من السبى البابلى فى عام ٥٣٨ق•م ، واعادة العبادة فى هيكل أورشليم بعد إعادة بنائه فى مارس ٥١٥ ق•م ، فى أيام «زربابل» و «نحميا» و «عزرا» ، بدأ اليهود يعتبرون الاسفار الخمسة الاولى (البنتاتوك) ــ وهى أساس الدين اليهودى ــ وكأنما هى من عمل موسى عليه السلام ، غير أن هذا لا يعنى أكثر من قولنا : ان «نابليون» (١٧٦٩ ــ ١٨٢١م) هو واضع أسس القانون الفرنسى ، ذلك لان «عزرا» قد عرف بين بنى اسرائيل بأنه جامع الكتابات والتراث الموسوى بعد خرا بمملكة يهوذا[١٧] •

ثم جاءت المسيحية ــ بعد ذلك بأربعة قرون ــ ونظرت الى التوراة نظرة تقديس[١٨] ، ولم يكن أمر الاسفـــار الخمسة وأصولها ذا خطر خلال القرون الاولى للمسيحية ، فمثلا «سان جيروم» (٣٤٥ ــ ٤٢٠م) يشير الى أنها من عمل موسى عليه السلام ، وأن عـــزرا نظمها ، وقد سادت فكرة كتابتها بيد المشرع الاكبر للعبرانيين زمنا طويلا ، ولم يكن ذلك ثمرة بحث تاريخى ، وانما نتيجة عقيدة عامة لا أساس لها ، وقد ثبت فى الاذهان أن الاسفار التى تحمـــل أسماء أصحابها ــ من بعد

---

(١٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣ ــ ٤ ، حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ، محمد بدر : الكنز فى قواعد اللغة العبرية ــ القاهرة ١٩٢٦ ص ١٢٨ ــ ١٣١ •

(١٧) نجيب ميخائيل : سورية ص ٢٢٤ ، عزرا ٩/١٠ ــ ١١ •

(١٨) متى ١٧/٥ ــ ١٨ ، لوقا ٢١/٤ •

الأسفار الخمسة — هي من عملهم ، فسفر يشوع من عمل يشوع مثلا، وسفر عزرا من عمل عزرا ... وهكذا[19] .

ومع ذلك فقد بدأت المحاولات النقدية الاولى للتوراة ، ربما بسبب ترجمتها الى اليونانية (الترجمة السبعينية = Septuaginta)[20] وكان القديس «أوريجين» — الفيلسوف المصرى المسيحى — (١٨٥م - ٢٥٤م) من رواد هذا الميدان ، كما يبدو ذلك واضحا فى ال «هكسبلا» (Hexapla) حيث تناول نص التوراة — نقدا ودرسا — وان تجنب نقد العقيدة ، واكتفى بدراسة النص ، لادراك المعنى الحقيقى للكلمة الالهية الحقيقية فالنقد هنا انما يتصرف غالبا الى الاسفار ، والحكم عليها من حيث مكانتها[21] ، وعلى أية حال ، فان نقد «أوريجين» لم يتعد تطبيق المبادىء اللغوية التى كانت معروفة وقت ذاك فى مدرسة الاسكندرية، ووضع لأول مرة ، التوراة فى ستة عواميد ، لمقارنة النص العبرى بالنصوص اليونانية المختلفة،كما وضع عدة شروح لتأويل النصوص[22]

وأما المبادرة الحقيقية ، فقد وضعها العالم اليهودى «أبراهام بن عزرا» (١٠٩٢ — ١١٦٧م) ، الذى عاش فى المجتمع الاندلسى المتفتح، وفى كتاباته يكاد المرء ، لو أراد ، أن يتلمس الشكوك فيما بين السطور، ولكن صاحبها أحكم لفها بمداراة ومداورة ، فلا يثير غضب المتعصبين عن صحة نسبة أسفار الشريعة الى موسى عليه السلام[23] .

ويطل علينا عصر الاصلاح بآرائه الجديدة ، فنلتقى بـ «كارلشتات»

---

(١٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .
(٢٠) انظر عن الترجمة السبعينية (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٠٧/٣ — ١١٢) .
(٢١) فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية — القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣ .
(٢٢) باروخ سبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة — ترجمة حسن حنفى — القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩ وكذا
J. Steinmann, la Critique devant la Bible, Paris, 1956.
23. A. P. Davies, The Ten Commandment, N. Y., 1956, p. 30.

الذي يبدأ فى المناداة بأن موسى عليه السلام ليس هو كاتب الاسفار الخمسة ، وبعد قرابة قرن نرى «توماس هوبز» (١٥٨٨ — ١٦٧٩م) يقول : ان الاسفار الخمسة كتبت عن موسى ، ولم يكتبها هو ، وعند هذه المرحلة بدأت مرحلة جدية لتمحيص هذه الافكار الجديدة ومناقشتها على ضوء مناقشة عميقة للتوراة ، ثم البحث عن مصادرها[٢٤] .

وفى القرن السابع عشر الميلادى بدأ النقد التاريخى ، وكان «جان استروك» و «ريشار سيمون» و «باروخ سبينوزا» من أوائل من عرضوا لهــذه الدراسة — بعــد نشر الكتب المقدسية بلغات عدة على عواميد متقابلة — حتى يمكن مقارنة النصوص المختلفة — كما فعــل موران ولويس شابل — من أجــل البحث عن النص الاصلى ، ولكن أعمال «ريشار سيمون» النقدية ، انما تعد فاتحة على النقد الحديث[٢٥] ، وهكذا يصدر «ريشار سيمون» فى عام ١٦٧٨م ، كتابه الشهير «التاريخ النقدى للعهد القديم»[٢٦] ينفى فيه نفيا قاطعا نسبة الاسفار الخمسة الى موسى عليه السلام ، فانما هى مجموعة من مدونات مختلفة الاصول كل منها تعود الى جيل بعينه ، من الاجيال المتعاقبة لانبيــاء اليهود ، يستخلصون النبوات من واقع تفسيرات متمايزة لاحداث المضى،فكأنهم أيضا مؤرخون ، عكف كل منهم باجتهاد وهوى على اعادة تقييم مادونه الاسلاف — تحويرا وحذفا واضافة — حتى يتوفــر عليها آخر الامر «عزرا» ومريدوه ، فتجمع أسفار الكتاب المقدس على الوجــه الذى تطالعنا به اليوم[٢٧] .

---

(٢٤) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٢٥) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .

26. Richard Simon, Histore Critique de Vieux Testament, Paris, 1678.

(٢٧) حسين ذو الفقار صبرى : توراة اليهود — المجلة عدد يناير ١٩٧٠ ص ٧ ، وكذا

G. H. Box, Hebrew Studies in The Reformation, in The Legacy of Israel, Oxford, 1953, p. 363-364.

ثم يأتى «سبينوزا» وينادى باستعمال قواعد اللغة لتفسير الكتاب المقدس ، ثم يبين استحالة ذلك ، وهذا يعنى أنه يهدف فى النهاية الى استعمال العقل والنور الفطرى ، ثم يتجاسر أخيرا ، فيتعرض لنصوص التوراة ذاتها ، ويصدر كتابه «رسالة فى اللاهوت والسياسة» ، والذى يعتبر بحــق الرائد للدراسات النقــدية لاســفار التوراة فى العصر الحديث[٢٨] .

ويستمر النقد فى القرن الثامن عشر عند «فرانسوا فولتير» (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) وشكه فى نشيد الانشاد والجامعة ، غير أن القرن التاسع عشر انما يعتبر عصر النقاد البروتستانت تحت تأثير المدرسة الهيجلية (نسبة الى هيجل) والتى روج لها «ارنست رينان» (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م)، ثم سرعان ما بلغ النقد ذروته فى القــرن العشرين ، ومازالت المعركة قائمة بين أنصار النقد وخصومه ، أو بين التيــارين الأبديين فى الفكر الدينى ، وهما : التيار التقدمى الذى يسمح بالنقد التاريخى ، والتيار المحافظ الذى يقف ضده[٢٩] .

ولعل هذا كله ، انما يبين أن الكتاب الغربيين كانوا أول من تعرض لنقد التوراة المتداولة اليوم ، غير أن الحق أن القرآن الكريم انما كان أول من نبه ـ فى القرن السابع الميلادى ـ الى تحريف التوراة ، والى مناقضتها بعضها للبعض الاخر[٣٠] ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى، أصدر العلامة «ابن حزم» (٦٧٤ ـ ٤٥٦هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م) كتابه

---

(٢٨) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ٣٩ ، وكذا

G. H. Box, Op. Cit., p. 367-368.

A. L. Sachar, A History of The Jews, N. Y., 1945, p. 246-248.

L. Roth, Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, p. 449-457.

(٢٩) باروخ سبينوزا : المرجع السابق ص ١٩ .

(٣٠) انظر : سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة النساء : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ ، سورة الكهف : آية ٥ .

«الفصل فى الملل والاهواء والنحل» ، فناقش فيه أسفار التوراة،وأثبت تحريف اليهود لها[٣١] .

بقيت الاشارة الى أن اليهود هم الامة الوحيدة التى كتبت تاريخها بيدها وبحسب هواها ، ثم زعمت أن هذا التاريخ قد أنزل من السماء، وأنه فوق الجدل والنقاش ، مصير من لا يصدقه أو يناقشه علميا عقاب الله فى الدنيا والاخرة ، بل وقد نجحوا نجاحا لا يبارى فى ايهام مئات الملايين من البشر على مدى الاحقاب والعصور بذلك ، وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا ، انما قد أغاروا على المأثورات الشعبية للامم القديمة التى عرفوها ، وأضافوا اليها من بقايا الفلكلور الذى حفظته ذاكرتهم الاولى منذ بداوتهم الاولى ، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء وشرائع الانبياء ، بحكايات الابطال الخرافيين ، وترجمات تكاد تكون حرفية لملاحم من أمم أقدم منها[٣٢] .

(٣) التاريخ عند اليونان والرومان :

ينقسم تاريخ اليونان الى مرحلتين أساسيتين ، الاولى ، حضارة موكينى وكريت ، ولم تصلنا منها كتابات أدبية ، وكل ما وصلنا من تلك الفترة ، والتى تقع كلها فى الالف الثانى قبل الميلاد ، مجموعة كبيرة من اللوحات الكتابية ، تتضمن احصاءات وبيانات أكثرها ذو طابع اقتصادى وهكذا انقرضت تلك الفترة دون أن تعرف الكتابات التاريخية ، حسب ما لدينا من معلومات حتى الان .

وفى نهاية تلك الفترة خلال القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، تعرضت بلاد اليونان لغزوات الدوريين المتبربرين وقد استمرت تلك الفترة أكثر

---

(٣١) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ــ الجزء الاول ــ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٢٠ ــ ١٦٩ ، الجزء الثانى ص ٣ ــ ١٩ ، وانظر نقد نسبة الاسفار الخمسة الى موسى (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٤٥/٣ ــ ١٦١) .

(٣٢) حسن ظاظا : الصهيونية العالمية واسرائيل ــ القاهرة ١٩٧١ ص ١٣ .

من قرنين ، تعرضت فيها اليونان لكثير من الاضطرابات والفوضى وقضت على مراكز الحضارة القـــديمة ، واختفت الكتابة وبالتالى فقد مرت اليونان بفترة من الامية ، فيما بين القرنين ، الحادى عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، ومن ثم فقد اعتمدت خلالها على الرواية الشفوية فى حفظ أخبارها وتراثها ، ومع ذلك فيرجع الى تلك الفترة أقدم الاثار الادبية التى بقيت لنا من التراث اليونانى القديم ، وهما ملحمتا : الالياـــاذة والاوديسية[٣٣] ، اللتان تنسبان الى الشاعر «هوميروس»[٣٤] ، ورغم ما يحيط بشخصية هذا الشاعر من غموض ، فهنـــاك اعتقاد أن هاتين الملحمتين ظهرتا فيما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ، على الساحل الايونى لاسيا الصغرى ، وتم نقلهما بعد ذلك بالرواية الشفوية نحوا من قرنين من الزمان الى أن سجلتا فى القرن السادس قبل الميلاد ،ونظرا لانهما يرجعـــان الى فترة لم تصلنا عنها معـــلومات تاريخية أخرى ، فالمؤرخون المحدثون انما يهتمون بهما كثيرا ، كمصدر تاريخى ، ومما زاد فى قيمتهما التاريخية ما تتصفان به من نضج عقلى وفنى ، فضلا عن غلبة الطابع التاريخى على «الالياذة» بالذات ، فهى تتحدث عن الحرب بين الاغريق وطروادة ، ورغم الاطار الاسطورى الذى وضعت فيه الملحمة ، فهى تحتفظ فى ثناياها بكثير من الاخبار والتقاليد التاريخية المتوارثة[٣٥] .

---

(٣٣) اعتقد اليونان فى فترة مبكرة من تاريخهم أنهم جمعوا قواتهم وأبحروا من بلادهم تحت قيادة «أجاممنون» أكبر ملوكهم ، ليشنوا حربا انتقامية ضد «طروادة» ـ عند مدخل البحـــر الاسود فى القسم الشمالى الغربى لاسيا الصغرى ـ وأن شاعرهم «هوميروس» قد خلد هذه الحرب فى الالياذة (نسبة الى اليوس أو اليون عاصمة منطقة طروادة) ، ويقـع مسرحهـا ضمن نطـاق الحرب ذاتها حـول أسوار المدينـة وفى داخلها ، والاوديسية : وتتخذ موضوعها من مخـاطرات أوديسيوس أحـد المـلوك والقادة اليونان ، وهـو فى طريق عـودته الى «أثاكه» مقر ملكه ، على الساحل الغربى لشبه جزيرة البلقان (لطفى عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخى ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٣٦) .

(٣٤) انظر عن : هوميروس (لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣١ ـ ٤٤) .

(٣٥) مصطفى العبادى : محـــاضرات فى مناهج الفكر التاريخى ـ بيروت ١٩٨٤ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

وهكذا يبدو واضحا أن الرأى القائل أن أول كتابة تاريخية ذات شأن انما قد ظهرت عند اليونان فى الاشعار المنسوبة الى «هوميروس» له أساس من الواقع ، وعلى أية حال ، فلقد عنى «هوميروس» (من القرن ٩ ق.م) أشد العناية بتمجيد البطولة والابطال وروح النضـــال التى ترتفع بصاحبها الى قمة الشخصية ، وتجعل منه بطلا مغوارا ، وعنه أخذ المؤرخون هذا كله[٣٦] .

وفى القرن الثامن قبل الميلاد عادت الكتابة الى اليونان من جديد ، بأسلوب جديد سهل ، وهـــو اتخاذهم حروف الهجاء عن الفينيقيين ، وسرعان ما انتشرت الكتابة (حوالى عـــام ٧٥٠ ق.م) فى عـــدة مدن يونانية ، من بينها «أثينا» و «طيبة» و «كورنثه» و «ثيرا» و «ميلوس» و «رودس» و «كريت» ، وفى القرن السابع قبل الميلاد ، كانت التجربة السياسية اليونانية قد تقدمت خطوات هامة ، فأصبح لاسبرطة دستور معقد ، كما أصبح لاثينا نظام سياسي واضح المعالم ، يقوم على انتخاب الحكام سنويا ، وأصبح نمط الحياة السياسية اليونانية يقوم على أساس «دولة المدينة» ، واصطبغت بعض الاعمال الأدبية الاولى فى عصر دولة المدينة القديمة بالصبغة السياسية أو الاجتماعية ، كما يبدو فى أعمال «هسيود» و «سولون»[٣٧] .

غير أن ميلاد الكتابة التاريخية على نمط «كتابة التاريخ» انما كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان ، الا فى القـــرن السادس قبل الميلاد ، وهذه الخلفية هى ظهور الكتابة النثرية ، والنظرة الناقدة الى الاساطير الشائعة ، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ، ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد .

وفى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ، بدأ زحف الفرس

---

(٣٦) على ادهم : المرجع السابق ص ٢٣ ، محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٣ .
(٣٧) مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٢٦ ، لطفى عبدالوهاب المرجع السابق ص ٥٣ .

على آسيا الصغرى ، واقترابهم أولا ، ثم استيلائهم على المدن اليونانية فى غربى آسيا الصغرى ، وكانت فى هذا العصر أيضا حركة الانتشار اليونانى على سواحل البحرين الاسود والابيض قد بلغت أوجها ، ومن ثم فقد ازداد اهتمام الاغريق عامة بأخبار العالم الخارجى — وخاصة الفرس — وكان ذلك كله من وراء اهتمام اليونان بكتابة التاريخ،والذى يقترن باسم «هيكاتايوس الميليطى» ، ومن ثم فقد بدأ الاهتمام بالتاريخ من مدخل الجغرافيا ، عن طريق الاهتمام بوصف البلاد والشعوب •

ومن المعروف أن «هيكاتايوس» انما كان جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا وقد عاش فى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد،وقام برحلات كثيرة فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، وعلى سواحل البحر الاسود، كما أوغل فى أقاليم الامبراطورية الفارسية ومصر ، وربما وصلت أسفاره الى جنوب أسبانيا ، ثم ألف كتابا أسماه «خريطة العالم» بمعنى وصف العالم،وهو يتضمن معلومات تتعدى حدود الجغرافيا الطبيعية والبشرية ووراء حدود التاريخ ، ومن ثم فهو يكاد يضم كل أبواب المعرفة التى كانت تستثير اهتمام القدماء ، هذا فضلا عن نظرته العالمية ، وخاصة فيما يتصل بتقديم العالم الشرقى الى العقل اليونانى ، وأما من الناحية التاريخية فقد قام بتسجيل أول محاولة لتعاقب الملوك فى آشور وميديا وفارس ، كما ضمن كتابه أخبار التاريخ المعاصر لوطنه ايونيا ، وله كتاب آخر فى تاريخ اليونان القديم يعتبر نوعا من تجميع الانساب التى كان يحتفل بها الاغريق كثيرا ، وقد اعتمدت أساسا على أنساب أبطال الشعر الملحمى ، ورغم أن عنوانه هو «كتاب الانساب» ، غير أنه انما يكشف عن ظاهرتين ، الواحدة : قوة تأثير الشعر الملحمى على نشأة الحركة التاريخية ، والاخرى : اتخاذه موقفا نقديا منها •

وأما تجربته فى مصر وما علمه من أخبار المصريين فقد أكدت ، بل وزادت من حدة ملكة النقد والشك عنده ، فقد علم من المصريين أنه فى الوقت الذى اعتقد فيه اليونان أن الالهة فى بلادهم تعيش على الارض كانت تقوم فى مصر مجتمعات بشرية عادية ، وبالتالى فقد أدرك ، لاول

مرة ، أن حياة الانسان على الارض أقدم مما تصور الروايات المتوارثة عند الاغريق ، أضف الى ذلك أن «هيكاتايوس» انما كتب كتاباته ولاول مرة بالنثر ، ومن قبله كان الشعر هو الوسيلة اللازمة للاعمال الفكرية والادبية ، ومن ثم فهو يعتبر فترة حاسمة فى تاريخ المعرفة لانه أطلقها من قيود الشعر وأساليبه •

وكان القوم يطلقون على كتابات النثر لفظ «اخبارى» (Logoraphos) وفى الواقع فقد كانت كتابة التاريخ بالنثر شرطا أساسيا لظهور التاريخ وبالتالى يمكن اعتبار «هيكاتايوس» مؤسس الكتابة التاريخية عند الاغريق ، اذ التزم من جاء بعده بكتابة التاريخ بالنثر •

بقيت الاشارة الى أن الكلمة التى كانت تطلق على كتاب النثر ، ومنهم «هيكاتايوس» ، حتى ذلك العصر ، هى كلمة «الاخباريون» وعلى كتاباتهم «تسجيل الاخبار» Logographos ولم تكن كلمة دراسة التاريخ (Historia) قد ظهرت بعد ، لان معناها كان بعيدا عن مجال الاعمال الفكرية ، ويرجع أصلها الى كلمة (Histor) بمعنى «المحقق القضائى» ولم تستخدم كلمة (Historia) الا فى مرحلة جديدة من رقى الكتابة التاريخية ، ممثلة فى شخص «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق٠م) الذى يبدأ بحث التاريخ[٣٨] ، وأما أهم المؤرخين اليونان والرومان ، فسوف نتحدث عنهم عند حديثنا عن مصادر التاريخ المصرى القديم •

(٤) كتابة التاريخ فى أوائل العصر المسيحى :

كان لانتصار المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى فى كتابة التاريخ وفى الافكار التى كان يسترشد بها المؤرخون فى كتاباتهم ، فلقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان ، واعتبرت الكتابة التاريخية التى أنتجها العصر الوثنى أقل مستوى من الكتابة التاريخية المقدسة فى «التوراة» ، وحامت الشكوك حول التفكير العقلى الذى كانت له المكانة

---

(٣٨) مصطفى العبادى : المرجع السابق ص ٢٨ — ٣٠ •

العليا عند الوثنيين اليونان ، وأصبح للايمان الدينى المحل الاعلى والركن الاقوى ، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل ، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الادب القديم ، وأعرض القوم عن أعمال مؤرخى العصر الوثنى وكتابه وشعرائه ، وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها .

ومع ذلك ، فلم يكن فى الامكان التغلب على تأثير الثقافة الوثنية ، هذا فضلا عن أن كثيراً من رجال الدين الاوائل انما كانوا يستعملون اللغة الوثنية ، وقد تلقوا ثقافة وثنية من قبل دخولهم فى النصرانية ، ومن ثم فقد تأثرت مثلهم العليا السياسية ، وممارستهم للشئون العملية بالعناصر الوثنية ، وكان أخذهم بفكرة تفوق العواطف والحدس على التفكير العقلى ، وشدة التمسك بهذا الاتجاه فى المسائل الدينية والقضايا العقدية ، مصدره الافلاطونية الجديدة ، فقد أسبغت على التفكير الدينى هالة فلسفية فاخـــرة ، وقد كان لها تأثير واضح فى تفكـــير القديس «أوغسطين» (٣٥٤ ــ ٤٣٠م) ، وكان هذا الاتجاه يمنع الوقوف موقف الشك أمام مصادر المعرفة التاريخية ، ويعوق توجيه النقد اليها وتسليط الاضواء عليها .

هذا وقد ذهب المؤرخـــون الاوائل من النصارى الى أن الحـــركة التاريخية جزء من الحركة الكونية التى يشترك فيها الله تعالى ، فضلا عن الانسان ، وقد تجلى التعبير عن هذا الاتجاه فى أوج صورة فى كتاب «مدينة الله» الذى كتبه القديس «أوغسطين» وكانت الفلسفة التاريخية التى ضمنها هذا الكتاب مستمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية ، فالحـــركة التاريخية صراع بين قوى الخـــير والشر ، وهى فى معناها التاريخى : الارض صراع بين مدينة الله ــ وهى نخبة المؤمنين بالله اليهود والنصارى ــ ومدينة الشيطان ــ وهو الاسم الذى أطلق على أشياع الوثنية المعاصرين والسابقين ، وسيسفر هذا الصراع عن انتصار

المدينة الاولى وهدم المدينة الثانية[٣٩] .

(٥) كتابة التاريخ فى العصور الوسطى :

تعتبر كتابة التاريخ فى العصور الوسطى ــ فى جانب من جوانبها ــ رجوعا الى الاسلوب الذى درج عليه المؤرخون بعد الاسكندر الاكبر ، وعلى أيام الرومان ، فقد اعتمد مؤرخو هذه العصور على المصادر التقليدية يستنبطون منها الحقائق ، غير أنهم لم يتعرضوا لنقد هذه المصادر أو تحليلها تحليلا علميا دقيقا ، واذا كان بعض مؤرخى العصر قد قاموا بمحاولة للنقد ، فان هذه المحاولة انما كانت تستند الى النقد الشخصى لكل منهم ، دون استناد الى منهج علمى ، ومن ثم فقد كانوا يصدقون كل ما جاء فى مصادرهم[٤٠] .

وعلى أية حال ، فلقد كان ممثلو الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى من رجال الدين ، ومن ثم فقد غلبت وجهة النظر الدينية على كتاباتهم التاريخية ، وكان الكثيرون من كتاب التاريخ فى ذلك العصر تنقصهم سعة الاطلاع الكلاسيكى أو اللاهوتى التى كانت طابع المؤرخين فى العصر المسيحى المتقدم ، وكانوا يميلون الى سرعة الاعتقاد والتصديق أكثر من التحرى والتدقيق فى قبول الاخبار ورواية الاحداث ، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعى والمثالى ، أو الحق التاريخى والحق الشعرى ، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية ، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الأخبار ، وتزوير الوثائق والاسانيد ، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق ، وازهاق الاباطيل ، مادامت الوثائق والاخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر ، وتؤيد معتقدا من المعتقدات الشائعة[٤١] .

وأما المهمة الكبرى التى ارتبطت بمؤرخى العصور الوسطى ، فكانت الكشف عن الخطة الالهية وتفصيلها ، ومن ثم فقد انتقل تيار الفكر

---

(٣٩) على أدهم : المرجع السابق ص ٤٠ .
(٤٠) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٤١) على أدهم : المرجع السابق ص ٤٢ ــ ٤٣ .

التاريخى من دراسة اجتماعية الى دراسة مجـــردة محدودة تنبثق من سلطان الكنيسة ، فلقد اعترفوا بالدور الذى تؤديه المقادير فى الاحداث التاريخية ، لكنهم حددوه بصورة ينتفى معها وجود أى مجال لنشاط الانسان ، وكانت النتيجة عجز المؤرخين عن التنبؤ بأحداث المستقبل ، لانهم يجهلون ما يخفيه القدر ، وانصرفوا الى البحث عن جوهر التاريخ خارج نطاق نفسه ، لان كل بحثهم انما كان يهدف الى الكشف عن سياق الاحداث ، انطلاقا من عقيدة راسخة فى أن التدهور الذى وجه هذه الاحداث بعيدا عن ارادة الانسان .

ومن هنا اتسمت كتابة التاريخ فى العصور الوسطى باهمال الدور البشرى فيه ، وبالتالى فلم يكن ثمة مجال لنقد أو تحليل ، لقــد كانت مصادرهم بين أيديهم ، ولكنهم فرضـــوا على أنفسهم قيدا شديدا ، وجعلوا همهم الاول هو دراسة خصائص الذات العلية المقدسة[٤٢]، ومن ثم فقد كانت هذه الكتابات دينية أكثر منها تاريخية ، ومن هنا فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية[٤٣] .

ولعل من أشهر هذه المؤلفات كتابات «يوسبيوس»[٤٤] (٢٦٤ ــ ٣٤٩م) ــ والذى كان واحدا من آباء الكنيسة فى عصره ، وأول مؤرخ كنسى يعتقـــد به ، حتى لقب «أبو التـــاريخ الكنسى» و «هيرودوت النصارى»[٤٥] ، وقد ولد فى فلسطين ، وربما فى قيصرية التى كان أسقفا لها ، وقد ساعدته صلاته بالامبراطور «قسطنطين» (٣٠٦ ــ ٣٣٧م) وبرؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة الى أن يعرف الكثير من الاسرار والى أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة ، ومن ثم فقد أفاد منها

---

(٤٢) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٢٨ .

(٤٣) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبـل الاسلام ــ الجـزء الاول ــ بيروت ١٩٦٨ ص ٦١ .

(٤٤) يوسبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ــ ترجمة مرقص داود ــ القاهرة ١٩٦٠ .

45. W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, p. 107.

فائدة كبيرة فى كتاباته التاريخية[٤٦] .

وهناك كذلك «بروكبيوس» (المتوفى عام ٥٦٣م) ، والذى يعد المؤرخ الكنسى لمصر «جستنيان» (٥٢٧ – ٥٦٥م) الملىء بالاحداث ، ومما يجعل لتاريخه أهمية أن مادته التاريخية موضع ثقة ، ذلك لان بعضها مستقى من الروايات الشفوية ، وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية، فلقد عين فى عام ٢٦٧م سكرتيرا خاصا ، ومستشارا قانونيا للقائد الرومانى «بلبساريوس» ، وصحبه فى حملاته فى آسيا وأفريقيا وايطاليا ، كما عين عضوا فى مجلس الشيوخ الرومانى[٤٧] .

(٦) الكتابة التاريخية عند المسلمين :

لعل من الاهمية بمكان – وقبل أن نتحدث عن الكتابة التاريخية عن المؤرخين المسلمين – أن نتحدث ، بادىء ذى بدء ، عن «التاريخ الهجرى» .

لاريب فى أن أهمية الهجرة النبوية الشريفة انما كانت سببا فى أن يختارها الفاروق عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الاسلامى تقديرا لجلال الحدث الذى كان منطلق تحول حاسم وخطير فى تاريخ الاسلام .

وأما مبدأ التأريخ ، فلقد روى الطبرى بسنده عن سعيد بن المسيب قال : جمع عمر بن الخطاب الناس ، فسألهم فقال : من أى يوم نكتب؟ فقال على عليه السلام : من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر ، رضى الله عنه[٤٨] ، وروى السخاوى : أن سعد

---

(٤٦) فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق – الجزء الاول – بيروت ١٩٥٨ ص ٣٩٧ .

(٤٧) نفس المرجع السابق ص ٣٩٧ – ٣٩٨ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية – الجزء الاول – القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٨ .

(٤٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – الجزء الرابع – القاهرة – دار المعارف ١٩٧٧ ص ٣٨ – ٣٩ .

ابن أبى وقاص قال لعمر : أرخ بوفاة النبى ﷺ ، فقال علي : بل أرخ بهجرة النبى ﷺ فانها فرقت بين الحق والباطل ، وأظهرت الاسلام ، فاجتمع رأى المسلمين على الابتداء بسنة الهجرة[49] .

هذا وقد اقترح آخرون يوم المبعث أو المولد الشريف ، غير أن ميعاد المولد والمبعث فيهما خلاف ، كما أن يوم الوفاة انما يذكر الناس بالاسى والحزن على فقد مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، وهكذا استقر رأى الصحابة — رضوان الله عليهم — على ابتداء التأريخ بسنة الهجرة ، وكان ذلك فى عهد الفاروق عمر ، روى عن ابن المسيب أنه قال : أول من كتب التأريخ عمر ، لسنتين ونصف من خلافته ، فكتب لست عشرة من الهجرة ، بمشورة على بن أبى طالب .

ثم قام جدل آخر حول الشهر الذى يكون منطلقا للتأريخ ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أرخ برجب ، فانه أول الاشهر الحرم ، فقال على بن أبى طالب : بالمحرم ، وانتهى الامر باعتماد المحرم فجرا للسنة الهجرية ، على اعتبار أن المحرم شهر الله عز وجل ، وهو رأس السنة فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب فيه الورق ، وفيه يوم كان تاب فيه قوم فتاب الله عليهم ، هذا فضلا عن أن المحرم كان ابتداء العزم على الهجرة ، وذلك لان البيعة وقعت فى ذى الحجة ، وهى مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة (بيعة العقبة) والعزم على الهجرة هلال المحرم ، ثم ان المحرم منصرف الناس من حجهم ، هذا فضلا عن أن ابن عباس — حبر الامة وترجمان القرآن — كان يقول فى قول الله تعالى «والفجر وليال عشر» أن الفجر هو المحرم .

وهكذا فان المسلمين — مع اقرارهم التأريخ من الهجرة — فقد رأوا الابتداء قبل مقدم النبى ﷺ الى المدينة فى ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر عام ٦٢٢م) بشهرين ، وأيام هى اثنا عشر ليتوافق ذلك مع أول المحرم

(٤٩) السخاوى : المرجع السابق ص ٨٠ — ٨١ .

فلم يؤرخ الناس من وقت قدوم النبى ﷺ الى المدينة ، بل بأول تلك السنة ، وهكذا كانت السنة الهجرية سنة اسلامية ، مرتبطة بهجرة النبى ﷺ الى المدينة ، فضلا عن أنها سنة تقوم خصائصها على ما نص عليه الكتاب العزيز ، واليها ترتكز مواقيت صوم المسلمين وافطارهم وحجهم ومناسكهم وعدة نسائهم ، وحل ديونهم .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة أمور ، منها أن السنة الهجرية تعادل ٣٥٤ يوما ، ٨ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، وأما السنة الميلادية فتعادل ٣٦٥ يوما ، ٥ ساعات ، ٤٨ دقيقة ، ٤٦ ثانية ، والاولى قمرية ، والثانية شمسية ، ومنها أن بداية التاريخ الهجرى فى أول المحرم من العام الاول الهجرى ، انما يوافق ١٦ يوليو ٦٢٢م ، فى أرجح الآراء ، ومنها ما جاء فى فتح البارى من أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذى وقع بعد الهجرة ، ويلغون الاشهر التى قبل ذلك الى ربيع الاول ، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان والفسوى ، فذكروا غزوة بدر فى السنة الاولى ، وأحد فى الثانية ، والخندق فى الرابعة ، وهذا صحيح على ذلك البناء ، ولكنه يخالف م اتفق عليه الجمهور ، وقبله المسلمون[٥٠] .

بقيت الاشارة الى أن التاريخ الميلادى انما يبدأ بمولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، والذى كان على أيام أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ ق٠م — ١٤م) ، ويذهب البعض الى أن مولده كان فيما بين عامى ٦ ، ٢ق٠م ، بينما يذهب آخرون الى أن مولد المسيح انما

---

(٥٠) انظر : محمد بيومى مهران : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين — الجزء الاول — السيرة النبوية الشريفة — المجلد الاول — بيروت — دار النهضة العربية ١٩٩٠ ص ٣٤٧ — ٣٥٠ ، السخاوى : المرجع السابق ص ٧٨ — ٨٢ ، تاريخ الطبرى ٣٨/٤ — ٣٩ ، ابن حجر العسقلانى فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ (القاهرة ١٩٥٩م) ، ابراهيم بن ابراهيم قريبى : مرويات غزوة بنى المصطلق — المدينة المنورة ص٩١—٩٢

كان عام ٤م ، وأنه رفـــع الى السماء عام ٢٧م ، على أيام القيصر «تيبيريوس» (١٤ – ٣٧م) ، وربما فى ٢٣ مارس عام ٢٩م[٥١] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كلمة «تاريخ» بدأت تعنى فى صدر الاسلام التقويم والتوقيت،ثم أصبحت تعنى تسجيل الاحداث على أساس الزمن ، وتحمل اسم الاخبار ، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل تباعا فى الكتابة التدوينية العربية ، لاسيما فى أواخـــر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان العـــرب قبل الاسلام قد اهتموا بالتأريخ للاحداث الهامة،كعام الفيل ، وبناء الكعبة ، كما كانت الاحداث الهامة تحفظ فى النقوش أو عن طريق الرواية الشفوية .

هذا وقد أشار المسعودى الى أن العرب قبل الاســـلام انما كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة ، فأما «حمير» و «كهلان» أبناء سبأ ، فكانوا يؤرخون بملوكهم ، أو بما يقع لهم من أحداث جسيمة ، فيما يظنون ، كنار صوان التى كانت تظهر فى بعض الحرار بأقاصى اليمن ، وكالحروب التى كانت تنشب بين القبائل والامم،فضلا عن التاريخ بأيامهم المشهورة وكذا بوفاة ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، كما كانت قريش عند مبعث المصطفى ﷺ تؤرخ بوفاة هشام بن المغيرة ، وبعام الفيل[٥٢]، على أن الطبرى انما يذهب الى أن العرب لم تكن تؤرخ بشىء محدد قبل الاسلام ، غير أن قريشا انما كانت تؤرخ بعام الفيل ، بينما كان سائر العرب يؤرخـــون بأيامهم المشهورة ، كيوم جبلة والكلاب الاول والثانى[٥٣] .

ولعل أقدم وثيقة مكتوبة باللغة العربية انما هو «نقش النمارة»[٥٤]

---

(٥١) هـ٠ ج٠ ويلز : موجز تاريخ العالم – ترجمة عبد العزيز جاويش القاهرة ١٩٦٧ ص ١٧٢ ، ٤١٦ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣١١ – ٣١٢ ، ٣٦٣ .

(٥٢) المسعودى : التنبيه والاشراف – القاهرة ١٩٣٨ ص ١٧٢–١٨١ .

(٥٣) تاريخ الطبرى ١٩٣/١ .

(٥٤) انظر عن نقش النمارة (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب =

والذى يسجل وفاة ملك الحيرة «امرؤ القيس الاول» (٢٨٨ ــ ٣٢٨م) وقد كتب عام ٣٢٨م (عام ٢٢٣ من تقـــويم بصرى)[٥٥] وبلغة عربية شمالية ، وبالخط النبطى ، وليس باللغة الحميرية أو بحرفي المسند[٥٦]، وهو بهذا يمثل مرحلة انتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشمالية ، والتى ماتزال مستعملة حتى الان[٥٧] ، ذلك لان الخط العربى الشائع بيننا الان منحـــول عن الخط النبطى الذى كان شائعا فى مملكة الانباط[٥٨] .

على أن هناك كتابات عربية أقدم من نقش النمارة ، فلقد عثر فى مصر على كتابات معينية فى الجيزة وعنـــد قصر البنات فى الصحراء الشرقية ، وفى منطقة ادفو[٥٩] ، وترجع بعض هذه الكتابات الى أيام الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ ــ ٥٢٢ ق٠م) ، وبعضها الاخر الى أيام البطالمة[٦٠] ، وان كان أهمها كتابة مدونة بخط المسند فى الجيزة ، وترجع الى العام الثانى والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس ، والذى

=

القديم ــ الرياض ١٩٨٠ ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ ، ٥٨١ ــ ٥٨٣ ، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ــ الاسكندرية ١٩٧٠ ص ١٦٥ ــ ١٧٣ ،
Le Museon, 1964, 3-4, pp. 456 F.

R. Dussaud, Nabateo-Arabes D'an Nemara, Rev. Arch, II, p. 409-421.
R. Dussaud, Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1907, p. 34-42.
(٥٥) انظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٥٨٢ ، وكذا
Syria, IV, 1923, p. 154.
(٥٦) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٧٣ .
P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 82.
(٥٨) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ٥٤/٣ ، وكذا
P. K. Hitti, Op. Cit., p. 82.
59. H. Winckler, Rock-drawings of Southern upper Egypt, I, London, 1938, p. 1.

A. E. P. Weigall, Travels in The Upper Egyptian Desert, London, 1909, p. IV, fig, 31-41.
(٦٠) مظهر الاريانى : فى تاريخ اليمن ــ القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥ .

يرى فيه البعض «بطليموس الثانى» (٢٨٤ ــ ٢٤٩ ق٠م) ، ومن ثم فقد ذهب «أدولف جرومان»الى أنها ترجع الى علم ٢٦٤/٢٦٣ق٠م[٦١] وربما ليس بعد عام ٢٦١ ق٠م ، على الاقل[٦٢] ، وان حـــدد الدكتور فؤاد حسنين عام ١٥٩ ق٠م ، تاريخــا للكتابة التى يرى أنها كانت فى عهد بطليموس السادس[٦٣] ، وأما صاحب الوثيقة فيدعى «زيد ايل بن زيد ايل» ، وكان كاهنا فى معبد مصرى[٦٤] ، وأما الكتابة التاريخية فى فى العصور الاسلامية ، فكما يقول «روبرت فلنت» فلم تكن خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم تصل قط الى المرحلة العالمية أو الفلسفية، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى[٦٥] ٠

وعلى أية حال ، فان علم التاريخ عند العرب ، انما قام على أسس من الرواية الشفوية ، ذلك لان انتشار الامية قبيل الاسلام ، وفى بداية العصر الاسلامى ، من ناحية ، وطبيعة المجتمع القبلى فى بلاد العرب، وما كان يسود هذا المجتمع من مفاخرة الافراد والقبائل بحسبها ونسبها من ناحية أخرى ، انما جعل كثيرا من العـــرب يحرصون على رواية مفاخرهم ومفاخر قبائلهم ، ومثالب خصومهم ، وكانت الرواية الشفوية تنقل الاحاديث فى هذا المجال من جيل الى جيل[٦٦] ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبار،حتى ان كانوا بعيدين عن الميول والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التى تستطيع التمييز بين الغث والسمين ، فان للذاكرة آماد لا تستطيع تجاوزها[٦٧] ٠

---

61. A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 26.
62. BASOR, 73, 1939, p. 7.

(٦٣) فؤاد حسنين : التاريخ العربى القديم ــ القاهرة ١٩٥٨ ص٢٦٩
(٦٤) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصــور القديمة ــ الرياض ١٩٧٦ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٦ ٠

65. Robert Flint, History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893 p. 86.

(٦٦) سيدة اسماعيل الكاشف : مصادر التاريخ الاســلامى ومنــاهج البحث فيه ــ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢ ٠
(٦٧) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٣ ٠

وعلى أية حال ، فلعل أهم ما جاء فى هـــذه الروايات عن القبائل الشمالية ما عرف باسم «أيام العرب»[٦٨] والتى تقص أحاديث الحروب بين القبائل المختلفة ، وعلى الرغم مما فى بعض هذه الاخبار من خيال وغموض وعدم التقيد بالدقة ، فقد كان لها تأثير كبـــير فى نشأة علم التاريخ ، ذلك لان الاسلام يقض عليها ، بل ان المؤرخين المسلمين فى فجر الاسلام استمدوا منها كثيرا مما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الاسلام وفى القرن الاول الهجرى ، فضلا عن أنها حفظت أنساب العرب الى حد كبير[٦٩] .

وأخيرا فان أيام العرب هذه انما تظهر لنا مميزات الروح العربية فى الجاهلية من عصبية وحمية ، نهضت بعقلية البدوى الى الفضيلة تارة وهبطت به الى الرذيلة تارة أخرى ، وانكشفت فيها بواطن الخلق العربى ، فاذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردى ، عنيد صعب المراس ، تسوغ له أنفته وكبرياؤه القتال دفاعا عن قبيلته ، سواء أكانت ظالمة أو مظلومة باغية أم مبغى عليها ، ولهذا فهو يعمد الى مناوأة القبائل ، الا أنه يأبى الانقياد الى النظام ، ولا يمتثل للاوامر العسكرية ، وانما يفضل تلك الحروب التى تعتمد على المناوشات والغارات الفجائية ، على مجابهة العدو فى معارك فاصلة[٧٠] .

على أن قيمة مادة أيام العرب التاريخية انما تضعف كثيرا ، بسبب عدم تنسيقها وتبويبها ، طبقا لترتيب الوقائع وتسلسلها التاريخى ، كما أنه من الصعوبة بمكان استخراج مستند منهـــا يمكن الاعتماد عليه فى تصنيف هـــذه الايام ، وتنظيها على أساس تاريخى — مع أنها مادة

---

(٦٨) انظر عن أيام العرب (ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٥٠٢/١ — ٦٨٧ (بيروت ١٩٦٥) ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب فى الجاهلية — القاهرة ١٩٤٢ ، محمد بيومى مهران : الحضـــارة العـــربية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٦٣ — ١٩٦) .

(٦٩) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ١٢ .

(٧٠) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ص ١٦٣ — ١٦٥ ، وكذا P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 90.

المؤرخ فى التأريخ لجزيرة العرب قبل الاسلام،ودراسة التطور السياسى والاجتماعى فيها — وذلك لقلة معارفنا ، فى أغلب الاحايين ، عن أحوال من أسهم فيها ، وأجج نارها،ومن قال فيها شعرا ، هذا الى أن الاهواء الشخصية انما كان لها دور فى تسجيل هذه الايام ، فهناك الكثير ممن سجلوا هذه الايام ، كانوا بعيدين عن الحيدة التاريخية ، ومن هنا فقد كان الواحد منهم يشايع قومه ، فينسب اليهم الغلبة والتفوق،وفى نفس الوقت انما يعمل جاهدا على الغض من قدر خصومهم ، ثم يحاول أن يثبت ذلك كله بكلام منثور ، وآخر منظوم ، ليثبت صحة ما يقول،ومن ثم فقد وجب علينا ألا نصدق كل ما نقرأه عن أيام العرب ، حتى وان نسب الى خيرة من نثق بعلمهم من الرواة[٧١] .

وعلى أية حال ، فلقد كان مؤرخو العـــرب يعتمدون فى تأريخهم للعصور السابقة على الاسلام على الادب العربى ، وعلى بعض آثار اليمن ، حيث كان هناك من يزعم — صدقا أو كذبا — أنه بمستطيع أن يقرأ خط «المسند»،هذا الى جانب اعتمادهم على بعض كتابات النصارى التى وجدت فى الاديرة والكنائس فى العراق والشام ، وعلى ما تلقفوه من أفواه اليهود فى اليمن والحجاز وغيرهما[٧٢]،ومن هذه الكتابات على سبيل المثال ، كتاب أخبار اليمن لعبيد بن شرية الجرهى ، وقد كتب فى أخريات أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦١هـ) وكتاب التيجان فى ملوك حمير ، لوهب بن منبـــه (ت ١١٠/٧٢٨) ، وكتاب الاصنام لابن الكلبى (ت ٢٠٤/٨١٩) ، وكتاب الاكليل ، وكتاب صفة جزيرة العرب للهمذانى (ت ٣٤٠/٩٥١) وكتاب سنى ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهانى،وكتاب ملوك حمير وأقيال اليمن لنشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣هـ)[٧٣] .

---

(٧١) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٦٤ ، جـواد على: المرجع السابق ٣٤١/٥ — ٣٤٣ ، صبح الاعشى ٣٩٣/١ ، ابن النـديم : الفهرست ص ٨٥ ، ابن رشيق : العمدة ٢٠٠/٢ — ٢٠١ .

(٧٢) جرجى زيدان : المرجع السابق ص ١٥ ، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الاسلام — القاهرة ١٩٥٢ ص ٥ .

(٧٣) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٤ .

ومن هنا فان المتصفح لما كتبه المؤرخون المسلمون الكبار ، ليعجب للدقة والتحرى الصحيح الذى عالجــوا به تاريخ الاسلام فى معظم الحالات ، بقدر ما يأسف على الاهمال والخلط الذى صحب كتاباتهم عن عصور ماقبل الاسلام[٧٤]ولعل عذرهم فى ذلك أن عصر الإكتشافات الحديثة الذى نعيشه الان لم يكن قد بدأ بعد وان الاعتماد فى التأريخ لبلاد العرب قبل الاسلام ، انما كان على ما جاء فى التوراة وعلى الأدب العربى القديم ، كما أن الاخبار كانت ــ كما أشرنا من قبل ــ تتناقل على الالسنة بدون تدوين أو ضبط ، وأن الخط العربى كان فى أول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابة النبطية التى يرجح أن الخــط العربى مشتق منها ، ومتطور عنها ، لا تعرف النقط والاعجام[٧٥] .

وجاء الاسلام ، ونزل القرآن على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ مشجعا للمسلمين على الاهتمام بالتاريخ ، فقد ورد فيه الكثير من الاحداث تسجيلا لتاريخ المجتمعات السابقة على الاسلام ، فمثلا هناك سورة كاملة تحمل اسم مملكة فى جنوب بلاد العــرب قبل الاسلام ــ سورة سبأ ــ هذا فضلا عن أن القرآن الكريم انما قد انفرد ــ دون غيره من الكتب السماوية ــ بذكر أقوام عربية بادت ، كقوم عاد وثمود، الى جانب قصة أصحاب الكهف وسيل العرم ، وقصة أصحاب الاخدود، وأصحاب الفيل ، وهجرة الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام ، الى الارض الطيبة فى الحجاز ، ثم اقامة اسماعيل هناك ، وغــير ذلك من قصص الانبياء وسيرهم مع أقوامهم[٧٦] .

---

(٧٤) ابن خلكان : وفيــات الاعيان ٤٥/١ ــ ٤٦ ، ٤١١ ــ ٤١٢ ، ٤٩٤ ــ ٤٩٥ ، ٦٥١ ، ٦٨٩ ــ ٨٩٠ ، ابن النديم : الفهرست ص٩٨ ــ ٨٨، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٥ ــ ٦ ، وكذا

J. Sauvaget, Historiens Arabes, Paris, 1946.

D. S. Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.

(٧٥) خليل يحيى نامى : أصل الخــط العربى وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ــ القــاهرة ١٩٣٥ ص ٨٧ ، فيلب حتى : تاريخ العــرب ١٠٨/١ ــ ١٠٩ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٦١ ــ ٧٣ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٨١ .

(٧٦) قدم الباحث دراسة مفصلة فى أربعة أجزاء عن القصص التاريخى =

غير أن ذلك لا يعنى — بحال من الاحوال — أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الامم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وانما هو كتاب هداية وارشاد للتى هى أقـــوم[77] ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين فى حياتهم ، يدعوهم الى التوحيد[78] ، والى تهذيب النفوس ، والى وضع مبادىء للاخلاق[79]، وميزان للعدالة[80]، واستنباط لبعض الاحكام[81] ، فاذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبرة والعظة[82] .

ومع ذلك ، فيجب ألا يغيب عن بالنا — دائما وأبدا — أن القصص القرآنى ، ان هو الا الحق الصراح ، قال تعالى «ان هذا لهو القصص الحق»[83] وقال تعالى «نحن نقص عليك نبأهم بالحق»[84] وقال تعالى «والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق»[85] ، وقال تعالى «تلك آيات

فى القرآن (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء الاول : فى بلاد العرب ٢ — الجزء الثانى : فى مصر ٣ — الجزء الثالث : فى بلاد الشام ٤ — الجزء الرابع : فى العراق) .

(٧٧) سورة الاسراء : آية ٩ .

(٧٨) انظر : سورة نوح : آية ١ — ٢ ، سورة يوسف : آية ٣٧ — ٤٠ ، سورة النساء : آية ١٧١ — ١٧٢ ، سورة آل عمران : آية ٥٩ ، سورة المائدة آية ٧١ ، ٧٦ .

(٧٩) انظر : سورة البقرة : آية ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥—٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ — ٨٨ .

(٨٠) انظر مثلا : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ — ٢٦ ، محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الجزء الثالث فى بلاد الشام ص ٣٣ — ٩٠ (بيروت ١٩٨٨) .

(٨١) انظر : سورة المائدة : آية ١٧ — ٢٢ ، سورة البقرة : آية ١٧٨ — ١٧٩ .

(٨٢) انظر عن أهداف القرآن ومقاصده : تفسير المنار ٢٠٦/١ — ٢٩٣ .

(٨٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٨٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٨٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون»[٨٦] •

وفى الواقع فان ثمة حقيقة تاريخية تبرز واضحة فى القرآن الكريم تلك هى أن مساحة كبيرة فى سوره وآياته قد خصصت للمسألة التاريخية التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة ، وتتدرج بين العرض المباشر ، والسرد الواقعى لتجارب عدد من الجماعات البشرية ، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التى تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان ، مرورا بمواقف الانسان المتغيرة من الطبيعة والعالم ، وبالصيغ الحضارية التى لا حصر لها ، والتى تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب ، وتبلغ هذه المسألة حدا من الثقل والاتساع فى القرآن الكريم بحيث أن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو اشارة سريعة لحدث ما ، أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ •

ولاريب فى أن هذا أمرا منطقيا ينسجم بالكلية مع اعجاز القرآن وتوزيعه الفذ لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الاساسية فى حياة البشرية ، وقد أخذت تزداد ايضاحا يوما بعد يوم أهمية الدراسة التاريخية ، أو ضرورتها بالاحرى ، لمسيرة كل جماعة بشرية تسعى الى أن تقتبس الاضواء التى أشعلتها الوقائع الماضية ، لكى تنير لها الطريق الطويل التى يجب عليها أن تقطعه ، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات وملتزمة بأكبر قدر ممكن من الاساليب والنظم التى توصلها الى أهدافها والتى هى فى نفس الوقت (أى النظم والأساليب) كانت حركة التاريخ حقلا لتجاربها ، وميدانا لاثبات عناصر القوة والضعف فيها ، اذ أن بدء التجربة دائما من نقطة الصفر ، دون التفات الى مردوداتها التاريخية،

---

(٨٦) سورة الجاثية : آية ٦ ، وانظر عن القرآن كمصدر تاريخى : (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الاول بلاد العرب ، بيروت ١٩٨٨ ص ١٧ ـ ٩٨ ، مصر ، الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٠٧ ـ ١٢١ ، تاريخ العرب القديم ص ٣٧ـ٤١)•

يضيع على الجماعة ما كان لها أن تضيعه من الجهد والوقت ، لو التفتت الى الماضى تستمد منه المواقف والاشارات .

واذا ما أضفنا الى المساحة التاريخية الواسعة فى القرآن ، مسألة أخرى ترتبط بالتاريخ ارتباطا عضــويا لانها ملامسة وتعقيب وتعليق واعادة صياغة وتوجيه لحشد من الوقائع التاريخية،تلك الايات والمواقف القرآنية التى يحدثنا عنها المفسرون فى موضوع «أسباب التنزيل» ، والتى جاءت فى أعقاب عدد كبير من أحداث السيرة ، لكى تعلق وتفند وتلامس وتبنى وتوجه وتصوغ،انطلاقا من هذه الاحداث التى لم تبرد دماؤها بعد ، سواء على مسرح الارض ، أم فى حس الجماعة والانسان المسلم، اذا ما أضفنا هذه الايات المنبثة فى ثنايا القرآن،والتى تختص بها أحيانا مقاطع طويلة ، وسور كاملة ، استطعنا أن نبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الشاملة التى منحها القرآن الكريم للمسألة التاريخية[٨٧] .

وأما الحديث الشريف ــ وهو ما ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ــ[٨٨] فهو المصدر الثانى للشريعة الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية ــ بعد القرآن الكريم ــ لمعرفة التاريخ العربى القديم بالذات ، فضلا عن عصر النبوة ، وعلى أية حال،فالحديث الشريف انما يتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند العرب ، ذلك لان علم الحديث انما يهدف الى دراسة أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله ، وكان الاعتماد فيه أولا على الرواية الشفوية ، كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية الى دراسة سيرة النبى ﷺ وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضا على الراية الشفوية قبل كل شىء ، وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف ، فى بادىء الامر ، عن طبيعة علم الحديث،اللهم

---

(٨٧) عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ٥ ــ ٧ .
(٨٨) انظر تعريفات أخرى للحديث الشريف (مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ــ القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ ــ ٦١ ، مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ــ بيروت ١٩٧٨) .

الا فى هــدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنـــون بالروايات التى تقرر مبـــادىء فقهية أو خلقية ، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه الى سرد الحـــوادث ، فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ ــ عند العرب ــ دراية ورواية ، وحسبنا دليلا على اشتراك العلمين فى المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيـــل الذى سبقه ، وأن المتن فى كل رواية كان مسبوقا بالسند أو الاسناد ، الامر الذى اهتم به المحدثون كثيرا،حتى أنهم ما كانوا يثقون بالحديث الا اذا كان اسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوق بهم،وقد أدى ذلك الى أمرين : الواحد ، ظهور كتب الطبقات ، كطبقات ابن سعد وطبقات الحفاظ للذهبى ، والثانى : ظهور علم نقـــد الرواة ، وهـــو المعروف فى مصطلح الحديث باسم «الجرح والتعديل»[89] .

هذا وقد جمع لنا الامام الشافعى (١٥٠ ــ ٢٠٤هـ) شروط القوم لصحـــة التحمل والاداء ، والتى تدور حول شيئين الراوى والمروى ، فيقول : ولا تقوم الحجة بغير الخاصة حتى يجمع أمور منها : أن يكون من حدث به ثقة فى دينه ، معروفا بالصدق فى حديثه ، عاقلا بما يحدث، عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ ، أو أن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمعه ، لا يحدث به على المعنى ، وهو غير عالم بما يحيل معناه ، لم يدر لعله يحيل الحلال الى الحرام ، واذا أداه بحروفه لم يبق وجه يخاف فيه احالته للحديث ، حافظا ان حدث من حفظه ، حافظا

---

(٨٩) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٥ ، وانظر عن الجـــرح والتعديل : مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث بيرت ١٩٧٨ ص ٤٩ــ٦٠، الغزالى : المستصفى فى علم الاصول (جزءان) القاهرة ١٩٣٧ ، الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ــ تحقيق على البجـــاوى ــ ط الجلبى ــ القاهرة ١٩٦٣ ، الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ــ حيدر أباد ١٣٥٧هـ ، ابن حجر العسقلانى : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الاثر ــ ط مصر ١٣٠٨هـ ، أسد رستم : مصطلح التـــاريخ بيروت ١٩٣٩ ص ١٠٠ ــ ١٢٣ ، عثمان موافى : منهج النقد التاريخى الاسلامى ــ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ ــ ١٣٩ ،الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال ــ القاهرة ١٤٠٦هـ الامام أحمد : العلل ومعرفة الرجال ــ أنقرة ١٩٦٣م ، أبو حاتم الرازى : علل الحديث ــ بغداد ، ابن المدينى : العلل ــ بيروت ١٩٨٠م ، وانظر هذه الدراسة ص ١٧٤ .

الكتابه ان حدث من كتابه ، اذا أشرك أهـــل الحفظ فى الحديث ، وافق حديثهم ، بريئا من أن يكون مدلسا ، يحدث عمن لقى ما لم يسمع منه، ويحدث عن النبى ﷺ بما يحدث الثقات خلافه(٩٠) •

وأما أقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ فهى كتب السيرة والمغازى ، ذلك لان كثيرا من رواة السيرة النبوية الشريفة كانوا من المحـــدثين كعروة بن الزبير ، وابان بن عثمـــان بن عفان ، وشرحبيل بن سعد ، ومن البدهى أن تكون نشـــأة الكتابة فى السيرة والمغازى فى المدينة المنورة فهى دار السنة التى عاش فيها الصحابة ، وشاهدوا سيدنا رسول الله ﷺ وسمعوا أحـــاديثه ورووها للتابعين ، وعلى أية حال ، فالكتابة فى المغازى انما كانت هى الاساس الذى نقلنا الى الكتابة التاريخية الصحيحة،عند العرب،رغم ضعف بعض الروايات التى جاءت فى هذه الكتابات التاريخية(٩١) •

وهكذا يبدو واضحا أن علم التاريخ عند المسلمين انما صدر عن مصدرين ، الواحد : مصدر غير اسلامى ، وهو امتداد للعصر الجاهلى، ويتمثل فى أيام العرب وأخبارها ، والاخر : مصدر اسلامى ، ويتمثل فى السيرة والمغازى ، ثم سرعان ما ظهرت كتب الطبقات ، الامر الذى مهد لكتابات المؤرخين فى العصر العباسى ، عندما بدأ المؤرخون يكتبون فى التاريخ العام •

ولا ريب فى أن القرآن الكريم والحـــديث الشريف انما كانا أهم العوامل التى ساعدت على نمو وتطور التأريخ عند المسلمين ، فضلا عن عواملأخرى من أهمها: ظهور الاسلام والتحولاتالسياسية والاجتماعية التى أوجدها فى المجتمع العربى ، ومدى تأثيره على الدول المجاورة ، هذا الى جانب المعـــارك الكبرى التى خاضها المسلمون ، والحاجة الى تدوينها ، فضـــلا عن حاجة المسلمين الى معـــرفة الانظمة السياسيه

---

(٩٠) الامام الشافعى : الرسالة ـ ط مصطفى محمد ـ القاهرة ١٩٤٠ ص ٩٩ •

(٩١) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٢٦ •

والاقتصادية والاجتماعية السابقة ، كما أن وضع التقويم الهجرى انما كان عاملا مساعدا على فكرة التأريخ عند المسلمين ، أضف الى ذلك كله تشجيع الخلفاء والحكام ـ الامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم ـ على التدوين التاريخى ، وكثيرا ما طلب الحكام أنفسهم من المؤرخين أن يؤرخوا لعصر خليفة أو حكم أو عصر من العصور(٩٢) ٠

ولنتحدث الان عن بعض مشاهير المؤرخين المسلمين بايجاز ٠

(١) الطبرى :

ولد شيخ المؤرخين والمفسرين الامام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى فى أخريات عام ٢٢٤هـ ، أو فى مطلع عام ٢٢٥هـ (٨٣٩م) فى مدينة «آمل» عاصمة اقليم طبرستان ، على الشاطئ الجنوبى لبحر قزوين ، وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ، لكنهم ينتسبون الى طبرستان ، فيقال لكل منهم الطبرى ، وقد توفى أبو جعفر فى بغداد يوم ٢٨ من شوال سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) ، وان ذهب البعض الى أنه مات فى عام ٣١١هـ ، أو حتى عام ٣١٦هـ ، ومن ثم فقد عاصر الطبرى من الخلفاء العباسيين أحد عشر خليفة(٩٣) ٠

هذا وقد بدأ الطبرى دراسته صغيرا ، ومع ذلك فسرعان ما تفتح عقله ، وبدت عليه مخايل الذكاء،وهو ما يزال بعد حدثا،وطبقا لروايته هو ، فقد حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره ، وكتب الحديث الشريف وهو فى التاسعة ، قال الطبرى عن نفسه : حفظت القرآن ولى

---

(٩٢) حسان حلاق : مقدمة فى منهج البحث التاريخى ـ بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٨٦ ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

(٩٣) عاصر الطبرى الخلفاء العباسيين : المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٤٢م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/٨٤٢ ـ ٨٤٧م) والمتوكل (٢٣٢ـ ٢٤٧هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١م) والمنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/٨٦١ ـ ٨٦٢م) والمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/٨٦٢ ـ ٨٦٦م) والمعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/٨٦٦ ـ ٨٥٩م) والمهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/٨٦٩ ـ ٨٧٠م) والمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/٨٧٠ ـ ٨٩٢م) و المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢م) والمكتفى (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٨م) والمقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ـ ٩٣٢م) ٠

سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع ، وقال : ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى رسول الله ﷺ وكانت معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر: أنه ان كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى فى طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير» واستمر فى دراسته متنقلا بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس ، فيأخذ الحديث والتفسير عن «محمد بن حميد الرازى» ، والتاريخ عن «ابن حماد الدولابى»،والفقه عن «أبى مقاتل» ، ثم يشخص الى بغداد ليسمع من عالمها الاكبر الامام أحمد بن حنبل (١٤٦ — ٢٤١هـ) ، غير أن الامام ابن حنبل انما ينتقل الى جوار ربه ، قبل أن يصل الطبرى الى بغداد ، فيذهب الى البصرة والكوفة ويسمع عن علمائهما ، ثم يتجه بعد ذلك الى بغداد فالشام،ثم يتدفع الى مصر ، فيصلها فى عام ٢٥٣هـ (٨٦٧م) فى أوائل عهد «أحمد ابن طـــولون» (٢٥٤ — ٢٧٠هـ = ٨٦٨ — ٨٨٤م) ، حيث يدرس فى أرض الكنانة فقه الشافعية ، ثم يعود الى طبرستان فبغداد التى يبقى فيها حتى يلقى وجه ربه الكريم يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة ، ودفن يوم الاحد بالغداة فى داره ، قـــال الخطيب البغدادى : واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم الا الله ، وصلى على قبره عدة شهور ليلا ونهارا ، ورثاه خـــلق كثير من أهل الدين والادب[٩٤] .

وهناك ما يشير الى أن والد الامام الطبرى انما كان ميسرا له فى الرزق ، يملك احدى ضياع طبرستان ، الامر الذى ساعده على أن يتكفل بمؤنة ولده أثناء تجواله فى العراق والشام ومصر طلبا للعلم ، وقد أدى ذلك الى أن يأبى الامام الطبرى أن يكتب التاريخ بناء على رغبة الخلفاء

---

(٩٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣٣٢/٣ ، ياقوت الحموى : معجم الادباء ١٩/١٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٦٦/٢ (القاهرة ١٩٣١) ، ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ١٠٠/٥ (ط الهند ١٣٣١هـ) ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ١٣٨/٢ (القاهرة ١٣٢٤هـ) القفطى : أنباء الرواة ٩٠/٣ ، أحمد محمد الحوفى : الطبرى ــ القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٠ ــ ٣٢ ، تاريخ الطبرى ٥/١ ــ ١٠ ، (مقدمة المحقق) .

والأمراء ، كما رفض أن يشغل منصب القضاء ، لئلا يخضع لابتزاز الخلفاء أو لشهوة المنصب والسلطان ، يقول ابن عساكر فى تاريخه : لما تقلد الخاقانى الوزارة وجه الى أبى جعفر (الطبرى) بمال كثير،فامتنع عن قبوله ، وعرض عليه القضاء فأبى ، وعرض عليه المظالم فامتنع ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : «لك فى هذا ثواب، وتحيى سنة قد درست» وطمعوه فى قبوله المظالم وباكروه ليركب معهم لقبـــول ذلك فانتهرهم وقال : قد كنت أظن لو رغبت ذلك لنهيتمونى عنه ، ثم لامهم»[٩٥] .

وعلى أية حال ، فلقد كان الامام الطبرى مؤرخا ، كما كان مفسرا وفقيها ، ومن ثم فان الصلة الوثيقة بين علمى الحديث والتاريخ انما تظهر بوضوح فى تاريخـــه ، بل ان تاريخ الطبرى مكمل فى كثـــير من النواحى لكتابه الكبير فى تفسير القرآن الكريم .

هذا وقد اشتهر الطبرى بمثابرته على العمل ، حتى زعموا أنه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين صفحة ، وعلى أية حال ، فلقد كتب الطبرى ٢٨ كتابا[٩٦] ، لاريب فى أن أشهرها كتابه فى التفسير «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» ، والمشهور «بتفسير الطبرى ، وكتابه فى التاريخ (تاريخ الرسل والملوك) والمعروف بتاريخ الطبرى ، وهو أول كتب التاريخ الشاملة فى اللغة العربية ، وقد بدأ بالخليقة ، وانتهى عند عام ٣٠٢هـ ، وقد قيل ان كتابيه فى التاريخ والتفسير كان كل منهما ٣٠ ألف ورقة ، ثم أشار عليه أحد تلاميذه أن يختصره الى الحجم الحالى، وهو نحو عشر ذلك ، فلقد روى أنه قال لاصحابه : «أتنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا الحاضر ؟ قالوا كم قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : ان هذا مما يفنى الاعمار قبل تمامه ، فقال : انا لله ، ماتت الهمم» ، ثم اختصره[٩٧] .

---

(٩٥) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٦ ، تاريخ ابن عساكر ٣٥٦/١٨ ، تاريخ الطبرى ١٠/١ .
(٩٦) انظر : المرجع السابق ص ١٥ — ٣٢ .
(٩٧) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

وليس هناك من ريب فى أن هنـــاك علوما ثلاثة ، لا يذكر الامام الطبرى الا مقرونا بها كلها ، وهى التفسير والتاريخ والفقه ، لانه تفوق فيها ، ولانه خلف فى كل منها كتابا أو كتبا عظيمة القيمة ، وليس من شك فى أن كتابيه فى التاريخ والتفسير كانا عماد من أتوا بعده •

والذى يهمنا هنا انما هو «الطبرى المؤرخ» ، وقـــد امتاز كتابه «تاريخ الرسل والملوك» بالتعويل على الروايات الى حد كبير،والحرص على السند ، وترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا عاما بعد عام ، منذ الهجرة النبوية الشريفة الى عام ٣٠٢هـ ، وان عرض أحداث ما قبل الاسلام بدون ترتيب ، وأما الأخبار العامة التى لا ترتبط بزمن معين ، فقد كان يختم بها الحديث عند كل خليفة ، كما اهتم الطبرى بتسجيل النصوص الادبية فى تاريخه •

هذا وقد حاول الطبرى أن يجمـــع مواد كتابه من قراءاته ، ومن المتخصصين فى العلوم المتنوعة ، ومن خلال رحلاته ، كما نجح فى أن يسخر الادب واللغة والشعر لخدمة التاريخ ، فأفاد فى كتابه «تاريخ الرسل والملوك» من كتب الحـــديث والتفسير والادب المغازى والشعر والخطب ونصوص العهود ، وكتب التوراة والانجيل ، والقرآن الكريم الذى أفاد منه كثيرا عند كتابته عن الانبياء والرسل ، على أن الباحثين انما يأخذون على الطبرى أشياء ، منها الاكتفاء بالتسجيل دون النقد •

وهنا لعل من الجدير بالاشارة أن منهج أسلافنا فى نقد الخبر انما يقوم أساسا على أصلين : السند والمتن ، أو الشكل والمضمون ، كما أن نقدهم للسند انما يقوم على أصول وخطوات ، منها البحث عن مصدر الخبر ، ثم التحقيق من نسبة الخبر الى ناقله ، ثم نقد الراوى ، وأما منهج القوم فى نقد المتن ، فيقوم على تصحيح المتن لغويا (اصلاح المتن باستبعاد ما فيه من أغلاط) ، ثم التفسير ، فمعرفة الصحيح فيه من الزائف ، وقد وصلوا بعد تصحيح المتن وتفسيره الى معـــرفة أصله — أى صحيحه من زائفه — لا عن طريق التخمين — كما فعل الاوربيون وكما يصنعون — ولكن بوضع قواعد كلية لمعرفة الصحيح من الزائف،

هذا فضلا عن نقد السند أو المصدر ، انما قد ساعدهم على حل هذه المشكلة ، والوصول الى الناقل الحقيقى للخبر أو شاهد العيان ، وهذا يفسر لنا ظهور نقد السند قبل المتن ، لأن نقد السند هو الاساس الذى عن طريقه يمكننا معرفة أصل المتن ، وحقيقة ومدى نسبته الى قائله أو ناقله[٩٨] .

هذا وقد التزم الطبرى بهذا المنهج ، ودقته فى تطبيقه واضحة تماما فى كتابه،ولعل من ظاهر هذه الدقة فى التطبيق تحريه وتثبته من الرواية، وتمسكه بالاسناد ، ذلك لأن نظرته الى التاريخ انما هى متأثرة الى حد كبير ، بكونه «محدثا وفقيها» ، وقد رمى فى تاريخه الى اكمال تفسيره، ومن ثم فقد جاءت روايته للتاريخ متأثرة الى أبعد الحدود بهذا المنهج الاسلامى فى الرواية قلبا وقالبا ، فأساس صحة الرواية ـ كما يتطلب هذا المنهج ـ الثقة بالرواة ، من حيث العدالة والضبط وصحة الاسناد، وهذا ما التزمه الطبرى ، وطبقه فى كتابه بأمانة ودقة ، اضطرته الى الوقوف أمام كثير من رواياته موقفا سلبيا ، فلم يحاول نقد بعض مضامينها التى قد تخالف العقل أو المنطق ، مادامت أسانيدها صحيحة، خاصة تلك الأخبار التى تتصل بالانبياء والرسل ، والتى يتحدث بعضها عن غيبيات لا دخل للعقل فيها ، لأنها فوق العقل والنقد ، ومن ثم وجب قبولها على علاتها مادامت صحيحة الاسانيد[٩٩] ، ولقد اتخذ الطبرى من هذا المنهج تكأ اتكأ عليها فى الاعتذار عن منهجه هذا ، كما جاء فى مقدمة كتابه[١٠٠] .

وهكذا يرى الطبرى حسب المؤرخ صدق النقل وأمانته ، والصدق يرجع الى المصدر ، وليس المضمون ، وهذا أصـــل من أصول المنهج

---

(٩٨) عثمان موافى : المرجع السابق ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، وانظر : بول ماس : نقد النص ـ من كتاب النقد التاريخى ـ ترجمة عبد الرحمن بدوى القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٣ ص ٣٥٥ .
(٩٩) عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(١٠٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) ـ القاهرة دار المعارف ـ ١٩٦٠ ـ ٧/١ ـ ٨ .

الاسلامى فى الرواية الذى غلب على المؤرخين المسلمين فى كتاباتهم ، وطبقوه متأثرين بروحه وفلسفته ، ومن هنا وجه كثير من الباحثين المعاصرين من المستشرقين سهام نقدهم الى الطبرى خاصة ، والى المؤرخين المسلمين عامة ، لغلبة روح هذا المنهج الروائى عليهم ، والذى اضطرهم أن يكونوا رواة لا نقادا ، وهكذا يتهم «فلهوزن» رواة الطبرى بأنهم : لا يفرقون بين الاخضر واليابس ، وهم يذكرون أتفه الاشياء فلا يدعون شيئا مجهولا ، والى مثل هذا ذهب «نيكلسون»[١٠١] .

على أن هناك من يرى أن المؤلف الذى يقوم عمله على نقل الاخبار دونما تفسير أو نقد ، فانه انما يقدم لنا من ضمان الاخلاص والعدل، أكثر مما يقدم لنا الكاتب الذى يعرض علينا الوثائق ممحصة أو مشوهة وحق ما يعتقده عن حسن نية أو عن غرض ، عن صدق أو كذب[١٠٢] .

ومع ذلك ، فان منهج النقل ، دون النقد ، لم يكن مقصورا على المؤرخين المسلمين ، وانما كان هذا المنهج يطبق فى المعرفة التاريخية بصفة عامة فى العصور الوسطى ، وليس فى المعرفة التاريخية الاسلامية فحسب[١٠٣] ، وفى أكبر الظن أن هذا يرجع الى اتصال المعرفة التاريخية بالمعرفة الدينية منذ نشأتها فى البيئة الاسلامية بصفة خاصة،وبفلسفة الاديان فى العصور الوسطى بصفة عامة[١٠٤] .

وأيا ما كان الامر ، فالمعرفة الدينية معرفة نقلية تثبت بالنقل والسماع ، وتتطلب القبول والتسليم ، ومن ثم فهى ليست فى حاجة الى

---

(١٠١) عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٢٨ ، فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العش ص ٢ ، وكذا
A. R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.

(١٠٢) حيدربامات : مجال الاسلام - ترجمة عادل زعيتر - ١٩٥٦ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(١٠٣) جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ - ترجمة عادل زعيتر - دار المعارف - القاهرة ص ٥٣ - ٥٥ .

(١٠٤) ر.ج. كولنجوود : فكرة التاريخ - ترجمة محمد بكر خليل القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥ .

نقد ، لانها فوق النقد ، وعلى أية حال ، فهـــذه الانتقادات ، انما تدل على احتضان الخبر التاريخى لهذا المنهج،وعلى تشرب كثير من المؤرخين روحه وفلسفته ، وتطبيقهم لكثير من قواعده وأصـــوله ، وان اختلفت درجة دقتهم فى التطبيق ، تبعا لاختلاف نوع الخـــبر وأهميته وفترته الزمنية ، ومن ثم فقد كان كتاب الســيرة النبوية الشريفة أدق تطبيقا لهذا المنهج ، وأشمل ممن أتوا بعدهم ، وتناولوا التـــاريخ فى مصادره المتعددة الاسلامية وغير الاسلامية ، غير أن دقتهم فى التطبيق لا ترقى الى دقة أصحاب هذا المنهج فى مجـــال النظر ، وان قاربتهم فى مجال التطبيق[١٠٥] .

هذا وقد أخذ الباحثون على الطبرى أيضا ذكره للعلماء والرواة ، دون ذكر مؤلفاتهم ، فضلا عن تداخـــل الروايات ، والعناية بالتاريخ السياسى وحده ، هذا فضلا عن تقطيع الحوادث على السنين ، وأخيرا ذكره لبعض خرافاتوأساطير ــ خاصة عنعصور ماقبل الاسلام ــ دون أن ينتقدها حتى ، والواقع أن الامام الطبرى نفسه قد أشار الى أنه روى فى تاريخه أخبارا لا يقبلها العقـــل ، ولا تستريح اليها النفس ، معتذرا للقارىء عن ذلك ، ومشـــيرا الى أن الامانة العلمية انما تحتم عليه أن يروى ما سمع ويؤديه على حاله ، دون زيادة أو نقصان ، أو حتى فحص أو تحرى له ، ملقيا مسئولية ذلك على شاهد العيان ، الذى سمع ذلك من مصدره المباشر أو شاهده بنفسه[١٠٦] .

غير أن هذا كله لا يقلل من قدر الامام الطبرى المؤرخ ، وكتابه فى التاريخ العام ، والذى أكمل به أبو جعفر ما ابتدأه سابقوه من التأريخ للاحـــداث أو الاقاليم أو طوائف الرجـــال ، كابن اسحاق وابن سعد والواقدي والبلاذرى والدنيورى واليعقوبى ، وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه ، وبقى هو مسجلا لما ضاع ، فحفظ تراثا نفيسا ، جديرا بأن

---

(١٠٥) عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(١٠٦) نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ ، الطبرى : المرجـع السابق ص ٧ ــ ٨ .

يبقى على مر الزمان وهو ـ كما وصفه السخاوى ـ التاريخ الجليل المعول عليه فى معناه لكل من بعده ، الامام أبى جعفر الطبرى ، أحد أئمة الاجتهاد ، الجامع من العلم لما لم يشاركه فيه أحد من معاصريه الامجاد ، وهو جامع الطـــرق والروايات وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات[١٠٧] .

ولاريب فى أن الامام الطبرى تمهيد لمن جاءوا بعده ومصدر أصيل من مصادرهم ، وهكذا فقد نقل عنه المسعودى وابن الاثير وابن مسكوية (ت ١٠٣٠م) والذهبى وأبو الفداء وابن خلدون ، ونقل ابن عذارى منه ما يخص تاريخ افريقيا والاندلس فى كتابه المغرب ، ومازال مصـــدرا الى اليوم ، ذلك لانه جمع كثيرا من أخبار العرب فى الجاهلية ودونها فحفظها من الضياع ، ومن ثم فقد كان المؤرخون الذين جاءوا بعـــده يعولون على ما ذكر ، ولولاه لفقد الباحثون معـــارف كثيرة عن العرب وأحوالهم فى جاهليتهم .

هذا وقد سجل الطبرى كثيرا من الحقـــائق التاريخية عن العصور الاسلامية ، موثقا الاسناد الى أصحابها ، لولاه لعدت عليهـــا عوامل الاهمال والنسيان ، فحرم التاريخ هذه الاراء ، ذلك لانه دون روايات نقلها عن كتب لم يبق الا أقلها ، وروايات سمعها من أشخاص ، لو لم يدونها لتوارت فى موجات الزمان ، وقد أورد الطبرى فى تاريخه كثيرا من الحقائق عن الفرس ، لا يجدها عند غيره من يريد أن يدرس تاريخهم حتى لقد اعتمد عليه العالم الالمانى الشهير «تيوردور نولدكه» (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠) فى معرفة تاريخ الفرس والعرب على أيام الساسانيين ، ومن ثم فقد ترجم كتابه فى التاريخ الى الفارسية ثم التركية ، هذا فضلا عن أن ما كتبه الطبرى عن تاريخ الروم، انما هو دقيق الى حد كبير ، لانه نقل عن نصارى الشام ، وسمع عنهم ، وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة[١٠٨] .

---

(١٠٧) السخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .
(١٠٨) أحمد محمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ .

بقيت الاشـــارة الى أن هناك كثير من التكمـــلات والمختصرات والترجمات لكتاب الطبرى (تاريخ الرســل والملوك)[١٠٩] أو (تاريخ الامم والملوك[١١٠] ، ولعل أول من ذيل عليه هو الطبرى نفسه ، وان لم يصل الينا شيء من ذلك ، قال السخاوى : وله على تاريخه المذكور ذيل ، بل ذيل على الذيل أيضا[١١١] ، وطبقا لرواية «ياقوت الجموى» (١١٧٨ ــ ١٢٢٨) فقد عمل «عبد الله بن أحمـــد بن جعفر الفرغانى» صلة له[١١٢] ، وقال ابن النديم : وقد ألحق به جماعة من حيث قطع الى زماننا هذا ، لا يقول على الحاقهم ، لانه ليس ممن يختص بالدولة ولا بالعلم[١١٣]، وفى المكتبة الاهلية بباريس نسخة مخطوطة من الجزء الاول من كتاب «محمد بن عبد الملك الهمذانى» (ت ٥٢١هـ) الذى جعله تكملة له ، يبدأه من أيام المقتـــدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢م) الى بدء خلافة «المستظهر» (٤٨٧ ــ ٥١٢هـ) ، أما بقية الكتاب فتنتهى بأخبار عضد الدولة أبى شجاع فى أول سنة ستين وثلاثمائة .

وقد اختصره كثيرون،منهم : محمد بن سليمان الهاشمى وأبو الحسن الشمشاطى والسليل بن أحمد ، كما اختصره وزاد عليه عريب بن سعد القرطبى ، وأما أخبار العراق فيما بين عـــامى ٢٩١ ، ٣٢٠هـ ، فطبعت ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبرى»[١١٤] .

وكان «محمد بن عبد الله البلعمى» أول من ترجم تاريخ الطبرى الى الفارسية ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وكانت هـــذه الترجمة مقصورة على الأخبار والاسانيد ، مع بعض التصرف ، ثم نقلت الترجمة الفارسية الى التركية ، ثم أعيدت مرة أخرى فيما بين عامى

(١٠٩) ياقوت : معجم الادباء ٦٨/١٨ .
(١١٠) تاريخ بغـــداد ١٦٣/٢ ، حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ص ٢٩٧ .
(١١١) السخاوى : المرجع السابق ص ١٤٤ .
(١١٢) ياقوت : معجم الادباء ٤٤/١٨ .
(١١٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ .
(١١٤) تاريخ الطبرى ٢٦/١ (مقدمة المحقق) .

٩٢٨ ، ٩٣٨هـ ، وطبعت فى الاستانة عـام ١٢٦٠هـ ، كما ترجم وطبع بالفرنسية عام ١٨٧٤م ، ثم الى بعض اللغات اللاتينية ١٨٦٣م،ثم نشر بعض المستشرقين الكتاب كاملا ، فيما بين عامى ١٨٧٩ ، ١٨٩٨م ، ثم مرة ثانية عام ١٩٠١م[١١٥] •

(٢) ابن الاثير :

هو على بن محمد الشيبانى ، كنيته أبو الحسن ، ولقبه عز الدين ، ويعرف بابن الاثير الجزرى ، نسبته الى جزيرة ابن عمر ـ فوق الموصل وتحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة ـ حيث ولد عز الدين فى رابع جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) فى بيت وجاهة وثراء ، ثم انتقل عز الدين مع أبيه وأخويه[١١٦] الى الموصل ، وهناك سمع من أبى الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسى ومن فى طبقته •

ثم بعد ذلك أخذ يتنقل بين الموصل وبغداد ودمشق والقدس وحلب، يتلقى فى كل بلد نزله العلم والحـديث ، عن علمائه وقرائه وفقهائه ومحدثيه ونحاته ، فحصلت له بذلك ثقافة شاملة فى العلوم الاسلامية وفى التاريخ والنحو ، ثم توفر بعد ذلك على النظر فى العلم والتصنيف حتى توفاه الله تعالى فى شعبان سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م)،وهو فى الخامسة والسبعين ، فدفن فى الموصل ، ولايزال قبره معروفا •

---

(١١٥) تاريخ الطـبرى ١/٢٧ ـ ٢٨ ، لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ١٩٤٨ ص ٤٧٦ ، كشف الظنون ص ٢٩٨ ، حسان حلاق : المرجع السابق ص ٢٩٢ •

(١١٦) كان لابن الاثير اخوان : مجد الدين أبو السعادات المبـارك (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ) وهو محدث ، وله كتابان (جـامع الاصول فى أحاديث الرسول) ـ حققه عبد القادر الارناؤوط ـ دمشق ١٩٧٤م ، و (النهاية فى غريب الحديث والاثر) ـ حققه محمود محمد الطناحى ـ ط الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٣ ، وكتاب ثالث (منال الطالب فى شرح طوال الغرائب) ـ حققه محمود محمد الطناحى ـ نشر جـامعة أم القرى ١٩٨٣ ـ والاخ الاصغر هو الاديب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨ ـ ٦٣٧هـ) ومن كتبه (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) و (الوشى المرقوم فى حـلى المنظوم) •

وأما أهم مؤلفاته فهى : ١ ــ كتاب اللبيب فى تهذيب الأنساب ، وهو مختصر لكتاب الانســـاب للسمعانى ٢ ــ تاريخ الدولة الاتابكية ٣ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ــ وقد نشرته دار الشعب بالقاهرة فى سبع مجلدات عام ١٩٧٠م ، بتحقيق الدكتور محمـــد البنا والدكتور محمد عاشور .

وأما أشهر كتبه ، وعليه تقوم شهرته ومنزلته العلمية ، فهو كتابه «الكامل فى التاريخ» ، وهو كتاب جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، بدأه منذ أول الزمان ، الى آخـــر سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠م) أى قبل وفاته بسنتين ، وهو كسائر التواريخ القديمة سرد للحـــوادث والاخبار بحسب تواريخها ، ويعترف صاحبه بأنه نقل عن الطبرى ، اذ هو المعول عليه ، وان لم يتبع خطاه ، فقد كان الطبرى يذكر فى أكثر الحوادث روايات عديدة ، فقصد ابن الاثير الى أتمها فنقله وأضاف اليه، على أن هذا لم يمنع ابن الاثير من أن يستمد من مصادر أخرى ، كابن الكلبى والمبرد والبلاذرى والمسعودى ، فيما ترك الطبرى عن قصد أو غير قصد ، وذلك مثل أيام العرب قبل الاسلام ، والوقائع بين قيس وتغلب فى القرن الاول الهجرى ، وغزو العرب السند وغيرها[١١٧] .

وعلى أية حال ، وكما يقـــول ــ روبرت فلنت ــ فان أكثر الذين عالجوا التاريخ من العرب لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى، فمن المرجح أن «ابن الاثير» يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهـــو أقرب ما يكون الى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الاحداث فى نظام حدوثها، وانما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية ونتائجها ويظهرها،ولكنه لايذهب الى أبعد من ذلك،فهو لم يحاول أن ينفذ بصره الى تطور الافكار العامة التى تفسر التاريخ ، ويتعرف أثر أسباب التغيرات الاجتماعية

---

(١١٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ــ بيروت ــ دار صادر ١٩٦٥ ص ٩ ــ ١٤ (المقدمة) .

الاعمق ، التى تظهر الاسباب المباشرة والظاهرة نتيجة له ، أو تحدث بسببه[118] .

ومع ذلك فان ابن الاثير لم ينقل الحوادث التاريخية على علاتها ، انما كان يختار منها ما يراه موافقا لمعقوله ، ويؤلفه تأليفا جديدا بما يضيف اليه ، وهو — وان لم يكن سار على أسلوب فلسفة التاريخ فى نقده للحوادث وربطه بين الاسباب والمسببات ، وهو أسلوب لم يعرف الا مع ابن خلدون — فانه كان ينقد ما ينقله ، ولم يكن ينقل الا كل ما رآه صوابا ، وكان يعرض عن نقل ما يراه غير موافق للعقل ، فعله بما رواه الطبرى عن خلق الشمس والقمر وسيرهما[119] .

ومهما يكن من أمر ، فان ابن الاثير مؤرخ يمتاز بشدة التثبت فيما ينقل ، بل قد يسمو أحيانا الى نقد المصادر التي يستمد منها ، وله استدراكات وجيهة على الطبري والشهرستانى — مصنف كتاب الملل والنحل — وغيرهما من العلماء والمؤرخين ، كما أن كتابه «الكامل فى التاريخ» ، تاريخ جامع ، جزيل الفائدة ، لاسيما فيما يتعلق بالحوادث التى مرت فى عصر المؤرخ ، الامر الذى جعله موردا سائغا يرده من أتى بعد صاحبه من المؤرخين[120] .

والحق أن ابن الاثير انما كان محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده وأفاد من مؤلفاته ، فمن معاصريه — مثلا — «ابن خلكان» (١٢١١ — ١٢٨١م) الذى وصفه بأنه «كان اماما فى حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ، ثم يقول : وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها[121] ، ويصفه سبط بن

118. Robert Flint, History of The Philosophy of The History, Edinburg, 1893, p. 86.

(١١٩) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٢ .

(١٢٠) ابن الاثير : المرجع السابق ص ١٤ — ١٥ .

(١٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ تحقيق احسان عباس — بيروت دار صادر ١٩٧٨ — الجزء الثانى ص ٤٣٨ .

الجوزى ، بالاستاذ ، فيقول ، حين ينقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى : وذكر الاستاذ الجزرى فى تاريخه[١٢٢] .

ويصفه الحافظ ابن كثير (٧٠١ — ٧٧٤هـ) بأنه «الامام العلامة» ، وأنه أقام بالموصل فى آخر عمره : موقرا معظما الى أن مات[١٢٣]،ويقول عنه الحافظ الذهبى (١٢٧٤ — ١٣٤٨م) أنه كان صدراً مُعَظَّماً كثير الفضائل[١٢٤] ، ويقول عنه ابن العماد الحنبلى أنه كان اماما ، نسابة، مؤرخا ، اخباريا ، أديبا ، نبيلا محتشما[١٢٥] .

وعلى أية حال ، فلقد أثبت ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» أنه مؤرخ مفكر واع،ولعل هذا لانه يربط الاحداث المتقاربة أو المتشابهة بعضها ببعض ، ويعلل أسبابها ونتائجها ، مثل ربطه بين غارات النصارى على المسلمين فى الغرب ، والغزو الصليبى على الشام ، وأيضا بين استيلاء المتغلبين على الحكم ، وبين حرمان أعقابهم منه ، وكذلك ربطه بين تصرفات الخزازمية السيئة وبين هزائمهم المتتالية من التتر ، وغيرها من الاحداث وهى كثيرة[١٢٦] .

هذا ولعل من أهم خصائص ابن الاثير ، كمؤرخ ممتاز ، اختياره المصادر الاصلية ، والموثوق بها للاعتماد عليها فى تأليف كتبه ، هذا فضلا عن أن ابن الاثير — رغم ثقته بمؤلفى مصادره — فانه لم يعفهم من النقد اللاذع ، حين يعثر لهم على خطأ ، غير أنه يستبين فى لهجته فى النقد عزة العلماء واستعلاؤهم — كما فعل الطبرى كثيرا — كما كان ابن الاثير يلجأ كثيرا الى تلخيص الخبر المطول الذى ينقله من مصدره،

---

(١٢٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ٣٢٠/٨ .

(١٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية — الجزء الثالث عشر — بيروت ١٩٦٦ ص ١٣٩ .

(١٢٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — القاهرة ١٣٥٠هـ — الجزء الخامس ص ١٣٧ .

(١٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٣٧ .

(١٢٦) عبد القادر احمد طليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ — القاهرة ص ٣٩ .

فيحذف منه المعلومات التى يرى أنها غير ضرورية ، ويكتفى بالمعلومات الاساسية التى يبنى عليها الخبر ، وقد وفق الى حد كبير فى تلخيص كثير من الاخبار ، ولكنه — فى الوقت نفسه — لم يوفــق فى تلخيص بعضها أيضا[١٢٧] .

(٣) ابن خلدون :

هو أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون ، من أسرة عربية ، حيث ينتهى نسبه ، فيما يرى البعض ، الى وائل بن حجر ، أحد أقيال عرب حضرموت ، وقد هاجرت أسرة ابن خلدون الى الاندلس فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، حيث نزل جده الاكبر «خلدون» قرمونة فى جماعة من قومه ، ثم هاجروا منها — بعد حين من الدهر — الى اشبيلية ، ولمــا سقطت دولة الموحــدين (١١٣٠ — ١٢٦٩م) فى الاندلس ، وأخذ النصارى يمضون فى غزو البلاد ، هاجرت الاسرة الى «سبته» وأخيرا استقر محمد جــد ابن خلدون فى تونس ، حيث ولى الوزارة لأبى حفص ثم لابنه المستنصر ، كما ولى محمــد ، والد ابن خلدون ، بعض المناصب العسكرية والادارية ، غير أنه سرعان ما انصرف الى الدرس والتعبد ، ثم توفى بالطاعون فى عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) .

هذا وقد ولد عبد الرحمــن بن خلدون فى أول رمضان عام ٧٣٢هـ (٢٧ مايو ١٣٣٢م) ، وتوفى بالقاهرة فى الخامس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨هـ (١٩ مارس ١٤٠٦م) ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم قرأ على والده وعلى أكابر علماء تونس ، ودرس فى شغف النحو واللغة والفقه والحديث والشعر ، ثم ما لبث أن تلقى مبادىء المنطق والفلسفة ، ولما احتــل أبو الحسن المرينى تونس فى عــام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) حضر عبد الرحمن على العلماء المغاربة الذين حضروا معه ، فأتم دروسه فى المنطق والفلسفة والتوحيد والشريعة وغير ذلك من العلوم العربية، وقد ساعدته دراسته هذه ، فضلا عن اتصاله ببعض ساسة عصره ، والرجال

---

(١٢٧) نفس المرجع السابق ص ٤٨ — ٥١ .

المبرزين فى البلاط المرينى فى فاس ، على شغل بعض المناصب الهامة فى دولة بنى مرين ، وفى بعض الدويلات المغربية التى قامت على أنقاض دولة الموحدين •

وهكذا ، وفى عام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) التحق ابن خلدون فى وظيفة فى قصر الحسن المرينى سلطان مراكش ، ثم عينه السلطان «أبو اسحاق الثانى الحفصى محمد بن تافراكين» سلطان تونس (٧٥٢هـ/١٣٥١م) «كاتبا للعلامة» (كاتب ديوان الرسائل) ، وقد شرح ابن خلدون مهمة وظيفته هذه ، بأنه كان يوقع المراسيم والكتب السلطانية بشارة السلطان (الحمد لله والشكر لله) يكتبها بين البسملة وبقية النص ، ثم تقلب ابن خلدون فى مناصب عدة عنـــد بنى مرين فى فاس ، وبنى عبد الواد فى تلمسان ، وعند بنى الاحمر فى غرناطة ، وعنـــد بنى العريف فى شرق تلمسان ، على مدى حوالى ربع القرن ، تعرض فيه للسجن والاضطهاد كما شارك فى بعض الاحداث السياسية التى عرضته للنقد ، فضلا عن الاضطهاد ، كما حدث له فى فاس ، حيث زج به فى السجن مرتين ، فيما بين عامى ٧٥٥ ، ٧٥٩هـ (١٣٥٦ ــ ١٣٥٨م) •

وعلى أية حال ، ففى عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) خـــرج للحج ، ولكنه توقف فى رحلته عند الاسكندرية والقاهرة ، حيث ألقى دروسا فى الجامع الازهر ، ثم فى المدرسة القمحية (بجوار جامع عمرو) ، وفى عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) عينه السلطان الظـــاهر برقوق قاضيا لقضاة المالكية ، ولما غرقت أسرته وأمواله مال الى الزهد ، وخرج الى بيت الله حاجا فى عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) ، ثم ولى ثانية فى عام ٨٠١هـ (١٣٩٩م) منصب قاضى قضاة القاهرة ، وتخلى عنه مدة قصيرة ، ثم استعاده ، وفى عام ٨٠٣هـ (١٤٠١م) صحب السلطان الناصر الى دمشق مع بقية القضاة فى حملته على «تيمور لنك» ، ولما عاد شغل منصب قاضى القضاة مرة أخرى وظل فيه الى أن توفى فى ٢٥ رمضان ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)[١٢٨] •

---

(١٢٨) دائرة المعارف الاسلامية ــ المجلد الاول ــ ط كتاب الشعب ــ

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه من ناحية علم التاريخ أو فلسفة التاريخ ، فان ابن خلدون ــ اذا عددناه مجرد مؤرخ ، فلاريب أن هناك من بين مؤلفي التاريخ عند العرب من يفوقه ــ ولكنه ، بوصفه صاحب نظرية في التـــاريخ ، فليس له نظير في أي عصر ، حتى ظهور «فيكو» ــ بعد أكثر من ثلاثة قرون ــ وأن افلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء له ، وجميع الاخرين ليسوا جديرين بذكر أسمائهم مع اسمه ، وهو جدير بالاعجاب ، لاصالته وفطانته وعمقه وسعة احاطته في فلسفة التاريخ ، كما كان «دانتي» (١٢٦٥ ــ ١٣٢١م) و «روجر بيكون» (١٢١٤ ــ ١٢٩٤) بين العلماء ، وحقيقة أن مؤرخي العـــرب جمعوا المادة التي أفاد منها ، ولكنه وحده هو الذي عرف كيف ينتفع بها[١٢٩] .

ومن ثم فقد أدهش ابن خلدون علماء أوربا المعاصرين ، يقـــول «كارادفو» (Carrade Vaux) : أنجبت افريقيا الاسلامية اجتماعيا من الطبقة الاولى في شخص ابن خلدون ، الذي لم يعـــرف من قبله عالم أوتي تصورا في فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فان أحوال الامم الروحية ، والاسباب الطارئة عليها ، القاضية بتغيرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الاطوار ، وتنوع المدنيات ، وعوامل نموها أو تقلصها ، كل هذه المباحث التي خاض فيها ، الى أقصى مايمكن الخوض فيه ، وذلك في مقدمته المشهورة ، ولم تجد في أوربا حتى القرن الثاني عشر أناسا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه، بعد أن كانت أقفالا مستحجبة تتعذر فتحها[١٣٠] ، ويقول نيكلسون : لم يسبقه

القــاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٣ ، علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن ابن خلدون ص ١٨ ــ ٢٠ ، التعريف بابن خلدون ــ تحقيـــق محمد بن تاويت الطنجي ص ١ ــ ٢٢ ، ٣٦٦ ــ ٣٧٦ ، عثمـــان موافي : المرجع السابق ص ٢٦٦ ــ ٢٦٩ .

(١٢٩) علي أدهم : المرجع السابق ص ٥٨ ــ ٥٩ ، وكذا
R. Flint, Op. Cit., p. 86.

(١٣٠) عثمان موافي : المرجع السابق ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ .

أحد الي اكتشاف الاسباب الخفية للوقائع،أو الى عرض الاسباب الخلقية والروحيـــة التى تكمن خلف سطح الوقـــائع أو الى اكتشاف قوانين التقدم والتدهور[١٣١] ، ويقول عنه «جـــورج سارتون» لم يكن أعظم مؤرخى العصور الوسطى شامخا كعملاق بين قبيلة من الاقزام فحسب، وانما كان من أوائل فلاسفة التاريخ ، سابقا مكيافيلى وبودان وفيكو وكونت وكورنو ا[١٣٢] .

ولعل ذلك كله ، انما يرجع الى مفهوم التاريخ عند ابن خلدون،فهو يرى : أن التاريخ فى ظاهره ، لا يزيد عن أخبار الإيام والدول والسوابق من القرون الاولى ، وفى باطنه : نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق[١٣٣] ، ومن ثم فان للتاريخ — عند ابن خلدون — معنيين : معنى سطحى ظاهر مؤداه : أن التاريخ رواية وحسب ، لاحداث الماضى وأخبـــاره ، ومعنى خفى مؤداه : أن التاريخ نقد وتفسير وتعليل ، الماضى وأخباره .

ويبدو أن من سبقه من المؤرخين لم يفهموا التاريخ الا على أنه مجرد رواية لاحداث الماضى وأخباره ، ومن ثم فهـــو يأخذ عليهم أنهم كانوا رواة للغث والسمين ، ولم يفرقوا فى رواياتهم بين الصحيح والزائف، وهكذا كان هجومه على المؤرخين أول قاعدة اتكأ عليها فى بناء نظريته فى «النقد التاريخى» ، والذى عبر عنه فى قوله : «ان فحول المؤرخين فى الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل ، وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الاثار الكبيرة ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الحديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب كليل،

---

131. A. R. Nickolson, Op. Cit., P. 435.
132. G. Sarton, Introduction to The History of Science, IV, p. 115
(١٣٣) ساطع الحصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليـــل ، والتقليد عريق فى الادميين وسليل»[١٣٤] .

ويذهب ابن خلدون الى أن اعتماد المؤرخـــين على الرواية ، دون النقد لما يروى ، فضلا عن تفسيره وتعليله ، انما قد أدى الى الوقوع فى أخطاء كثيرة ، فيما يروى من أخبار ، والى التورط فى رواية كثير من الاخبار الواهية من ذلك «ما نقله المسعودى وكثـــير من المؤرخين فى جيوش بنى اسرائيل ، بأن موسى عليه السلام أحصاهم فى التيه ، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح ، خاصـــة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون»[١٣٥] .

ويشك ابن خلدون فى صحة هـــذا الرقم (٦٠٠ ألف) ، ويرى أنه مبالغ فيه لاسباب ، منها أنه من الصعوبة بمكان أن يقع قتال بين هذه الجيوش الكثيرة العدد ، وبين جيوش أعدائهم ، لضيق مساحة الارض التى ستكون ميدان القتال ، ومنها أن ملك الفرس كان أعظم من ملك بنى اسرائيل بكثير ، بدليل انتصار «بختنصر» (نبوخذ نصر الثانى) الفارسى عليهم ، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس هذا الرقم،ولا قريبا منه ، وأقصى حد وصل اليه عدد جيوشهم ، كان مائة وعشرين ألفا،وكان ذلك فى معركة القادسية ، ومنها لو وصل عدد جيوش بنى اسرائيل الى هذا الرقم ، لاتسع نطاق دولتهم ، واحتلوا الشام كله ومصر ، وغيرها من الدول المجاورة لدولتهم القديمة ، ومنها أن عدد بنى اسرائيل الذين دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام ، لم يزد على سبعين نفسا ، وقد ظلوا بمصر مائتين وعشرين سنة تقريبا ، ولا يعقل أن يصل عدد جيشهم فى هذه المدة الى هذا الرقم[١٣٦] .

---

(١٣٤) مقدمة ابن خلدون ـ بيروت ـ دار القلم ـ ١٩٨١ ص ٣ـ٤ .
(١٣٥) نفس المرجع السابق ص ١٠ .
(١٣٦) نفس المرجع السابق ص ١٠ ـ ١١ ، عثمان موافى : المرجـع السابق ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ مع العلم بأن «بختنصر» كلدانى عراقى ، وليس فارسيا .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الرقم (٦٠٠ ألف) الذى أثار ابن خلدون ضـــد المؤرخين المسلمين ، انما نقلوه ، كغـــيرهم من المؤرخين فى تلك العصور ، من التوراة ــ كما جاء فى سفر الخروج ١٢/ ٣٧ ــ ولاريب فى أن النص التوراتى انما قد أوغل كثيرا فى المبالغة ، وأغرق فى التعصب ، ذلك أن التوراة نفسها انما تحدثنا أن بنى اسرائيل عندما قدموا الى مصر ــ للمرة الاولى ــ انما كان «جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت الى مصر سبعون»[١٣٧] وهانحن على أيام الخروج من مصر ، وقـــد انصرمت ٢١٥ سنة ــ فيما ترى الترجمة السبعينية للتوراة[١٣٨] ــ أو ضعف هذا العدد (٤٣٠ سنة) ــ فيما ترى التوراة العـــبرية[١٣٩] ــ حتى يصبح بنـــو اسرائيل «شعبا أعظم وأكثر من المصريين» ــ أصحاب أعظم وأقوى دولة فى العـــالم كله وقت ذاك ــ ويصبح عدد بيت يعقوب قد ناهز المليونين ، وربما الثلاثة ، فلما طردوا من مصر كان من بينهم ست مئةألف ماش من الرجال عدا الاولاد»[١٤٠].

ويعلق بعض الباحثين على هذه الارقام،بأننا لو قسمنا عدد الجماعة على الابكار ، لخلصنا الى أن المرأة الاسرائيلية من اليهود الابقين،انما كانت تلد زهاء (٦٥ وليدا) ، وهو أمر لا يستقيم مع المنطق ، فضلا عما عما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير من المصريين ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر فى سويعات قصار ، ومن ثم فان علماء اللاهوت والمؤرخين ، سواء بسواء ، أصبحوا الان لا يعلقون على هذه

---

(١٣٧) تكوين ٤٦/٢٧ .

(١٣٨) انظر عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل الحضارة ــ الكتاب الثالث ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٠٧ ــ ١١٢)

(١٣٩) خروج ١٢/٤٠ ــ ٤١ .

(١٤٠) خروج ١٢/٣٧ ، ثم قارن : عدد ١/١ ــ ٥٤ ، حيث يجعلهم (٤٥/١ ــ ٥٠) (٦٣٥٥ شخصا) ، بدون اضافة اعـداد سبط اللاويين ، الذين أمر الرب الا يحسبوا من بنى اسرائيل ، ليكونوا على مسكن الشهادة

الارقام التى ذكرتها التـــوراة أية أهمية ، ويعتبرونها محض خيـــال اسرائيلى[١٤١] .

ومن ثم فقد ذهب «بترى» الى القول بأن الالف تعنى الأسرة أو الجماعة أو العشيرة أو الخيمة ، وعلى ذلك فان الرقم (٥٤ر٤٠٠) مثلا لا يعنى أن هناك ٥٤٤٠٠ شخصا ، وانما يعنى ٥٤ عشيرة ، عدتها ٤٠٠ فردا ، ثم يقترح بعد ذلك أن المجموع الكلى للخارجين من مصر ، انما كان ٥٥٥٠ شخصا ، وبذا يستطيع موسى عليه السـلام ، أن يحكم فى الخصومات التى يمكن أن تنشب بين حوالى ٦٠٠ خيمة أو مجموعة،ولكن ذلك محال بين ٦٠٠ ألف رجل[١٤٢] .

وهناك أيضا من الاخبار الموضوعـــة ، تلك الاكذوبة الدنيئة التى فندها ابن خلدون وبين زيفها ، وأعنى بها أكذوبة زواج العباسة أخت هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣م/٨٧٦ ــ ٨٠٩م) من «جعفر البرمكى» بعقد بلا خلوة[١٤٣] .

وعلى أية حال ، فان نقد ابن خلدون للمؤرخين المسلمين على بيان ما وهموا من روايات ضعيفة واهية ، ثم تعدى ذلك الى ذكر العوامل والاسباب التي تدفع بالكثيرين منهم ، فضلا عن الكثيرين من الرواة ، الى الكذب فى رواياتهم ، والتى منها التشيع للاراء ، والثقة بالناقلين ، والذهول عن المقاصد ، وتوهم الصدق ، والجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع ، وتقرب الناس لاصحاب التجـلة والمراتب بالثناء والمدح ، وتحسين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك ، ثم يروى نماذج كثيرة لاخبار مستحيلة الوقوع ــ كبناء الاسكندرية طبقا لرواية المسعودى ــ ومع

---

(١٤١) عصام الدين حفنى ناصف : محنة التوراة على أيدى اليهود القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٥ ، وكذا

S. A. Cook, The Rise of Israel, in CAH, II, 1931, p. 358.

142. W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, pp. 41-46.

(١٤٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٥ ــ ١٦ (بيروت ١٩٨١) ؛ وانظر : حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ١/١٧٠ ــ ١٧٣ (القاهرة ١٩٦٤) .

هذا فقد تورط كثير من المؤرخين فى رواياتها ، ولو حكموا العقل فى نقد مضامينها ، لرفضوا الكثير منها ، جملة وتفصيلا[١٤٤] •

هذا وليس هناك من ريب فى أن ابن خلدون انما كتب له نجحا بعيد المدى فى أن يربط التاريخ بعلم الاجتماع ، كما ربط التاريخ بالجغرافيا والسياسة والاقتصاد والصناعة والزراعة والطب والفقه والنحو واللغة والقرآن الكريم ، كما أرخ لبعض الفنـــون ، ومنها الغناء والموشحات والازجال ، وبعض العلوم كالهندسة والرياضيات والكيمياء ، وكأن ابن خلدون انما أراد فى كتاباته ـ ولاسيما المقدمة ـ أن يكون مؤرخا للعلوم والفنون ، كما هو مؤرخ للاحداث السياسية ، كما حــرص فى مؤلفه الضخم أن يكون له مقدمة للمقدمة ، تبحث أولا فى علم التاريخ أو فى فن علم التاريخ[١٤٥] •

وقد حاول ابن خلدون فى مقدمته المشهورة أن يضـــع أمام المؤرخ قاعدة هامة فى نقد الاخبار التاريخية وتمييز صحتها من زائفها ، وأن يبنى مما سبق أن هدمه من نقده للتاريخ ، ومن ثم يصبح نقده للتاريخ بناءا جديدا مرتكزا على دعائم ثابتة قوية ، بعد أن كان نقده لانقاض ضعيفة بالية ، وان شئت فقل : ان نقده للتاريخ بدأ بالهدم ، ثم انتهى بالبناء •

ويتمثل هدمه فى هجومه على المؤرخين السابقين عليه ، واظهـــار ما وقعوا فيه من أخطاء ، وذكره العوامل والاسباب التى أدت الى ذلك ، وأما البناء فيتمثل فى وضعه بعض الاسس الاجتماعية والقواعد العقلية ، التى يجب أن يعتمد عليها المؤرخ فى نقده لمروياته ، وفى المفهوم الذى أعطاه للتاريخ[١٤٦] ، وقد عبر عن ذلك بقوله : اعلم أنه لما كانت حقيقة

---

(١٤٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ ـ ٣٨ ، عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩ •

(١٤٥) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٣١٠ •

(١٤٦) عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٨٠ •

التاريخ أنه خبر الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنايع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الاحوال[147] .

ومن ثم فهو ينصح المؤلف بأن يفهم المجتمع الذى يكتب عن أحداثه فهما حقيقيا وواقعيا ، ويلم ببعض العلوم والمعارف التى تعينه على ذلك ، يقول : «يحتاج صاحب هذا الفن الى العلوم بقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال،ؤالاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها أو المختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها ، وأسباب حدوثها ، ودواعى كونها،وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعبا لاسباب كل خبرة ، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والا زيفه واستغنى عنه ، ومااستكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك ، حتى انتحله الطبرى والبخارى ، وابن اسحاق قبلهما ، وأمثالهم من علماء الامة»[148] .

وعلى أية حال ، فهذه هى الاصول العامة لنظرية ابن خلدون فى النقد التاريخى ، بما فيها من هدم وبناء ، فضلا عن جانبها الايجابى والسلبى ، ولاريب فى أنه سبق بها كثيرا من فلاسفة التاريخ ونقاده فى أوربا .

غير أن هناك من انخدع بعبارة وردت فى مقدمة ابن خلدون ، أشار

---

(١٤٧) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥ .
(١٤٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .

فيها الى أنه أول من تكلم فى مسائل العمران البشرى أو ما يسمى فى عصرنا الحديث «علم الاجتماع» ، ونصها : «ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاما ، وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره ، فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه ، فتوفيق من الله وهداية ، وان فاتنى شىء فى احصائه ، واشتبهت بغيره،فللناظر المحقق اصلاحه ، ولى الفضـــل لانى نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق ، والله يهدى بنوره من يشاء»(١٤٩) .

وهـــكذا ظن البعض أن كل ما كتبه ابن خلدون فى نقـــده للتاريخ وفلسفته ، انما كان بوحى من الهامه ، مستندا فى ذلك الى بعض نظريات علم النفس ، فى الابتكار والخلق العلمى والفنى ، وهكذا ذهب البعض الى أن آراء ابن خلدون انما هى آراء الهامية ، تصدر عن قدرة خارجة عن نفسه ، كأنها تلقى اليه القاء ، ولاريب فى أن فى هذا الاتجاه مغالاة وتعميما ، يأباه المنهج العلمى السديد ، صحيح أن ابن خلدون قد تكون له بعض الملاحظات الصائبة فى نقده للتاريخ ، بل وقد يكون أول من اكتشف علم الاجتماع ، الذى أسماه علم العمـــران البشرى ، ولكنه صحيح كذلك أن هذا لا يدعونا أبدا الى القول بأنه قد ألهم كل ماذهب اليه من قواعد فى نقد التاريخ وفلسفته الهاما ، ذلك لان أصول نظريته فى النقد التاريخى ، انما تضرب بجذورها البعيدة فى الفـــكر العربى الاسلامى ، فلقد وضع علماء نقد الحديث قواعد صارمة فى نقد الاخبار، تتعـــلق بالراوى ــ من حيث عدالته وضبطه ــ كما تتعـــلق بالمروى كذلك(١٥٠) .

وفى الواقع أننا لو قارنا ما ذكره ابن خلدون فى الاسباب التى تؤدى بالرواة الى الكذب بما ذكره هؤلاء العلماء النقاد فى العوامل التى تمس عدالة الراوى وضبطه وتؤدى بذلك الى جرحه ورفض روايته ، لوضح

---

(١٤٩) نفس المرجع السابق ص ٤٠ .

(١٥٠) عثمان موافى : المرجـــع السابق ص ١٢٣ ــ ١٣٩ ، ٢٨١ ــ ٢٨٢ .

لنا أن ابن خلدون لم يخرج كثيرا عما ذكره هؤلاء العلماء فى هذا الامر ، ولو قارنا كذلك ما وضعه من مقاييس عقلية فى نقد المضمون ، بما وضعه العلماء المسلمون ، أصحاب المنهج المعقلى والنقلى ، من قواعد ومقاييس لنقد المتن والمضمون ، لرأيناه لم يخرج كثيرا عن مقاييسهم فى ذلك ، اللهم الا فى ذلك المقيـــاس الاجتماعى الذى أشار اليه ونصح المؤرخ بالاستعانة به ، فى نقده لمرويات المجتمع الذى يروى بعض أحــداثه التاريخية ، وأيا ما كان الامر ، فان كثــيرا من المسائل والقضايا التى أشار اليها ابن خلدون فى نقده للمعرفة التاريخية ، قــد بحثها علماء الاصول ــ فى الحديث والفقه ــ وقد اعترف الرجل فى الترجمــة التى كتبها لنفسه : أنه قرأ كثيرا من كتب الاصوليين ، وأن أساتذته يشهدون له بالتبريز فى الاصول والمنطق،كما اعترف بأن بعض المؤرخين السابقين عليه انما قد تكلموا فى بعض المسائل التى ناقشها فى فلسفته عن التاريخ التى ضمنها فى مقــدمته المشهورة كالمسعودى فى التنبيــه والاشراف والقاضى أبو بكر الطرطوشى فى كتابه «سراج المــلوك» ، كما أشار «أرسطو» الى شىء منها فى كتابه «السياسة» ، وابن المقفع فى بعض رسائله ، وان لم يستوف هؤلاء هذه المسائل ، استيفاءه لها[١٥١] .

هذا فضلا عن أن بعض المؤرخين الذين سبقوا ابن خلدون فى كتابة التاريخ العام ، انما قد أبدوا شكا فى صحة كثير من الأخبار والمرويات، وخاصة تلك التى يغلب عليها الطابع الاسطورى،فمثلا الجغرافى والمؤرخ العربى «أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر اليعقوبى» (ت ٢٥٩هـ/٨٩٧م) ــ والذى يعد تاريخه من أقدم الكتابات التاريخية التى تناولت التاريخ بمعناه العام ، أى منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف ــ انما شك فى الروايات التى تروى عن بعض الأمم القديمة ، كفارس ، بل ووصفها بأن الطابع الخرافى انما يغلب على كثير منها[١٥٢] ، كما رأينا من قبل

---

(١٥١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ ــ ٤٠ ، التعريف بابن خلدون ص ٣٢ ، عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ .
(١٥٢) تاريخ اليعقوبى : ٢/٢ (ط النجف) .

الامام الطبرى يشير الى أنه روى أخبـــارا لا يقبلها ، ولكن الامانة العلمية تحتم عليه أن يروى ما سمع ، ويؤديه على حاله ، يقول الطبرى: «فما يكن فى كتابنا هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا[١٥٣] .

ومع هذا كله ، فالعلامةابن خلدون يفضل هؤلاء جميعا بقدرته على التعليل ، وبأنه استطاع أن يبنى من هذه المسائل والموضوعات نظرية فى النقد التاريخى ، متناسقة الاجزاء والفصول ، متسمة بالصرامة والدقة فى وضع القواعد والاصول ، وان لم يتمسك بها عنـــد التطبيق ، فلقد روى أخبارا واهية عن سابقيه ، ثم أخذها على أنها مسلمات صحيحة لا تقبل الجدل ، كذكره مثلا أن أصل البشرية انما هم أولاد نوح عليه السلام ، نقلا عن التوراة[١٥٤] أو عن مؤرخـــين اشتهروا بالنقل عن التوراة ، وغاب عنه ــ وهو العالم الفقيه ــ أن سفينة نوح كان بها كل من آمن بنوح[١٥٥] ، هذا فضلا عن روايته كثيرا من الاخبار عن الجن والشياطين والسحر لا تتفق والحقيقة .

ولعل الذى أوقع ابن خلدون فى مثل هـــذه الاخطاء عند التطبيق ــ فيما يرى الدكتور عثمان موافى ــ أن استقراءه لاحـــداث التاريخ وراوياته كان استقراء ناقصا ، فلقد وضع قواعد من نقد التاريخ قبل أن يستقصى كل رواياته ، وكان عليه ألا يضع مثل هذه القواعد ، الا بعد

(١٥٣) تاريخ الطبرى ٨/١ (القاهرة ١٩٦٠) .
(١٥٤) تكوين ١٨/٩ ــ ١٩ .
(١٥٥) سورة هود : آية ٤٠ ، ٤٨ ، وانظر محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة ــ الرياض ١٩٧٥ ص ٣٨٣ــ٤٥١ .

استقراء دقيق لكل روايات التاريخ ونقد فاحص لها ، فان لم يتيسر له ذلك ، فلا بأس أن يروى هذه الروايات مسندة الى مصادرها المباشرة، مبينا ما فيها من أخطاء وأوهام ، لا تتفق والمقاييس العقلية والنقلية، وعلى أية حال ، فان نقـــده للتاريخ انما تغلب عليه النزعـــة العقلية المنطقية(١٥٦) .

(١٥٦) عثمان موافى : المرجع السابق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

الفصل الرابع

التاريخ القديم ومناهج البحث فيه

(١) عصور التاريخ القديم :

التاريخ القديم : هو تاريخ الانسان منذ أقدم مراحل استقراره ، ويتضمن كافة جوانب إنتاجه فى المجالات الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية – السلمية والحربية – وينبغى على المؤرخ فى دراسة هذا التاريخ ، ملاحظة الظروف البيئية والحضارية المعاصرة لذلك الانسان ، ومن ثم فلا ينبغى اتباع أسلوب حديث أو متبع فى العصور الوسطى بالنسبة الى التاريخ القديم ، ذلك لان تفسير التاريخ تفسيرا سليما يستوجب التعرف على الاحداث فى ظروف فكرية ومادية معينة ، ومن هنا تأتى صعوبة فهم التاريخ القديم ، فهو يتطلب قدرة عقلية معينة على تصور الظروف المحيطة بتلك الاحداث ، فضلا عن التعرف على طريقة تعبير الانسان ، سواء أكان ذلك فى اللغة أو الكتابة أو الرسم أو الفن بوجه عام ، حتى يمكن تفهم تراث الانسان – المادى والفكرى – فى تلك الفترة من التاريخ .

هذا ويمثل التاريخ القديم أطول مرحلة فى تاريخ البشرية ، فهو يبدأ منذ العصر الحجرى القديم ، والذى ينتهى حوالى ١٠٠٠٠ سنة ، ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وان كان استقرار الانسان انما يبدأ منذ العصر الحجرى الحديث ، فى الالف السادسة قبل الميلاد[١] ، ويستمر حتى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد ، بالنسبة لتاريخ مصر والشرق الادنى القديم – أى حتى دخول الاسكندر الاكبر (٣٥٦ – ٣٢٣ ق.م) مصر فى عام ٣٣٢ ق.م – ليبدأ جانب آخر من التاريخ القديم ، هو التاريخ اليونانى الرومانى ، والذى ينتهى بالفتح الاسلامى للمنطقة فى القرن السابع الميلادى .

---

(١) انظر الاراء المختلفة حول بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر (محمد بيومى مهران : مصر – الجزء الاول – عصور ما قبل التاريخ – الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١٥ – ٢١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن مؤرخى الحضـــارة قد اصطلحوا على تقسيم التاريخ القديم الى مرحلتين رئيسيتين،الواحدة : تسبق معرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «ما قبـــل الكتابة» أو «ماقبل التأريخ» أو «عصور ماقبل التاريخ» ، والأخرى : وهى المرحلة اللاحقة لمعرفة الكتابة ، وقد أطلقوا عليها اسم «العصر التاريخى» ، وتعتمد المعلومات عن عصر ما قبل التأريخ على الاثار وحـــدها ، وأما العصر التاريخى فنستمد معلوماته من آثار الانسان ، فضلا عن تلك المعلومات التى دونها هذا الانسان عن تاريخه وحضارته على الاوراق واللوحات وجدران المعابد والمقابر وغيرها[٢] •

هذا ويبدأ العصر التاريخى فى مصر بظهور الكتابة ، وقيام الاسرة الاولى ، حوالى عام ٣٢٠٠ ق٠م[٣] ، ولقد اعتبرت المصـــادر المصرية الملك «نعرمر» ــ والذى دعته مينا ــ على رأس الاسرة الاولى ، التى يبدأ بها العصر التاريخى ، ذلك لان مصر انما كانت قد عرفت الكتابة، وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، ومن ثم فقـــد أصبح اعتمادها الاكبر على ما خلفه المصريون القدامى أنفسهم مسطرا على آثارهم[٤] •

وأما فى العراق القديم ، فان حادث الطوفان المشهور ، انما يعتبر بمثابة البداية للعصر التاريخى ، وقد حدثتنا قائمة الملوك السومرية عن طوفان يفصل بين فترتى حكم ، الواحدة سابقة له ، والاخرى تالية له، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية من السماء الى كيش فالوركاء ثم أور،ولعل فى هذا دليلا واضحا على أن قائمة الملوك السومرية انما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر فى عملية استمرار تاريخ العراق القديم،

---

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٨ ــ ١٨٩ •
(٣) انظر الاراء التى دارت حـــول بداية الاسرة الاولى ومؤسسهـــا (محمد بيومى مهران : مصر ــ الجــزء الثـــانى ــ الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٩ ــ ٢٨) •
(٤) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الاول ص ٣٣٣ •

ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التأريخ والعصر التاريخى[٥]
وعلى أية حال ، فهناك من يذهب الى أن «مى ــ براج ــ سى» ــ أقدم حاكم سومرى معروف لنا ــ انما كان يعيش حوالى ٢٧٠٠ق٠م ، ومن ثم فيمكن اعتبار ذلك التأريخ بداية للعصر التاريخى فى العراق القديم[٦] ٠

وأما تاريخ العرب القديم ، فهو يبدأ منذ عصور ما قبل التأريخ[٧]، وحتى بداية القرن السابع الميلادى ، حيث يبدأ التاريخ الاسلامى،يوم أهدت مكة المكرمة الى الدنيا كلها أشرف الخلق جميعا ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ (فى عام ٥٧١م) ، وما أن يمضى حين من الدهر ــ هو على الارجح أربعون عاما ــ (٦١٠م) حتى يسبغ الله فضله على الدنيا كلها ، فيتنزل الوحى من السماء،ليأمر سيد الانبياء والمرسلين ببداية الدعوة الى الاسلام ــ دين الله الحنيف ــ ٠

وأما سبب اختيارنا لنهاية التاريخ العربى القديم ببداية ظهور الاسلام ، وعدم مروره بعصور اليونان والرومان ، فذلك لان شبه الجزيرة العربية لم تتأثر بالتغيرات السياسية والحضارية التى حدثت فى منطقة الشرق الادنى القديم ، بعد ظهور الاسكندر الاكبر (٣٥٦ ــ ٣٢٣ ق٠م) ، ذلك لان الاسكندر المقدونى ــ وكذا خلفاؤه من الاغارقة، فضلا عن الرومان من بعدهم ــ لم يكتب لهم نجحا بعيد المدى أو قصيره فى السيطرة على بلاد العرب ، ومن ثم فقد بقى هذا الجزء العزيز من العالم العربى القديم ، بعيدا عن قبضة اليونان والرومان، رغم المحاولات المتكررة التى بذلها هؤلاء وأولئك لانضواء الجزيرة

---

(٥) محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم ــ الجزء العاشر ــ تاريخ العراق القديم ــ الاسكندرية ١٩٩٠م ص ٦٥ ــ ٦٦ ٠
(٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٩ ــ ٧٠ ، وكذا
G. Roux, Ancient Iraq, 1980, p. 119-120.
S. L. Woolley, Excavations At Ur, London, 1963, p. 14.
(٧) انظر عن عصور ما قبل التاريخ فى بلاد العرب (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ــ الرياض ١٩٨٠ ص ١٩٥ ــ ٢١٢) ٠

العربية تحت لواء مقــدونيا أو روما أو بيزنطة ، هذا فضــلا عن أن الحضارة اليونانية ــ والرومانية من بعدها ــ وان كتب لها بعض النجح فى أطراف الجزيرة العربية ، فقد فشلت تماما فى أن تنتشر بين ربوعها، هذا الى أن العرب القدامى انما قد احتفظوا بلغتهم العربية ــ اللغــة السامية الام ــ بعيدا عن سيطرة اللغات «الهندو ــ أوربية» حتى جاء الاسلام الحنيف ، فكانت لغة القرآن ، ورسول الحضارة الاسلامية الى البشرية جمعاء •

ومن ثم فيمكننا القول أن شبه الجزيرة العربية لم تمر فى تاريخها القديم بالفترة التى نطلق عليها فترة العصور اليونانية الرومانية (العصر الهلينستى) فى الشرق الادنى القديم ، وبالتالى فقــد استمر تاريخها القديم حتى ظهور الاسلام ، أى أن التاريخ العربى القديم انما يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ ، وينتهى فى بداية القرن السابع الميلادى ، حيث بدأ التاريخ الاسلامى[٨] •

(٢) نشاة علم المصريات :

يكاد يجمع العالم المتحضر كله على أهمية دراسة الحضارة المصرية القديمة ، وعلى حد تعبير مؤرخ أوربى كبير ، ولا نقول مصرى : لاتكاد اليوم توجد جامعة فى العالم تحترم نفسها ، ليس فيها كرسى للدراسات المصرية القديمة ــ أو كما يسمونه «علم المصريات» (Egyptology) ــ بل انهم هناك فى أوربا وأمريكا أنشأوا الاقسام والمعاهد المستقلة لدراسة «علم المصريات» ، وان كان الامر فى مصر والعالم العربى يختلف عن ذلك كثيرا ، حتى أصبح عدم العناية بتاريخنا العربى فى عصوره القديمة أمرا تكاد تنفرد به جامعاتنا ، وان زاد الاهتمام فى السنوات الاخيرة بتاريخنا وآثارنا المصرية ــ بعد انشاء كلية الاثار ــ بجامعة القاهرة ــ ومن ثم فقد انتشرت أقسام الاثار المصرية فى جامعات : الاسكندرية

---

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢ •

وطنطا والمنيا وسوهاج وقنا ، كما أنشىء منذ عامين فى جامعة الزقازيق المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم •

هذا وتعتمد الدراسات المصرية القـــديمة فى العصر الحديث على :
١ ـ الدراسات اللغوية ٢ ـ الكشف عن الاثار •

أ ـ الابحـاث اللغـــوية :

ظهرت الكتابة عند المصريين القدامى منذ الالف الرابعة قبل الميلاد ـ وقبل قيام الملكية المصرية حوالى عام ٣٢٠٠ ق•م ـ وقد استعمل المصريون أربعة أنواع من الكتابة (واحدة منها بعد ظهور المسيحية) ، وكانت «الهيروغليفية» (أى المقدسة) التى استخدمت فى النقوش على جدران المعابد والمقابر،وخاصة فى تسجيل النقوش الدينية ، وهى من غير شك النـــوع الاصيل فى الكتابة المصرية التى تطورت منه كل الانواع الاخرى ، وهى تقـــرأ أحيانا من أعلى الى أسفل ، وأحيانا اخرى من اليمين الى اليسار ، وان قرئت فى أحايين قليلة من اليسار الى اليمين، وعندئذ تتجه العلامات ناحية اليمين ، وقـــد بلغت عـــدة حروفها عند اكتمالها أربعة وعشرين حرفا •

وأما النـــوع الثانى من الكتابة فهو «الهيراطيقية» ، والتى ظهرت بسبب تعذر استخدام الخط الهيروغليفى فى الشئون العامة ، ومن ثم فقد اختزله القوم منذ أوائل عصرهم التاريخى الى نوع مبسط من الخط عرف بالخط الهيراطى (الهيراطيقى) أى (الكهنوتى) لانه أسلوب الكتابة الذى كان يمارسه الكتاب من الكهنة فى كتاباتهم الدينية •

وعلى أى حـــال ، فلقد استخدمت «الهيراطيقية» فى الكتابة على أوراق البردى ، وقطع الخزف والخشب ، ودونت بهـــا أغلب آداب المصريين القدامى ، كما أدى تبسيط الكتابة بهذه الطريقة الى انتشار تعلمها بدرجة لابأس بها ، ومن ثم فقد أصبحت فى متناول عـــدد كبير من الناس ، هـــذا ويطلب على الكتـــابة الهيراطيقية «التشبيك» أى أن

العلامات مربوطة مع بعضها ببعض ، وهى فى أغلب الامر ممدودة جدا، اللهم الا فى العلامات الاولى ، التى تتجزأ الى خطوط تقريبا •

وكان ثالث أنواع الكتابة المصرية ما سمى «أنكوريال» (وطنى) ، أو كما يسميه «كليمنت السكندرى» «أبيستولوجرافى» (كتابة الخطابات)، وأما العلماء المحـــدثون فيفضلون تسمية «هيرودوت» له «ديموطيقى» (شعبى) ، وقد تطورت هذه الكتابة من الهيراطيقية حوالى عام ٧٠٠ قبل الميلاد ، على أيام الاسرة الخامسة والعشرين ، وقد كانت فى العصر البطلمى والرومانى الكتابة المعتادة للحيـــاة اليومية ، وأما مرتبتها فى الاستخدام فخير ما توصف به أنها غير دينية •

ولما دخلت المسيحية مصر،أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية (كما فعل السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الارامية السريانية) أو أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط أكثر لسهولة ترجمة الكتاب المقدس،مما كان سببا فى ظهور «القبطية» كآخر مظهر للغة المصرية ، وكانت تكتب بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن حروف لاتوجد فى اليونانية،أما الادب القبطى فملىء بالكلمات اليونانية، والواقع أن مجمل التركيبات يجعلها شيئا أقرب الى «الرطانة» ، منها الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن آخر مثال موجود للهيروغليفية المصرية ، انما هو كتابة وجدت فى جزيرة فيلة ، جنوبى أسوان ، ترجع الى عام ٣٩٤م ، كما وجدت كذلك فى نفس الوقت كتابة ديموطيقية ، ترجع الى عام ٤٧٠م •

أما القبطية فلاتزال مستعملة فى الكنائس المصرية حتى اليوم ، ولو أن كتابتها والتحدث بها انما قد انقطع منذ قرون[٩] ، فلقد حلت اللغة

---

(٩) محمد جمال الدين مختار : الموسوعة المصرية ١/٣٤٠ ــ ٣٤٤، وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 19-22.

العربية محل القبطية رسميا منذ عام ٨٧هـ (٧٠٦م) ، على أيام الخليفة الاموى «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ ــ ٩٦هـ = ٧٠٥ ــ ٧١٥م)[١٠] ، وان كان «أدولف جروهمان»[١١] قد عثر على وثيقة ترجع الى عام ٢٢هـ (٦٤٢م) ، وقد كتبت باليونانية والعربية ، على أن انتشار اللغة العربية بين المصريين ــ غير المسلمين ــ انما كان بعد الفتح الاسلامى بقرن،وان ذهبت آراء الى أن اللغة العربية لم تصبح لغـــة التخاطب العامة لكل المصريين ، مسلمين ونصارى ، الا فى القرن الخامس الهجرى (العاشر الميلادى) لكى يفهمهم سامعوهم[١٢] .

وهكذا نسى الناس الكتابات المصرية القديمة،حتى أصبحت معلوماتنا عن الحضارة المصرية القديمة ، وحتى قرنين مضيا،انما تعتمد فى الدرجة الاولى ، على ما جاء فى التوراة،وعلى ماكتبه القدامى من كتاب الاغارقة والرومان ، فضلا عما نقله البعض ــ ان صدقا أو كذبا ــ من كتابات المؤرخ المصرى «مانيتو» .

وهكذا كانت الحضارة المصرية القديمة بدأت تغيب عن الأذهان شيئا فشيئا ، وخاصة بعد أن تكاتفت عوامل كثيرة على انتقال مركـــز الثقل السياسى من مصر الى ما سواها من دول العالم القديم،وبعد أن أناخ الحكم الرومانى على مصر بكلكله ، وبعد أن اعتنقت مصر النصرانية ، وأصبحت المعابد والاهرام والمقابر دليـــل الرجس والكفر والسخرة ، وانزوت حضارة الفراعين قرونا وقرونا ، وطوى الماضى المزهر السحيق، ليحل محله أحاديث وقصص تقوم على الخرافات والاراجيف ، وتعتمد على الخيال ، حتى أصبح الناس لا يذكرون آثار مصر وحضارتها ، الا

---

(١٠) المقريزى : الخطط ٩٨/١ ، الكندى : الولاة والقضاة ــ بيروت ١٩٧٨ ص ٥٨ ــ ٥٩ .

11. Adolf Grohmann, From The World of Arabic Papyri. Cairo, 1952.

(١٢) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ١ ــ ٥٥ .

مقرونة بالأساطير والسحر ، وان زاد ذلك عند المؤرخين المسلمين زيادة كبيرة[١٣] .

وظل الامر كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادى،فبدأ بعض الرحالة والسياح فى زيارة مصر على فترات متباعدة ، حيث شاهدوا أهرامها وبعض معابدها ومقابرها ، وتخيلوا عنها وعن أسرارها ، ما شاء لهم خيالهم ، وربما كان من أهم هؤلاء الاب اليسوعى «سيكار» (١٦٧٧ — ١٧٢٦م) ، وهو أول من وصل الى أسوان من أولئك الذين سعوا وراء البحث والتحرى من المحدثين نسبيا ، وقد أعاد الكشف عن موقع طيبة، وهو يزعم أنه زار أربعة وعشرين معبدا ، وأكثر من خمسين مقبرة صخرية ملونة أو منقوشة ، ولعل أهم ما أسهم به هو الخريطة التى استخدمها بعد ذلك «دانفيل» أساسا لخريطته عن مصر ، التى ظهرت فى عام ١٧٦٦م .

ولعل أهم ما يمكن الاشارة اليه من الكتب السياسية عن مصر ، كتاب «نوردن الدنيماركى» (١٧٠٨ — ١٧٤٢م) و «ريتشارد بوكوك» الانجليزى (١٧٠٤ — ١٧٦٥م) و «جيمس بروس» (١٧٣٠ — ١٧٩٤)، وان كان قد نشر قبل عصرهم بزمن طويل مقال عن الاهرام ، وهو «البيراميدوجرافيا» (Pyramidographia) للفلكى الانجليزى «جون جريفر» (١٦٤٦)[١٤] .

غير أن هؤلاء وأولئك لم يقدموا لتاريخ الحضارة المصرية القديمة شيئا ذا قيمة يعتد به فى مجال البحث العلمى الصحيح ، حتى رأينا الاب اليسوعى «أثناسيوس كيرشر» ، والذى يعد صاحب نقطة البدء الحقيقية لدراسة القبطية[١٥]،وان لم يستطع أن يمنع نفسه من التردى

---

(١٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

14. A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 19-12.

(١٥) انظر :

Athanasius Kircher, Lingua Aegyptiaca Restituta, 1643.
Chronique d'Egypte, 35, p. 240 F.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 11.

فى تفسيرات خيالية بالغة الغرابة للهيروغليفية ، ومن أمثلة ذلك اسم الفرعون «ابريس» (٥٨٩ — ٥٧٠ ق٠م) الذى كتب على مسلة مصرية، انما يعنى عنده «ان مزايا أوزير المقدس يمكن ادراكها بواسطة احتفالات مقدسة ، وعن طريق سلسلة من الجن حتى يمكن الحصول على مزايا النيل»[١٦]، وفى نفس الوقت ، فلقد رأينا «أثناسيوس كيرشر» — وكذا «يابلونسكى» (١٦٩٣ — ١٧٥٧م) و «زويجا» فى نهاية القرن الثامن عشر — يجمع كل منهم ما قاله أسلافه أو فكروا فيه بالنسبة الى مصر[١٧] •

وظل الامر كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، حين بدأ العلماء فى البحث والكشف عن الاثار المصرية ودراستها دراسة علمية حديثة ، فوصلوا الى الكثير من أسرار أصحابها ، والمدى الذى بلغوه فى سلم المدنية والتقدم ، وما قاموا به من أعمال ، مما أتاح الفرصة لاعادة كتابة التاريخ المصرى القديم ، وكشف النقاب عن أصول الحضارة المصرية القديمة •

وجاءت الخطوة الاولى مع حملة «نابليون بونابرت» (١٧٦٩ — ١٨٢١م) على مصر فى أخريات القرن التاسع عشر (١٧٩٨ — ١٨٠١م) اذ أحضر معه طائفة من العلماء درسوا مصر دراسة علمية شاملة ، وكان من بين هذه الدراسة آثار مصر ومعالمها التاريخية ، والتى نشرت نتائجها فى كتاب علمى ضخم من أربعة وعشرين جزءا هو كتاب «وصف مصر» (Description de l'Egypte) الذى نشر فى باريس فيما بين عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٣م ، وكان بداية الاعمال التى تهدف الى دراسة تاريخ مصر القديمة دراسة وافية •

وقد صادف هذه الخطوة ، خطوة أخرى طيبة ، اذ عثر أحد رجال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١م) فى عام ١٨٩٩ على الاثر المعروف

---

16. Obelisci Aegptiaca onter Pretatio, Rome, 1666, p. 53.
17. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 11.

باسم «حجر رشيد» (Rosetta Stone) ، وهو حجر من البازلت الاسود عثر عليه الضابط الفرنسى «بيير فرانسوا ـ اكسافييه بوشساده» (١٧٧٢ ـ ١٨٣٢م) فى أغسطس ١٧٩٩م ، أثناء أعمال نقل الاتربة فى قلعة «جوليان» فى حائط قديم بهذه القلعة على مقربة من رشيد ، ثم أرسل الحجر بعد ذلك الى المجمع العلمى المصرى بالقاهرة ، حيث اهتم به العلماء ، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على الاثر ، لترسل الى العلماء فى مختلف بقاع أوربا ، ثم نقل بعد ذلك الى منزل الجنرال «مينو» بمدينة الاسكندرية •

وقد حاول الفرنسيون بعد ذلك الخروج بحجر رشيد من مصر ، غير أن هزيمتهم فى «أبو قير» فى أغسطس ١٧٩٨م ، أدت الى انتقال كل الاثار التى معهم ، ومنها حجر رشيد ، الى أيدى الانجليز ، بمقتضى المادة السادسة من معاهدة العريش التى عقدت فى يناير ١٨٠٠م ، ومن ثم فقد نقل الانجليز حجر رشيد فى فبراير ١٨٠٢م الى انجلترا ، حيث أودع الجمعية الاثرية بلندن،ثم نقل الى المتحف البريطانى بعد ذلك •

هذا وقد نقش على حجر رشيد هذا ، قرار مكتوب بلغتين (المصرية واليونانية) وبكتابات ثلاث (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية) ، وقد أصدره مجمع الكهنة المصريين فى منف فى ٢٧ مارس عام ١٩٦ق•م، تمجيدا للملك «بطليموس الخامس» ابيفانس (٢٠٥ ـ ١٨٠ ق•م) ، وشكرا له على اعفاء معابدهم من تكاليف فرضها أسلافه عليه ، ومنحهم الهبات والهدايا ، كما رمم وبنى بعض المعابد ومقاصير الالهة ، وقدم الهدايا الى أبيس ومنفيس وكل الحيوانات المقدسة فى مصر[١٨] •

وأما النصان الديموطيقى واليونانى فيكادان أن يكونا كاملين ، وأما النص الهيروغليفى فلم يكن كذلك ، وسرعان ما ثبت أن هـذه الوثيقة

---

18. E. R. Bevan, A History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty, London, 1927, p. 264-8.

الثمينة تتيح فرصة لحل الرموز ، أكثر مما أتاح أى شىء آخر قبلها ، هذا وقد اهتم العالم الفرنسى «البارون سلفتر دى ساسى» بذلك •

غـــير أن أول خطوة جادة كانت تلك التى قـــام بها الدبلوماسى السويدى «أكر بلاد» حيث ركز جهوده على الكتابة المختزلة المنقوشة تحت «الهيروغليفية» مباشرة ، مدركا أنهـــا «الديموطيقية» التى أشار اليها هيرودوت ، وبعد أن وثق — عن طريق المقارنة باليونانية — من مكان أسماء الاعلام ، استطاع أن يميز حوالى نصف حروف الهجاء وأن يستوثق من أن اللغة المستعملة هى التى عاشت بعـــد ذلك تحت اسم «القبطية» ، ثم نشر مقالا بذلك عام ١٨٠٢م •

وفى عام ١٨١٤م توصل العالم الانجليزى «توماس يونج» الى صلة القرابة الشديدة بين طرائق الديموطيقية والهيروغليفية ولاحظ أن القسم اليونانى من حجر رشيد كان مليئا بكلمات تتكرر • وقد نجح فى تقسيم الديموطيقية الى ست وثمانين مجموعة من الكلمات معظمها صحيح •

وأما بالنسبة الى الهيروغليفية فقـــد كانت نقطـــة البدء عنده أن الخراطيش أو الحلقات الملكية تحوى أسماء الملوك والملكات ، ومن ثم فقد استطاع أن يتوصل الى خرطوش «برنيس» ، فضلا عن خرطوش بطليموس المعروف ، ثم اقترح خرطوشا آخر نسبه الى «تحـــوتمس» كما استطاع كذلك أن يميز فى الهيروغليفية حـــرفى «ف» و «ت» وكذا المخصص الذى يستخدم فى النصوص المتأخرة لنهاية الكلمات المؤنثة ، كما تعرف عن طريق المتنوعات فى البرديات الى أن الحـــروف المختلفة تستطيع أن تكون لها نفس القـــوة ، وبالاختصار توصل الى مبادىء «الجناس» ، وكان كل هذا مختلطا بكثير من البدايات الزائفة ، ولكن الطريقة التى اتبعها أدت من غير شك الى حل نهائى للرموز[19] •

---

19. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 12-13.

وجاء «جان فرانسوا شامبليون» (١٨٩٠ — ١٨٣٢م)[٣٠] ، حيث كتب له نجحا بعيد المدى فى مهمته ، بعد أن ظل حل المشكلة يروغ منه زمنا طويلا ، بل انه ظل مترددا مدى سنة بعد اكتشافه العظيم فى الجزم بأن الهيروغليفية ليست كتابة رمزية خالصة ، ورغم تردد شامبليون ، فانه قد أثبت عن طريق مقارنة العلامات الديموطيقية بنظائرها من الخراطيش أن الهيروغليفية تستطيع كذلك — ولو فى بعض المناسبات — أن تصبح هجائية[٢١] .

هذا وقد توصل «شامبليون» الى الدليل الحاسم عن طريق مسلة مصرية نقلت الى انجلترا فى عام ١٨١٩م ، ونشرت نقوشها الهيروغليفية ونقوش أخرى يونانية سجلت على قاعدتها عام ١٨٢١م ، وتضمنت هى الاخرى اسم «بطليموس» و «كليوبترا» وبالمقارنة بين الحروف المشتركة بين الاسمين ، وضح ثلاثة عشر حرفا ، ذات اثنى عشر صوتا ، وكان هذا السلاح الجديد دافعا على أن يقدم على تمييز الكتابة الهيروغليفية من الكتابات التى تحمل أسماء ، الكسند وبرنيس وتبيريوس ودومسيان وتراجان ، الى جانب الالقاب الرفيعة مثل «أوتو كراتور» وقيصر وسباستوس ، وهكذا أمكن الوصول الى حل فيما يتصل بخراطيش العصر اليونانى الرومانى[٢٢] .

---

(٢٠) ولد جان فرانسوا شامبليون فى ١٧٩٠/١٢/٢٢م ببلده «فيجاك» بمقاطعة اللوت ، وفى عام ١٨٠٤م التحق بمدرسة ليسيه جرينوبل حيث درس اليونانية واللاتينية ، ثم عكف على دراسة العربية والعبرية والكلدانية والسريانية والقبطية والفارسية والاثيوبية ، وفى عام ١٨٠٧ كتب بحثه «مصر تحت حكم الفراعنة» ،وفى نفس العام التحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وفى عام ١٨١٥م عين مدرسا بكلية الاداب فى جرينوبل ، ولكنه طرد منها عام ١٨١٥م ،فعاد الى فيجاك ، ومنها الى باريس حيث تم له اكتشاف اللغة المصرية القديمة عام ١٨٢١م ،ثم زار مصر فى الفترة (١٨٢٨ـ ١٨٣٠) ، وفى مارس عام ١٨٣١م عين استاذا فى الكوليج دى فرانس ،حيث بقى فى باريس حتى موته عام ١٨٣٢م (شامبليون : نشرة المتحف المصرى عام ١٩٧٢) .

21. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 13.
JEA, 44, 1958, p. 123.

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ ، وكذا =

ثم سرعان ما استطاع أن يحل الرموز الهيروغليفية بعد ذلك ، وأن ينشر جانبا كبيرا من أبحـــاثه فى «خطاب الى مسيو داسيه عن أبجدية الهيروغليفية الصـوتية»[٢٣] فى عـــام ١٨٢٢ م ، و «موجــز للنظام الهيروغليفى»[٢٤] فى عـــام ١٨٢٤ م ، وأن ينجح قبل موته ــ وهو فى الاربعين من عمره ــ فى أن يكشف عن المعنى العـــام لمعظم النصوص التاريخية ٠

وتابع العلماء بعـــد ذلك الدراسات اللغوية على الاثار وصفحات البردى ، جيلا بعد جيل ، مما أدى الى تقدم الدراسات اللغوية حتى أصبحت اللغة المصرية القديمة تعرف اليوم بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح[٢٥] ، هذا وقـــد استطاع «كارل ريتشارد لبسيوس» (١٨١٠ ــ ١٨٨٤م) فى مقال نشر عام ١٨٣٧م ، أن يسكت نهائيا أصوات أولئك الذين كانوا لايزالون يرتابون فى صحة حل الرموز، وكان من أوائل الباحثين فى هـــذا المضمار «صموئيل برش» (١٨١٣ ــ ١٨٨٥م) و «ادوارد هنكس» (١٧٩٢ ــ ١٨٦٦م) ، ثم ظهر بعد ذلك بقليل «ك٠ و٠ جودوين» فى انجلترا ، ثم «دى روجيه» و «شابات» و «ديفيريا» فى فرنسا،ثم أعظمهم جميعا «هينرش بروجش» (١٨٢٧ ــ ١٨٩٤م) فى المانيا ٠

ثم هناك كذلك «يوهـــان بيتر أدولف أرمان» (١٨٥٤ ــ ١٩٣٧م) الذى استطاع مع تلاميذه ، بخاصة «كورت هينرس زيته» (١٨٦٩ ــ ١٩٣٤) أن يضع حـــدودا مميزة بين المظاهر المختلفة للغة ، وأن يضع أسس قواعد علمية لكل منها ، ، وما قـــام به «فرنسيس للون جريفث» (١٨٦٢ ــ ١٩٣٤م) الذى برزت عبقـــريته الممتازة كعالم فى الكتابات

= A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs 1964, p. 13.
Egyptian Grammar, 1966, p. 12-15.

23. Lettred M. Dacier Relativea L'Alphabet des Hieroglyphe Ophonetiques, 1822.

24. Precis du Systeme Hieroglphique, 1824.

(٢٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ ٠

القديمة ، مكنته من قـــراءة مختلف الخطوط الهيراطيقية والديوطيقية بصورة بذ بها كل من سبقوه[٢٦] .

٢ ـ الكشف عن الاثار :

وأما عن البحث عن الاثار ، فمن المؤسف حقا ، أن صاحب هـــذه الفترة (أى منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر) فترة تعتبر من أظـــلم وأبشع الفترات التى مرت على آثار مصر ــ بل وأمم الشرق الادنى القديم ــ اذ كانت فترة نهب وتخريب ، فقد كان الحفار يبحث فقط عن التحف الغالية ، غير عابىء بالطريقة التى يعثر بها عليها ، ولا بدراسة ، حتى وان كانت سطحية ، عن ظروف المكان الذى يعمل فيه ، ولا بالمحافظة على الاثار المنقولة العادية ، مثل الفخار الذى يساعد على التأريخ ، ويحدد مراحل التطور فى الحضارة[٢٧] .

وهكذا ظهرت طائفة من الاجانب من أدعيـــاء البحث الاثرى ، كان أغلبهم أفاقين نهابين ، اجتذبتهم الشهرة التى عمت العالم عن كنـــوز مصر وفنونها وعجائبها ، والرغبة فى تحصيل الثراء عن أقرب طريق ، وشجعهم على ذلك استعداد المتاحف الاجنبية وكبار الاثرياء على شراء كل ما يعرضونه عليهم منها ، ويسر لهم ذلك فتح أبواب مصر فجأة أمام الاجانب ، منذ أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١م) وأيام محمد على (١٨٠٥ ــ ١٨٤٩) ، بعد أن كانت موصدة أمامهم فى عهد سيطرة العثمانيين ، ثم معاونة القناصل لهم ، واستخدامهم اياهم لصـــالحهم فى فترات الضعف من عهد محمد على ، وعن طريق هؤلاء جميعا وعلى رأسهم (جيـــوفانى بلزونى) الايطالى و «فـــردريك كايو» الفرنسى

---

26. F. L. Griffith, The Deciphement of The Hiroglyphs. JEA, 37, 1951, p. 38 F.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 16.
27. G. E Daniel, A Hundred year of Archaeology, London, 1949.
W. R. Dawson, Who Was in Egyptology, London, 1951.
S. R. K. Glnville, The Growth and Nature of Egyptology, London, 1947.

(١٧٨٧ – ١٨٦٨م) انتقلت كنوز مصرية كثيرة الى المتاحف الاوربية ، والى مجموعات الاثرياء ، ولم تقتصر شرورها على تسرب آثار مصر الى الخـــارج ، وانما امتدت شرورها الى تحطيم الهش من هـــذه الاثار ، وتحطيم المئات من الجثث مما لم يكن الافاقـــون يقدرون له أهمية مادية كبيرة[٢٨] .

ومن عجب أن تنتقل حتى المسلات،فهناك – غير تلك التى تقوم الان فى ميدان اللاثيران بروما منذ عام ١٥٨٨م – مسلتان للفرعون العظيم «تحوتمس الثالث» ، الواحدة نقلت الى لندن،حيث أقيمت على شاطىء التايمز عام ١٨٧٧م ، بعد أن كان محمد على قد أهداها للانجليز عـــام ١٨٣١ ، والاخرى نقلت الى نيويورك،حيث أقيمت فى «سنترال بارك»، ومن عجب ، بل قل من الجهل الفاضح ، أن المسلتين انما تسميان باسم واحد ، هو «مسلة كليوبترا» .

على أن هذا كله ، لا يمنع من القول بأن هناك من كانوا على غـــير ما ذكرنا آنفا ، كما أن هناك بعثات أجنبية منظمة ، جـــاءت للكشف عن الاثار المصرية ، فضـــلا عن أولئك الذين قاموا بجهود فردية ، ومنهم «سير جون جاردنر ويلكنسون» الانجليزى ، والذى قام بزيارة موقع «العمارنة» (أخيتاتون) عـــام ١٨٢٠م ، حيث كشف هناك عن عـــدة مقابر[٢٩] ، هذا فضـــلا عن رحلة «شامبليون» بصحبة «روسيلليني» الايطالى عام ١٨٢٨ ، والتى قدمت مجموعة ضخمة من الرسوم نشرت فى مجلدات من الحجم الكبير[٣٠] ، ثم تلت ذلك بعثة بروسية برياسة العالم الكبير «كارل رتشارد لبسيوس» بزت الجهود السابقة بالمجلدات

---

(٢٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

29. J. G. Wilkinson, Manners and Customs of Ancient Egyptian, London, 1837.

30. Ippolito Rosellini, I monumenti deli Egitte e delia Nubia, Disegnati della Spedizions Scientifico Litteraria Toscana in Egitti, Rome, 1832-1844.

الاثنتى عشرة الضخمة[31] .

ولم تكن بريطانيا متوانية فى هذه المرحــلة ، فسرعان ما ظهر فيها «روبرت هاى» و «جيمس برتون» وقد انتجا ــ بالتعــاون مع جون ويلكنسون ــ مجمــوعات لا نظير لها من جزازات النقوش واللوحات الملونة ، والكتابات التى لاتزال لها قيمتها الكبيرة حتى اليوم،لأن أصول كثيرة منها بليت ، أو نالها الكثير من التلف[32] .

وأخيرا تنبهت الحكومة المصرية الى أهمية الاثار المصرية ، ومن ثم فقد بدأ الاتجاه الى انشاء متحف مصرى منظم للاثار ، وان اكتفت فى هــذه المرحلة بانشاء ادارة للاثار ، وبتخــزين المكتشف منها فى دار بالازبكية مدة ، وفى دار بالقلعة مدة أخرى ، حتى جاء العالم الفرنسى «أوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٣١ ــ ١٨٨١م) ، وكان من المقربين الى الخديوى سعيد باشا (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣) ، ومن ثم فقد نجح فى تأسيس متحف بولاق عام ١٨٥٩م ، والذى نقل الى سراى الجيزة فى عام ١٨٩١م ، وأما المتحف المصرى الحــالى ، الموجود الان بميدان التحرير بالقاهرة فقد أنشىء فى عام ١٩٠٢ .

ونشط التنقيب عن الاثار فى هذه الفترة بموافقة الدولة ، وترأسه «مارييت» ــ وكان قد عين مديرا لمصلحة الاثار عام ١٨٥٨ ــ وقد قدر لهذا الرجل أن ينقب فى أرض مصر قرابة ثلاثين عاما ، أظهر فيها نشاطا كبيرا وبخاصة فى منطقة سقارة .

وجاء العالم الفرنسى «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦ ــ ١٩١٦) مديرا لمصلحة الاثار بعد مارييت ، وكان أول من أباح للبعثــات العلمية حق

---

31. K. R. Lepsus Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien. Berlin, 1849.
32. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15.

التنقيب العـلمى فى مصر ، فتألفت على أثر ذلك جمعيتـان ، الاولى «جمعية الكشوف الاثرية المصرية» فى لندن (Egypt Exploration Society) والثانية جمعية فرنسية فى القاهرة (La Mission Archeologique Franisè au Caire) فبدأت بذلك عصر البحوث العلمية المنظمة ، وأخذ علم الآثار يرتكز على دعامات قوية ، ويتطور على أيدى علماء مبرزين .

وقد دخلت أمريكا الميدان متأخرة،وان استطاعت أن تعوض ما فاتها من زمن ، حتى لنشهد النشر الرائع لمقابر طيبة الذى قام به «متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك» (Metropolitan museum of Arts in New York) لذى يرجع الفضل فيه الى العالمة الانجليزية «نورمان دى جارس ديفز» (١٨٦٥ — ١٩٤١)،ويكان يبزها فى أهميتها العمل فى المقابر،الذى قام «معهد الدراسات الشرقية فى جامعة شيكاغو (Oriental Institute of The University of Chicago) ، وهـو المنظمة الاثرية الكبيرة التى تدين بوجـودها الى همـة العالم الامريكي الكبير «جيمس هنرى برستد» (١٨٦٥ — ١٩٣٥) .

ومع ذلك فقد ظل الحفر العـلمى بطيئا فى أول الامر ، حتى عام ١٨٨٤م ، حين استخدم «سير وليم ماثيوس فلندرز بترى» (١٨٥٣ — ١٩٤٢) ، وربما كان أنجح الحفـارين جميعا ، أكثر الوسائل دقة ، كما كان مثلا طيبا ، لم يحتذ الا فى النادر القليل ، للنشر السريع لنتائج بحوثه[٣٣] .

وعلى أى حال ، فلقد وفدت الى مصر بعثات أثرية كثيرة أوفدتها الجمعيات والجامعات الاوربية والامريكية منذ عام ١٨٩٠م واستمر لها نشاطها خلال القرن العشرين فى صعيد مصر ودلتاها،ولاسيما فى مناطق الجيزة وسقارة والفيوم وتل العمارنة وأبيدوس وطيبة ونقادة ونحن

33. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 15-16.

والكاب ، فكشفت عن قرى ومدن وأهرام ومعابد ، واستخرجت كنوزا ، ونشرت مخطوطات ووثائق ونصوص كثيرة[٣٤] •

(٣) منهج البحث فى التاريخ القديم :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن منهج البحث فى التاريخ القديم ، لا يختلف عن غيره من فروع التاريخ الاخرى (الوسيط والاسلامى والحديث) الا فى أمور تتصل به وحده ، وخاصة فى العلوم المساعدة لدراسة عصور ما قبل التاريخ ، فضلا عن حاجة الباحث فى التاريخ القديم إلى دراسة علوم معينة كالاثار واللغات القديمة مثلا •

وعلى أية حال،فمعنى البحث : هو التعرف على الطريقة أو الوسيلة أو المنهج الذى يقود الباحث الى الطريق الصائب الذى يستخدمه فى سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، فالمنهج Method اذن : هو نوع من التنظيم العقلى ينبغى على الباحث اتباعه فى سبيل الوصول الى الحقيقة التاريخية ، وهو الخطة أو التخطيط لعملية كتابة التاريخ ، ولما كان التاريخ هو تسجيل وتدوين الحقائق التاريخية بالنسبة للافراد أو الشعوب ، سواء أكان ذلك فى المجالات الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية — الداخلية أم الخارجية — ومن ثم فعلى الباحث فى التاريخ اتباع منهج معين فى طريقة كتابة التاريخ ، حتى يكون معبرا عن الحقائق التى يرغب فى تدوينها •

وبدهى أن التاريخ لا يدرس عفوا ، ولا يكتب اعتباطا ، وبدهى أيضا أنه ليس كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخا كما يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب — حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ، ويظنون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ماداموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملأت كتاباتهم رفوف المكتبات — ذلك لانه من الضرورى أن تتوافر فى المؤرخ

---

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٧ •

الصفات الضرورية،وأن تتحقق له الظروف التى تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته ، ومن ذلك :

(١) صفــات المؤرخ :

لعل من الاهمية بمكان ـ وقبل دراســة منهج البحث التاريخى ، وكيفية التعبير عن الحقائق التاريخية بأسلوب علمى سليم ـ أن نشير، بادىء ذى بدء ، الى بعض الصفات الاساسية فى كاتب التــاريخ أو «المؤرخ» ، والتى تنقسم الى قسمين أساسيين : خصال خاصة بشخصية المؤرخ ، وأخرى خاصة بقدراته العلمية :

أ ـ خصال خاصة بشخصية المؤرخ :

ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا الى أن البحث موهبة فنية تمنح من الله تعــالى لبعض الناس ، ولا تمنح لاخــرين ، ومن ثم فليس الاطلاع ، ولا جمع المادة العلمية وترتيبها ، بالعناصر الكافية لانتاج بحث أو رســالة ممتازة فى التاريخ ، فلابد من توفــر القدرة على البحث عنــد الباحث أولا ، ذلك لأن جمــع المادة وترتيبها شىء ، وتفســيرها وابراز أهميتها ، واستخلاص النتــائج منها ، شىء آخر بل ان هذا هــو الصعب والمهم فى كتابة الرسائل العــلمية Thesis Writing والابحاث التاريخية ، وهنا يجب أن يعرف الباحث أن هناك أمراً لا يمكن التجاوز عنه أو تجاهله ، وهو أن تكون له مقدرة يستطيع أن يستقل بها فى فهم الحقائق وفى تفسيرها ، كما أن فهمها وتفسيرها شىء قابل للاختلاف من شخص لاخر ، فاذا لم يكن الباحث قد وهب هذه المقدرة ، فهو دون المستوى اللازم للمنهاج العلمى المطلوب[٣٥] .

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب فى أن هنــاك خصالا خلقية معينة يجب توافرها فيمن يتعرض لمهمة البحث العلمى ، أهمها : الصدق والامانة والاخلاص والنزاهة والشجــاعة ، لانه يستحيل على مؤرخ

---

(٣٥) أحمد شلبى : كيف تكتب بحثا أو رسالة ـ القاهرة ـ مكتبــة النهضة المصرية ـ ١٩٧٤ ص ١٠ ـ ١١ .

الحقائق أن يكون انسانا مزورا أو كاذبا ، أو غير معبر عما تنص عليه الوثائق التاريخية •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الثقافة الاسلامية ــ كما أشرنا من قبل ــ قد ابدعت فى تقويم الرجال فنا قائما بذاته هو «الجرح والتعديل»[٣٦] ، فقد كان المسلمون يأخذون الاخبار من أفواه الرجال، ومما قيدوه فى نسخهم ، ناظرين دائما الى هيئة الرجل وصلاحه،فهم لم يكونوا يفصلون بين علم الفرد وسلوكه،فالفرد ــ فى نظرهم الصائب ــ وحدة متكاملة ، يؤثر فيها سلوكه على عمله ، أو العكس ، ولا مناص من بحث حاله بحثا متقصيا ، يتناول أدق تفاصيل حياته الذهنية والسيلوكية، ليمكن قبول نقله أو رفضه ، وما نظن أن ثقافة فى الارض قامت على مثل هـــذا الاساس النقـــدى المنهجى النزيه ، فذلك شىء تفرد به المسلمون[٣٧] •

هذا وهناك أمر فى غاية الاهمية والخطورة فى منهج البحث التاريخى وأعنى به «الوطنية» ، اذ أن على المؤرخ أن يهتم كثيرا بهذا الامر ، ذلك

---

(٣٦) انظر عن «الجـــرح والتعديل» : ابن قتيبة : تاويل مختلف الحديث ـ القاهرة ١٩٦٦م ، الذهبى : ميزان الاعتدال ـ تحقيق عـلى محمد البجاوى ـ القاهرة ١٩٦٣ ، تذكرة الحفاظ ـ حيدر اباد ١٩٥٨ ، المشتبه ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ القاهرة ١٩٦٢ ، ابن ابى حاتم الرازى : الجرح والتعديل ـ حيدر آباد ، الامام أحمد : العلل ومعـرفة الرجال ـ تحقيق طلعت قـــوج واسماعيل أوغلى ـ انقرة ١٩٦٣ ، ابن المدينى : العلل ـ تحقيق مصطفى الاعظمى ـ بيروت ١٩٨٠م ، الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال ـ جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٦هـ ، الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية ، حيدر أباد ١٣٥٧ هـ ، ابن حجر العسقلانى : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الاثر ـ ط مصر ١٣٠٨ هـ ، تهذيب التهذيب ـ حيدرأباد ١٣٢٥هـ ، مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث بيروت ١٩٧٨ ، أسد رستم : مصطلح التاريخ ـ بيروت ١٩٣٩ ، عثمـان موافى : منهج النقد التاريخى الاسلامى ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ، الغزالى : المستصفى فى علم الاصول ـ القاهرة ١٩٣٧ ، الحاكم النيسابورى : معرفة علم الحديث : بيروت ، وانظر : هذه الدراسة ص ١٢٤ •

(٣٧) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٢ ـ ٨٣ •

لان الوطن عنصر أساسى فى حياة الانسان ، وأن الولاء للوطن حقيقة لا مراء فيها على الاطلاق ، ومن ثم فينبغى على المؤرخ أن يحاول التعبير عن الحقائق بطريقة مجردة ، ووطنية ، فى نفس الوقت ، حتى لا يقع فيما نبه اليه «كار» من : أننا اذا تناولنا عملا تاريخيا فلاينصب اهتمامنا على الحقائق التاريخية فحسب ، وانما يجب أن يشمل المؤرخ أيضا . ذلك لان المؤرخ انما هو ابن عصره ، بل هو أحيانا ابن طائفته،وأحيانا أخرى ابن مذهبه وحزبه ، وهو مقيد بهذا كله،بحكم اتجاهاته وانفعالاته وميوله ، ومن هنا يمكن القول بأن الحقائق التاريخية والوثائق الاصلية قد تختلط مع الاتجاهات الخاصة للمؤرخ .

وأما الأسلوب العلمى الصحيح الذى يتضح فى الخطوات التالية فقد يساعد المؤرخ فى التعبير عن الحقائق مجردة ووطنية فى آن واحد ، فاذا كان المؤرخ معبرا بصدق ، وبأسلوب علمى ، وبطريقة مجردة ، ومعتمدا على الوثائق الصحيحة الموثوق منها،ولا يتناولها الشك بحال من الاحوال والمعترف بها فى مختلف الهيئات العلمية ، فانه يكون بذلك قد أدى واجبه العلمى الذى يتطلبه علم التاريخ ، والوطنية التى يدعو اليها الوطن ، وعلى أية حال ، فعلى المؤرخ ألا يكون متحيزا ، ولا مهاجما أو مدافعا، وانما يذكر الحقائق ، كما نصت عليها الوثائق،ثم يؤيد مايتطلبه الواجب الوطنى ، كما أن على المؤرخ أن يحرر نفسه — جهد الطاقة — من الميل أو الاعجاب أو الكراهية ، لعصر خاص ، أو لناحية تاريخية معينة .

وهكذا فعلى المؤرخ أن يكون موضوعيا ، غير متأثر بالعوامل الذاتية وألا يجعل لآرائه الشخصية أو معتقداته الدينية أو اتجاهاته السياسية دورا فى تغيير الحقيقة أو طمس معالمها ، كى تخدم آراءه ومعتقداته ، وصدق الله العظيم حيث يقول «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان لله خبير ما تعملون»[٣٨] ، كما أن على

---

(٣٨) سورة المائدة : آية ٨ .

المؤرخ ألا يقوم بدراسة موضوع ما ، وقد عقد العزم مقدما — وقبل بدء الدراسة — على تحقيق نتائج معينة ، بل عليه أن يضع فكره وثقافته وميوله في خدمة البحث العلمي وحده[٣٩] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن يعي المؤرخ تماما ، أن مهمته ليست اصــدار أحكام الزيغ والضلال على الماضي ، أو أن يجعــل من نفسه واعظا عقائديا ، لن يؤدي الا الى أحكام خاطئة ، اذا قيست بأحكام العصر الذي يدرسه ، ذلك لان كل عصر تاريخي ، بل لكل حقبة ، كما أن لكل حضارة شخصيتها وقيمها ، وليس من شأن المؤرخ أن ينظــر الى الماضي من خلال معايير الحاضر ، لان الانسان ليس شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا ، ومن ثم ينبغى التعبير عن كل عصر بتعبيرات خاصة به ، لان لكل عصر — كما أن لكل أمة — طابعا فريدا لا يتكرر ، فليست الحضارة المصرية القديمة كالحضارة الصينية أو اليونانية أو الرومانية ، وانما تشكلت كل منها بطريقة متمايزة منفردة ، ومن ثم فقد وجب على المؤرخ أن يتعايش مع العصر الذى يدرسه ، وأما تجاوز ظروف الزمان والمكان ، واصدار أحكام مطلقة ، فهذا أسوأ فهم للتاريخ ، فمثلا ليس شكسبير هو سوفوكليس ، ولا ميلتون هو هوميروس ، كما أن المتنبى ليس هو شوقى ، ولا سعد زغلول هو جمال عبد الناصر[٤٠] .

وأخيرا على المؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، وأن يكون بعيدا عن الشهرة أو الظهــور ، وأن يكون محبــا للدرس ، جلدا صبورا ، فلا تمنعه وعورة البحث أو الصعاب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه قلة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها .

ب — **وأما بالنسبة للقدرات العلمية للمؤرخ :** فيجب أن يكون عند

---

(٣٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص٢٥
(٤٠) أحمد محمود صبحى المرجع السابق ص ٢٨ ، وكذا
Patrick Gardiner, in Encyclopaedia of Philosophy, pp. 486-499.

المؤرخ قدرات واستعدادات تدريبية فى الناحية اللغوية والعلمية،تتصل بصفة خاصة بفرع التاريخ الذى يدرسه ، وفى الواقع أن هذه الصفات انما هى نقطة أساسية ومكملة لصفات المؤرخ ـ الانفة الذكر ـ لان توفر الصفات الخلقية النبيلة فى المؤرخ ، ليست وحدها بكافية لاداء عملية التأريخ ، وانما تكملها عملية الاستعداد العقلى والعملى لاداء هذه المهمة ، وأول جوانب هذه المهمة هى قدرته اللغوية ، وخاصة لغة العصر موضوع دراسته ، والتى كتبت بها الوثائق المنتمية لهذا العصر ، لان اللغة هى وسيلة التعبير ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يحس بمدلولها ، وما تريد أن تعبر عنه ، وانطلاقا من كل هذا ، فعلى دارس التاريخ الفرعونى ـ مثلا ـ أن يعرف اللغة المصرية القديمة ، بكتاباتها المختلفة (هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية) ،وعلى دارس التاريخ الاسلامى أن يجيد اللغة العربية ، وهكذا .

وليس هنـــاك من ريب فى أن ملكة النقـــد ، انما هى من الصفات الضرورية للمؤرخ ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام ، أيا كان قائله من ذوى الشهرة والرنين ، وكل واحد من الناس يؤخذ من قوله ، ويرد عليه الا سيدنا رسول الله ﷺ فهو وحده المعصوم عن أن يقول الا ما هو حق وهدى[41] ، كما أن على المؤرخ ألا يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقصاء ، فيأخذ منه ما يرى أنه الصدق ـ أو ماهو قريب من الصدق ـ ويترك ما يتنافى مع ذلك ، حتى اذا كان هذا الصدق يتنافى مع عواطفه الشخصية أو الوطنية ، فالحق أحق أن يتبع ، وكل وثيقة أو مصدر ، يؤخذ منه ، ويرد عليه ، الا القرآن الكريم كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[42] .

---

(٤١) محمد بيومى مهران : السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث بيروت ١٩٩٠ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٤٢) سورة فصلت : آية ٤٢ ، وانظر : سورة البقرة : آية ٢٥٢ ، آل عمران : آية ٣ ، ٦٢ ، النساء : آية ٨٧ ، الكهف : آية ١٣ ،فاطر : آية ٣١ ، الزمر : آية ٢ ، ٤١ ، الجاثية : آية ٦ ، محمد : آية ٢ .

وفى الواقع ان المؤرخ اذا ما أعوزته ملكة النقد سقطت عنه صفته، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه ، على أنه حقيقة واقعة ، ومن ثم فعلى المؤرخ أن يفهم آراء الغير ، وأن يكون دقيقا فى نقل عباراته، فكثيرا ما يقع بعض الباحثين فى أخطاء جسيمة بالنسبة لآراء الاخرين، اما لخطأ فى النقل ، أو لسوء فهم ، كما أن على المؤرخ أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، وأن يكون حذرا ، فلا يسلم تسليما مطلقا بالاراء التى قررها باحثون من قبله ، بل لابد له من أن يفكر فيها ، ويمعن النظر فى محتوياتها ، وما أكثر الامثلة التاريخية التى خالف فيها اللاحقون السابقين ، وانطلاقا من كل هذا ، فعلى المؤرخ أن يدرس بنفسه الاحداث والاسباب التى أدت اليها ، ثم يقارن النصوص بعضها ببعض ، وأن تبرز فى كل مراحل البحث شخصيته ، بصفة ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار من المبالغة فى ذلك ، فيحاول الباحث بالحق والباطل أن يصل الى مايريد فهذا ما يجب أن يبعد عنه طالب العلم ، البعد كل البعد[٤٣] .

ولعل من الاهمية بمكان أن يعى المؤرخ أن التاريخ ليس مجرد وثائق ومستندات ، ذلك لان مجرد تجميع المادة التاريخية انما يجعل من التاريخ عملا من أعمال «القص واللصق» ، ومن المؤرخ مجرد كاتب حوليات ، ككاتب «الارشيف» ، فالمؤرخ الحق لا ينظر الى مادته التاريخية نظرة «برانية» ، وانما ينظر اليها من خلال الوقائع ليكتشف الفكر الذى يتبطنها ويحركها ، أى الفكر الكامن وراء ماتسرده الوثائق، وذلك بأن يتمثل الماضى فى ذهنه ، أى أن يعيد التفكير فيه على النحو الذى وقع .

وهكذا فان من يدرس شخصية امبراطور مثلا ، فعليه أن يتمثل الامبراطور ذاته ، كما لو كان فى موقفه ، وعليه أن يدرس التصرفات البديلة ، وسبب اختياره لما اختار ، فالمؤرخ اذن يمر بنفس العمليات الفعلية التى مر بها الامبراطور حتى شرع فى فعله ، وهكذا يتمثل المؤرخ

---

(٤٣) أحمد شلبى : المرجع السابق ص ٧ ، ١١٠ ، ١٥ .

تجربة الامبراطور وفكره ، ويتعقل فعله ، وبمعنى آخر ، لابد من اعادة تركيب الماضى فى ذهن المؤرخ ، وذلك بالتواجد مع الشخصية موضوع الدراسة ، والنفاذ الى أعماقها ، والتعاطف مع العصر الذى يدرسه كى يفهمه ، وبذلك تصبح الاحداث التاريخية حاضرة ، وتستحيل الوقائع الميتة الى نبضات حية ، ولا يقف تمثل أفكار الاخرين وتجاربهم ، عند مجرد فهم مواقفهم وأفكارهم وسلوكهم ، وانما أن تصبح هذه العملية الفكرية جزءا من ذات التاريخ[٤٤] ، يقول كولنجوود : انه عندما يدرس شخصية القائد البحرى الانجليزى «نلسون» ، فانه يتساءل ما الذى كان يفكر فيه قبل أن يلتحم مع الاسطول الفرنسى عند «أبو قير» فى أغسطس من عام ١٧٩٨م — وحين يقرأ نصا لافلاطون فى محاورة تيتاتوس عن نقده للاحساس كمصدر للمعرفة ، فانه يحاول أن يتمثل فكر افلاطون ذاته[٤٥] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك اعتراضات تاريخية وفلسفية حول هذا الموقف ، فالوضعيون يتساءلون كيف يفكر المؤرخ فى نفس ما كان يفكر فيه نلسون ، وليس لديه أدنى فكرة عسكرية بفن المعارك البحرية أو بفكر قادة البحار ؟ ولنفرض أن المؤرخ يدرس شخصية مريض بمرض ذهنى مثل «البارانويا» (الشعور بالاضطهاد وجنون العظمة) أو «السادية» (الشعور باللذة فى ايذاء الغير وتألمه) ، مثل «راسبوتين» أو «نيرون» ، فكيف يتسنى للمؤرخ أن يتمثل فكر هؤلاء؟!.

ويرد المثاليون أنه يجب على المؤرخ أن تكون لديه دراسة عميقة وخصبة للنفس الانسانية ، ومن ناحية أخرى هل يمكن أن يصل تمثل الذات للموضوع حد التطابق ؟ ألا يصح ألا يبلغ المؤرخ حد التمثل الصحيح أو أن يزيد بخياله خواطر وأفكارا لم تدر بذهن الشخصية ، موضوع الدراسة ؟

---

(٤٤) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ٤٨ .
45. R. G. Collingwood, The Idea of History, London, 1946, p. 294.

ويرد «كولنجوود» بأنه لا يتصور التطابق على نحو تماثل شخصيتين كنسختين من أصل واحد ، وانما أن يتمثل المؤرخ الفكر الباطن للاخرين حتى تبلغ منه مرحلة الوعى .

وهناك اعتراض فلسفى آخر : ان فكر المؤرخ انما يمثله حاضره وميوله ومصالحه ، ومن ثم فان ما يعاد تمثيله ، ليس ما كان يفكر فيه الشخص موضوع الدراسة ، وانما ما يفكر فيه المؤرخ ، أى أن المؤرخ انما يخلع تصوراته وفكره على غيره ، وبالتالى يفقد التاريخ موضوعيته وتصبح عملية التأريخ أحادية تصورية ، ويرد «كولنجوود» بأنه لاريب فى أن المؤرخ على وعى حين يتمثل فكر الغير وموقفه وسلوكه ، ومن ثم فهو لا ينساق فى تجربة ذاتية خاصة ، وانما هو مقيد بتجربة الغير الذى فكر على نحو معين ، وسلك سلوكا خاصا[٤٦] .

بقى اعتراض اخر،هل كل وقائع التاريخ أفكار شخصيات تاريخية ؟ أليس فى التاريخ حضارات أو ثقافات تمثل أفكار شعوب بأكملها،وأوجه نشاطها ؟ فكيف يتمثل المؤرخ لغة شعب أو دينه أو أنظمته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؟

ويعترف «كولنجوود» بأن هذه الجوانب تشكل تاريخا،ولكنه يطبعها بطابع الفردية ، فالسياسة نتاج فكر الساسة ،أى أن فكر السياسى هو الذى يحدد سياسته ، ويقاس نجاح السياسى بقدر نجاحه فى التوفيق بين فكره وسياسته العلمية ، وعمل المؤرخ أن يستشف هذا الفكر،كذلك الحروب من تخطيط القـــادة الذين يديرون المعارك ، والامر كذلك فى النشاط الاقتصادى ، كذلك الاخلاق محاولة للتوفيق بين ما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون ، وذلك موضوع فكر ، ومن ثم «فكل التاريخ تاريخ فكر»[٤٧] .

---

(٤٦) أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٤٧) نفس المرجع السابق ص ٥٠ ، وكذا

R. G. Collinwood, Op. Cit., pp. 280-282.

(٤) العلوم المساعدة للبحث فى التاريخ القديم :

يتصل التاريخ القديم بكثير من فروع المعرفة الانسانية ، ومن ثم فعلى من يتصدى لكتابته أن يقوم بتحصيل هذه المعرفة ، ذلك لأنه ان أحسنها ، فهو بالتالى يحسن ما يكتبه من الدراسات التاريخية فى هذا الفرع من التاريخ ، وذلك على الرغم من أن «كولنجوود» انما يذهب الى أن التاريخ علم مستقل ، غير أن التاريخ ان انفصل عن بقية العلوم، انما يصبح علما مبتورا ومنقوصا ، ومن هنا كانت ضرورة التأكيد على عملية «التكامل العلمى» الموجودة فعلا بين مختلف العلوم ، بل ان المؤرخ الانجليزى «ادوار فرمان» انما يذهب الى أن المؤرخ يجب أن يعرف كل شيء : الفلسفة والقانون والاقتصاد والاجناس والجغرافيا وعلم الانسان والعلوم الطبيعية ، ذلك لان المؤرخ معرض لأن يصادف فى دراسته للماضى ، مسائل فى الفلسفة والقانون والاقتصاد وغيرها،وبقدر ما تتعدد معرفته بفروع المعرفة المختلفة ، انما يكون أكثر استعدادا لعمله كمؤرخ[٤٨] .

وعلى أية حال ، فهذه المعارف المختلفة هى ما نسميه بالنسبة لموضوعنا «العلوم المساعدة» أو «العلوم الموصلة» ، وهى بطبيعة الحال تختلف بالنسبة للباحث باختلا فالعصر أو الموضوع ، مجال البحث ، فدارس التاريخ القديم مثلا ، انما تختلف علومه المساعدة عن علوم دارس العصور الوسطى ، وهذا تختلف علومه المساعدة عن دارس التاريخ الاسلامى أو الحديث ، بل ان دارس التاريخ القديم نفسه ، تختلف علومه المساعدة ــ ولكن الا حد ما ــ باختلاف المكان والعصر .

هذا فضلا عن أنه ليس من الضرورى أن يستخدم المؤرخ كل العلوم المساعدة فى أبحاثه ، وانما يمكن الافادة منها ، طبقا لمقتضى الحال،بما يخدم الموضوع الذى يدرسه أو المرحلة التاريخية التى يعالجها ، فمن

---

(٤٨) لانجلو أوسينوبوس : النقد التاريخى ــ ترجمة عبد الرحمن بدوى ــ الكويت ١٩٨١ ص ٣٠ ، ر٠ ج٠ كولنجوود : فكرة التاريخ ــ ترجمة محمد بكير خليل ــ القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٤٩ ٠

الممكن أن يستخدم المؤرخ أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع معين ، ولا يستخدمها عند دراسة موضوع آخر ، أو يستخدمها بشكل محدود[٤٩] .

وسوف نناقش العلوم المساعدة فى التاريخ القديم هنا بصورتين ، الواحدة : فى عصور ما قبل التاريخ ، والاخرى : فى العصور التاريخية:

أ ـ العلوم المساعدة لعصور ما قبل التاريخ :

١ ـ **الجيولوجيا** : وهذا الفرع من المعـــرفة يعنى بدراسة طبقات الارض بقصد تأريخها ، وبالتالى تقدير عمر البقايا والاثار التى توجد بها ، ومن الممكن أيضا عن طريق علم المناخ القديم الذى يستعين بعلم الجيولوجيا ، وعلم المناخ الحديث وغيرهما من العلوم الطبيعية كالنبات والحيوان والتشريح ، بل والعـــلوم الفيزيائية ، من الممكن أن ترسم صورة للظروف المناخية فى فترة محدودة من تاريخ الارض .

٢ ـ **علم تتابع الطبقات** : وهـــو فرع خاص من علوم الجيولوجيا (Geology) ، ويقوم على قانون الارساب الذى يقول بأن الاعلى هـــو الاحدث ، ما لم يحدث فى الطبقات تغيير فى الموضع .

٣ ـ علم الحفريات القديمة : وهو دراسة البقايا العضوية (النباتية والحيوانية) القديمة (أى المتجمدة) ، وقد أمكن اتخاذ الحفريات القديمة أساسا لتاريخ طبقـــات الارض ، ويساعد علم الحفـــريات القديمة على تفهم المسرح الجغرافى الذى نشأ عليه الانسان فى العصر الحجرى الحديث (البليستوسين) .

٤ ـ **علم الانسان** : وهو علم تطور وتسلسل الانسان (Anthropology) ويعتبر من العلوم المساعدة فى مجال التاريخ ، بل ان «أتكن» انما يراه أشـــد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخ ، ذلك لان علمـــاء الأجناس

---

(٤٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٢٦ .

والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة ، وتظهـــر فى بحثها أحيانا اختلافات متشابهة فى الرأى ، وعلى أية حال ، فان ما يتوصل اليه علم «الانثروبولوجيا» انما يخدم المؤرخ كثيرا فى أبحاثه ، وقد اهتم بعض القدامى ـ بقصد أو بغيرقصد ـ بالربط بين التاريخ والانثروبولوجيا(٥٠)

٥ ـ **علم تاريخ وتقويم الارض :** وقد نشأ حديثا ، وهـــو فرع من العلم يبحث فى وســـائل تأريخ الارض ، ويسمى «جيوكرونولوجيا» (Geochronology) ، ويستمد أصوله من علم الجيولوجيا والنبات والحيوان والطبيعة ، ويعتمد على بعض أسس التأريخ ، والتى من أهمها :

أ ـ طريقة تحليل حلقات الاشجار : وذلك بدراسة حلقات نمو تلك الاشجار ، وتقدير عمرها ، وبالتالى عمر حضـــارات المجتمعات التى استخدمت هذه الاشجار .

ب ـ طريقة تحليل رقائق الطمى الجليدى .

جـ ـ طريقة قياس النشاط الراديومى : وتعـــرف باسم «طريقة كربون ١٤» ، وتستخدم فى المواد العضوية ، وخاصة المواد النباتية ، وهى تقوم على أساس أن كل مادة عضـــوية بها (كربون ١٤ المشع) و «كربون ١٤ غير المشع» ، بنسب ثابتة ، وأن النبات انما يكسب هذا الكربون المشع (كربون ١٤) من تفاعل الاشعة الكونية بالغلاف الجوى المحيط به ، وعندما تنتهى حيـــاة النبات ، يبدأ كربون ١٤ فى التحول التدريجى بسرعة ثابتة ، الى كربون وزنه الذرى ١٢ ، ويفقد ظاهـــرة الاشعاع .

وقد توصل العلماء الى تقدير نصف عمر «كربون ١٤» وهو ٥٥٦٨

---

(٥٠) هيوج اتكن : دراسة التـــاريخ وعلاقتها بالعـــلوم الاجتماعية ـ ترجمة محمود زايد ـ بيروت ١٩٨٢ ص ٢٦ : وانظـــر : على محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ القاهرة ١٩٨٤ ، وكذا
A. Haddon, A History of Anthropology, London, 1927, p. 20-25.

سنة (مع احتمال زيادة أو نقص ٣٠سنة) وبعد فترة مماثلة يفقد النصف الباقى نصف كميته ، أى أن «كربون ١٤» يصبح فى النبات ربع كميته الاصلية ، ثم يصبح بعد حوالى ٣٣٤٠٨ سنة ١/٦٤ من كميته الاصلية.

وهكذا عندما يعثر العلماء على بقايا مواد عضوية ــ كالقمح والخشب ــ ففى الامكان عندئذ قياس بقايا «كربون ١٤» المتخلف من هذه المواد ، واحتساب عمرها الأصلى،مع الاخذ فى الاعتبار الزمن الذى يستغرقه تحول «كربون ١٤» الى «كربون ١٢» ، وبالتالى يمكن تأريخ الحضارات التى أنتجت هذه البقايا العضوية ، وفى امكان العلماء الان ــ عن طريق كربون ١٤ ــ تقدير عمر بقايا حتى ٤٤ ألف سنة ، مع احتمال زيادة أو نقص فى حدود ٣٧ سنة[٥١] .

على أن هناك من العلماء من لاحظ على اختبارات «كربون ١٤» فى مصر وشمال افريقيا لعينات مؤرخة أصلا ، أن التاريخ الكربونى للمادة السحيقة فى القدم ، انما يقل كثيرا عن التاريخ الذى تقرره النصوص أو الاحداث التاريخية[٥٢] ، فمثلا أجريت اختبارات لمواد ، أخذت من مقبرة «حماكا» من موظفى الملك وديمو ، من الأسرة الأولى المصرية ، وأخرى من مقبرة الملك «سنفرو» ، مؤسس الاسرة الرابعة ، وكانت النتيجة أن هناك فرقا فى التأريخ يدور فى حوالى ٧٠٠ سنة ، بين الاراء المختلفة[٥٣] .

هذا فضلا عن أن نتائج «كربون ١٤» ، فيما يتصل بعصور ما قبل التأريخ ، قد شابها كثير من الخلط ، ولا يمكن فهم تسلسلها ، ومن ثم فلا يمكن الوصول الى تحديد زمنى قاطع من العينات القليلة ، وذلك لان معظمها قد تعرض للتخزين الطويل ، دونما أية حماية ، مما ينقص

---

51. W. F. Libby, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952, p. 2 F, 35.
52. R. M. Derricout Sadio Carbon Chronology far Egypt and Narth Africo, in JENS, 1971, p. 271.
53. H. S. Smith, Egypt and C. 14 Dating, Antiquity, 1964, p. 36.

تأريخها القياسى بسبب الرطوبة[٥٤] ، مما دعى البعض الى فرض بعض التواريخ المبكرة التى أعطيت لمواقع فى وادى النيل ، ترجع الى عصور ما قبل التاريخ[٥٥] .

على أن الاعمار المقدرة بطريقة الكربون المشع انما جاءت تتفق مع الاعمار التاريخية من العصر الحـــالى ، وحتى عصر الملك «سنوسرت الثالث» (١٨٧٩ — ١٨٣١ ق/م) — من الاسرة الثانية عشرة — فمثلا المركب الجنازى للملك «سنوسرت الثالث» قدر عمرها بطريقة الكربون المشع ، فوجد أنه يرجع الى حوالى ١٨٠٠ ق٠م ، وهو يتفق مع عمرها التاريخى (حوالى ١٨٣١ ق٠م) .

وأما فى العصور السابقة لحوالى عام ١٨٠٠ ق٠م ، فقد وجد أن هذه الطريقة تعطى أعمارا أقل من الاعمار التاريخية للعينات ، فمثلا : أخذت عينة من حصيرة من مركب الملك خوفو ، فوجد أن عمرها يرجع الى حوالى ٢٣٨٥ ق٠م،بينما عمرها المعروف تاريخيا حوالى٢٦٠٠ق٠م٠

هذا وقد وجد أن الفرق يزيد ، كلما زاد عمر العينة ، وقد أمكن عمل جداول لتصحيح نتائج تقدير عمر هذه العينات القـــديمة التى يرجع تاريخها الى ما قبل ١٨٠٠ ق٠م ، بمقارنتها بنتائج تقدير عمر الآثار ، بطريقة الحلقات السنوية للأشجار ، ومن ثم يمكن تقدير العمر بطريقة كربون ١٤ ، وتصحيحه طبقا لقانون التعديل ، لنحصل على نتيجة قريبة جدا من العمر الحقيقى للعينة[٥٦] .

---

54. R. M. Derricout, Op. Cit., p. 289.
55. C. Flight, A Survey of Recent Results in The Radiocarbon. Chronology of Northern and Western Africa, in JAR, 14, 1937, p. 532.

(٥٦) زكى اسكندر : أستخدام العالم الحديث وتطبيقاته فى الميدان الاثرى — القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠ ، وانظر عن : طريقة كربون ١٤ (محمد بيـومى مهـران — مصر — الجـزء الاول — عصـور ما قبـل التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧١ — ٢٧٤) .

ب ـ العلوم المساعدة لدراسة العصور التاريخية :

١ ـ اللغة : أو فقه اللغة (Philology) (Phylology) لا ريب فى أن أول وسائل البحث العلمى ، انما ينبغى أن تتركز على اللغة والكتابات التى كان الانسان المصرى أو السومرى أو السامى يعتمد عليها كوسيلة من وسائل التعبير عن مختلف نشاطات حياته ، سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، لأنه لا فكاك عن معـرفة اللغة الأصلية الخـاصة بموضوع البحث التاريخى ، ومهما كان لدينا من ترجمات ، فانها قد تفى باحتياجات من يستهدف الحصول على ثقافة عامة ، لكنها لا تكفى المؤرخ أبدا ، فهو يستهدف الفهم الكامل العميق للموضوع الذى يريد أن يتناوله بالدراسة ، أعنى الذى يريد دراسة ناحية من نواحى التاريخ الفرعونى فانه لا يستطيع أن يقوم بذلك بجدية ، وطبقا للمنهج العلمى التاريخى ، الا اذا كان على معرفة جيدة باللغة المصرية القديمة (والتى تسمى خطأ عند العامة باللغة الهيروغليفية ، فالهيروغليفية نوع من الكتابة كالهيراطيقية والديموطيقية ، وليست لغة من اللغات)، والامر كذلك بالنسبة لمن يريد أن يكتب فى موضـوع من موضوعات التاريخ الاغريقى ، لابد له من أن يعرف اللغة الاغريقية ، وهكذا فى بقية فروع التاريخ ، فالذى يريد أن يكتب فى موضـوع من موضوعات التاريخ الأوربى الوسيط ، لابد له من معرفة اللغة اللاتينية[٥٧] .

وهـكذا يستطيع الباحث الاستعانة بالنصوص الرسمية والخاصة التى تنتمى الى العصر الذى يريد البحث عن حقـائقه ، ومن الاهمية بمكان الاشارة الى هذه النصوص ـ رغم اصالتها ـ فقد تكون مبالغة فى التعبير ، ذلك لانها مدونة من قبـل الدولة التى تعبر بطريقتها عن أحداث تلك الفترة ، ومن ثم فان مقارنة هـذه النصوص بغيرها من النصوص المعاصرة ، انما نعتبر خطوة أساسية فى هذا المجال[٥٨] ، هذا

---

(٥٧) محمد عواد حسين : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٥٨) أنظر كمثال لاختلاف النصوص : معركة قادش التى حدث عام ١٢٨٥ ق.م بين رعمسيس الثانى (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م) وملك الحثيين

وينبغي على الباحث أن يصل فى دراسة اللغات الى مرحلة الاحساس بالتعبير ، وليس مجرد الترجمة الحرفية ، حتى يمكن معرفة ما يرغب الانسان القديم التعبير عنه ، وبذلك يكون أقـــرب الى تأريخ الحقيقة التاريخية .

وهناك فجوات عديدة فى التاريخ ـ بحكم الزمن أو الاحـــداث السياسية التى قد تشوه أو تعدل من حرفية النص لسبب أو لاخر ـ فينبغي على الباحث ملاحظة ذلك ، والتيقن من ملء الفجوات ، والامر كذلك بالنسبة الى بعض الكلمات المكشوطة أو المحرفة التى تكون قد وردت فى النص ، وهنا يجب على الباحث أن يلاحظ كذلك اختلاف التعبير من كاتب الى آخر ، فضلا عن اختلاف الخـــط ، وخاصة فى البرديات المكتوبة بالهيراطيقية والديموطيقية ، فضلا عن الاختلاف فى بعض قواعد اللغة المصرية القديمة فى الدولة القديمة عنها فى الدولة الوسطى ، عنها فى الدولة الحديثة ، عنها فى العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية ، ومن هنا أقر علماء الدراسات القـــديمة تخصصات فى اللغويات ، حتى يتفرغ العلماء لهذه الدراسة الدقيقة من فروع المعرفة المختلفة .

=

«مواتيلا» (١٣٠٦ ـ ١٢٨٢ ق.م) ، وقد ادعى كل منهما أن النصر كان حليفه فيها ، وقد نقش الفرعون أخبار نصره على كثير من دور العبادة فى مصر : فى معبد الكرنك على الحائط الخارجى لصالة الاعمـدة ، وعلى الحائط الخارجى بين الصرحين التاسع والعاشر ، وفى معبد الاقصر اعلى الصرح الاول ، وفى معبد الرمسيوم على الصرح الثانى ، وفى معبد أبو سمبل الكبـــير ، كمـــا ذكر فى ثلاث برديات ، ريفا وساليه وقصائد بنتاؤر (أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦ ، وكذا

A. Burn, in JEA, 7, 1921, p. 194-195.
The Art of War on Land, p. 36-47.
G. Gaball, in JEA, SS, 1969, p. 82-88.
A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832-838.
Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 259-264.
F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 409-410.

وهنا تأتى أهمية علم «قراءة الخطوط» (Palaegraphy) فهو علم لازم لدراسة التاريخ القديم والوسيط ، بل والفترة المبكرة من التاريخ الحديث ، وتبدو أهمية هذا العلم واضحة جلية ، حين يتصدى الباحث لدراسة تاريخ الشرق الادنى القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ العرب القديم ، وغيره من فروع التاريخ المختلفة ، ولو أخذنا مثالا من التاريخ المصرى القديم ، لرأينا أن المصريين فى عصور الفراعين قد استعملوا كتابات ثلاث هى : الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ولما دخلت المسيحية مصر ، أراد أنصارها التخلص من الكتابة الوثنية ــ كما فعل السوريون عندما أطلقوا على لغتهم الارامية اللغة السريانية ــ أو أنهم كانوا فى حاجة الى وسيط لسهولة ترجمة الكتاب المقدس ، مما كان سببا فى ظهور «القبطية» كآخر مظهر للغة المصرية القديمة ، وكانت تكتب بحروف يونانية ، مع اضافة سبعة أحرف من الديموطيقية ، للتعبير عن حروف لا توجد فى اليونانية ، أما الادب القبطى فملىء بكلما تيونانية ، الامر الذى جعل مجمل التركيبات شيئا أقرب الى «الرطانة» منه الى وريث طبيعى للغة المصرية القديمة ، كما سنشير الى ذلك من بعد[٥٨] .

وعلى أية حال ، فما يقال عن الكتابات المصرية القديمة ، يقال أيضا عن الخط العربى القديم ، الذى لايمكن لغير المتخصصين قراءته وتفسيره ومن ثم فقد حرص بعض الباحثين فى التاريخ الوسيط والحديثوالمعاصر على اصدار قواميس مساعدة ، لا تقوم بمهمة الترجمة ، بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الالفاظ والتعبيرات التى كانت شائعة فى عصرما ، ومن ذلك مثلا ، قاموس «دوزى» (R. Dozy) ، وقاموس الاب نخلة اليسوعى (غرائب اللهجة اللبنانية ــ السورية) ، وكتا بالدكتور أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل)[٦٠] .

---

(٥٩) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الاول ــ عصور ما قبل التاريخ ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٥٣ ــ ١٦٢ .

(٦٠) حسان حلاق : المرجع السابق ص ٦٨ .

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أن تعلم اللغات القديمة بالذات أمر فيه الكثير من المشقة والعسر ، ومن ثم فقد أخذ الباحثون الشبان من خريجى الجامعات العربية يبتعدون ـ للاسف عن التخصصات التى تتطلب العلم بهذه اللغات ، وكان من نتائج ذلك تلك الندرة الواضحة فى فروع التاريخ القديم بعامة ، وتاريخ الشرق الادنى القـــديم بصفة خاصة ، ولعل الايام القادمة تزيد من عددهم ـ خاصة بعد أن أنشئت أقسام الاثار فى كثير من الجامعات المصرية والعربية ـ وذلك لأن تعلم اللغات القديمة ليس بالامر المحال ، بل ان الدراسة الجادة على مدى عام واحد لأية لغة ، قد تكفى لوضع أساس طيب للاستمرار وتحصيل المزيد .

٢ ـ **علم الاثار : (Archaelogy)** : وهـــو علم البحث عن أصـــول الحضارات ، حيث الجذور وتشكيل الذات ، وميدانه هو ما أنتجته يد الانسان فى العصور السابقة فى كل مكان ، وهو من علوم التآخى بين الشعوب ، يفسر مراحل الاخذ والعطاء بينهما ، وعن طريقه تستطيع كل أمة أن تتعرف بصدق على منابع شخصيتها وقواعد بنيانها ، ويتكون لديها وعى عملى بتراثها المشترك الذى يحدد مكانتها بين مسيرة الامم.

هذا وتحتل الدراسات الاثارية ، بطابعها النظرى ، وميدانها العملى مكانا بارزا بين الدراسات الانسانية المتكاملة بما تقوم عليه من بحوث فى خصائص العمارة والفنون والصناعات ، وما تؤدى اليه من بحوث فى اللغات والعقائد والتاريخ ، وما تمارسه من بحوث فى المجالات العملية للكشف والتنقيب ، ولا ريب فى أن الاثار بفروعها المختلفة ، هى التاريخ الحى لكل أمة ، وهى الشاهد القائم على ما بدأت به حضارة أهلها ، وما تطورت اليه ، وما أسهمت به فى تاريخ البشرية ، كما أنها التعبير الصادق عن أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم فى كل مرحلة من مراحل تاريخهم[٦١].

---

(٦١) عبد العـزيز صـالح : دليل كلية الاثار ـ جامعـة القاهرة ـ ١٩٧٩ ص ٥ .

ولاريب فى أن تاريخ مصر القديم انما قد كشف عن طريق علم الاثار، حتى أصبحنا اليوم نعرف عن الحيادة العادية فى مصر فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ربما أكثر مما نعرف عنها فى انجلترا فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد ، والأمر كذلك بالنسبة الى السومريين والبابليين والاشوريين والحيثيين ، وقد كانت معلوماتنا عنهم قليلة شحيحة ، غير أننا — عن طريق التنقيب — أصبحنا نعرف عنهم ، ربما كل شىء تقريبا[62] •

هذا ، ونظرا لان علم الاثار انما يتضمن كافة المخلفــات الاثرية للمجتمعات القديمة ، فيشمل المنازل والقصور والمعابد والمقابر والتماثيل والأوانى المختلفة الأنواع والاشكال وغيرها من المخلفات الاثرية ، ومن ثم فقد اتجه علماء الدراسات القديمة الى تحديد اختصاصات الباحثين فى علم الآثار ، فبينما يختص بعضهم بآثار ما قبــل التاريخ ، يختص آخرون بآثار الدولة القديمة وهكذا ، هذا وترتبط دراسة الاثار ارتباطا وثيقا بدراسة النصوص ، وفى أحايين كثيرة تجمع الاثار بين النصوص والعمائر الاثرية ، وكذا الشقف الفخــارية ، ومختلف جوانب المادة الاثرية •

بقيت الاشارة الى أنه لا يوجد حتى الآن حدود واضحة بين علم الاثار والتاريخ ، ومن ثم فعلى الاثارى الاقدر على الملاحظة ، وعلى تسجيل مكتشفاته القيام بتقييمها كمادة تاريخية ، أما اذا لم يكن لديه القدرة على التجميع والتفسير ، فانه يكون قد احترف عملا لم يخلق له، وهنا يكفيه أنه كشف للقارىء العــادى — عن طريق مباشر أو غـــير مباشر — فصولا جديدة فى تاريخ الانسان ، وأخرج من باطن الارض ما يثبت قيام حضارة يانعة فى الماضى ، وأما مادته الاثرية ، فليس من الضرورى أن يتصرف ازاءها وحده، وانما عليه أن ينشرها مفصلة تفصيلا

---

62. Sir Leonard Woolley, Digging up The Past, (Pelican Book), 1967, p. 23-24.

دقيقا ، حتى يتيح لغيره أن يستنتج منها ما يؤيد وجهة نظره فى قضية ما وربما ما يعد ابتكارا جديدا(٦٣) .

(٣) الجغرافيا : لاريب فى أن الارتباط بين التـــاريخ والجغرافيا (Geography) انما هو وثيق الصلة(٦٤) ، فالبقاع ـ كما يقول المقدسى ـ تؤثر فى الطباع ، ذلك لان الارض انما هى المسرح الذى حدثت عليه وقائع التـــاريخ ، فضلا عما للظواهر الجغرافية المختلفة ـ من أنهار وبحار وسهول وجبال وصحارى وغابات وموقع ومناخ وغيرها ـ من أثر كبير فى الانسان ، وبالتالى فى التاريخ ، فهى المؤثر فى تكوين الانسان وفكره وعقائده وملكاته العقلية وفلسفته وأدبه .

وبدهى أنه لاريب فى أن لجغرافية أى اقليم أثرا كبيرا على توجيه مسار تاريخه ، ومن ثم على مصائر أهل هذا الاقليم ، ذلك لان القوم فى أية بيئة من البيئات انما يتفاعلون معها تفاعلا تلقائيا تمليه الطبيعة الجغرافية لهذه البيئة ، ومن ثم يتشكل تريخهم بما يتفق وهذه البيئة، وبالتالى يتحدد مسار تاريخهم /

ولعل من أبرز الامثلة على أثر الطبيعة الجغرافية فى تاريخ قوم من الاقوام ، انما كان فى «مصر» ، فالنيل ـ مثلا ـ هو مصدر حياتها وهو الذى شكل تاريخها ، ووجهه الوجهة التى سار فيها ، لقد تعـــلم منه سكانها ، هندسة الرى ، وأدركوا منه معنى الوحدة والتعاون ، وجعلهم من أغنى شعوب العالم القديم وأسبقهم الى الاخـــذ بأسباب التقدم الحضارى .

وفى الواقع ، فلقد كان فيض النيل صاحب الزمنم فى الحياة المصرية ومفتاحها ، به تكون الزراعة التى تمير أهلها عامهم كله ، ومنه تعلموا

---

63. Ibid., p. 136-137.

(٦٤) انظر
H. B. George, The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.

ــ منذ أقدم العصور ــ ادخـــار الحصيد ، والقصد فى انفاقه ، حتى يعود الفيض الجديد،فلقد أعثرتنا الحفائر منذ حضارات العصر الحجرى الحديث فىمصر على مواضع ادخار الغلال ــ كما فى الفيوم ومرمدة بنى سلامة[٦٥] •

هذا الى أن انحباس النيل ، ونضوب موارد الدولة ، انما كان وثيق الصلة بما ينزل بالبلاد من الضعف السياسى ، وتحلل السلطة المركزية، واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد ، وانتشار الجريمة ، ــ مع القحط والجوع ــ شرا مستطيرا ، على أنه من ناحية أخرى ، قد يبالغ فى فيضه أحيانا ، فتعظم أمواهه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هـــو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شىء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الارض الا وقد انقضى من أوان البـــذر وقت ، قد يكون على أيام الحصاد سىء المسبغة ، وان لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء •

والتاريخ يحدثنا أنه ما من بلد فى العالم ، تتوقف حياته ووجوده، بنهر مثلما تفعل مصر والنيل ، ومن هنـــا كان اهتمام المصريين بشئون الفيضان شديدا ، وقد هداهم تفكيرهم الى اقـــامة مقاييس للنيل فى جهات بعينها ، مثل «اليفانتين» (جزيرة أسوان) ، ومنف ، وكلفـــوا بمراقبتها أشخاصا يقرأون المقاييس،ويرسلون الرسل الى المدن المختلفة يبلغونها مقدار ارتفاع النيل أو انخفاضه •

هذا وقد ساعد النيل على تضافر الجهـــود المشتركة ، اتقاء لخطر الفيضان الداهم الذى يهدد الجميع ، وأملا فى الفائدة المشتركة التى ينالها القوم ، اذا ما نظموا الافادة من مياه النهر ، وكان هـــذا العمل يتطلب جهودا جبارة من جانب الجماعة ، واشرافا دقيقا من هيئة عليا

---

(٦٥) انظر مطامير الغلال فى الفيوم أ (محمد بيومى مهران : مصر ١/٢٢٢ ــ ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، وكذا

G. Caton - Thompson and E. A. Gardiner, The Desert Fayum, London, 1934, p. 41, 91.

H. Junker, Merimde-Benisalame, III, V, Vienne, 1933, p. 5 F.

حاكمة ، الامر الذى أدى الى توحيد الجهود ، وقيام التضامن التام بين أفراد المجتمع المصرى القديم ، بل وقد فرض النظـــام والطاعة على الجميع ، مما استلزم آخر الامر قيام حكومة متحدة شملت مصر كلها حوالى عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد ، وتمضى الايام والسنون ، حتى تقوم فى مصر أول دولة فى تاريخ العالم ، حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م ، وبذا كانت مصر أول دولة فى التاريخ قاطبة تكاملت فيها عنـــاصر الامة بمعناها الصحيح ، وبعدها كانت «أول دولة» موحدة بالمعنى السياسى المنظم ، تظهر على مسرح العالم القديم(٦٦) .

ولم يكن النيل وحده من أثر العوامل الجغرافية على مصر ، ذلك لان مصر بعزلتها فى اطار من صحراوات لا تحد ، ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها ، ولكنها موانع طبيعية لا يمكن التغلب عليها ، اذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقهـــا فى فيافيها ، وهكذا حبت الطبيعة مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها ، ففى الجنوب كانت الجنادل بمثابة حواجز طبيعية تصد هجوم الاقوام الساكنة فى جنوبها ، كما كانت الصحارى ومياه البحر المتوسط تصد هجمات من يسكنون الى الشمال والشرق والغرب منها(٦٧) ، ومن هنا كانت مصر — فى أوائل أيامها — بلدا آمنا لا يهدده خطر الغزو ، ومن ثم فلم يكن ضروريا للمصريين أن يحتفظوا بقوة حربية كبيرة بصفة مستمرة لصد ما عساه أن يحدث من هجوم ، فقد كان القوم يستطيعون أن يروا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة ، فضلا عن أنه كان شيئا بعيد الاحتمـــال أن يتمكن أى شخص مهاجم ، ومعه قوة كبيرة ، من أن يصل الى مصر نفسها(٦٨) .

---

(٦٦) محمد بيومى مهران : مصر ٢٩٨/١ — ٣٠٥ ، جمال حمدان: شخصية مصر — القـاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ — ٢٤٥ ، أحمـد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة — القاهرة ١٩٧٣ ص ٥٥ — ٥٦ .

(٦٧) محمد بيومى مهران ٨٣/٢ — ٨٧ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 33.

68. J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 13, 154.

هذا ، وكان للجغرافيا أيضا تأثيرها الواضح فى حركة الانسان ، وفى علاقاته وقدرته على الانتاج ، وفى نوعية اهتماماته ، فالمنـاخ الحار - مثلا - انما يؤثر على الانسان تأثيرا مختلفا عن المناخ البـارد ، والبلد الذى تتوفر فيه موارد للثروة الطبيعية يختلف عن البلد الذى تنعدم أو تقل فيه تلك الموارد ، والسواحل ذات الموانى الجيدة ، انما تخدم حركة التجارة أفضل من تلك الفقيرة،والبلد الذى تحيط به الجبال من جوانب مختلفة انما يقل تأثره بالمؤثرات الخارجية عن ذلك البلد الذى يتيح له موقعـه احتكاكا فعالا ومباشرا ، الى غـير ذلك من الامثلة المختلفة(٦٩) .

والواقع أن دراسة الجغرافيا التاريخية والسياسية والاقتصادية هى التى تمكننا من فهم الاحداث التاريخية والاشراف عليها ، وربطها بعضها ببعض ، وادراك ما بينها من علاقات بعيدة المدى(٧٠) .

٤ - **الاقتصاد** (Economics) : وهو من العـلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، ذلك لان العوامل الاقتصادية ذات تأثير فعـال فى دراسة التاريخ ، فهى تؤثر فى مستوى الرخاء أو الفقر ، وفى السياسة الداخلية والخارجية ، ونظام الحكم ، وفى علاقة طوائف المجتمع بعضها بالبعض الاخر ، وفى مستوى العمران ونهوض الحضارة أو تدهورها .

ومن هنا ينبغى للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد (Economics) المـاما يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية على مسار التاريخ ومثالنا فى ذلك : ما يذهب اليه بعض المؤرخين من أنه من الاسباب الهامة لضياع الامبراطورية المصرية بعد عصر «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق٠م) ، أن مصر لم تكن تملك مصدرا وطنيا لمعدن الحديد ، ومن ثم فبينما دخل العالم القديم فى عصر الحـديد ، بقيت مصر فى عصر

---

(٦٩) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٣١ - ٣٢ .

(٧٠) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٥ .

البرونز ، وهكذا استطاع العالم القديم أن ينتج لقرون عدة أسلحة من الحديد ، وأن يطور وسائله الحربية والزراعية والصناعية طبقا لذلك ، مما جعل من الصعب على مصر أن تحتفظ بامبراطوريتها ضد المنافسة الهائلة .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن بسط النفوذ المصرى والسيطرة المصرية على البلاد شرقى البحر المتوسط ، انما يتفق والعصور التى كان فيها النحاس هو المعدن الاساسى فى أهميته ، ولكنها لم تمتع بمثل ذلك فى عصر الحديد .

وليس هناك من ريب فى أن معظم الثورات ، فضلا عن الحروب، انما كانت لها أسباب اقتصادية ــ كما حدث فى الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية فى أعقاب الاسرة السادسة ، وكذا فى اضراب العمال على أيام «رعمسيس الثالث» ، وهو أول اضراب وصلتنا أخباره فى التاريخ ، وقد حدث فى العام التاسع والعشرين من عهد رعمسيس الثالث (حوالى عام ١١٥٣ ق.م)[٧١] ، والامر كذلك فى التاريخ الاسلامى فالدعوة العباسية وحركة القرامطة ، وحركة الاسماعيلية لم تكن حركات سياسية أو دينية فحسب ، ولكن صلتها بالاوضاع والاهداف الاقتصادية جد وثيقة ، كما أن ثورة الزنج لم تكن حادثا سياسيا فقط ، وانما كانت وثيقة الصلة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت سببا هاما من أسباب تفكك الامبراطورية العباسية ، وتشجيع الحركات الاستقلالية والاقليمية فى بعض أجزائها ، كما أن العوامل الاقتصادية انما تفسر لنا كثيرا من التعديلات التى أدخلها الأمويون فى النظام المالى على يد

---

(٧١) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ــ الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ ، مصر ٣١٥/٣ ــ ٣١٧ ، مصر ــ الجزء الثانى ص ٢٥٦ ــ ٢٦٢ ، وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60-62.
W. C. Hayes, in JEA, 32, 1946, p. 3-23.
E. F. Wente, in JNES, 20, 1961, p. 252-257.
J. Cerny, Archiv, Orientalia, 6, 1934, p. 173-178.
J. A. Wilson, in JNES, 10, 1951, p. 137-245.
W. F. Edgerton, Op. Cit., P. 97-100, 274-277.

الحجاج الثقفى ، والتى أعاد الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز» النظر فيها على ضوء سياسته فى العناية بنشر الاسلام ، قبل أى اعتبار آخر ، كما تفسر لنا العوامل الاقتصادية والاجتماعية معظم الاحداث التى أدت الى سقوط الاسرات الحاكمة ، وقيام أسرات أخرى فى التاريخ الاسلامى[٧٢] •

وانطلاقا من كل هذا يقول «هرنشو» : ليس بين الدراسات الاجتماعية التى غدا التاريخ وثيق الصلة بها ، ما هو أشد لزوما للمؤرخ من علم الاقتصاد ، ورغم أن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التى صاغها «ماركس» و «وانجلز» والتى تفسر التاريخ تفسيرا محضا ، الا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دورا بارزا فى جميع عصور النشوء الاجتماعى للعالم ، وبخاصة فى العصور القديمة ، أيام كان الانسان مضطرا الى أن يكافح من أجل وجوده كفاحا متصلا ، أعداء طبيعيين مساوين له ، فى القوة ، وشدة المراس[٧٣] •

٥ ـ الادب (Literature) : لاريب أن الادب انما هو وثيق الصلة بالتاريخ ، فهو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الانسان وعواطفه ، وهو يفصح عن داخل البشر ، ويصور أحلامهم وأمانيهم ، فالادب المصرى القديم ــ على الرغم من قلة ما وصل الينا من آثاره ــ يساعد الباحث فى التاريخ على نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة ، فالبيئة المصرية القديمة ــ بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها ــ قد أوحت الى الكتاب المصريين القدامى بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة ، فكتبوا عن معبوداتهم ، وعن تصورهم للعالم الاخر ، ودونوا قصصا خيالية ، وكتبوا فى الأدب التعليمى لتهذيب الأبناء والتلاميذ •

ومن ثم فلابد لكاتب التاريخ أن يتذوق الشعور ، لكى يفهم ملكة

---

(٧٢) سيدة الكاشف : المرجع السابق ص ٦ •

(٧٣) هرنشو : علم التاريخ ـ ترجمة عبد الحميد العبادى ـ بيروت ١٩٨٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ، فتحى عثمان : التاريخ الاسلامى والمذهب المادى فى التفسير ص ٢٢ ـ ٢٣ •

الخلق والابتكار، وأن يقرأ كذلك شيئا من النصوص الأدبية ، لكى يتعلم منه كيفية عرض موضوعاته ، وابراز الحوادث الهامة، وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية ، ووضع التفاصيل والجـزئيات فى المكان الملائم ، واحكام الموضوع الذى يدرسه ، واثارة انتباه القارئ وجعله قادرا على استيعاب ما يقدم اليه وتذوقه .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك — مثلا — من عصور التاريخ المصرى القـديم — وأعنى به عصر الثـورة الاجتمـاعية الاولى[٧٤] — انما يعتمد على مصادر أدبية ، أكثر منها أثرية ، ذلك لان هذا العصر — بقدر ما ضن على المؤرخين بمصادره الاثرية ، فقد منحهم قدرا من الأدب يكاد يعطينا صورة شبه كاملة عن الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ مصر القديم ، ومما يزيد فى أهمية هذه المصـادر الادبية أنها تمثل تفكير الشعب كله — حاكميه ومحكوميه — ذلك لان الحاكمين قد كتبوا بعضها ، كما كتب المحكومون البعض الاخر، وان كان للمحكومين نصيب كبير مما كتب[٧٥] .

وليس هناك من ريب فى أنه كان للتطور الاجتماعى والتغير السياسى الذى صحب عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، أثر واضح على الادب ، نلمسه فى الاسلوب المختلف للقصائد ، وفى ظهور نوع جديد من الأدب، هو «أدب النقد والسياسة» ، ومن ذلك آراء الحكيم المصرى «ايبور — ور» فى تحذيراته المشهورة[٧٦] ، التى تحدث فيها عن الاضطراب الخلقى والفوضوى فى المجتمع ، مما مهد السبيل لنوع آخر من الشعر والنثر يتحـدث عن اليأس والعـزلة[٧٧] ، وفى العصر الاهناسى بدأ الملوك

---

(٧٤) محمـد بيومى مهران : الثـورة الاجتماعيـة الاولى فى مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ .

(٧٥) نفس المرجع السابق ص ٤ — ٢٣ .

76. A. H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909, (1969).

(٧٧) أنظر : بردية اليائس من الحياة : (محمـد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٠ — ١٢ ، وكذا

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 406-407.

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 86-92.

المصريون يقدمون لأولياء عهودهم خلاصة تجاربهم السياسية ، حتى يكون لهم من التجارب التى عاشها الآباء ، ما يفيدهم فى ادارة شئون البلاد ، ومن ذلك تلك النصائح التى وجهت الى الملك «مرى كارع»[٧٨]، ذات المضمون السياسى والاخلاقى ، وقد صيغت فى أسلوب أدبى رائع، حتى اعتبرها القوم من المأثورات التى يحفظها تلاميذ المدارس[٧٩] •

ولا ريب فى أن الادب المصرى القديم انما يمثل أكثر اتجاهات القوم فى الحياة أصدق تمثيل ، كما يؤكد لنا أن المصريين القدامي ان لم يكونوا قد وضعوا الاساس الاول فى بناء الفكر الانسانى الرفيع ، فانهم كانوا من أئمة الناس فى ذلك[٨٠] •

وعلى أية حال ، فلقد عالج القـــوم فى آدابهم نواحى مختلفة من الادب ، فكتبوا فى المواعظ وآداب الســـلوك ، وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة ، وضمنوها الامثال والحكم الخالدة على مر الايام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات فى الاصلاح السياسى لعلاج ما تفشى – فى فترة ما – من مساوىء ، وما حل بالمجتمعات من نكبات ، وصنفوا الرسائل فى المناسبات والاغـــراض المختلفة – فى التهانى والتواصى والتمنيات والتراجى والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من – مطالب الحياة ومقاصدها – وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر انما هى موطن القصة القصيرة ، وصاغـــوا الاناشيد ، وألفوا الاغانى والتمثيليات الدينية •

على أن هناك كثيرا من النصوص الادبية المصرية لم تقتصر أهميتها

---

78. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 414-418.
Erman, Op. Cit., p. 75-85.
M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975, p. 97-109.

(٧٩) محمد بيومى مهران : الحضـــارة المصرية القديمة – الجزء الاول – الادابه والعلوم – الاسكندرية ١٩٨٩ ص ١٠ – ١١ •

(٨٠) احمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربيةوالتعليم فى مصر – الجزء الاول – العصر الفرعونى – القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٠ •

على كونها تراثا أدبيا فحسب ، بل انها تقدم لنا بعدا انسانيا للحضارة المصرية القـــدمية التى لا يعرف عنها الشخص العادى ، سوى المقابر والتوابيت والتماثيل ، بل ان كثيرا من الناس انما كانوا يعتقدون ـ الى عهد قريب ـ أن حضارة مصر الفرعونية ليست الا حضارة مادية فى الدرجة الاولى ، وأن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة ـ من الاهرامات والمعابد والمسلات وغيرها من الاثار المصرية ـ ليست الا رمزا للاستعباد والسخرة[81] .

هذا وقد عرف المصريون القدامى كذلك الأدب الروحانى وسموا فيه الى قمم عالية ، وفى أشعار اخناتون أبلغ دليل على ذلك[82] ، كما عرفوا أيضا شعرا تغلب عليه النزعة الفلسفية ، وبعث بصورة رمزية فى رحلة الانسان بين الميلاد والحياة .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الادب الجاهلى انما هو مصدر هام من مصادر التاريخ العربى القديم ، ذلك لان أيام العرب فى الجاهلية ـ مثلا ـ انما تعتبر مصدرا خصبا من مصادر التاريخ ، وينبوعا صافيا من ينابيع الأدب ، ونوعا طريفا من أنواع القصص ، بما اشتملت عليه من الوقائع والاحداث ... فهى توضح شيئا من الصلات التى كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الامم كالفرس والروم ، وتروى كثيرا مما كان يقع بين العرب أنفسهم من خلاف ، بل انها سبيل لفهم ما وقع بين العرب بعد الاسلام من حروب شجرت بين القبائل ، ووقائع كانت بين البطون والافخاذ والعشائر ، ثم هى فى أسلوبها القصصى ، وبيانها الفنى ، مرآة صادقة لاحوال العرب وعاداتهم ، وأسلوب حياتهم وشأنهم فى الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة ، والنجعة والاستقرار ، وهى أيضا مرآة صافية تظهر فيهـــا فضائلهم وشيمهم ، كالدفاع عن

---

(٨١) محمـد بيومى مهـران : الثورة الاجتماعيـة الاولى فى مصر الفرعونية ص ٢ .

(٨٢) انظر عن أشعار اخناتون (محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٥٩ ـ ٣٨٢ .

الحريم ، والوفاء بالعهد ، والانتصار للعشيرة ، وحماية الجار، والصبر فى القتال ، والصدق عند اللقاء ، وغير ذلك مما نراه واضحـــا فى تلك الايام[٨٣] .

وعلى أية حال ، فالشعر الجاهلى دونما ريب ، انما هو مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقديما قالوا : ان الشعر ديوان العرب ، يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم، وان شئت فقل : انهم سجلوا أنفسهم فيه ، كما نستطيع أن نستدل به على جغرافية شبه الجزيرة العربية وما فيها من بلاد وجبـــال ووديان وسهول ونبات وحيوان ، فضلا عن عقيدة القوم فى الجن والاصنام وفى الخرافات[٨٤] .

وهكذا يروى «ابن سيرين» عن الفاروق عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، قوله «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[٨٥]، وقريب من هذا ما يروى عن عكرمة ــ تلميذ ابن عباس ومولاه ــ «أنه ماسمع ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل ، الا ونزع فيها بيتا من الشعر ، وأنه كان يقول : اذا أعياكم تفســير آية من كتاب الله ، فاطلبوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب ، به حفظت الانساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله، وغريب حديث رسول الله ﷺ وغريب حديث صحابته والتابعين[٨٦] .

ومن ثم أصبحت كتب الادب من المصادر الهامة فى التاريخ العربى

(٨٣) محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرم فى الجاهلية ــ القاهرة ١٩٤٢ ص ط ــ ى .
(٨٤) أحمد أمين : فجر الاسلام ــ ببوت ١٩٦٩ ص ٥٧ .
(٨٥) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ــ القاهرة ١٩٥٢ ص ١٠ .
(٨٦) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ــ ٦٧/١ ــ ٦٨ ، ٦٦٣/٨ ، جلال الدين السيوطى : المزهر فى علوم اللغة ــ القاهرة ١٩٤٢ ــ ٣٠٢/٢ ، ٤٠٧ ، الاتقان فى علوم القرآن ــ القاهرة ١٢٧٨هـ ــ ٥٢/٢ ، التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٣/١ .

القديم ، ففيها ثروة أدبية قيمة ، قد لا نجد لها مثيلا فى كتب التاريخ، وأن ما جاء بها عن ملوك الغساسنة والمناذرة وكندة ، أكثر مما جاء فى كتب التاريخ ، بل هو أحسن منه عرضا وصفاء ، ويدل عرضه بالاسلوب الادبى المعروف ، على أنه مستمد من موارد عربية صافية ، لم يعكر هذا الصفو شوائب من اسرائيليات ونصرانيات ، فضلا عن أنه أخذ من أفواه شهود عيان ، شهدوا ما تحـدثوا عنه ، بل نستطيع أن نذهب بعيدا ، فنقول : ان كثيرا من الاخبار ماتت لموت الشعر الذى قيل فى مناسبتها، فى حين أن أخبارا خلقت خلقا ، لان ما قيل فيها من شعر كان سببا فى بقائها ، ومن ثم فقد أصبح الشـعر سببا فى تخليد الاخبار ، لسهولة حفظه ، ولاضطرار رواته الى قص المناسبة التى قيل فيها[٨٧] .

على أن للادب الجاهلى ، كمصدر لتاريخ العرب فيما قبل الاسلام، عيوبا منها (أولا) أنه لا يرجع الى أكثر من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ما قبل الاسلام ، يقدر له زمنا يتراوح بين قـرن ونصف ، وقرنين ونصف قبل ظهور الاسلام مباشرة ، بينما قدر العلماء لعصور ما قبل الاسلام مدة ربما تتجاوز العشرين قرنا ، تمتد من حوالى ١٥٠٠ ق.م ، الى ٦١٠م[٨٨] ، ومنها (ثالثـا) أن ما روى لنا منه انما يمثل المختارات ، وهم فى هذا ينظرون اليها نظرة الاديب ، لا نظرة المؤرخ، فالقصيدة التى لم يحكم نسجها ، ولم تهذب ألفاظها ، ولم يصح وزنها، قد يعجب بها المؤرخ أكثر من اعجابه بقصيدة كاملة من جميع نواحيها ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية ، أكثر من قصيدة راقية[٨٩]،ومنها (ثالثا) أن الشعر الجاهلى لا يتحدث عن التاريخ السياسى ، بقـدر ما يتحدث عن التاريخ الدينى والاجتماعى .

ومنها (رابعا) أن الشعر الجاهلى قد تعرض للضياع بتركه يتناقل

---

(٨٧) جواد على : المرجـع السابق ٧١/١ ، ٧٣ ، دائرة المعـارف الاسلامية : مادة تاريخ ص ٤٨٤ .

(٨٨) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٩ .

(٨٩) أحمد أمين : المرجع السابق ص ٥٧ .

على ألسنة الرواة شفاها نحو قرنين الى أن دون فى تاريخ متأخر[٩٠]، حتى أن أبا عمر بن العلا قال : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقلة، ولو جاءكم وافرا ، لجاءكم علم وشعر كثير[٩١] ، ومنها (خامسا) أن معظم ما وصلنا من الشعر ، انما كان من عمل البدو ، وليس الحضر ، ومن ثم فهو يمثل البادية أكثر مما يمثل الحاضرة[٩٢] ، ومنها (سادسا) أن هناك مجالا للظن — على خلاف الشائع — أن العلماء قد خففوا — مدفوعين بالعامل الدينى — من الطابع الوثنى فى بعض القصائد،كما أن الأفراط فى الحرص على صحة اللغة وصفائها فى أوساط البصرة،قد أدى الى اجراء بعض التصحيحات فى الاثار المروية[٩٣]،ومنها (سابعا) أنه حتى هذا الشعر القليل الذى وصل الينا منه انما توجه اليه سهام الريب من كل جانب ، وليس بالوسع القول بأنه يرقى الى ما فوق مظان الشبهات ، ذلك أن كثيرا من الرواة قد تجرأ عليه بالنحل ، أما بنقل شىء من قائل الى قائل ، وأما بوضع شىء منه على ألسنة الشعراء[٩٤].

بقيت الاشارة الى أن هناك ثمة وجه آخر لموضوع العلاقة بين التاريخ والادب ، فالمؤرخون لا يشاركون فى الادب مشاركة مباشرة

---

(٩٠) طه حسين : الادب الجاهلى — القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٤ .

(٩١) محمد بن سلام الجمحى : المرجع السابق ص ١٠ .

(٩٢) القرشى : جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ .

(٩٣) ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى — العصر الجاهلى — بيروت ١٩٥٦ ص ١٣٥ .

(٩٤) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية — بيروت ١٩٦٤ ص ١٨ .

وانظر عن الشك حول الادب العربى (طه حسين : المرجع السابق ص ٧١ — ٧٣ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١١١ — ٢١٧ ، عباس محمود العقاد : مطلع النور — أو طوالع البعثة المحمدية — القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٨ — ٤٩ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٩ — ٥٢ ،

W. Muir, Ancient Arabic Poetry, in JRAS, 1875.

C. Lyall, Translation of Ancient Arabia Poetry, London, 1885.

D. S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, in JRAS, 1925, p. 417-449.

Giorgio Levi Della Vida, Pre-Islamic Arabia, The Arab History, New Jersy, 1944, p. 541-544.

فحسب ، بل ان المعلومات التاريخية انما تدخل في تقويم الادب بدرجات متفاوتة ، وربما كان أقل دخولها في الشعر البحت أو في الدراما ، وأكثر دخولها في الادب السياسي ، حيث يتقيد موضـــوع الكتابة بالتاريخ ، فضلا عن القصة ، هذا ـ وكما أشرنا من قبـــل ـ فان اشتراك كلمة التاريخ وكلمة القصـــة في أصل واحد في اللغـــة الانجليزية (التاريخ History القصة Story) انما يدل على أن القصـــة انما هي عصب التاريخ[٩٥] •

٦ ـ الفنون والعمارة : وهذه العلوم لابد وأنها تساعد على تفهم تاريخ العصر ، فالفنون جميعها تعكس صورا دقيقة للحضارة ، وتبين كثيرا من قضايا أهلها ، ومن حياتهم الواقعية ، ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم ، كما تعكس هذه الفنـــون القيم التي يؤمن بها أصحاب تلك الحضارات •

٧ ـ علم النفس : وهو من العلوم المساعدة التي يحتاجها المؤرخ ، فدراسة العوامل النفسية ، والنوازع البشرية ، ومحاولة التوصل الى المكونات النفسية لشعب من الشعوب أو جماعة من الناس ، انما تساعد دونما ريب ، في فهم كثير من الاحداث التاريخية ، هذا فضلا عن صعوبة التأريخ للشخصيات التاريخية الهامة ، دونما دراسة جادة للعـــوامل النفسية التي كونت هـــذا الزعيم أو ذلك ، والمؤثرات المختلفة التي شكلت فكره وميوله •

(٨) علم الاجتماع : يذهب «لويس نماير» الى أن موضوع الدراسة في التاريخ انما هو الشئون الانسانية ، وأفعال الناس ، والأشياء التي وقعت وكيفية وقوعها ، والاحداث الملموسة مرتبطة بزمانها وجذورها في تفكير الناس ومشاعرهم ، دون أن يعني بالاشياء العامة وبالعموميات،

---

(٩٥) أ• ل• راوس : المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨ •
(٩٦) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٣٢ ـ ٣٣ •

فالاحــداث تنطوى على تغيير وتنوع مثلها فى ذلك مثل أولئك الذين دونوها ، وتلك أمور تتصل بعلم الاجتماع ، كما تتصل بالتاريخ ، غير أن استخدام مفاهيم علم الاجتماع فى الدراسة التاريخية لا تجعل من المؤرخ عالما اجتماعيا ، ولكنها تمنحه القدرة على تنظيم المادة التاريخية وتنسيقها ، كما تزيد من قوة تفسـيراته وتأويلاته السببية ، وهكذا فالتعرف على نتائج العلوم الاجتماعية قد يجعل مؤرخا بذاته أكثر قدرة من غيره على جمع معلومات متصلة اتصالا أوثق بمشكلات بحثه[٩٧] .

ومع ذلك فعلم الاجتماع — رغم أهميته للمؤرخ — لا يقـدم له تحليلات محددة يضمنها فى تحليلاته ، مثلما يطـرح التاريخ الاحداث والشواهد أمام علم الاجتماع ، وان كان علماء الاجتماع يعملون على تعميق البحوث التاريخية عن طريق تنبيه المؤرخين الى المزيد من فحص العوامل المؤثرة ، طالما أن الشواهد المستخلصة من البحوث الاجتماعية توحى بذلك ، وان كان هذا لا يعنى تصديق قضايا البحوث الاجتماعية تصديقا مطلقا على الماضى ، أو أنه من المحتم أن تتحقق نفس العلاقة بين المتغيرات ، وعلى أية حال ، فهناك من المفاهيم ما يفيد المؤرخ مثل «مفهوم الاطار المرجعى» Frame of Reference و «الجماعة المرجعية» Reference Group واللذين يتضمنان الافتراض القائل بأن فهم سلوك الافراد والجماعات يقتضى الرجوع الى الاطار الاشمل الذى يثير هذا السلوك ويشكله ، وليس هناك من ريب فى أن المؤرخ — ان كان يهدفه الى فهم الظاهرة التاريخية فهما كليا دقيقــا — فعليه أن يضع سلوك الافراد والجماعات التى يؤرخ لها داخل الاطــار المرجعى الذى يكون مسئولا عن وقائع وأحداث سلوكية ، كما أنه هو الذى يجعل هذه الوقائع والاحداث مفهومة ، وتبدو هذه المفاهيم ذات فائدة محققة للمؤرخ الذى يتناول دراسة القادة السياسيين ، حيث يحصل المؤرخ على معلومات

---

(٩٧) انظر : محمد على محمد : المرجع السابق ص ١٤٣ — ١٤٧ .

L. Namier, History and Political Culture ..., New York, 1956, p. 372.

تفصيلية تتناول الجماعات المرجعية التى أسهمت فى سلوك هؤلاء القادة[٩٨] .

هذا ويذهب «ريكمان» فى دراسته عن المدخل التاريخى وصلته بالعلوم الانسانية الاخرى أن هذا المدخل يعتمد أساسا على فهم التعبيرات والمظاهر المختلفة بالنظر اليها فى سياق تاريخى أو زمنى ، ثم انه يسعى الى فهم السياق الكلى للاحداث حينما ينتقل من تعبير أو مظهر الى تعبير ومظهر آخر ، ويعتقد «ريكمان» أن المدخل التاريخى بهذا المعنى انما يستخدم فى الدراسات التاريخية المتخصصة ،كما هو مفتاح للافادة منه فى كل العلوم الانسانية ، فضلا عن العلوم الطبيعية ، كما أن تسجيل بعض التجارب العلمية قد يقوم بنفس الدور فى الفيزياء أو الكيمياء ، وهكذا يطبق المدخل التاريخى على موضوع خاص بعلم ما أحيانا ، كدراسة تاريخ الحالة فى علم النفس ، وعلى النتائج الخاصة بالدراسات التاريخية والملائمة لتاريخ الاقتصاد ، ولتاريخ النظريات الاجتماعية ، وانطلاقا من هذا المنهج القائم على فهم التعبيرات الانسانية المختلفة فهما تفسيريا كليا ، فان حياة الافراد بالنسبة لمنهج «ريكمان» تمثل اهتماما ثابتا ، ولذلك نجده يؤكد ان التاريخ والشواهد التاريخية المستخدمة فى العلوم المتفاوتة لها أهمية خاصة فى الدراسات الانسانية[٩٩] .

بقيت الاشارة الى أن مصطلح «التاريخ الاجتماعى» Social History انما يشير الى دراسة التغير الذى يطرأ على شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتطور النظم الاجتماعية ، والتحول فى المفاهيم والقيم الاجتماعية ، ويرتبط هذا المصطلح بمصطلح «التاريخ الاقتصادى» Economic History وكلاهما نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح

---

98. S. M. Lipset and R. Hofstadter, Sociology and History Methods, N. Y., 1968,

(٩٩) محمد على محمد : المرجع السابق ص ١٤٨ – ١٥١ ، بول ريكمان : منهج جديد للدراسات الانسانية ، ترجمة على عبد المعطى ومحمد على محمد – بيروت ١٩٧٨ ص ٢٦٧ – ٢٧٤ .

التاريخ السياسي ، وتاريخ الحكومة والدولة ، وقد وضع أصول التاريخ الاجتماعي كل من «ابن خلدون» و «فيكو» ، وسوف نناقش آراء ابن خلدون فيما بعد ، أما «فيكو» فقد نجح في تحويل الاهتمام في التاريخ السياسي من الحروب والمعاهدات الى دراسة العادات والقوانين والانظمة الاقتصادية والاجتماعية والفنون والديانات والعلوم والأفكار .

وفكرة مفهوم التاريخ الاجتماعي عند «فيكو» هي نظرية التطور ذات المراحل الثلاثة : الاولى : المرحلة الدينية ، وتتميز بسيطرة التفكير الديني واللاهوتي ، والثانية مرحلة عهد البطولة : وتتميز بسيطرة ذوى القدرات العقلية الذين يرفعهم الناس الى أعلى المراتب ويخضعون لحكمهم وسيادتهم ، والمرحلة الثالثة : مرحلة الانسانية ، وهي عهد الحرية والحقوق السياسية والمدنية ، وبذا تميزت بالحكومة الديمقراطية ويهدف الدين هنا الى رفع المستوى الاخلاقي العام ، والقيمة الموجهة للسلوك هنا ، هي قيمة الواجب ، واحترام الطبيعة الانسانية[100] .

٩ — وهناك علوم مساعدة أخرى ، كالمنطق وفلسفة التاريخ وعلم الاجناس والقانون والنظريات السياسية وعلم الاحصاء والرياضة والفلك والنبات والحيوان ، فكل تلك العلوم انما تفيد في البناء التاريخي لموضوع الدراسة التاريخية ، وفي عقد المقارنة وتفسير الظواهر ، بحيث تخرج الدراسة متكاملة ، والبحث وافيا .

هذا ومن النواحي الهامة لمن يرغب في دراسة التاريخ وكتابته ، أن يعرف صورة عامة ، على الاقل عن التاريخ العام ، ومن ثم فعليه أن يقرأ بعض مختارات من بعض كتابات المؤرخين ، القدامى منهم والمحدثين هذا فضلا عن أنه من الامور الاساسية للمؤرخ ، ألا يلتزم حدود بلده ، بل ينبغي عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، وأن يقضى

---

(١٠٠) محمد على محمد : المرجع السابق ص ١٥٢ — ١٥٤ ، وكذا
G. Vico, The New Science of G. Vico, Trans. by Bergin and Fisch, New York, 1948.

فترة ، أو فترات متعددة ، فى البلد الذى يدرس نواح مختلفـــة من تاريخه •

هذه هى ــ بايجاز ــ أهم العلوم المساعدة التى تســـاعد المؤرخ لدراسة التاريخ القـــديم ، وهى دونما ريب ، تعطينا فكرة موجزة عن الثقافة الواسعة التى يتعين على المؤرخ أن يزود نفسه بها ، وبدهى أننا لا نطالب المؤرخ بالدراسة المتعمقة فى كل هذه العلوم المساعدة ، فذلك أمر صعب ، ان لم يكن مستحيلا ، وانما نطالبه فقط بالالمام بها ، الماما يساعده على انجاز دراسته على خير وجه ، وبدهى أيضا ، أنه لابأس من أن يتعمق فى ناحية بذاتها من هذه الدراسات تكون لها صلة وثيقة بموضوع بحثه التاريخى •

الفصل الخامس

كتـــابة الرسائل الجامعيـة

مراحل كتابة الرسالة

يحتاج طالب الدراسات العليا – الماجستير (M. A. Thesis) والدكتوراة (Doctorate) – الى اعداد رسالة علمية تعتبر من متممات الدراسة العليا فى الجامعات التى تعتمد على «الكورسات» Courses و «الرسائل» (Thesis) ، كما تعتبر الوسيلة الوحيدة لذلك فى الجامعات التى تعتمدها وحدها دون نظام «الكورسات» والرسالة – فيما يرى «آرثر كول» (Arthur Cole) – «تقرير واف يقدمه بحث عن عمل تعهده وأتمه ، على أن يشمل التقرير كل مراحل الدراسة ، منذ كانت فكرة حتى صارت نتائج مدونة ومرتبة ومؤيدة بالحجج والاسانيد»[1].

وهى – على أية حال – اما أن تكون تحقيقا لمخطوطة ، أو بحثا فى موضوع معين ، والمعروف أن الجامعات عادة تعد طلبة الماجستير خلال السنة التحضيرية (التمهيدية) التى تسبق تسجيل الرسالة ، ليكونوا مؤهلين لكتابة الرسالة ، ويتم ذلك عن طريق تكليفهم بكتابة بحوث صغيرة محددة ، وفق قواعد منهج البحث العلمى ، وغالبا ما تكون هذه البحوث متنوعة ، بغية أن يطلع الطالب على مصادر تخصصه المختلفة ، ويتعرف كيفية استعمالها ، والافادة منها ، وليمارس منهج البحث العلمى بصورة محددة ، ولاريب فى أن نجاح الطالب فى كتابة هذه البحوث انما هو الدليل على قدرته على كتابة الرسالة ، ذلك لان الرسالة ستكتب على طريقة نفس البحث المحدد ، وطبقا للمنهج العلمى ، وان كانت على نطاق أوسع ، فضلا عن أنها ستبين بوضوح مدى افادة الطالب من بحوثه المحدودة التى أعدها طوال السنة التحضيرية .

وعلى أية حال ، فالمعروف – أنه رغم فائدة المواد العلمية التى يتلقاها طلاب الدراسات العليا فى السنة التمهيدية ، بغية تعميق

---

(١) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٥ .

تخصصهم ، وتوسيع اطلاعهم فى موضوعت أبحاثهم ومصادرها ، فضلا عن ابراز شخصية الواحد منهم ، وتنمية مواهب النقد عنده ، ومعالجة جوانب النقص فى ثقافته العلمية ومادته اللغوية ــ فان الاهتمام الاساسى يجب أن يوجه نحو البحوث التى يقوم بها الطالب ، باشراف الاساتذة المختصين Supervisors ذلك لان اغفال البحوث الصغيرة المعدة وفق المنهج العلمى ، انما يجعل الطالب غير مؤهل لكتابة الرسالة ، ويعرضه فى الغالب الى الفشل[٢] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا ــ وقبل أن نتحدث عن كتابة الرسالة الجامعية ــ أن نشير الى أمرين : الواحد : أن الطالب وحده هــو المسئول عن رسالته ، ولا ينبغى أن يظن أن أستاذه يشاركه أية مسئولية ، كما لا ينتظر أن يدافع عنه أستاذه عند نقاش نقطة ما ، ولو أقرها الاستاذ عند الاعداد ، فالاستاذ المشرف انما يفرق تماما بين كونه مشرفا ، وبين كونه ممتحنا .

والثانى : أنه من العدالة ألا يخــرج الاستاذ المشرف Supervisor الرسالة التى يشرف عليها مصبوغة بروحه وعلمه ، بل أن تصبغ بروح الطالب وجهده ، حتى يمكن التفاوت العــادل بين الرسائل التى يعدها طلاب متعددون ، متفاوتو المواهب ، تحت اشراف أستاذ واحد[٣] .

وأما مراحل كتابة الرسالة ، فيمكن ايجازها فى النقاط التالية :

أولا : إختيار موضوع البحث . ثانيا : وضع خطة البحث .

ثالثا : أعداد ببليوجرافيا للموضوع رابعا : جمع المادة العلمية .

خامسا : نقد المادة التاريخية . سادسا : اثبات الحقائق التاريخية

سابعا : العرض التاريخى . ثامنا : ملاحق البحث التاريخى .

---

(٢) إكرم ضياء العمرى : دراسات تاريخية ، مع تعليقه فى منهــج البحث وتحقيق المخطوطات ــ المدينة المنــورة ــ الجامعــة الاسلامية ــ ١٩٨٣ ص ١٣ ــ ١٤ .

(٣) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٢٢ ــ ٢٣ .

تاسعا : الحواشى أو الهوامش • عاشرا : طريقة كتابة المصادر والمراجع
حادى عشر : تنظيم الرسالة الجامعية •

أولا ـ اختيار موضوع البحث : يختلف اختيار موضوع البحث باختلاف وضع الراغبين فيه ، فمثلا طالب الجامعة المبتدىء فى التخصص لا يستوى مع طالب الدراسات العليا الذى أنهى دراسته الجامعية وبدأ يتطلع للحصول على درجة الماجستير فالدكتوراه ، وكلاهما لا يستوى مع المتخصص الكبير أو الاستاذ الذى أمضى حياته فى كتابة الابحاث التاريخية •

وعلى أية حال ، فان أول ما يواجه طالب الدراسات العليا هو اختيار الموضوع الذى يسجله لرسالة الماجستير أو الدكتوراه ، وفى الواقع أن اختيار الموضوع الصالح ليس عمـــلا سهلا ، بل يحتاج الى الاطلاع الواسع المتخصص ، ذلك لان الموضوع المختار انما يقرر غالبا نجاح أو فشل الطالب فى كتابة الرسالة فى الوقت المحدد ، وقد يتعثر الطالب فى دراسته ، ولا يستطيع انجازها ، بسبب عدم اختيار الموضوع الملائم، وأحيانا يتمكن من انجازها ، ولكن بعد الوقت المحدد بفترة طويلة ، وفى العادة يصعب أن ينفرد الطالب باختيار الموضوع الصالح ، ومن ثم فعـــلى المشرف أن يشاركه الرأى ، لان المشرف ينبغى أن يوافق على الموضوع ، وأن تكون له رغبة فى متابعة الطالب وتوجيهه ، ذلك لان الصلة العلمية يجب أن تنعقد بين المشرف والطالب قبل تسجيل الموضوع حتى يكون بينهما تجاوب ، فضلا عن أن يكون هناك تجاوب بين الموضوع وتخصص المشرف واتجاهاته(٤) •

وعلى أية حال ، فان اختيار موضوع البحث مشكلة تواجه الباحث

(٤) اكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ١٤ •

فى التاريخ ، اذ أنه ربما ظن أن أهم الموضوعات التى تتصل بتخصصه قد بحثت ، والواقع أن هذه الفكرة لا تتفق مع الحقيقة فى شىء فأغلب الاساتذة يلمسون أن كثيرا من الموضوعات مايزال فى حاجـــة الى من يدرسها ويخرجها للناس ، غير أن الاساتذة انما يحرصون على أن يتركوا للطلاب حرية اختيار موضوعاتهم ، ومن أجل هذا كان على الطالب أن يثابر على حضور محاضرات أستاذه ، وأن يكون على صلة قوية بأساتذة المادة التى تخصص فيها ، يجادلهم ويناقشهم ، وسيصل — ان شاء الله — الى معرفة كثير من الموضوعات التى تستحق الدراسة ، فيختار منها ما يلائمه ويوافق ظروفه[٥] .

وعلى أية حال ، فاختيار الموضوع هو مهمة الطـــالب ، وهى مهمة تحتاج الى ارشاد الاستاذ المشرف وتوجيهه ، على أن يكون الموضوع متصلا بتخصص الطالب ويميل بعض الطلاب الى أن يختاروا للماجستير موضوعا يكون هو أول ما يتصل به ، قابلا فيما بعد لدراسة جديدة ذات طابع أعمق ، وعناصر أوسع ، حتى يصلح للدكتوراه فيما بعد .

وأيا ما كان الامر ، فالمطلوب من الباحث أن يقوم ببحث أصيل مبتكر فى العلم ، وأن يكشف فيه عن حقائق تاريخية جديدة ، فلا يكون البحث فى هذه الحالة ، بناء على الرغبة فحسب ، بل بناء على ما يجب أن يبحث وقد يقال أن الباحث لا يختار الموضوع التاريخى ، ولكن الموضوع هو الذى يختار الباحث .

ولعل من الأهمية بمكان الاشـــارة الى أنه لابد من توفر الاصالة والابتكار والجدة ، والاضافة العلمية فى رسائل الدكتوراه ، ويكفى فى رسائل الماجستير القدرة على جمع المعلومات باستيعاب ونقدها وعرضها بصورة منظمة ، مع مراعاة المنهج العـــلمى بدقة ، ذلك لان الهدف من رسائل الماجستير أن يحصل الطالب على تجارب فى البحث ، تحت اشراف

---

(٥) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

أحد الاساتذة ، ليمكنه ذلك من مواصلة البحث للدكتوراه التى يفرض فيها أن تمنح تجارب أكمل وأوسع ، وأن تكون مساهمة حقة فى النهضة العلمية ، وأن تضيف جديدا للثقافة الرفيعة[٦] ، غير أن طالب الماجستير ان استطاع أن يختار موضوعا يمكنه من تقديم اضافة علمية ، ويحقق له صفة الاصالة والابتكار ، فلا ريب أن ذلك يكون أفضل •

ومن البدهى أن الموضوعات الجديدة التى لم تطرق بعد ، أو تلك التى بحثت بصورة ناقصة ، أو دون منهج علمى ، انما تمكن الطالب من تقديم الجديد والاصيل ، على عكس الموضوعات التى أشبعت درسا وبحثا ، فان البحوث الكثيرة فيها انما تضيق الخناق على الطالب ، وتجعل معظم — ان لم يكن كل — ما يكتبه تكرارا لافكار الاخرين واستنتاجاتهم ، ومع ذلك ، فان امكانية تحقيق الجدة فى بحث الموضوع ، انما يتوقف على لجنة الاشراف والقسم المختص ، أكثر مما يتوقف على الطالب نفسه ، ومع ذلك فان واجب الطالب يكون فى مراجعة الكتب والمقالات ودوائر المعارف والروايات المختصة بالموضوع الذى يؤلف فيه ليكون على بينة من أمره ، فيعرف ما كتب فى موضوعه ، وما يمكن أن يضاف اليه — بصورة تقريبية — كما يلاحظ مستوى الدراسات والابحاث السابقة ، ومكانة مؤلفيها العلمية ، فا نكثرة الدراسات فى موضوع معين لا تعنى بالضرورة أنه قد أشبع بحثا ودرسا •

هذا ومن المعروف ألا يكون الموضوع قد سجل من قبل لرسالة علمية سواء فى نفس الجامعة أو فى جامعة أخرى ، لان ذلك يضيق مجال الجدة والابتكار ، فضلا عن تكرار الكتابة فى الموضوع بنفس المستوى تقريبا ، مما يعتبر اضاعة للجهد العلمى ، غير أن هناك من يبرر هذا التكرار بحجة أن لكل باحث اتجاهاته وطريقة تناوله للموضوع وعقليته وثقافته التى تؤدى الى الاختلاف فى أسلوب ومادة وطبيعة الاستنتاجات ، هذا

(٦) انظر المادة (٩٢) من اللائحة التنفيذية لقانون الجامعات المصرية الصادر بالقرار الجمهورى رقم (٨٠٩) لسنة ١٩٧٥م ، فى ١٠ شعبان ١٣٩٥هـ ، الموافق ١٧ أغسطس ١٩٧٥م •

فضلا عن مضى مدة على مناقشة الموضوع ، وظهور مادة علمية جديدة — كالاكتشافات الاثرية ، أو العثور على مخطوطات أو وثائق جديدة — ومع ذلك فيجب عدم الاقدام على هذه الخطوة ، الا بعد دراسة جادة للموضوع ، والتأكد من أن هناك جديدا يمكن أن يضاف ، فآفاق العلم أرحب من أن يكلف الطالب بأعادة كتابة موضوع سبقه اليه غيره ، وأما كيف يمكن معرفة عدم تسجيل الموضوع فى الجامعات المختلفة ، فإن ذلك انما يتم بمراجعة «دليل الرسائل الجامعية» فى الجامعات المصرية ، بل فى الكليات المتناظرة ، فضلا عن المجـلات العلمية المختصة ، ونشرة التراث العربى التى يصدرها معهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية، وغيرها من النشرات المعنية بذلك،وسؤال الاساتذة المختصين فى الجامعة التى ينتسب اليها الطلاب ، وغيرها من الجامعات الاخرى العربية،وغير العربية .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أنه ليس من الضرورى دائما، تحديد عنوان الموضوع ، منذ بادىء الامر ، ويكفى تحـديد العصر والنواحى التى تصلح موضـوعا للبحث فى نطاق معين ، أما التحديد النهائى فيتم فى الغالب بعد المضى شوطا فى القراءة والبحث ، وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذى سيخصصه لبحث موضوعه وتحديد الوقت التقريبى مرتبط بتحديد الموضوع ، ومن ثم فعلى الباحث ألا يختار موضوعا طويلا ، ذلك لان اختيار ناحية أو مسألة معينة يمكنه من انجاز بحثه فى الوقت المناسب ، مع الاتيان فيه بجديد على العلم ، على أن يراعى عند التحديد النهائى للموضوع أن يكون بطريقة واضحة، بحيث يكون الموضوع ذا مضمون محدد، فلا يكون عاما أو غامضا،حتى يتمكن الباحث من حصر المادة العلمية التى يحتاجهـا لرسالته ، وحتى لا يغرق نفسه فى تفصيلات لا علاقة لها بموضوع البحث ، كما يجب أن تكون بداية الموضوع ونهايته ذات دلالة خاصة .

هذا وعلى الباحث أن يلاحظ عند اختيار موضـوع بحثه ، ميوله الخاصة وقدراته العلمية واللغوية ،(٥٧) سـواء أكان الموضوع فى الناحية

السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو العسكرية أو الحضارية ، ذلك لان طرق المجالات التي يميل اليها الباحث تجعله أقـدر على العمل ، وأقوى على كشف الحقائق التاريخية ، هذا فضلا عن أن يكون طالب البحث ملما بتلك العلوم المساعدة التى يحتاجها بحثه ، خاصة بالنسبة للغة الاصلية التى كتبت بها مصادر الموضوع الذى اختاره ، فضلا عن اللغة أو اللغات الاجنبية التى كتبت بها مراجعه .

ولعل مما تجدر الأشارة اليه هنا أن الرسائل الجامعية فى التخصصات الانسانية لابد وأن تكون فى حجم مناسب ، فلا يمكن أن تكون الرسالة فى خمسين صفحة مثلا ، وقد جرت الاعراف الجـامعية على أن تكون رسالة الماجستير ما بين ١٥٠ ، ٣٠٠ صفحة ، ورسالة الدكتوراه ما بين ٢٥٠ ، ٤٠٠ صفحة ، ومن ثم فلابد أن يكون الموضوع المختار تتوافر له معلومات تكفى لبناء بحث طويل ، ولاشك فى أن وفرة المصادر ، وكمية المعلومات الموجودة فيها عن الموضوع ، هى التى ستحدد سعة البحث ، الامر الذى يوجب على الطالب أن ينظر فى مصـادره ومراجعه لمعرفة ما فيها من معلومات عن موضوعه قبل أن يقوم بتسجيله ، ولابد له من استشارة الاساتذة فى ذلك ، وعلى الطالب — اذا لم يطمئن الى وفرة المادة العلمية — أن يغير موضوعه ، وأما ان كانت المعلومات أوسع بكثير من أن يتناولها فى رسالة محدودة ، فعلى الطالب أن يعيـد النظر فى تحديد عنوان موضوع الرسالة ، والاقتصار على جانب منه ، أو حذف بعض جوانبه ، أو تقليص امتداده فى الزمان والمكان ، حتى يتمكن من انجاز رسالته فى الوقت ، وبالحجم المناسب ، ودونما أى اخلال بمبدأ استيفاء المعلومات واستيعابها[7] .

ثانيا : وضع خطة البحث : وهى المرحلة الثانية من مراحل اعـداد

---

(٧) اكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ١٤ — ١٦ ، عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٣٥ — ٣٧ ، محمد بيومى مهران : منهج البحث التاريخى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٧ — ٣٨ (مخطوط) ، أحمد شلبى : المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٦ .

الرسالة – بعد اختيار الموضوع ، وتحديد المرحلة الزمنية التى يتناولها البحث – وذلك بتناول تنظيم الرسالة ، وتوزيع المادة العلمية الى الابواب والفصول ، ثم المباحث أو العناوين الصغيرة أو الجانبية ، مع تثبيت العناوين للموضوع كله ، ثم لابواب الرسالة وفصولها ومباحثها ، وذكر أهم النقاط التى سيعالجها الباحث فى كل باب أو فصل أو مبحث ، بحيث يعطى فكرة واضحة عن الموضوع الذى يريد الطالب تسجيله ، ويتبين مدى مدى وضوح معالمه فى ذهن الطالب .

هذا ويجب أن تكون الخطة مرنة قابلة للتعديل – من حيث الاضافة والحذف ، والتقديم والتأخير – حسب ما يتطلبه البحث أثناء الكتابة ، على أن يراعى فى الخطة الشمول لعناصر الموضوع ، والتسلسل التاريخى Chronology والترابط المنطقى ، ثم يرفق الطالب بالخطة قائمة بمصادر ومراجع البحث التى رجع اليها ، ووجد بها مادة علمية تخدم موضوعه ، كدليل على وفرة المعلومات التى سيبنى بحثه عليها ، وليس بالضرورة أن تكون القائمة كاملة ، ولكنها تكفى لتكوين الانطباعات الاولى عن الطالب ، ومدى جديته فى بحثه .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن عنوان الرسالة يجب أن يكون واضحا ومحددا ، ثم يكون كذلك هو – وعنوان كل باب وكل فصل – قصيرا بقدر الامكان ، ولكن على أن يكون واضحا تماما الوضوح ، وأن يكون شاملا لكل ما يستوعبه من جزئيات وتفاصيل ، وقد وضع Bigelow قاعدة لذلك خلاصتها : أن يشمل العنوان من المعلومات ما يدفع باحثا آخر ، أن يبحث عن هذه المعلومات تحت هذا العنوان ، ويقرر الدكتور ابراهيم سلامة : أن العنوان يشبه اللافتة ذات السهم الموضوعة فى مكان لترشد السائرين حتى يصلوا الى هدفهم[٨] .

ومن ثم ، فالعنوان يجب أن يدل القارىء على محتويات الرسالة ،

---

(٨) ابراهيم سلامة : تيارات ادبية من الشرق والغرب ص ٢٥٠ ، احمد شلبى : المرجع السابق ص ٣٥ – ٣٦ .

وهذا يعنى أن العناوين العامة التى لم يحدد مدلولها ، ليست ذات قيمة علمية ، فليتحاشى الطالب أن يكون عنوان رسالته مبهما أو ضعيفا بمثل : «دراسات فى التاريخ الفرعونى» أو «دراسات فى الادب الجاهلى» ونحو ذلك ، فان العنوان العام أو المبهم تخلف فى الشوط الاول ، ومن مصلحة الباحث أن يبدأ بدءا قويا ، فالمطلع الناجح نصف الفوز .

هذا ويجب أن تخضع الابواب والفصول فى ترتيبها الى أساس سليم وفكرة منظمة ، ورابطة خاصة ، كالترتيب الزمنى مثلا ، أو كالاهمية أو نحو ذلك ، وليحذر الطالب أن يضع أبواب رسالته وفصولها ارتجالا ، وعلى غير أساس مقبول [٩] .

ثالثا ــ اعداد ببليوجرافيا للموضوع : وهى الخطوة الثالثة من مراحل اعداد البحث ، حيث يقوم الباحث باعداد «ببليوجرافيا» Bibliography الموضوع ، أى قائمة تضم المصادر المختلفة التى تعالج الموضوع ــ من وثائق وكتب ومذكرات وذكريات ودوريات ــ على أن يثبت البيانات الخاصة بكل مصدر فى بطاقة (جزازة) خاصة ، يكتب الطالب فى أعلاها اسم المؤلف واسم الكتاب فى الزاوية اليمنى من أعلى ، ويكتب ــ بعد نقل النص ــ عنوان النص الدال على محتواه فى الزاوية اليسرى من أعلى ، ثم يكتب النص ، فاذا انتهى منه كتب رقم المجلد ورقم الصفحة التى نقل منها النص ، ويمكنه أن يفصل بين اسم الكتاب وعنوان النص وبين النص نفسه بخط واضح ، ولعل من الافضل أن يسجل الطالب البيانات الخاصة بكل مرجع فى بطاقة خاصة ، وهى : (اسم المؤلف كاملا ــ وتاريخ وفاته ــ اسم الكتاب كاملا ــ وعدد مجلداته ــ واسم المطبعة ــ ومحل الطبع وتاريخه) ، وذلك ليستعين بهذه البطاقات عند تنظيم قائمة المصادر ، لان الكتاب الواحد قد تكون له عدة طبعات ، فاذا نسى الطبعة التى نقل منها النصوص وغيرها ، اختلفت أرقام الصفحات التى أحال اليها فى حواشى البحث [١٠] .

---

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .
(١٠) اكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ١٩ ــ ٢٠ .

رابعا ـ جمع المادة العلمية : يبدأ الطالب بعد ذلك جمع المادة العلمية لموضوعه من المراجــع العــامة والخاصة ، ومن المصادر والاصــول ، مع حصر الآثار والمخلفات التى تتصل به ، فالمراجع العامة والخاصة تفيد فى اعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذى يكون موضوع البحث جزءا منه ، كما تقدم له بعض المراجع التى تعينه فى بحثه ، ومن الضرورى أن يبدأ الباحث هذه المرحلة بالافادة مما كتبه السابقون ، والاستعانة بالمراجع التى اعتمدوا عليها ، وينبغى على كل جيــل من المؤرخين أن يعرفوا ما كتبه السابقون ، والمراجع التى أفادوا منها •

هذا ، وعلى الباحث أن يتتبع الفكرة الواحدة فى بعض الكتب الجيدة والرديئة ، سواء بسواء ، مع التعرف على المصــادر التى اعتمد عليها أولئك وهؤلاء ، لكى يدرك كيف نمت الفكرة وتطورت ، وكيف عالجها الكتاب المختلفون ، وهذه القراءة الممتازة تساعد الباحث على معــرفة أوجه القوة ، وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول الى تحديد المسائل الجديرة بالدرس والايضاح •

وهناك طريقتان لجمع المادة العلمية ، الواحــدة : أن يجمع المادة العلمية المتعلقة بالرسالة كلها ، بكل فصولها مرة واحدة ، ثم لا ينتقل الى خطوة أخرى حتى يتم الجمع ، والاخرى : جمــع المادة العلمية المتعلقة بفصل واحد ، ثم ينتقل الى خطوات البحث الاخرى حتى يكتب الفصل ، ثم يعود الى جمع المعلومات المتعلقة بفصل آخر ، وهكذا حتى يتم كتابة الرسالة Thesis Writing •

ولاريب فى أن الطريقة الاولى انما تفيد فى اختصار الوقت ــ خاصة اذا لم تكن المصادر والمراجــع تحت يد الباحث ــ حتى لا يعود الى استعمال المصدر الواحد مرارا ، وانما ينقل منه كل ما يتعلق بفصول الرسالة ، ولا يعود اليه غالبا ، وأما الطريقة الثانية فتفيد فى دفع الملل ، لاحساس الباحث أنه أنجز فصلا كاملا بوقت محــدود ، مما يحفزه لمواصلة العمل ، وعلى أية حال ، فان طبيعة الموضوع ، ومدى سعته

ووضوحه أو تعقده ، انما يؤثر فى اختيار احــدى الطريقتين فى جمع المادة العلمية ، ولاريب فى أن خبرة الاستاذ المشرف لتما تساعد الطالب على اختيار الطريق الانسب لموضوعه •

على أن المهم فى جمع العلمية انما هو الدقة فى النقل من المصادر والمراجع ، والبعد عن الاختزال المخل ، والاختصار المبتور ، والمحافظة على عبارات المصدر أو المرجع دونما أى تغيير فيها ، وضبط أرقــام الصفحات التى وردت فيها المعلومات ، وفى نفس الوقت ، على الطالب أن يستوفى جميع المعلومات من سائر المصادر التى يمكنه الحصول عليها وأن يستنفد جهده فى ذلك[11] •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك أساليب مختلفة لجمع المادة العلمية ، منها كتابة المادة فى كراسة واحدة أو جمعهــا فى «دوسية» مقسم ، أو الاعتماد على نظــام البطاقات ، وأما أسلوب «الكراسة» فخطورته تراكم نقاط الموضوع ، الأمر الذى يجعل الطالب فى النهاية عاجزا عن تصنيف المادة العلمية أو الافادة منها ، وأما أسلوب «الدوسيه» المقسم ، فرغم أنه يتيح للطالب أن يوزع المادة العلمية التى جمعها أولا بأول على أجزاء الدوسية ، غير أن ذلك انما يترتب عليه بعض الصعوبات عندما يجرى الطالب تعديلا فى بعض فصول الرسالة ، أو عندما تتناول المادة العلمية أكثر من نقطة من نقاط الموضوع •

ومن ثم فان بعض الباحثين انما يفضل «نظــام البطاقات» ، لأنه ـــ فيما يرون ـــ أفضل الاساليب لجمع المادة العلمية ، على أن يؤجل الطالب تصنيف تلك البطاقات حتى ينتهى من جمــع المادة العلمية ، وبالتالى تكون فصول الرسالة وموضوعاتها قــد اتضحت أمامه بشكل نهائى •

وهكذا ـــ وبعد أن ينتهى الطلب من جمع المادة العلمية ـــ عليه أن

(۱۱) أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ۱۹ ـــ ۲۱ •

يقوم بتصنيفها وترتيبها ، بحيث تكون بطاقات كل فصل على حدة،وأن يصنف بطاقات كل فصل الى مجموعات مختلفة ، ثم يرتب تلك البطاقات طبقا للخطة التى وضعها لكتابة الرسالة[١٢] .

وأما ان كان الطالب قد جمع المعلومات المتعلقة بالرسالة كلها دفعة واحدة ، فعليه أن يوزع البطاقات على الابواب ، ثم يوزع بطاقات كل باب على الفصول ، ثم بطاقات كل فصل على المباحث أو الموضوعات غير الرئيسية ، وهكذا تكون المادة العلمية المجموعة قد انقسمت الى مجموعات صغيرة موحدة الموضوعات .

على أن الطالب قد يواجه هنا بحالات يكون النص فيها متعلقا بأكثر من باب ، وله أكثر من عنوان فى أعلى البطاقة ، وفى هذه الحالى،فعلى الطالب أن يضع النص فى أول باب من الخطة ، فاذا ما انتهى من كتابة ذلك الباب ، أعاد البطاقة الى مكانها من البطاقات المتعلقة بباب آخر،على أن يؤشر على العنوان الذى استعمله ، والذى يقع فى أعلاها .

ولاريب فى أن فرز المادة العلمية ، وتقسيم البطاقات على الابواب والفصول انما يعتمد على فهم الطالب للنصـــوص ومحتوياتها ــ ولو بصورة أولية ــ وقد يتغير رأيه عند فحصها مجددا عند كتابة رسالته، واستخدام البطاقات المتحركةانما يساعد كثيرا على هذا التغيير ، هذا الى أن الطالب قد تخطر بباله استنتاجات من النصوص أثناء نقلها ، ووضع عناوينها فى أعلى البطاقات ، وهنا لعل من الافضل أن يدون تلك الملاحظات فى حواشى البطاقة بقلم مغاير فى اللون ، لئـــلا تتداخل مع النص الاصلى ، أو فى دفتر خاص يرجع اليه فيما بعد ، حتى لا تغيب هذه الملاحظات عن ذهنه أثناء الكتابة .

خامسا ــ نقد المادة التاريخية : لعل من الافضل أن يتبع الباحث فى نقد المادة التاريخية الخطوات التالية :

---

(١٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٤١ ــ ٤٢ .

١ — اثبات صحتها : لما كان التاريخ يدرس عن طريق الاصول التاريخية ، كالوثائق ، بما تشمله من آثار الانسان ومخلفاته ، فحوادث التريخ القديم — مثلا — تعرف عن طريق دراسة آثار الانسان المختلفة فالمؤرخ لا يرى الحوادث نفسها ، ولكنه يرى ويدرس آثارها ، فآثار الانسان المتنوعة هي نقطة البدء ، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذى يتوخى المؤرخ الوصول اليه ، وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق طويل معقد ملىء بالمشاكل والعقبات والاخطار ، التى تبعد الباحث عن الهدف ، وبلوغ الحقيقة ، ولكن المؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول الى غرضه ، ولاريب فى أن دراسة الاصول التاريخية وتحليلها بأساليب مختلفة من أهم المراحل فى طريق البحث ، وهو عبارة عن ميدان نقد الاصول التاريخية .

وربما تكون دراسة آثار الانسان — من أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة — أسهل من دراسة كتاباته المسجلة عن حوادث الماضى، وذلك لوجود علاقة واضحة بين الاثار الماثلة أمام المؤرخ ، وأسباب وجودها ، وارتباط ذلك بأحداث التاريخ ، ولكن الكتابات التى دونها الانسان عن حوادث تاريخية معينة ، انما هى أثر عقلى سيكولوجى وليست شيئا بارزا ملموسا ، وهى لاتزيد عن كونها مجرد رمز ، أو تعبير عن أثر تلك الحوادث فى ذهن من دونها .

ولاريب فى أنه للوصول من الاصل التاريخى المكتوب الى الحوادث، ينبغى على المؤرخ أن يتعقب سلسلة العوامل التى أدت الى كتابته،ومن ثم لكى يصل المؤرخ الى الحوادث الاصلية أن تمر فى خياله الظروف التى أحاطت بكاتب الاصل التاريخى ، منذ أن شهد الوقائع ، وجمع معلوماته عنها ، حتى دونها فى الاصل المكتوب الماثل أمام المؤرخ،وعلى أية حال ، فقبل أن يبدأ الباحث فى نقد الاصل التاريخى يجب عليه أن يرممه ، إن كان فى حاجة الى ذلك ، كما أن المؤرخ لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة التاريخية ، اذا لم يعمل النقد فى كل ما يقع تحت يده من

الاصول التاريخية المختلفة ، الامر الذي قد يستغرق زمنا ليس بالقليل على أية حال .

ومن هنا فقد ذهب البعض الى أن نقطة البدء فى التاريخ هى الشك ، ذلك الشك الذى لابد أن يسبق أى تصديق من أجل التثبت من صحة الخبر ، يقول «لانجلو أوسينوبوس» : لا تاريخ بدون تحصيل ، والتحصيل هنا : التأكد من اصالة الاصول ، والتثبت من خلو الوثائق من كل دس أو خطأ أو تزوير ، ذلك لانه لا يجوز للمؤرخ أن يثق بكل ما يكتب ، أو يصدق كل ما يقرأ ثم يقول «لانجلو أوسينوبوس» أن قضاء عشر سنين فى تحقيق نص لوثيقة سقيمة ، أفضل من نشر عدة مجلدات عن وثائق غير محققة فى نفس المدة ، اذ سيضطر العلماء فى المستقبل أن يعيدوا تحقيقها بتكاليف جديدة[١٣] .

ولعله من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك عدة مراحل للنقد :

فالنقد الظاهرى : (External Criticism) ، ويتعلق بعدة أمور ، مثل اثبات صحة الاصل التاريخى ، ونوع الخط والورق ، وتعيين شخصية المؤلف ، وزمان التدوين ومكانه ، الى غير ذلك من الوسائل والنقد الباطنى : (Internal Critcism) ، ويبحث فى الحالات العقلية التى مر خلالها كاتب الاصل التاريخى ، فضلا عن الظروف السياسية أو الاجتماعية أو النفسية التى أحاطت به عند كتابتها .

وأول مرحلة من مراحل نقد الاصول التاريخية هى «أثبات صحتها» وذلك لان الاصل والمصدر كله ، أو بعضه ، مزيفا أو منتحلا ، فلايمكن الاعتماد عليه على وجه العموم ، فقد تزيف الاثار المادية من أجل الكسب فى أحوال كثيرة ، ومن الامثلة على ذلك ، ما حدث من وجود مجموعة من الاوانى الفخارية فى القدس عام ١٨٧٢م ، وقد دل على وجودها المدعو

---

(١٣) لانجلو اوسينوبوس : المرجع السابق ص ٤٥ ، أحمد محمود صبحى : المرجع السابق ص ١٠٦ .

«سليم العربى» الذى كان يعمل فى خدمة بعض المنقبين عن الاثار فى فلسطين ، واشترى بعضها «متحف برلين» ، غير أن البحث العلمى قد أثبت أن هذه الاثار مزيفة ، وربما كان سليم العربى نفسه هو صانعها بقصد الكسب •

وهكذا يدل المثال على أهمية نقد الأصــول التاريخية ، وبالتالى تتضح الصعوبات التى يجب على المؤرخ أن يواجهها ، وأن يتغلب على ما يمكن التغلب عليه ، وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يكتب التاريخ لانه اذا ما بنى أبحاثه على أصول مزورة منتحلة ، خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ، ومخالفة للواقع التاريخى •

ب ـ تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه : لاريب فى أنه عندما يثبت للباحث فى التاريخ أن الاصــل أو المصدر التاريخى ، صحيح وغير مزيف ، فليس هذا بالضرورة يعنى أن المعلومات الواردة فيه ، ذات قيمة تاريخية كبيرة ، ومن ثم فلابد من نقد الأصل التاريخى من نواح أخرى ، هــذا وتحمل بعض الاصول التاريخية اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها ، على أن بعض الاصــول التى اتسمت بطابع الصحة وعدم التزييف ، انما تغفل أحيانا ناحية أو أكثر من هذه النواحى الامر الذى ينقص قيمتها التاريخية •

وهنا لعل سائلا يتساءل : كيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخى ، وهو يجهل اسم مؤلفه وشخصيته وعلاقته بالحوادث التى كتب عنها ؟ فهل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ، ومتى دونها ؟

ان معرفة كاتب الاصل التاريخى وشخصيته أمر هــام ، ذلك لان قيمة المعلومات التى يوردها انما ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ، ومدى فهمه للحوادث ، ولكل الظروف التى تحيط به على وجه العموم ، فالمعلومات التى يدونها الحاكم تختلف عن تلك التى يدونها السياسى أو الجندى أو الطالب أو الفلاح ، وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الاصــل أو الوثيقة التاريخية

وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم كاتب الاصل التاريخى وشخصيته ، فيظل مجهولا ، وان كان هذا لا يمنع من الافادة منه ، ومثالنا على ذلك كتاب نشره المستشرق «كارل مولر» لمؤلف مجهول يبحث فى اثار بلاد العرب ، واسمه (Glaucus) [١٤] ، وقد أفاد الباحثون منه ، وفى بعض الاحيان لا يستطيع المؤرخ الا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الاصل التاريخى ، وعندئذ عليه أن يقر بذلك،ويدرس المعلومات الواردة فى نطاق العصر ، أو الناحية التى تتصل بها ، ويفيد منها بقدر المستطاع .

هذا وينبغى أن يلاحظ الباحث أن وضع اسم شخص على أصل تاريخى ، لا يعنى بالضرورة أنه هو كاتبه ، وفى أحايين كثيرة يمكن للمؤرخ أن يتعرف على كاتب الاصل التاريخى لخطوط بدراسة نوع الورق والخط والحبر ، واللغة والاسلوب ، والمصطلحات الخاصة بالعهد التاريخى المعين ، وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به .

وأما المسألة الثانية فى هذه الناحية من النقد التاريخى ، فهى : معرفة الزمن الذى دون فيه الاصل التاريخى،فقد يكون الاصل صحيحا غير مزيف ، وقد يكون كاتبه من الاشخاص الذين يتحرون الصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد ينقص من قيمته التاريخية بعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته ، وبين تدوين أخباره ، فكلما بعد الزمن بالكاتب عن وقوع الحادث ، كلما تعرض لان يفوته قليل أو كثير من التفاصيل الخاصة ، اذا لم يحدد الكاتب التاريخ الذى دون فيه ما كتبه ، ولكن كيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ، ولو على وجه التقريب ؟

فى الواقع أنه يمكن للباحث فى التاريخ أن يضع حدين — الواحد لبدء الاصل التاريخى،والثانى لنهايته — وذلك بناء على دراسة محتوياته أى أنه يعين التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ،

14. Glaucus, Archaeologi Araabica, by Çarl Muler, in FHG, IV, Paris, 1851.

والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث شقد وقعت بعده ، ولتحديد ذلك يجب أن يكون ملما بثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذى يدرسه ، ومن البدهى أن الاصل التاريخى يحدد بعد آخر حادث ورد فيه .

وهناك أيضا مشكلة تعيين المكان الذى دون فيه الاصل التاريخي، وهل دون فى مكان وقوع الاحداث أم بعيدا عنها ؟ وهل هذا المكان يجعل كاتب الوثيقة (الاصل التاريخى) قادرا على تصوير الوقائع تصويرا صحيحا ؟ أم أن التدوين حدث فى مكان بعيد ، واعتمد على الذاكرة والخيال في سرد الوقائع ؟ وطبيعي أن يتدخل القرب أو البعد عن مكان الاحداث في تقدير المعلومات الواردة في الاصل التاريخى ، وان لم يكن ذلك من الادلة القاطعة علي مدي الصدق فيها .

جـ ـ تحرى نصوص الاصول وتحديد العلاقة بينها : من الضرورى للباحث فى التاريخ أن يتحرى نصوص الاصول ، ويتثبت من حرفية ألفاظها وعباراتها قبل أن يستخدم المعلومات الواردة بها ، وعلى الباحث أن يتأكد فى حالة طبع الاصول التاريخية أنها مطابقة للمخطوط الاصلي، ولم يتناولها تحريف أو تصحيف ، هذا ويمكن تقسيم الاصول التاريخية المخطوطة من ناحية تحرى النص ، وتحقيق اللفظ الى حالات ثلاث :

الاولى : وهى التى يكون أمام الباحث الاصل الاول ويمكن التحقق من ذلك بملاحظة نوع الحبر والمواد المكتوب عليها من بردى ولفائف وعظام وخشب وجلد ... وبدراسة الخط واللغة والمعلومات ومقارنتها بكتابات أخرى — ان جدت — يستطيع الباحث أن يفيد — وهو مطمئن من هذه الناحية — بالمعلومات التى يوردها هذا الاصل الاول .

الثانية : وهي التي يفقد فيها الاصل الاول ، ولا يبقى أمام الباحث سوى نسخة واحدة منقولة عنها ، ودراسة هذه النسخة الوحيدة المنقولة عن الاصل المفقود تستلزم الدقة والحذر للتثبت من صحة ألفاظها ونصوصها .

الثالثة : وهى التى يضيع فيها الاصل الاول ، وتبقى عدة نسخ منقولة ، تتشابه وتختلط فيما بينها ، ولكن لا تعرف الصلة بين بعضها والبعض الاخر ، ولا الصلة بينها وبين الاصل الأول المفقود ، وفى هذه الحالة يعمد الباحث فى التاريخ الى محاولة السعى الى تحديد النص الاول ، أو أقرب ما يمكن اليه ، بالدراسة والمقارنة ، وعلى أساس التشابه والاختلاف بين النسخ المتعددة ، وعلى أساس التوصل الى فهم لغة المؤلف وروحه ، والدراية بأحوال عصره[١٥] .

والواقع أن الوثائق هامة جدا بالنسبة للمؤرخ ، حتى ذهب البعض الى أن التاريخ انما هو علم الوثائق يستقرئها المؤرخ ويحللها للتوصل الى وقائع تشتمل عليها ، فالوقائع انما توجد فى الوثائق (Documents) وهى تفرض ذاتها بذاتها قبل كل تفسير ، ومتى ضاعت الوثائق ضاع التاريخ ، فالمعالجة التاريخية لا تقوم على التحليل فحسب،وانما تجرى أيضا بوجود الوثائق والسجلات (Records) ، ومن ثم فقد ذهب المؤرخ الفرنسى «سيتوبوس» الى أنه لا تاريخ بغير وثائق ، فى حين ذهب البعض الى التقليل من أهمية الوثائق ، وأنه ما من وثيقة بوسعها أن تخبرنا أكثر مما أراد لها محررها ، ومن هنا فان مهمة المؤرخ لا تقتصر على جمع الوثائق ، وانما العمل على التحقق من صحتها ومما جاء فيها من آراء وأحداث وتطورات ، ورغم أن «لويس جوتشلك» يرى أن تزوير الوثائق بأكملها أو أجزاء منها أمر لم تجر العادة به ، فان كثيرا من الوثائق قد زورت ، حيث عمد الى ذلك بعض مؤرخى المناطق التى شهدت صراعات سياسية وعسكرية وطائفية[١٦] .

---

(١٥) انظر عن تحقيق المخطوطات (فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ـ ترجمة أنيس فريحة ـ بيروت ١٩٨٠ ص ٦٢ ـ ٦٦ ، ٧٢ ـ ٨١ ، أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٥ـ٦٣ حسان حلاق : المرجع السابق ص ٨٩ ـ ١٩٤ ، عبد القادر أحمد طليمات: التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ـ القاهرة ١٩٦٣ (رسالة ماجستير من جامعة عين شمس) .

(١٦) انظر عن تزوير الوثائق (محمد جميل بيهم : عروبةلبنان ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٠٣ ـ ١١٩،حسان حلاق . المرجع السابق ص٩٢ـ٩٣)

وهناك أمور أخرى تقلل من قيمة الوثائق كالمبالغات التى تشبه الاساطير ، أو الدعوة لهدف معين ، ومن النوع الاول ، «بردية تورين» والتى تعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة بالنسبة لتاريخ مصر الفرعونية ، لم يفسد على كاتبها ملكته التاريخ سوى ايمانه بأساطير قومه التى جعلت للارباب نصيبا فى اعتلاء عرش البلاد ، والمبالغة فى مدة حكمهم[١٧] — كما فعلت قائمة الملوك السومرية التى جعلت مدة حكم ملوك ما قبل الطوفان ٢٤١٢٠٠ سنة • وان آخر الملوك قد حكم ١٨٦٠٠ سنة[١٨] — •

ومن النوع الثانى «بردية نفرتى» التى كتبت تمجيدا للملك «امنمحات الاول» (١٩٩١ — ١٩٦٢ ق•م) مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وان زعم صاحبها أنها ترجع الى عهد «سينفرو» مؤسس الاسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠ ق•م) ، وهكذا تنبأت البردية بأن «اميني» (امنمحات الاول) سيتولى عرش الكنانة بناء على ارادة الهية ، وأن الحكماء قد تنبأوا بذلك أمام الملك سنفرو ، رغم أنها كتبت على أيام امنمحات الاول ، وربما بعده بقليل[١٩] •

---

(١٧) انظر عن بردية تورين (محمد بيومى مهران : مصر ٦٣/١ — ٦٥ وكذا

(A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 62.

(١٨) انظر عن قائمة الملوك السومرية (محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم ص ٦٤ — ٦٦ ، وكذا

S. N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1970, p. 328-331.

J. Finegan, Op. Cit., p. 29-30.

A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 265-267.

T. Jacobsen, The Sumerian King List, in Assyrian Studies, II, 1939.

(١٩) انظر عن نبوءة نفرتى (محمد بيومى مهران : مصر ٣٣٧/٢ — ٣٣٩ ، وكذا

A. Erman, Op. Cit., p. 100-110.

J. A. Wilson, in ANET, p. 444-445.

A. H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience New York, 1939, p. 200-206.

د - النقد الباطنى للأصول : وهو نوعان ايجابى وسلبى

١ - النقد الباطنى الايجابى (Hermeneutic) وهو عبارة عن تحليل الأصل التاريخى بقصد تفسيره وادراك معناه ، والوصول الى الحقائق التاريخية من خلال الوثائق والأصول التاريخية ، ويحدد ذلك فى دورين: أولهما : تفسير ظاهر النص ، وتحديد المعنى الحرفى له ، وثانيهما: ادراك المعنى الحقيقى للنص ، ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه .

وتحديد المعنى الحرفى لنص تاريخى معين عبارة عن عملية لغوية ، ولابد لفهم كل نص تاريخى من معرفة اللغة التى كتب بها ، ولا تكفى المعرفة العامة لهذه اللغة ، وانما يجب فهم دقائقها ، فضلاً عن الالمام بلغة العصر التاريخى الذى يرجع اليه ذلك النص ، مع الاستعانة بعلم فقه اللغة (الفيلولوجيا = Philology) اذا اقتضى الامر ذلك ، وعلى أية حال ، فيمكن اجمـــال بعض القواعد التى ينبغى على الباحث السير بمقتضاها لتحديد المعنى الحرفى لالفاظ النص التاريخى فيما يلى :

أ - تتغير اللغة الواحدة من عصر الى آخر ، ويمكن الاستعانة فى تحديد معنى بعض الالفاظ ، بفهم العبارات التى وردت بها .

٢ - ينبغى معرفة اللغة أو اللهجة التى وجدت فى منطقة معينة ، والتى دون بها الأصل التاريخى .

٣ - ينبغى الالمام بلغة الكاتب وأسلوبه ، ويمكن الاستعانة فى ذلك بمؤلفاته الاخرى أو بمؤلفات العصر الذى عاش فيه .

٤ - ينبغى ألا تفسر كلمة أو جملة ما بذاتها فحسب ، وانما يجب أن تفسر فى نطاق السياق العام للنص التاريخى .

هـــذا وعندما ينتهى الباحث من تحديد المعنى الحـــرفى للالفاظ والتراكيب التى تحتمل الشك فى معانيها ، فعليه أن يصـــل الى معرفة غرض الكاتب ، والمعنى الحقيقى لما يكتبه ، فمن الجائز أنه كتب بعض

الاساليب والتراكيب غير الواضحة ، وفى هذه الحالة لا يؤدى ظاهر النص الى المعنى المقصود ، ومن ثم فلا يكفى فهم ظاهر النص والمعنى الحرفى للالفاظ ، وانما يجب محاولة الوصول الى المعنى الحقيقى الباطنى الذى قصد اليه كاتب النص التاريخى ، ولكن هـذا لا يعنى اسراف الباحث فى التشكك فى معانى الالفـاظ الحقيقية ، وأن يحمل النص ما لا يمكن أن تحمله ألفاظه من معان •

وعندما يصل الباحث الى النص الحقيقى للنص التاريخى ، فـان عملية التحليل أو التفسير الايجابى تكون قـد انتهت ، والنتيجة التى يخرج الباحث بها من ذلك كله هى أنه أصبح عارفـا بمعلومات كاتب الأصل التاريخى ، والصورة التى كونها فى ذهنه عن الحوادث التى كتب عنها •

٢ ـ النقد الباطنى السلبى : وهو عملية ضرورية لتصفية الحقائق ، واستبعاد الزائف منها ، بقدر المستطاع ، هذا ويؤدى النقد الباطنى السلبى الى قاعدتين : الاولى : أن الاثبات العلمى لأية حقيقة تاريخية ، لا يمكن أن يتم عن طريق شهود عيان فحسب ، وانما يجب أن تتوافر لدى الباحث فى التاريخ الأدلة التى تثبت تلك الحقيقة •

والثانية : أنه لا يجوز أن ينقد الاصل فى هذه المرحلة كوحدة عامة ، وانما ينبغى أن تنقد جزئياته وتفصيلاته وحوادثه المفردة ، واحدة بعد أخرى •

هذا وترتبط قيمة كل أصل تاريخى بالظروف التى تمت خلالها سلسلة العمليات العقلية التى انتهت الى تدوينه ووصوله الى المؤرخ ، والتعرف على شخصية المؤلف انما يدلنا على بعض الظروف التى كتب خلالها الاصل التاريخى ، كما أن معرفة عواطف المؤلف وعاداته وأهوائه وبيئته ومستواه انما يساعدنا فى الكشف عن عوامل الكذب أو الخطأ أو الخـداع ، أو الصدق أو الصواب ، حينما نتتبع ما يمكن تتبعه من العمليات العقلية والظروف التى ارتبطت بكتابة الاصل التاريخى •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه يحكم التفرقة بين ناحيتين من النقد الباطنى السلبى أمران ، أولهما : التثبت من صدق المؤلف وعدالته ، وهل هو صادق فيما كتب أم كاذب ، وثانيهما : التثبت من صدق المعلومات التى أوردها ومبلغ دقتها ، وهل أخطأ المؤلف أو خدع بشأنها ؟ أم أنه لم يخطىء ولم يخدع .

وأما عن الامر الاول : فانه يلاحظ أن المؤلف قد يكذب طمعا فى منفعة أو دفعا لضرر ، أو قد يكذب بسبب تحيزه لأسرة بذاتها ، أو لحزب أو مبدأ سياسى أو فلسفى أو اقتصادى أو لعقيدة دينية ، وقديكذب بسبب غروره الشخصى أو غرور الجماعة أو الناحية التي ينتسب اليها ، وتهمه مصلحتها ، وقد يكذب لقصد ارضاء الجمهور أو مداراته ، أو رغبته فى عدم ازعاج الرأى العام أو كسبا لمرضاته ، وقد يكتب كاتب الاصل التاريخى بأسلوب أدبى لارضاء ذوق الجمهور ، فيغير الوقائع ويكيفها بما يناسب ذلك الأسلوب الادبى ، على حساب الحقيقة التاريخية .

وأما الامر الثانى : وهو معرفة دقة المعلومات الواردة فى الاصل التاريخى ، فيجب معرفة : هل قصد كاتب الاصل التاريخى أن يقول الصدق ، غير أن الظروف دفعته الى الوقوع فى الخطأ دون أن يفطن الى ذلك ؟ ومن ثم فينبغى على الباحث أن يسعى لكشف هذه الظروف بالنسبة للاصل التاريخى ، كوحدة عامة ، وأما بالنسبة لجزئياته فيجب على الباحث أن يبحث : هل تمتع الراوى أو كاتب الاصل التاريخى بحواس سليمة وبعقل سليم ؟ وهل تمتع بجميع الشروط التى يجب توفرها حتى تتحقق المشاهدة العلمية ؟ وهل يتمتع بملكة خاصة أو موهبة تساعده على تدوين الكتابة التاريخية ؟ كل هذه العوامل تعمل على ابعاد الحقائق الخالصة من الوصول الى الباحث فى التاريخ .

وانطلاقا من كل هذا ، يبدو واضحا مدى صعوبة دراسة التاريخ بعامة ، وصعوبة النقد التاريخى بخاصة ، فان هذا ليس بالامر السهل،

اذ يقتضى الكثير من البحث والتحرى والاناة والصبر ، للوصول — قدر المستطاع — الى الحقيقة التاريخية .

سادسا — اثبات الحقائق التاريخية : لا ريب فى أن الباحث فى التاريخ انما يصل — عن طريق نقده للاصول التاريخية — الى مجمـوعة من المعلومات والاراء عن حوادث الزمن المـاضى ، ورغم ذلك فان النقد التاريخى لا يثبت الحقيقة التاريخية ، بل يساعد على بلوغها ، ويؤدى الى احتمال الصدق فيها ، ومن ثم فلابد من عملية نهائية للوصول الى نتيجة محددة ، اذ ينبغى الخروج من دائرة الاحتمال والشك الى دائرة اليقين ، ومن الضرورى للباحث فى التاريخ أن يتابع الدرس والبحث ، للوصول الى نتائج حاسمة ، قدر المستطاع ، وهكذا فعلى المؤرخ أن يبدأ بتقسيم النتائج التى وصل اليها عن طريق النقد ، ويضع فى قسم واحد كل المعلومات الواردة عن حادث أو قضية ما ، والوصول الى رأى نهائى فى هذا الامر يقوم على أساس من العلاقة بين هذه المعلومات .

وعندما تتعارض الاصول والمصادر وتتناقض الروايات بشأن حادث تاريخى معين ، فيجب على الباحث أن يحاول ترجيح جانب على آخر ، بواسطة النقد التاريخى — كما أشرنا من قبل عن معركة قادش فى عام ١٢٨٥ ق.م — واذا لم يستطع ذلك فعليه أن يمتنع عن اعطـاء حكم نهائى حتى يعثر على أدلة جيدة تنير له الطريق ، هذا وقد تواجه الباحث أحيانا حالات لا يتم فيها التـوافق بين الوقائع التى تثبتها الاصول التاريخية ، وتلك التى تثبتها القوانين العلمية الثابتة ، وفى هذه الحالة فلابد من أن تسلم الاولى للثانية ، اذ لا يمكن لعلم التاريخ أن يدعى معارضة نتائج العلوم الطبيعية أو تصحيحها ، وانما عليه أن يصحح نتائجه ، طبقا لنتائج العلوم الطبيعية ونواميسها .

وأما فى حالة اتفاق عدة روايات عن حادث تاريخى معين ، فينبغى على المؤرخ ألا يعتبر ذلك الحادث صحيحا ، لمجرد اتفاق عدة روايات بشأنه ، وانما عليه أن يتثبت من استقلال هذه المصادر بعضها عن البعض

الاخر ، والا انها تعد فى بعض المسائل أو القضايا التى تتناولها — على الاقل — بمثابة مصدر واحد •

وفى اثبات الحقائق التاريخية ، يمكن أن نشير الى النقاط التالية :
١ — بعض القواعد العامة للتركيب التاريخى ٢ — تنظيم الحقائق التاريخية ٣ — الاجتهاد ٤ — التعليل والايضاح ٥ — انشاء الصيغة التاريخية •

١ — بعض القواعد العامة للتركيب التاريخى : يمكن أن نلخص عمليات التركيب أو البناء التاريخى فى عدة مراحل ، وعلى الباحث أن يجمع خلالها العناصر المأخوذة من أصول تاريخية متعددة ، ويحاول أن يكون منها صورة عقلية تشابه ، بقدر الامكان ، الصورة التي وجدت فى ذهن شاهد العيان أو كاتب الاصل التاريخى ، ثم يقسم الباحث الحقائق الى مجموعات على أساس التشابه القائم بينها ، وعلى أساس المسائل المتعلقة بنقطة أو حادث معين ، وعندما يصادف المؤرخ فجوات صغيرة أو كبيرة ، فعليه أن يحاول ملأها عن طريق الاستنتاج العقلى المستمد من الحقائق التى توفرت لديه ، فضلا عن أن يستخرج من هذه الحقائق صفاتها العامة ، وعلاقتها بعضها بالبعض الاخر ، الامر الذى يؤدى فى النهاية الى كتابة التاريخ •

٢ — تنظيم الحقائق التاريخية : على الباحث أن يشرع فى تنظيم الحقائق التاريخية ، وتنسيقها فى مجموعات وأقسام ، تبعا لظروفها الظاهرة وسائر خصائصها ، هذا ويحكم تقسيم الحقائق التاريخية — على أساس طبيعة الحقائق وخصائصها ، وارتباطها بمظاهر النشاط الانسانى — على النحو التالى :

١ — الظروف المادية ٢ — الصلات والتقاليد ٣ — النظم الاقتصادية ٤ — النظم الاجتماعية ٥ — النظم العامة •

ويلاحظ أن هذه التقسيمات ليست مستقلة بعضها عن البعض الاخر ،

وانما هي متداخلة فيما بينها ، ففي العرض التاريخي نجـد مسائل جغرافية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو أدبية متصلة ببعضها البعض الاخر ، ويبدو الاثر المتبادل فيما بينها بحسب الموضوع الذي يتناوله الباحث في التاريخ ٠

٣ ـ الاجتهاد : يلاحظ الباحث في التاريخ أن الحقائق التي تقدمها الاصول التاريخية لا تكفي أحيانا لتغطية كل ما يتطلبه موضوع بحثه ، وقد تكثر الحقائق في ناحية ، وتنقص ، وربما تندر ، في ناحية أخرى ، ومن ثم وجدت فجوات في سلسلة الحوادث ، على الباحث أن يحاول ملأها عن طريق الاجتهاد ، والتي منها (أولا) ألا يصحب الاجتهـاد تحليل الوثيقة ، لان هذا قد يؤدي الى تحميل النصوص اكثر مما تحتمل ومنها (ثانيا) أن الحقائق التي يصل اليها الباحث ، عن طريق تحليل الاصول ونقدها ، يجب أن تظل مميزة ، ولا تختلط بالحقائق الناتجة عن طريق الاجتهاد ، ومنها (ثالثا) أن يكون الباحث حاضر الذهن متيقظا غير ساه أومشغول بشيء آخر ، وهو يحاول الاجتهاد ، ومنها (رابعا) اذا وصل الباحث ـ عن طريق الاجتهاد ـ الى نتائج تحتوي على أقل عنصر من الشك ، فيجب أن يقرر ذلك بوضوح ، ومنها (خامسا) لايجوز في محاولة الاجتهاد أن يحاول الباحث جعل الافتراض والتكهن حقيقة، ما لم تكن لديه البراهين والادلة الكافية ٠

وهناك طريقتان للاجتهاد ، الواحدة سلبية ، والاخرى ايجابية ٠

أما الاجتهاد السلبي : فلقد عبر المناطقة عنه بقولهم : «السكوت حجة» ، فقد يقال أن الحادث وقع لسكوت الوثائق والمصادر عنه، وهذا استنتاج خطر في أحوال كثيرة ، فقد تعرض كثير من الاصول التاريخية للتلف والضياع ، فضاعت معه حوادث التاريخ ، كما أن بعض الحوادث التفصيلية قد أفلتت من التدوين ، ذلك لان بعض المسائل العامة الشائعة ربما تمر دون تدوين ، لانها مألوفة تماما ، أو لان الحـكومة منعت تدوينها ، ومن ثم فان سكوت المصادر عنها لا يعتبر حجة على عدم وقوع الحادث ٠

وأما الاجتهاد الايجابى : فهو محاولة استنتاج حقيقة أو حادث أو أكثر بمجرد التثبت من حدوث واقعة معينة ، وهناك بعض القواعد والمحاذير فى باب الاجتهاد الايجابى ، فتوجد أولا كليات عامة مستمدة من تجارب الانسان ، كما توجد جزئيات خاصة ذاتية ، مستمدة من الاصول التاريخية ، وتتعلق بمسائل أو حوادث معينة ، ومن الناحية العملية يبدأ المؤرخ بدراسة الجزئية الخاصة المتعلقة بالحادث ذاته ، فنجد مثلا ، أن مدينة «سلاميس» تحمل اسما فينيقيا ، ثم ينظر الى الكلية العامة التي تقول : ان اللغة التي يدون بها اسم مدينة تكون غالبا لغة الشعب الذى أنشأها ، ومن ثم يمكن القول ان مدينة سلاميس انما أنشأها أو أسهم فى انشائها الفينيقيون ، ولكى نصل الى نتيجة ثابتة أو أقرب الى الثبوت يلزم مراعاة شرطين اثنين ، أولهما : أن تكون الكلية العامة صحيحة تماما ، وأن يكون الارتباط بين الواقعتين التاريخيتين قويا ، وثانيهما : لكى يستخدم الباحث فى التاريخ كلية عامة ويطبقها على التفصيلات الجزئية ، يجب أن يكون وطيد المعرفة بالمسألة التاريخية المعينة ، كما أنه من الخطأ أن يبنى الباحث اجتهاده على تفصيل جزئى مستقل بذاته ، دون أن يدرس كل الظروف المتعلقة به .

على أن الباحث يجب أن يدرك تماما أن الاجتهاد لا يؤدى الى نتائج ثابتة ، ولكنه يؤدى الى نتائج تقريبية فى الغالب ، وأحيانا يمكن ملء بعض الفجوات فى التاريخ عن طريق الاجتهاد ، وأحيانا أخرى تبقى بعض المسائل التى لا يمكن الوصول فيها الى رأى حاسم ، ويظل الشك يحوم حولها الى أن يأتى من يصل بها الى رأى أصح أو أفضل ، بناء على ما قد يكتشف عنه من الحقائق المجهولة .

٤ ـ التعليل والايضاح : لا يستطيع الباحث فى التاريخ أن يقف عند هذا الحد من البحث والدرس ، وانما يجب السعى الى محاولة الوصول ـ بقدر المستطاع ـ الى معرفة الاسباب والعوامل التى أدت الى وقوع الحوادث التاريخية، وهو فى ذلك يجتهد مثلا فى معرفة أسباب الحوادث العامة ، كارتفاع أمة وسقوطها ، وظهور حضارة ونموها

وتطورها وازدهارها ثم هبوطها ، كما يحاول معرفة الإسباب الخاصة مثل كسب معركة •

ومن البدهى أن معرفة الاسباب فى حوادث التاريخ تستلزم تتبع الفترة السابقة التى مهدت لها ، وذلك لمعرفة العوامل المباشرة وغير المباشرة التى أدت الى وقوعها ، وعلى أية حال ، فليس من الممكن أو السهل دائما معرفة أسباب الحقائق التاريخية بدرجة واحدة ، فقد تعرف أسباب بعض الاحداث بسهولة ، لامكان معرفة الظروف التى أحاطت بها ، على حين لا يمكن ، أو لا يسهل معرفة أسباب بعضها الاخر على وجه الدقة ، لغموض الظروف التى أحاطت بها ، فضلا عن اختلاف الظروف والروايات بشأنها ، على نحو يجعل الوصول الى الحقيقة أمرا متعذرا أو عسيرا •

٥ ـ انشاء الصيغة التاريخية : يحتاج التاريخ الى صيغة للتعبير عن طبيعة ظواهره المختلفة ، وينبغى أن تكون الصيغة التاريخية مختصرة ودقيقة ، هذا وقد يوجد التعارض بين الاختصار والدقة ، فالاسلوب المختصر ربما يحول دون فهم المراد ، كما أن الاسلوب المطول ربما يقلل من قيمة التاريخ المكتوب ، ويقدم للقارىء ما ليس ضروريا ، ومن ثم فيحسن اتباع طريق وسط بين الطريقين ، وذلك بضغط الحقائق أو الحوادث ، وحذف كل ما هو ضرورى لايضاحها •

سابعا ـ العرض التاريخى :

يمثل العرض التاريخى آخر مرحلة من هذا المنهج ، وهى ليست أسهل المراحل ، وبالضرورة لا تصبح كتابة التاريخ سهلة ، الا حينما تكون الحقائق ماثلة أمام الباحث ، مثبتة مرتبة معللة مشروحة ، وعندما يتخيل الباحث موضوع البحث كله ، كوحدة عامة ، ويدرك الاهمية بالنسبة لأجزاء البحث المختلفة ، ويحس اللغة التى يكتب بها هذا البحث على أنه من المحزن ، بل من المخزى ، أن بعضنا ممن يكتبون رسائل الماجستير والدكتوراه فى هذه الايام ، يكادون لا يستطيعون كتابة

رسائلهم بلغة عربية سليمة ، بل ان بعضا منهم لا يكاد يفقه كثيرا من معانى الكلمات العربية التى كتبت بها رسائلهم ، كمـا أن بعضا منهم لا يكاد يستطيع قراءة الملخص الذى يكلف بالقائه أمام لجنـة المناقشة (The Degree Committee) دون أن يخطىء فيه مرات ومرات •

وعلى أية حال ، فهناك شروط معينة للعرض التاريخى ، منها (أولا) أن يكون للباحث فى التاريخ المقدرة على حسن التعبير باللغة التى يكتب بها ، ومن ثم فيجب أن يكتب بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله بالبحث ، وأن يكتب بأسلوبه الخاص الذى تتضح فيه شخصيته ، والا يكتب بأسلوب أدبى صرف ، وذلك لان المنهج العلمى الذى يجب على الطالب ممارسته أو تطبيقه فى الكتابة التاريخية انما يتطلب التعبير بطريقة عقلية أكثر منها عاطفية ، وان كان فى امكانه الاعتماد على الادب من آن لاخر ، تخفيفا للجانب العقلى ، بشرط ألا يتعدى ذلك الجانب الأدبى على الجانب العقلى ، وبذلك يكون الباحث قد استخدم الاسلوب العلمى ، وأنصف التعبير عن الحقائق ، ولا ريب فى أن ذلك الاسلوب فى المنهج انما يتطلب التدريب على الكتابة بأسلوب علمى سليم ، ويتأتى ذلك بقراءة الكتب التاريخية المكتوبة بمنهج علمى •

ومنها (ثانيا) توفر الوحدة التاريخية فى الكتابة فى الموضوع ، ومنها (ثالثا) على الباحث أن يكتب ، وفى ذهنه احتمال الوقوع فى الخطأ ، ومن ثم فعليه أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكتشف عنه من الاخطاء ، اذا ما ظهرت له معلومات أو أدلة جديدة ، وبعد ذلك على الباحث مراعاة مسألة الهوامش والحواشى ، وأن تكون الهوامش جزءا هاما فى أسفل الصفحات ، أو فى نهاية الفصل ، أو فى نهاية الكتاب ، وعلى الباحث ان أراد أن يورد فى الهامش نصا أصليا مأخوذا من مخطوط أو من مطبوع ، أن يكون ذلك بلغة النص الاصلية[٢٠] •

---

(٢٠) انظر عن كتابة الرسائل الجامعية والمراجع الخاصة بها (محمد بيومى مهران : منهج البحث التاريخى — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٧ — ٣٩ ، ٥٩ — ٧٠ ، أكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٢١ — ٣٤ •

ومنها (رابعا) أن يحس الباحث بمسئوليته عن النصوص التي يقتبسها أو يعتمد عليها ، والا يبرز سكوته أو رضاه بالمقولة المشهورة «العهدة على الراوى» ؛ لأنه باحث ، وليس راوية ، والفرق بين الاثنين واضح، وقد نبه على ذلك «تاج التبريزى» بقوله : «ان الايراد على المصنف من جهة عدم مطابقة المثال للمسألة المفروضة ولو كان حاكيا ، لانه أقره فرضيه» ومن ثم فيجب عدم الاستسلام للنصوص ، وانما يجب مناقشتها بعقلية ناقدة ، ومن الضرورى أيضا استعمال المراجع وفق تخصصها ، وقد تعقب «ابن حجر العسقلانى» «ابن الصلاح» (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) ، عندما نقل عبارة عن «أبى عمر الدانى» مبينا أن الدانى أخذها من «الحاكم النيسابورى» (ت ٤٠٥هـ) ، وأن نقلها عن الحاكم أولى ، لانه من أئمة الحديث ، والكلام يتعلق بمسألة حديثية ، وتعجب الحافظ ابن حجر كيف نزل «ابن الصلاح» عنه الى النقل عن «الدانى» . كما نبه الحافظ ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢هـ/١٣٧٣ - ١٤٤٩م) الى ضرورة العزو الى المصدر الاقدم ، وتعقب شيخه العراقى عندما نقل رواية من «ابن عبد البر» (٣٦٣ - ٤٦٣هـ) بأنه قد رواها «ابن عوانة» فى صحيحه ، و «الطحاوى» (ت ٣٢١هـ) فى «شرح معانى الآثار» والجوزقى فى «المتفق» فعزوها الى رواية أحدهم ، أفضل من عزوها الى «ابن عبد البر» ، لتأخر زمانه .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه على الطالب ، اذا ما أنجز كتابة مبحث أو فصل من رسالته ، أن يقدمه الى المشرف ليبين ملاحظاته عليه ، ثم يقوم باعادته الى الطالب الذى يقوم بدوره باعادة الكتابة ، مع الأخذ بملاحظات الاستاذ المشرف ، ثم يعيده اليه ثانية ، فاذا ما اقتنع به أقره ، والا أعاده اليه ، ليعيد التعديل ، وفقا للملاحظات الجديدة ، ويستمر الطالب فى عرض الابواب أو الفصول على المشرف تباعا ، حتى ينتهى من كتابة الرسالة ، ثم يقدمها للمشرف كاملة ، ليقرأها القراءة الاخيرة ، ويبدى الملاحظات المتنوعة ، ثم يقوم الطالب بتعديلها واعادة تقديمها للاستاذ المشرف ليأذن له بطبعها على الالة الكاتبة .

هذا،ورغم أن الطالب هو المسئول الاول عن اختيار موضوع رسالته وكتابتها ، غير أن لمسات المشرف يجب أن تظهر فيها من خلال هذه القراءات والملاحظات التي يبديها ، هذا فضلا عن أن المشرف سيعينه في اختيار الموضوع،وتحديد خطة البحث ، ومواجهة المشاكل المستعصية عليه ، واكسابه روح البحث والتفاني فيه ، ومواصلة العمل ببعث الاعتزاز فيه ، واشعاره بأهمية بحثه • وتطمينه بالنسبة لتقدم البحث ، وتربيته، في نفس الوقت ، على الاعتماد على النفس ، وحل المشاكل ، وابراز ذاتيته وروحه في الرسالة ـ أفكارا وأسلوبا ـ لان الطالب هو المسئول عن رسالته أمام لجنة المناقشة ـ أي اللجنة العلمية لمناقشة الرسالة(٢١)

ثامنا : ملاحق البحث : وهي مجال لتقديم أو نشر مختارات من الاصول التاريخية التي اعتمد عليها البحث ، ويذهب البعض الى أن نشر هذه الاصول انما هو أمر جوهري ، ذلك لانه انما يقدم للقارىء المختص شيئا من المادة الاولية التي استقى منها الباحث معلوماته،ومن الافضل أن تنشر هذه الاصول بلغاتها ـ فضلا عن أهجائها وأخطائها، كما وردت بغير تعديل ـ على أن يكون نشرها مصحوبا بشرح ألفاظها الغريبة ، وتصحيح أخطائها ، والتعليق على نصوصها ، وبيان قيمتها التاريخية •

تاسعا : الحواشي والهوامش : وهي وعاء تصب فيه المعرفة الزائدة عن قدرة المتن على استيعابها ، وهو الاطار الذي يفصل فيه ما قد يغمض في المتن ، وهي مرصد لمصادر البحث ومراجعه ، وهي قاعدة الصفحة أو جذورها ، التي تكشف للقارىء عن عمق المتن وصلابته ، ويمكن استعمال الحواشي في أمور كثيرة ، منها (أولا) الاشارة الى المصدر أو المرجع الذي اعتمد عليه الباحث في كتابة المتن ، وهو ما يقترح تسميته بالصيغة البيليوجرافية للحاشية أو الاسلوب البيبليوجرافي

---

(٢١) أكرم ضياء العمري : المرجع السابق ص ٣٨ ـ ٣٣ •

للحاشية ، ومنها (ثانيا) تفصيل الموجز أو الغامض الوارد بالمتن بمحافظة على السياق العام ، ومنها (ثالثا) احالة القـارىء الى أماكن أخرى سابقة أو لاحقة فى الدراسة التى يعدها الباحث ، لتحقيق الترابط بين أطراف الموضوع •

ومنها (رابعا) توجيه القارىء الى مصادر ومراجع اضافية تخدم نقطة فرعية أو ثانوية للوقوف على مزيد من المعرفة ، ومنها (خامسا) وضع نصوص بلغة أجنبية بدون ترجمة ، ومنها (سادسا) نقد النصوص والادلة التاريخية ، وهنا تكون الحاشية مجالا للحوار بين قسمى الصفحة الواحدة ، ومنها (سابعا) نقد أو مناقشة رأى لمؤلف آخر حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (ثامنا) التوفيق بين الاراء الخلافية حول موضوع ورد بالمتن ، ومنها (تاسعا) التعريف بالاعلام والاماكن الوارد ذكرها فى المتن ، مما لا يتسع له[٢٢] •

عاشرا ــ طريقة كتابة المصادر والمراجع : ويمكن أن يتبع فيها ما يأتى :

أ ــ عند ورود المصدر أو المرجع لاول مرة : يكتب كالتالى :

اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + الجزء (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة •

أحمد فخرى : مصر الفرعونية ــ القاهرة ــ مكتبة الانجلو المصريه ١٩٨١م ص ١٠ •

محمد بيومى مهران : مصر والشرق الادنى القديم ــ الجزء العاشر تاريخ العراق القديم ــ الاسكندرية ــ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٠ ص ١٠٠ •

---

(٢٢) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر : المرجع السابق ص ٧٣ ــ ٧٤ •

ب ـ اذا تكرر المصدر او المرجع فى حاشيتين متتاليتين ـ اى لم يفصل بين الحاشيتين فاصل آخر ـ

يكتب كالتالى :

نفس المرجع السابق ـ نفس الصفحة ـ ان لم يحدث تغيير فيها بين هذا الهامش والسابق له .

وهذا يعنى عدم ذكــر اسم المؤلف ، أو اسم الكتاب ، للتتابع أو التعاقب بين الحاشيتين ، وعدم وجود فاصل ببليوجرافى بينهما .

جـ ـ اذا فصل التعاقب حاشية او اكثر (مرجع او اكثر) او ان الحاشية ضمت أكثر من مرجع ،

يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + المرجع السابق + الصفحة

محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٥٠ .

على أنه يجب أن يلاحظ أنه فى حــالة اذا ما كان للمؤلف أكثر من مرجع ، أستخدم فى نفس البحث ، فــلا يشار هنا بالمصطلح «المرجع السابق» ، ذلك لان هذا المصطلح لا يؤدي فى هذه الحالة المراد به ، ومن ثم فيجب أن تكتب البيانات الخاصة بكل مرجع لنفس المؤلف كاملة.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أمرين : ترتيب المراجع فى الحاشية الواحدة ، وطريقة كتابة المرجع المشترك :

١ ـ **طريقة ترتيب المصادر أو المراجع فى الحاشية** : وهــذه تخضــع لعدة معايير ، أولها : أن المصادر أو المراجــع الاكثر أهمية بالنسبة للموضوع تأتى أولا ، وثانيها : أن المصدر أو المرجع الذى تم الاقتباس منه يتقدم غيره ، وان تناول نفس الموضوع ، وثالثها : أن المصدر يتصدر الحاشية ، ثم يأتى بعده المرجع ، ورابعها : عند تساوى الاهمية للمصدر

أو المرجع فى الحاشية الواحدة ، فيتم ترتيبها طبقا لسنة النشر فيسبق الاقدم منها الاحدث ، ولا تخضع طريقة الترتيب هذه للحروف الهجائية أبـــدا •

٢ ـ طريقة كتابة المصدر او المرجع المشترك : ١ ـ اذا اشترك فى تأليف الكتاب شخصان ـ مثلا ـ وجب الإشارة اليهما ، كما فى المثال التالى :

أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ـ الجزء الاول ـ العصر الفرعونى ـ القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٤ ص ١٠ •

٢ ـ اذا اشترك فى تأليف الكتاب ثلاثة أشخاص فأكثر ، فيذكر اسم الاول منهم ـ كما جاء على غلاف الكتاب ـ ثم يعقبه بكلمـة «وآخرون» •

السيد الحسينى وآخـــرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٧٩ ص ١٠٠ •

٣ ـ اذا تعدد المؤلفون ، وكان لكل منهم فصل ـ أو أكثر ـ فى الكتاب الواحد ، فيعامل معاملة المقال ، ويكتب ، لأول مرة كالتالى :

اسم المؤلف كاملا + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) + مكان النشر وسنة النشر + الصفحة •

عبد العزيز صالح : الرياضيات فى مصر القديمة ـ تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة العربية ـ ١٩٦٢م ص ٥٨٧ •

وأما اذا تكرر نفس المرجع ، فيتبع نفس النظام السابق عند تكرار المصدر أو المرجع •

هذا ويرى البعض انه ان كان للكتاب (المتعدد المؤلفين) مشرف أو محرر Editor ، فان الاشارة هنا تكون للمحـــرر ، وليس لمجموعة المؤلفين ، وهى طريقة تتبع فى الكتب الاجنبية ، وان كنت أفضل الطريقة الآنفة الذكر •

ثانيا ـ الكتابات المترجمة الى اللغة العربية :

وهذه الكتابات يتبع فيها نفس النظام المتبع فى الكتابات العربية ، مع اضافة اسم المترجم (والمراجع ان وجد) ، بعد اسم الكتاب ، ومن ثم فهو يكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب + الجزء (ان وجد) + اسم المترجم + اسم المرجع (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة ، ويكتب كالتالى :

جيمس هنرى برستد : تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ــ ترجمة زكى سوس ــ القاهرة ــ دار الكرنك ١٩٦١ ص ٥٠ •

سير ألن جاردنر : مصر الفراعنة ــ ترجمة نجيب ميخائيل،ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٣م ص ١٠٠ •

جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل ــ الجزء الثالث ــ ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد ، ومراجعة محمد جمال الدين مختار ــ القاهرة ــ مطبعة جامعة القاهرة ــ ١٩٧٢ ص ٥٠ •

وأما الكتاب المحقق فيكتب كالتالى :

اسم المؤلف + اسم الكتاب المحقق + الجزء (ان وجد) + اسم المحقق + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة •

الحافظ ابن خلف الدمياطى : المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح ــ

تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ومحمد رضوان ـ مكة المكرمة ـ عبد الملك بن دهيش (مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة) ـ ١٩٨٦ ص ١٩٠٠

ابراهيم بن محمـــد بن سالم بن ضويان : منار السبيل فى شرح الدليل ـ الجزء الاول ـ تحقيق زهير الشاويش ـ بيروت ـ المكتب الاسلامى ـ ١٩٧٩ ص ٤٥٢ •

ثالثا ـ الكتابات الاجنبية :

١ ـ يكتب المصدر أو المرجع الاجنبى عنـــد وروده ، لأول مرة ، كالتالى :

١ ـ اسم المؤلف كاملا + اسم الكتاب كاملا + (الجزء أن وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة •

Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, At The Clarendon Press, 1961, p. 400.

٢ ـ فى حالة تعدد المؤلفين ، فيكتب كالتالى :

اسم المؤلف + عنوان المقال + اسم الكتاب (أو الدورية) + الجزء (ان وجد) + مكان النشر واسم الناشر وسنة النشر + الصفحة •

Elise J. Boumgartel, Predynstic Egypt, in The Cambridge Ancient History, I, Part, I, Cambridge, At The University Press, 1970, p. 463.

W. G. Hayes, The Coptes Degress, in JEA, GXXII, 1946, pp. 3-23.

٣ ـ اذا تكرر المصدر أو المرجع مباشرة فى حاشيتين متتاليتين ، ولم يفصل بينهما مرجع آخر ، يكتب كالتالى :

Ibid., p. 463.

وكلمة "Ibid" اختصار للكلمة اللاتينية (Ibidem) بمعنى نفس المرجـــع السابق فى المراجع العربية ، وهى هنا تحل محل اسم المؤلف ، فضلا عن المرجع نفسه •

٤ ـ في حالة وجود مرجع يفصل بين المرجعين ، فتستعمل (Op-Cit) وهي اختصار لكلمتين لاتينيتين همـــا Opero - Citato ومعناها المرجع السابق ، وفي هذه الحالة يجب أن يكتب اسم المؤلف قبلهـــا ، كما في المثال التالي :

Elisé J. Boumgartel, Op. Cit., p. 463.

وذلك لان (Op-Cit) انما تشير الى المرجـــع ، وليس المؤلف ، بينما تشير Ibid الى المؤلف والكتاب سواء بسواء •

٥ ـ على أن الباحث اذا ما أراد الاشارة الى نفس المرجع ونفس الصفحة ، فعليه أن يستعمل الاختصار (Ioc , Cit) الذي يشـــير الى الكلمتين اللاتينيتين (Ioco-Citato) بمعنى نفس المرجع ونفس الصفحة•

٦ ـ أما اذا أراد الباحث الاشارة الى نفس الصفحة من نفس الكتاب الوارد في حاشية سابقة مثل :

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 20.

فان الاشارة التالية تكون كالتالي :

A. H. Gardiner, Ioc-Cit, (Ioco-Citato)

والتي تعني (In The Place Cited)

وهذا الاختصار ، الذي يشير الى نفس الصفحة ، ونفس الكتاب ـ كما أشرنا آنفا ـ يستعمل عندما لا يفصل بين المرجعين فاصل ، والا استخدمت (Ibid) •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، أنه ليس من الضروري أن يذكر اسم المؤلف ، وعنوان الكتاب كاملا ، مادام ذلك معروفا مثل : الصابي : تاريخ الوزراء ص ٧٨ ، وذلك بدلا من :

أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٨٧ •

ومثل

R. Coke, Baghdad, p. 13.

بدلا من :

Richard Coke, Baghdad, The City of Peace, p. 13

وفى المراجع الاجنبية يشار الى الجزء بـ (Vol) اختصار (Volume) والى الصفحة (P) بدلا من .Page •

هذا وقد وضع الباحثون لاستعمال الارقام فى الرسائل نظاما : مؤداه أن الرقم الذى لا يحتاج الطالب فى التعبير عنه الى أكثر من ثلاث كلمات، ينبغى أن يكتب بالكلمات ، مثل : (ألفان — مائة وثلاثون — مائة وثلاثة وأربعون) ، أما اذا احتيج فى التعبير عنه الى أكثر من ثلاثة كلمات ، فتستعمل الارقـــام مثل (١٤٦٥) وهناك أشياء اصطلح على كتابتها بالارقام مثل : الرقم الذى يشير الى مبلغ من المال ، ورقم الصفحات فى الكتب ، والنسبة المئوية والتـــاريخ والارقام التى توضح الجداول والصور والرسوم •

على أن هناك حالة يجب أن يكتب فيها العدد بالحروف ، وإن احتيج فى التعبير عنه الى أكثر من ثلاث كلمات ، وذلك فيما اذا وقع ذلك العدد فى أول الجملة ، كأن تقول : ألف وثلاثمائة وأربعة وعشرون طالبا،نجحوا فى الامتحان ، وان كان على الطالب أن يتجنب استعمال هذا الاسلوب، أو على الأقل ، التقليل منه كلما أمكن ذلك •

وأما طريقة ترقيم صفحـــات الرسالة ، فيجب أن يبـــدأ الترقيم بالحروف الهجائية (أ•ب•ح•د•ه•و•ز•ح،ط،ى) ، ويشمل ذلك صفحة العنوان (لا يوضع لها رقم ، ولكنها تحسب فى الترقيم) ويشمل كذلك صفحـــة التقدير والاعتراف ، والفهارس (ان كتبت فى أول الرسالة) والمقدمة،ثم تبدأ الارقام العربية (١،٢،٣ ••• وهكذا) مع بدء الرسالة نفسها •

هذا وقد يكون فى الرسالة لوحات طويلة تنشر وتطوى ، وتتكون كل منها من عدة ورقات ملتصقة ، فكل لوحـــة من هذه اللوحات تحمل

رقما واحدا ـ مهما كان طولها ، وعدد أوراقها ـ وفى الرسائل يجوز وضع الرقم فى منتصف الصفحة من أعلى أو من أسفل ، وان كان من الافضل أن يوضع الرقم فى الطرف الاعلى للصفحة من جهة الشمال ، ولا توضع نقطة بعد الرقم ، كما أنه لا يحاط بالاقواس .

حادى عشر ـ تنظيم الرسالة الجامعية : عندما تستكمل الرسالة الجامعية كل عناصرها ـ وقبل القيام بطبعها على الالة الكاتبة ـ يجب أن تتضمن التسلسل التالى :

١ ـ تقديم : وفيه يشكر الطالب الاستاذ المشرف (Supervisor) على الرسالة ، وكل من ساعده من الاساتذة الاخرين والعلماء والباحثين وأمناء المكتبات وغيرهم .

٢ ـ مقدمة : وتتضمن أهمية الموضوع الذى بحثه ، وسبب اختياره له ، والخطة التى سلكها فى بحثه ، والمصادر التى توفرت له ، والمشاكل التى واجهته ، والدراسات التى سبقته فى الموضوع ، وما تركته له من ثغرات عالجها ، أو نظريات نقدها ـ أو أيدها ـ والاضافات العلمية التى قدمتها الرسالة (وان كان البعض يفضل ذكر تلك الاضافات فى الخاتمة) ومقترحاته للباحثين الاخرين ، بطرق جوانب معينة تحتاج ـ من وجهة نظره ـ الى الاهتمام ، وقد عرفها من خلال دراسته للموضوع ، وينبغى أن تكون المقدمة واضحة وشاملة ، بحيث يعرف القارىء أهمية الرسالة ، ومدى حاجاته الى متابعة التفاصيل التى تحتويها ، ومن ثم فيجب ألا تكتب المقدمة ، الا بعد الانتهاء من كتابة الرسالة ، حتى يتكون لدى الباحث نظرة شاملة للموضوع تتيح له أن يشير فى مقدمة البحث الى تلك النقاط التى أشرنا اليها آنفا .

٣ ـ أبواب الرسالة وفصولها : مع ملاحظة وضع ورقة تفصل بين عنوان الباب أو الفصل فقط .

٤ ـ فهرس المحتويات : وفيه عناوين الابواب والفصول والمباحث

(أو العناوين الصغيرة) مع ذكر أرقام الصفحات التى وردت فيها (وان كنت أفضل أن يكون بعد قائمة المصادر والمراجع) •

٥ ـ **الخاتمة او خلاصة البحث :** وتتضمن ملخصـا لكل محتويات الرسالة ، من حيث اطاره العام ونتائجه •

٦ ـ **قائمة المصادر والمراجع :** وترتب أسماء المؤلفين حسب حروف المعجم ، ويذكر اسم المؤلف كاملا ، واسم كتابه كاملاً ، وعدد أجزائه (واسم المحقق ان كان مخطوطا،والمترجم ان كان معربا عن لغة أجنبية)، واسم الناشر ومكان الطبع (واسم المطبعة ان أمكن) ، وتاريخ الطبع، والبعض يدمج قائمة المخطوطات والمطبوعات والمصادر القديمة والمراجع الحديثة ، ويفصل المراجع الاجنبية عنها فقط ، فى حين يضـع البعض قوائم منفصلة لكل منها ، على أن هناك فريقـا ثالثا ، انما يفضل أن يكتب : المراجع العربية أولا ، ثم المراجـع المترجمة الى اللغة العربية ثانيا ، ثم المراجع الاجنبية ثالثا ، وهذا ما نميل اليه •

على أن هناك من يرتب القائمة على أسماء الكتب ، وفـق حروف المعجم ، فى حين يرتب آخرون المصادر على الموضوعات التى تتناولها، مع مراعاة الترتيب المعجمى داخل الموضوع •

هذا مع مراعاة أن صياغة الاسم العربى يجب أن تتم طبقا للترتيب الطبيعى للاسم ، أى اسم الشخص فالاب فالجد أو اللقب ، أما بالنسبة للاسماء غير العربية ، فيعتمد ترتيبها بدءا باللقب ، مع وضع فاصلة (و) بين اللقب وباقى أجزاء الاسم ، ويمكن أن يطبق منهج صياغة الاسماء الاجنبية على الاسماء العربية التى ترجع الى ما قبل القرن التاسع عشر الميلادى ، وهاك بعض الامثلة على ذلك •

١ ـ محمد بيومى مهران : حركات التحـرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٧٦م •

Wilson, (John. A), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

٣ ــ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك الجزء الاول ــ القاهرة ــ دار المعارف ــ ١٩٦٠ •

هذا ويراعى أن الاسماء الاجنبية ذات البادئة ، انما تحتفظ بهذه البادئة على الاغلب فى الترتيب الهجائى ، ويكتب مكانه فى التسلسل[٢٣] فمثلا :

O'Leary (De Lacy D. D.) Arabia before muhammad, London 1927.

ويجب أن يكتب فى مكانه من التسلسل فى قائمة حرف (O) •

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القاعــدة التى جرى العمل بها فى الرسائل ــ كما جاءت فى المراجــع الاجنبية ــ ألا يذكر الباحث ألقاب ووظائف أولئك العــلماء والباحثون الذين رجع اليهم صاحب الرسالة فى بحثه ، ومن ثم فهو يقول : ويرى ابن الأثير •••، ويميل طه حسين الى •••• ويؤيد ألن جاردنر رأيه ••• وهكذا ، غير أن ذلك ــ فيما أميل اليه ــ لا يبدو مقبولا على هذا النحو فى أساليبنا العــربية ، وتقاليدنا الشرقية ، بله وتعــاليمنا الاسلامية ، فليس من المستساغ أن نقول :

ويرى عبد العزيز صالح ••• ويذهب محمد جمــال الدين مختار الى ••••، بدون أن نذكر لقبه العلمى (الدكتور) •

ومن ثم فاننى أفضل للطالب العربى أن يذكر اللقب العلمى عندما يتحدث عن أساتذته ــ وهم المفروض أنهم الاسوة الحسنة له فى ميدان تخصصه ــ والا نقلد الاجانب فى كل شىء ، ذلك لان للقوم تقاليدهم ، ولنا تقاليدنا ، وقد علمنا ديننا الحنيف ــ الاسلام ــ وتقاليد سلفنا الصالح أن نوقر العلماء ــ التوقير كل التوقير ــ قال تعالى «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»[٢٤] ، قال ابن عباس ــ

---

(٢٣) انظر : أحمد شلبى : المرجع السابق ص ١٠٠ ــ ١٢٤ ، ١٥٨ــ ١٦٠ ، اكرم ضياء العمرى : المرجع السابق ص ٣٣ ــ ٣٤ ، عادل حسن غنيم وجمال حجر : المرجع السابق ص ٧٣ ــ ١١٨ •
(٢٤) سورة المجادلة : آية ١١ •

حبر الامة وترجمان القرآن ـ : العلماء فوق المؤمنين مائة درجة ما بين الدرجتين مائة عام .

وقال تعالى «شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط»(٢٥) ، وهكذا بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم ، وكفاهم بذلك شرفا وفضلا وجلالة ونبلا .

وقال تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»(٢٦)، وقال تعالى «فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون(٢٧) ، وقال تعالى «وما يعقلها الا العالمون»(٢٨) ، وقال تعالى «بل هـو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم»(٢٩) ، وقال تعالى «انما يخشى الله من عباده العلماء»(٣٠) ، وقال تعالى «أولئك هم خير البرية» الى قوله تعالى «ذلك لمن يخشى ربه»(٣١) ، فاقتضت الايتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى ، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية ، فينتج أن العلماء هم خير البرية(٣٢) .

وقال سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ «العلماء ورثة الانبياء»، وحسبك هذه الدرجة مجدا وفخرا ، وبهذه الرتبة شرفا وذكرا ، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة ، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة، وعنه ﷺ ـ لما ذكر عنده رجلان ، أحدهما عابد والآخر عالم ـ فقال «فضل العالم على العابد ، كفضلى على أدناكم» ، وعنه ﷺ أنه قال «من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك به طريقا من طرق الجنـة ، ولن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العرب لرضا الله عنه ، وأن العالم ليستغفر له من

---

(٢٥) سورة آل عمران : آية ١٨ .
(٢٦) سورة الزمر : آية ٩ .
(٢٧) سورة النحل : آية ٤٣ .
(٢٨) سورة العنكبوت : آية ٤٣ .
(٢٩) سورة العنكبوت : آية ٤٩ .
(٣٠) سورة فاطر : آية ٢٨ .
(٣١) سورة البينة : آية ٧ ـ ٨ .
(٣٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم ـ من كتاب آداب المتعلمين ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ بيروت ١٩٦٧ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

فى السموات ومن فى الارض ، حتى الحيتان فى جوف الماء ، وان فضل العالم العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وأن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذه بحظ وافر» .

وقال ﷺ : يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشهداء» ، وقال بعضهم : هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه ، وأدنى ما للعالم مداده،وقال ﷺ «من أكرم عالما فكأنما أكرم سبعين نبيا ، ومن أكرم معلما فكأنما أكرم سبعين شهيدا» ، وقال ﷺ «من صلى خلف عالم فكأنما صلى خلف نبي ، ومن صلى خلف نبى ، فقد غفر له» .

وقال الامام على — رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة — «كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به اذا نسب اليه، وكفى بالجهل ذما ، أن يتبرأ منه من هو فيه» ، وقال سفيان بن عيينة «أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده ، هم الانبياء والعلماء» ، وقال أيضا «لم يعط أحد فى الدنيا شيئا أفضل من النبوة ، وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه»[٣٣] .

وقال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم» .

وفى سيرة السلف الصالح خير شاهد على ذلك ، قال الشعبى : «صلى زيد بن ثابت ، فقربت اليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس،فأخذ بركابه ، فقال زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، ﷺ»[٣٤] .

وقال ﷺ : «ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف

---

(٣٣) نفس المرجع السابق ص ١٧٠ — ١٧٢ .
(٣٤) الغزالى : آراؤه فى التربية — آداب المتعلمين ص ٨٨ ، ١٠٢ .

لعالمنا حقه»[٣٥] ، ومن هنا فقد إهتم كثير من الائمة بواجبات المربين نحو طلبتهم ، ودونوا هذه الواجبات فى مؤلفاتهم ، لانهم رأوا أن مهنة التعليم صناعة هى أشرف الصناعات ، كما يقول حجة الاسلام «أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى» (٤٥٠ ــ ٥٠٥هـ/١٠٥٩ ــ ١١١١م)؛ فالمعلم متصرف فى عقول البشر ونفوسهم ، وأشرف ما فى الانسان عقله ونفسه ، فمحل صناعة التعليم أشرف الاشراف ، ومن ثم فقد حظى علماء المسلمين بالاحترام الواجب للمعلم عند طلبته ، لان طالب العلم،لاينال العلم ولا ينتفع به ، الا بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الاستاذ وتوقيره[٣٦] .

وروى عن الامام على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة ــ «ان من حق العالم ، الا تكثر عليه بالسؤال ، ولاتعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه آذا كسل ، وتأخذ بثوبه اذا نهض ، ولاتفشى له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وان زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ، مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته»[٣٧] ، وقال نصير الدين الطوسى (٥٦٧ ــ ٦٧٢هـ) : «ينبغى لطالب العلم أن لا يجلس قريبا من الاستاذ عند السبق بغير ضرورة ، بل ينبغى أن يكون بينه وبين الاستاذ قد القوس ، لانه أقرب الى التعظيم»[٣٨] .

وانطلاقا من كل هذا ــ وغيره كثير ــ فأقل التقدير من التلميذ لأساتذته أن يخاطبهم بألقابهم العلمية ، وأما عند ذكر المصادر والمراجع فى الرسالة ، فالافضل عندى ، أن يذكر اسم المؤلف مع لقبه العلمى ،

---

(٣٥) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٣٦) مقدمة آداب المتعلمين ص ٢٠ ، شرف الدين خطاب : التربية فى العصور الوسطى ص ٦٣ وما بعدها .

(٣٧) الغزالى : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣٨) نصير الدين الطوسى : آداب المتعلمين ص ١٤٦ .

والامر كذلك فى التقدير والاعتراف بالجميل ، أما الالقاب غير العلمية مثل الوزير والعميد ، وما شابهها ، فليس فى الرسائل الجامعية مجال لها ، كما يجب أن يبتعد الطالب عن ذكر عبارات : العـــالم الجليل ، وأستاذنا الكبير ، والعلامة ، فأمثال ذلك يجب أن تخلو منه الرسالة الجامعية(٣٩) .

---

(٣٩) احمد شلبى : المرجع السابق ص ٩٩ .

الفصل السادس

مصادر التاريخ المصرى القـــديم

تعتمد الدراسة فى تاريخ مصر الفراعنة على مصادر أربعة أساسية هى : الآثار المصرية ، وماكتبه الرحالة والمؤرخون من الاغارقة والرومان، الذين زاروا مصر ، وكتبوا عنها كتبا كاملة ، أو فصولا من كتب ، ثم المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الادنى القديم ، وأخيرا ما جاء فى التوراة والقرآن الكريم عن مصر وأحوالها ، ولنحاول الان أن نتحدث بشىء من التفصيل عن هذه المصادر الاربعة :

أولا : الاثـــار المصرية

لاريب فى أن الآثار التى تركها لنا المصريون القدامى ، وما تمد به الباحث فى تاريخ الكنانة من معرفة ، سطرت على جدران المعابد والمقابر والاهرامات ، والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وقراطيس البردى وغيرها ، انما هى المصدر الاول لتاريخ مصر القديمة ، فهى تتحدث عن الكثير من أخبار القوم ، وتروى معلومات هامة عن عقائدهم وفنونهم .

وفى الواقع ، فان الآثار المصرية ــ التى تتضاءل بجانبها آثار أى بلد آخر ــ انما تمتاز بوفرة هائلة ، ترجع (أولا) الى العقيدة الدينية التى قضت أن يتزود القوم لحياتهم الاخرى ، على نحو ما كانوا يفعلون فى حياتهم الدنيا ، وترجع (ثانيا) الى تقدم المصريين فى الفنون والصناعات والبناء ، مما أتاح لهم أن يشيدوا تلك الثروة الهائلة من التراث القومى المنقطع النظير ، وترجع (ثالثا) الى جفاف مناخ مصر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار ، فضلا عن صيانة الاجساد ، صيانة لا يمكن أن توجد فى الاحوال الطبيعية فى أى جزء آخر من العالم[1] .

---

(١) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ــ ترجمة زكى سوسن ــ القاهرة ١٩٦١ ص ٨٥ ، محمد جمال الدين مختار : تاريخ الحضارة المصرية ــ العصر الفرعونى ــ مصادر التاريخ الفرعونى ــ المجلد الاول ــ القاهرة ١٩٦٢ ص ٨٣ .

على أن الباحث انما يلاحظ على هذا المصدر الاصيل عـــدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن كثيرا من الآثار انما هـــو صادر عن المقابر أو المعابد،ومن هنا فقد كان المظهر السائد لمعظم ما يعثر عليه فيها دينى ، ومنها (ثانيا) أن كثيرا من هـــذه الآثار ، انما قد كتب بأمر من الملوك ـــ أو بوحى منهم ـــ ولذا تفكرنا أن الملك فى العقيدة المصرية انما كان الها أكثر منه بشرا ، وجب علينا أن نكون على حـــذر فيما ترويه عن الحروب بين مصر وجيرانها ، ذلك أن المصريين كانوا لا يستسيغون أن يهزم «الملك المؤله» فى حرب خاض غمارها ، ومن ثم فان النصر يكاد يكون حليفه فيها دائما ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[2] .

وهنا وجب على الباحث أن يقارن هذه النصوص بما يعاصرها من نصوص الدول الاخرى ، ذات الصلة بهذه الاحداث ، حتى يتبين وجه الحق فيها ـــ قدر استطاعته ـــ ومن أمثلة ذلك ، موقعـــة قادش التى دارت رحى الحرب فيها حوالى عام ١٢٨٥ قبل الميلاد ، بين الفرعون «رعمسيس الثانى» والملك الحيثى «مواتيلا» وزعم فيها كل منهما أن النصر كان من نصيبه ، غير أن الحقائق التاريخية ـــ فيما أظن ـــ انما هى فى جانب فرعون ، وليس مع الملك الحيثى[3] .

ومنها (ثالثا) أن هـــذه المصادر تتفاوت فيها المعلومات المتصـــلة بشطرى الوادى ، ذلك لان جلها انما هـــو صادر عن الصعيد ، بعكس الدلتا التى قدمت القليل ، ومع ذلك فان هذا التعميم عرضة للاستثناء بالنسبة لمدينتى تانيس وبوباسطة ، اللتين قدمتا نتائج هامة ، وان كان

---

(٢) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ .

(٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٣٢ ـــ ٢٣٧ .

A. Burn, *JEA*, *1921*, p. *194-195*.

A. H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses, II, Oxford, 1960, p. 6-9.

H. Goedick, Consideration on The Battle of Karesh, JEA, 52, 1960, p. 72-80.

معظمها آثار من الحجر ، الذى استطاع أن يقاوم عامل الماء ، شأنه فى ذلك شأن المعابد الرائعة فى الصعيد ، التى تقوم على الارض الزراعية على مرمى حجر من النيل •

ومنها (رابعا) أن هـــذا المصدر الوطنى انما يعيبه كذلك أن تسعة أعشار الحفائر انما تمت فى الصحراء ، حيث شاد القـــوم «مساكن الابدية» ، حيث يحفظ الرمل الجاف أكثر الاشياء عرضة للتلف ، ومن هنا كان المظهر الجنزى السائد لمعظم ما يعثر عليه ، وأما مساكن الاحياء التى كانت تبنى عن قصد من مواد أقل قدرة على الاحتمال ، فكانت تقوم فى وسط الارض الزراعية ، فالمدن والقرى النائية اليـــوم مبنية فوق أنقاض العصور السابقة ، وعندما كانت تنهار المنـــازل المبنية من اللبن كانت تحل محلها منازل أخرى تقام فوقها،وهكذا يرتفع مستوى الارض مرة بعد أخرى فوق منسوب الفيضان ، وقد أدى ذلك الى ندرة الاثار المتعلقة بالحيـــاة اليومية ، ونواحى النشاط الدنيوى ، ومع ذلك فان جزالة التعبير ، والثراء فى اللمسات الانسانية فى المستندات المصرية ، تفوق نظائرها كثيرا من بلاد الشرق الادنى القديم[٤] •

ومنها (خامسا) أن السجلات الرسمية عن أعمال الفراعين فى الدولة القديمة تكاد تكون غير قائمة ، ذلك لان الملوك كانوا مؤلهين متعالين الى أبعد الحدود ، وأقوياء بصورة تجعلهم لا يهتمون برواية أعمالهم حتى تصل الى رعاياهم،وكانت الاهرامات كافية لتقوم شاهدا على عظمتهم، ونفس الشىء ــ مع درجة أقل ــ يمكن أن يقـــال عن الاسرة الثانية عشرة[٥] •

ومنها (سادسا) ندرة الآثار التى ترجع الى بعض العصور المظلمة، ولعـــل أسوأ المراحـــل جميعا ما عرف باسم «العصر الوسيط الاول» (الاسرات من السابعة الى العاشرة) والثـــانى (الاسرات من الثالثة

4. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford,1964 p. 52-53.
5. Ibid., p. 55.

عشرة الى السابعة عشرة) ، ثم مابين الاسرات ، من الحادية والعشرين الى الرابعة والعشرين ، مما يجعل تسلسل الاحداث فى التاريخ الفرعونى غير مطرد ، تتخلله فجوات لابد من الاستعانة فى مثلها بمصادر أخرى ، ومنها (سابعا) أن زادنا من النصوص التاريخية انما يتوقف — قلة وكثرة — على مدى النجاح الذى استمتعت به مصر من وقت لاخر ، وعلى مدى استقرار الامور ، وسطوة الحاكمين فيها •

ومنها (ثامنا) أن النصوص المصرية — فى غالبيتها — صعبة الترجمة، عسير التأويل ، لم ينشر الكثير منها ، أو لم يترجم ترجمة دقيقة ، وهى ، على أية حال ، مبهمة بصفة خاصة،فيما يتعلق بالعقائد الدينية والطقوس الجنزية ، ومنها (تاسعا) أن المصريين — شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الشعوب القديمة — لم يعرفوا التواريخ المطلقة ، ولم يتفقوا على بداية زمنية ثابتة يردون اليها الاحداث ، مما جعل مهمة الباحث صعبة وشاقة فى تأريخ العصور الفرعونية ، بخاصة اذا ما تذكرنا أننا نتناول حضارة تمتد لآلاف السنين ، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة •

ومع ذلك كله ، فان الآثار — مصدرنا الاول — انما تمتاز عن غيرها من المصادر الاخرى ، بأنها المصدر الوحيد الذى عاصر الاحداث والذى أشركه المصريون — عن قصد أو غير قصد — فى الكشف عن تاريخهم وتخليد حضارتهم[٦] •

هذا ولعل أهم ماعثر عليه بين تلك الاثار — من وجهة النظر التاريخية — ماعرف بقوائم الملوك،وهى كشوف أرخت لبعض الفراعين ، ولما سبقهم من عصور[٧] ، فمنذ الاسرة الخامسة (حوالى ٢٤٨٠ — ٢٣٤٠ ق٠م)

---

(٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٣ ، ٩١ •
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 56.

(٧) بدأ التاريخ للفراعنة فى بادىء الامر ، على بطاقات صغيرة من العاج أو الخشب،ثم مالبث أن تحول الى التفصيل والاسهاب على اللوحات الحجرية وعلى أوراق البردى وفوق جدران المقابر والمعابد ، وقد هدفت هذه التسجيلات الى تخليد ذكرى الملوك ، فوصفت الاعياد الملكية،وما قام =

نرى آثارا تسجل عليها أسماء الملوك وسنى حكمهم وأهم أعمـــالهم ، وكانت آثارهم هذه دقيقة ــ فى بعض الاحايين ــ لدرجـــة أنهم لم يقتصروا فيها على ترتيب الملوك ترتيبا زمنيا وحسب، بل ذكـــروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم ، كما أنهم لم يقتصروا فيها على العصر التاريخى ، بل أرخوا كذلك لملوك فجر التاريخ ، رغبة فى تخليد الملكية المقدسة ، وليصـــلوا الفراعين بأسلافهم من الارباب الذين أورثوهم عرش الكنانة •

غير أن المعلومات التى أعطتها هذه القوائم متباينة أحيـــانا ، كما يعوزها الطابع العلمى أو التاريخى ، هذا فضـــلا عن أنها لم تقدم لنا شيئا عن النواحى الحضارية أو الثقافية ، مما جعلها محدودة الفائدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن معظمها انما يتصل باحتفالات دينية تتصل بالملكية ، وأخـــيرا فانها لم تقـــدم لنا الا القيل عن التاريخ السياسى كالحروب والغزوات ، وذلك لان الحوادث التى كانت تحتل المكانة الاكثر أهمية فيها انما كانت أوجه النشاط السلمية كالشعائر الملكية والرحلات وتشييد المبانى[8] •

وأما أهم هذه القوائم الملكية فهى : حجر بالرمو ، وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة ، وبردية تورين •

١ ــ حجـــر بالرمو :

عثر عليه فى منف ، ثم نقل الى صقلية عام ١٨٥٩م ، حيث أودع متحف العاصمة «بالرمو» عام ١٨٧٧م وهو قطعة من حجر الديوريت ،

=
به الفراعين من جلائل الاعمال ، وما قدموه لالهتهم من قرابين ، فضلا عما تناولته من الاحداث السياسية ،كحادث توحيد البلاد ،وطرد الهكسوس من مصر ،كما أسهمت نصوص المعابد وأوراق البردى فى تسجيل حروب الفراعين العظام من أمثال تحوتمس الثالث ورعمسيس الثـانى والثالث (محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٧) •

8. J. A. Wilson, Op. Cit., p. 63.

طولها حوالى مترين ، وارتفاعها حوالى ٧٠ سم ، وهناك غـيرها أربع قطع بالمتحف المصرى ، اشترت هيئة الاثار المصرية ثلاثة منها فى عام ١٩١٠م ، وعثر أحد خفرائها على القطعة الرابعة فيما بعد فى خرائب منف ، هذا الى جانب قطعة سادسة اشتراها «بترى» عام ١٩١٠ ، وتوجد الآن بمتحف الجامعة فى لندن[٩] .

هذا وقد دون على الحجر حوليات الملوك منذ أقدم العصور ، وحتى «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، كما يشير الحجر كذلك الى أسلافه «ميتا» ممن كانوا يحـكمون فى الدلتا والصعيد ، وأطلق عليهم اسم «أتباع الاله حور»[١٠] .

ولقد نقش حجر بالرمو من الجانبين ، وقسم كل جانب عرضيا الى صفوف ، وقسم كل صف الى أقسام ، وكتب على الصف العـلوى من الوجه الرئيسى أسماء حكام ما قبل الاسرات ، الذين لا نعرف شيئا عن طول مدة حكمهم أو أعمالهم ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس ، وعلى رأسه تاج الصعيد أو الدلتا ، وفى بقية الصفوف نجد الخـانة اليمنى تفصل الخـانة اليسرى بالعلامة الهيروغليفية التى ترمز الى السـنة ، وتوجد بين الصفوف ديباجة أفقية تقـدم اسم الملك التى تتصل به النصوص أدناها ، ويصحب اسمه عادة اسم «أمه» ، وتحت كل اشارة ارتفاع النيل فى تلك السنة بالذات .

وهكذا يبدو واضحا ، أن هذا السجل ــ عندما كان مكتملا ــ انما

9. W. M. F. Petrie, in Ancient Egypt, 1916, p. 114 f.
H. Gauthier, Quatres Nouveaux Fragment de la Pierre de Paleme Musse Egyptien, III, Pls. 24-31, p. 29-35.
10. J. H. Breasted, ARE, I, 1927, Parag. 76-167.
G. Daressy, La Pierre de Palerme e la Chronologie de L'Ancien Empire, BIFAO, XII, 1916, p. 16 f.
W. Kaiser, ZAS, 84, 1959, p. 119 F.
M. F. Read, Egyptian Royal Accessions during The Old Kingdom, PSBA, 36, 1914, p. 282 F.

كان سجلا سنويا مستمرا لكل الملوك المذكورين على وجهيه ، ومن ثم فلو أننا سلمنا بصحة معلومات صاحب هذه الحوليات لتحققنا من التتابع الصحيح للملوك جميعا من «مينــا» الى «نى وسر رع» سادس ملوك الاسرة الخامسة ـ رغم أن آخر اسم احتفظ لنا به هذا الحجر ، انما هو اسم «نفر ابر كارع» ـ فضلا عن عدد السنين لكل منهم ، وفوق ذلك كله ، فان احصاء بسيطا لكل الخانات انما يضع بين أيدينا مجموع السنين التى استغرقها عصر الاسرات الخمسة الاولى .

وعلى أية حال ، فحتى فى حالة الحجر الحاضرة المبتورة ، فانه يمكن استخدامه الى حد ما ، فى الاغراض التاريخية ، ذلك لانه لو وصل الينا كاملا ، فان نقوشه انما كانت تستطيع أن تعرفنــا بالكثير مما تم فى الماضى ، بقــدر ما رغب ملوك الاسرة الخامسة أن يعرفه خلفاؤهم من اهتماماتهم التى انصبت على الاعياد الدينية ، وصناعة تماثيل الآلهة ، والانتصارات على القبائل الاجنبية من وقت لآخر ، وحملات السفن وراء الحصول على المعادن ، فضلا عن بناء المعابد والقصور[11] .

وأيا ما كان الامر ، فرغم ما فى هذه المدونة من عيوب ، فانها كانت أول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك وترتيبها فى العــالم القديم ، وحسبها على هذا الاعتبار أنها «نقطة البدء» وأنها سبقت غيرها بقرون طويلة ، وأن مؤرخها الذى سبق عصرنا بنحــو خمسة وأربعين قرنا التزم فيها مبادىء ، لاتزال تعتبر من شروط التأريخ السليم ، فراعى (أولا) شرط الوضوح فى كتابته بأن فصل بين أحداث كل حول وآخر بخط رأسى ، يرمز الى كلمة الحول فى الكتــابة المصرية ، وفصل بين حوليات كل ملك وآخر بخط أفقى .

---

11. E. Naville, La Pierre de Palerme, Recueil de Travaux, XXV, Paris, 1903.
J. A. Wilson, Op. Cit., p. 62.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 63.

وراعى (ثانيا) الترتيب الزمنى فى تدوين أسماء الملوك وحوادثهم من الاقدم الى الاحدث ، وراعى (ثالثا) أمانة النقل — ما استطاع الى ذلك سبيلا — فى رواياته ، فاكتفى من جانبه بالرمز الى ملوك ما قبل الاسرات بأسمائهم ، دون أعمالهم التى لم تدونها عهودهم ، وبدأ يفصل بالتدريج فى حوليات العصور التاريخية ذات المصادر المكتوبة ، حسبما توفرت له أخبارها ، ثم أسهب أخيرا — ما شاء الله له أن يسهب — فى حوليـــات الاسرة الخامسة التى عاش فى ظلها ، وعـــرف الكثير من أخبارها[١٢] •

٢ ـ قائمـــة الكـــرنك:

نقش هذه القائمة كاتب فى عهد «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م) على جانب من معبده الفخم بأقصى مجموعة الكرنك ، وتستقـــر هذه القائمة التى تعرف أحيانا باسم «قائمة حجرة الاجداد» بمتحف اللوفر فى باريس ، منذ أن نقلها الاثرى الفرنسى «لويس دافن» فى عام ١٨٤٤م •

وقد صور فى قائمة الكرنك هذه ، الملك «تحوتمس الثالث» ، وهو يتجه بدعواته الى واحـــد وستين اسما من أسماء أسلافه الذين تحطم أولهم ، ومن ثم فقد كان أولهم «سنفرو» ، مؤسس الاسرة الرابعة ، ثم يليه بعض ملوك هذه الاسرة ثم ملوك الاسرتين الخامسة والسادسة ، ثم يتلوهم بعض ملوك الاسرات من الحادية عشرة الى السابعة عشرة •

وهكذا يتضح لنا أن «تحوتمس الثالث» انما قد سجل من الملوك من يعتقد فى شرعيتهم ، أو من كان يعتبرهم أســلافه الحقيقيين ، الذين يرتبط بهم برابطة من نسب ، ذلك لان القائمة لم تسجل كل الملوك الذين جلسوا على عرش الكنانة قبل «تحوتمس الثالث» اذ أغفلت الكثيرين

---

(١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٤ •

منهم ، بخاصة ملوك عصر الانتقال الاول ، فضلا عن الملوك من الغزاة الهكسوس(١٣) ٠

٣ ـ قائمـة أبيـدوس :

وقد نقشت فى عهد الملك «سيتى الاول» (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق٠م) على جدران معبده الكبير فى «أبيدوس» على حافة الصحراء الغربية ، عند قرية العرابة المدفونة ، على مبعدة عشرة كيلومترات الى الغرب من البلينا ، والذى يعد من أروع الاثار المصرية ، والمنظر يمثل الملك «سيتى الاول» مصحوبا بولده «رعمسيس الثانى»(١٤) (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق٠م) وهو يقدم القـرابين الى ستة وسبعين من أسلافهم ، الذين لا تقدم صورهم الشخصية ، وانما تمثلهم «الخـراطيش» التى كتبت بداخلها أسماؤهم بالهيروغليفية ٠

هذا ويتصدر القائمة الملك «مينا» كما أن القائمة تغفل كذلك أسماء ملوك تعتبرهم غـير شرعيين ، ومن ثم فهى لا تعترف بهم ، وبالتالى لا تسجل أسماءهم ، كملوك الاسرتين التاسعة والعاشرة ، وملوك عصر الانتقـال الثانى ، فضـلا عن تجاوزها ـ عن عمـد ـ لاسم الملكة «حتشبسوت» خصيمة الفرعون العظيم تحوتمس الثـالث ، فضلا عن اسم داعيـة التوحيد «اخناتون» وأقربائه ، سمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون وآى ، الذين اعتبرهم خلفـاؤهم صابئين وذلك لخروجهم على تقاليد الاسلاف الدينية(١٥) ٠

---

13. Prisse D'Avennes Menuments Egyptiens, Paris, 1847, pl. I,
K. Sethe, Urkunden des Agyptischen Altertums, Leipzig,
IV, p. 608-610.

(١٤) هناك ثبت آخر فى أبيدوس بمعبـد الملك رعمسيس الثانى ، ولكنه تحطم ، وتوجد أجزاء منه بالمتحف البريطانى ٠
(B. Porter and R. L. B. Moss; Topographical Bibliorgaphy of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts. Reliefs and Painfings. VI p. 35).

15. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 48.
ZAS, II, p. 81-83.
E. A. W. Budge, The Book of The Kings, I, London, 1908.
E. Meyer, Aegyptische Chronologie, Berlin, 1904, Pl. I,

٤ ـ قائمة سقارة :

عثر على قائمة سقارة هذه فى عام ١٨٦١م • فى مقبرة بمنف لأحد رؤساء الاشغال ويدعى «ثونرى» أو «تنرى» (وينطق تولى أو جونيروى) من عهد الملك «رعمسيس الثانى» ، وكانت تحوى أصلا خراطيش سبعة وخمسين ملكا ، يمجدهم رعمسيس الثانى ، وتوجد القائمة الان بمتحف القاهرة ، وهى لا تبدأ بالملك «مينا» ، وانما بسادس ملوك الاسرة الأولى «عدج ايب» ، وتنتهى بالملك رعمسيس الثانى ، كما أنها لم تراعى الترتيب الزمنى •

هذا وقد أغفلت القائمة كذلك ملوك الاسرات من السابعة الى العاشرة ، فضلا عن كثير من ملوك الاسرة الحادية عشرة ، وان سجلت أسماء ملوك الاسرة الثانية عشرة جميعا ، مما يدل على أن كاتبها انما كان متأثرا بما تأثر به كاتب قائمة أبيدوس المعاصرة لها ، ومن ثم فقد أسقطت القائمتان ملوك عصر الانتقال الثانى ، وكذا اسم «حتشبسوت» و «اخناتون» ومن تلاه من عائلته ، ثم تنتهى القائمة بالملوك الثلاثة الاوائل من الاسرة التاسعة عشرة ، وهم رعمسيس الاول وسيتى الاول ورعمسيس الثانى[16] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن اختلاف قوائم الشمال عن قوائم الجنوب ، انما يدل على أنه كان للدلتا نظرة خاصة فى شرعية الملوك ، تختلف عن تلك التى كانت لاهل الصعيد ، أما اغفال أسماء الملوك الذين اعتبرهم المصريون غير شرعيين كالهكسوس ، فهذا يتفق والغرض الذى أقيمت من أجله هذه القوائم ، وحتى لا ينعم من لم تذكر أسماؤهم بالقرابين التى تقدم للاجداد •

٥ ـ بردية تورين :

ترجع هذه البردية الى عهد «رعمسيس الثانى» وتختلف عن بقية

---

16. E. de Rouge, Recherches sur les Monuments. Pl. I.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 50,

القوائم فى أنها كتبت على ورق البردى ، وبالخط الهيراطيقى ، كما تمتاز كذلك بأنها قد أوردت بعض الاسماء الملكية التى لم تذكـــرها القوائم الاخرى ، وبأنها قد عمدت الى التبويب التاريخى ، حيث قسمت الملوك الى مجموعات ، ونسبت بعضها الى العواصم التى حكمت فيها .

هذا وقد عثر على بردية تورين الايطالى «دروفتى» فى منف عام ١٨٢٠م ، ثم وجدت طريقها الى ملك سردينا ، ووضعت فى صندوق ،ثم جمعت بقاياها فى غير نظام ، ومن هنا فان «شامبليون» حين بدأ ينقب فى ثنايا المخزون من الجزازات الكثيرة التى انتقلت الى متحف تورين ، اتضح له أن هـــذه الوثيقة التى تعد أثمن الوثائق المصرية لم يبق منها سوى خمسين قطعة ، هى فى معظم الحالات ناقصة ، وتقدم على الاكثر مابين ٨٠ الى ٩٠ اسما ملكيا .

وفى عام ١٨٢٦م ، قام «جوستاف سيفارت» الالمانى باعادة جمع الجزازات ، ثم توصل منها آخر الامر ، الى نتائج هامة تناولها تعديل ملحوظ فيما بعد ، عندما نشرها الاثرى «فارينا» بعد الترميم فى عام ١٩٣٨م(١٧) ، ثم قام «سير ألن جاردنر» بمراجعـــة الاصل ، وأصلح بعض قراءات «فارينا» ونشر ذلك كله(١٨) .

وتبدأ البردية ـــ كما يبدأ مانيتو ـــ بالالهة ، الذين تنسب اليهم مدد حكم أسطورية(١٩) ، يليهم بعد ذلك «مينا» كمؤسس للملكية المصرية ،

---

17. G. Farina, I, Papiro die re Restaurato, Rome, 1938.
18. A. H. Gardiner, The Royal Canon of Turin, Oxford, 1959.

(١٩) شابه المصريون فى ذلك غيرهم من الشعوب القديمة ، التى أعطت فترات حكم أسطورية لملوك ماقبل العصر التاريخى ، وعلى سبيل المثال ، فان قائمة الملوك السومرية تذكـر ثمانية ملوك حكموا قبـل الطوفان فى خمس مدن عراقية . وكانت مدة حكمهم ٢٤١٢٠٠ سنة ، وان آخرهم قد حكم ١٨٦٠٠ سنة ، وفى تاريخ العرب القديم يروى المؤرخون أن عادا تزوج من الف امرأة ، وعاش الف ومائتى سنة ، وقد رأى من صلبه اربعة الاف ولد ، كما رأى البطن العاشر من أعقابه ، ثم خلفه ولده "شديد" فحكم ٨٥٠ سنة ، ثم جاء بعده أخوه "شداد" فحكم ٩٥٠ سنة (محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة ص ٣٩٢ ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ص ٤) .

وأما بقية البردية فمجرد قائمة من الاسماء ، تلى كل أسم اشارة بطول مدة الحكم والعمر ، ثم المجموع بما يتفق وما رمى اليه «مانيتو» من ناحية التقسيم الى أسرات ، وأما عدد الملوك فيكاد يكون واحدا فيهما ، وان كانت البردية قد قدمت بعض أسماء غريبة ، حتى لتبدو لنا وكأنها لا تمت بصلة الى ملوك حقيقيين •

ورغم ذلك فان جدول تورين للملوك انما يعد من أكثر المصادر التاريخية قيمة ، أو هو كان يمكن أن يكون كذلك ، لو أنه كان أكثر احتمالا ، أو لو أنه حوفظ عليه فى عناية أدق ، ذلك لانه لم يسجل سنى كل حكم فحسب ، وانما سجل كذلك عدد الشهور والايام بعد اكتمال السنين ، ومن الواضح أن جامع هذه الوثيقة كانت لديه مصادر لمعلوماته ، ليست خالية من الفجوات فحسب ، بل هى كذلك دقيقة يمكن الاعتماد عليها ، فمثلا أرقام الاسرة الثانية عشرة تتفق تماما ، وماتشير اليه الآثار المعاصرة[٢٠] •

ولم يفسد على كاتب البردية ملكته التاريخية ، الا ايمانه بأساطير قومه التى جعلت للارباب نصيبا فى اعتلاء عرش البلاد القديم ، فبدأ بحكم الاله «رع أتوم» ثم أرخ لحكم أرباب آخرين ، جعل مدة حكم أحدهم ٣٠٠ سنة ، وجعل مدة حكم آخر ٣٢١٦ سنة ، حتى انتهى بهم الى المعبود الملك «حور» الذى انتسب اليه ملوك ما قبل الاسرات ، واعتبروا أنفسهم أتباعه ، وانتسب اليه ملوك الاسرات واعتبروا أنفسهم ورثته وخلفاءه ، والمتجسدين لشخصيته[٢١] •

٦ – تاريخ مانيتو :

كان آخر المؤرخين المصريين القدامى المعروفين انما هو مؤرخ مصرى عظيم ، يعد أعظم مؤرخ أنجبته مصر القديمة ، وهو «مانيتو» — أو

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 62.

(٢١) عبد العزيز صالح : التاريخ فى مصر القديمة — مفهومه وعناصره وبواعث القومية فيه — القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١ — ٢٣ •

«مانيتون» كما دعاه المتاغرقون — ومن أسف أن أصل أسمه المصرى لم يعرف بعــد ، ويفترض «الكسندر موريه» (١٨٦٨ — ١٩٣٨) أنه كان إسما يتداخل فيه اسم المعبود مونتو ، رب الحرب ، ويظن البعض أنه بمعنى «الراعى» أو «السائس» ، وأنه قد ولد فى «سمنود» (ثب نثر = سبتونس) وعاش فى الفترة (٣٢٣ — ٢٤٥ ق٠م) ، وربما قد وصل فى السلك الكهنوتى الى منصب الكاهن الاكبر فى «أون» (هليوبوليس) ، وأنه قام بدور هام فى نشر عبادة «سرابيس» ليكون معبــود المصريين واليونانيين على السواء[٢٢] ٠

وكان مؤرخنا الوطنى ملما باللغة المصرية القديمة ، وعلى معرفة تامة باللغة اليونانية ، ثم هو متمكن من تاريخ وديانة بلده ، مما ساعده على كتابة تاريخه حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤ — ٢٤٥ ق٠م) بصورة أفضل كثيرا ممن سبقوه ، ولعل الذى دفع «مانيتو» الى القيام بهذا العمل هــو الرغبة فى اظهار الحقائق التى مسخها المؤرخ الاغريقى «هيرودوت» فى كتابه الذى كتبه قبل «مانيتو» بما يقرب من قــرنين من الزمان ، أو أن «بطليموس الثانى» أراد أن يستفيد من علمه ، فكلفه بكتابة تاريخ مصر ٠

وأيا ما كان السبب ، فان مانيتو قام بكتابة تاريخ بلاده فى ثلاثة أجزاء باليونانية تحت عنوان «اجبتياكا ايبو منيماتا» وخلص منه بموجز يحوى قائمة بأسماء الملوك ، مصحــوبة بملاحظات قصيرة عن بعض العهود ، معتمدا فى ذلك على بعض الاسانيد المكتوبة ، والقصص المروية ، مستفيدا فى الوقت نفسه باساليب أسلافه ، مجددا فيها ٠

ويقسم مانيتو مؤلفه — التاريخ الكامل لمصر — بعــد حكم الالهة وأنصاف الالهة ، الى احدى وثلاثين أسرة ، من العائلات الملكية ، تبدأ

---

(٢٢) احمد فخري : الموسوعة المصرية ٣٥٨/١ ،عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ـ القاهرة ١٩٦٦ ص١١٤ ،عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٣٦ ٠

بالملك «مينا» ، وتنتهى بغزو الاسكندر الاكبر فى عام ٣٣٢ق٠م ، ورغم عيوب هذا التقسيم الى أسرات ، فانه اتخذ جـــذورا ثابتة فى دراسة «عـــلم المصريات» (Egyptology) ورغـــم أن بعض المؤرخين المحدثين ينتقدونه كثيرا ، الا أنه لا يوجد تقسيم آخر أكثر منه صلاحية ٠

هذا فضلا عن أن «مانيتو» فى تقسيمه للاسرات التى تشمل التاريخ الفرعونى كله ، قد اعتمد على معلومات صحيحة وصلت اليه من مصادر مصرية قديمة لها قميتها ، وذلك لانها تتفق وما جاء فى بردية تورين ، كما أشرنا من قبل ٠

وفوق ذلك كله ، فان تاريخ مانيتو انما يمتاز بأنه يمدنا بأسماء الملوك الذين حكموا مصر فى عصورها الفرعونية،مدونة بنطقها الاغريقى، الذى كان ســائدا على أيام مانيتو ، كما أنه لم يقتصر فى تاريخه على الحياة السياسية ، وانما أرخ كذلك للحياة الاجتماعية ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فأصاب الحقيقة فى كثير من الاحايين ، وان كان قد ضـــل عنها ، وكساها بثوب المبالغة والاساطير ، فى أحايين كثيرة[٢٣] ٠

هذا فضلا عن أن تاريخ مانيتو ، لم يبرأ من فترة حكم الارباب ، هذا الى جانب المبالغة أحيانا فى سنى حكم الملوك،كما تبدو فيه خلافات كثيرة فى الاسماء المؤكدة تماما ، ففى الصورة التى وصل الينا بها الكتاب، لنما نلتقى بأشياء غير مضبوطة بدرجة واضحة ، تصل الى ذروتها خلال الاسرة الثامنة عشرة ، حيث الاسماء والتسلسل التاريخى أصبح معروفا لدينا من مصادر أثرية لا يرقى اليها الشك ، ومع ذلك فان كتاب مانيتو مايزال يسيطر على دراساتنا ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، وربما يخبىء لنا بعض المفاجآت ، كما حدث منذ بضع سنوات ، حين عثر فجأة على

---

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ ٠
J. Baikie, A History of Egypt I, London, 1929, p. 54.
W. G. Waddlle, Manetho, With an English Translation Cambridge, London, 1940.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46-48.

اسم ملك مجهول يدعى «نفر خيرس» — كان قد وضعه في الاسرة الحادية والعشرين — على اناء صغير من تانيس[24] •

وأيا ما كان الامر ، فما يؤسف له حقا ، أن تاريخ مانيتو الاصلى قد فقد في حريق مكتبة الاسكندرية عام ٤٨ قبل الميلاد ، على يد «يوليوس قيصر» ، ولم يعثر حتى الان على أية نسخة منه — كاملة كانت هذه النسخة أو ناقصة — وكل ما وصلنا منه مقتطفات مختصرة أحيانا ، ومبتورة أحيانا أخرى ، ذلك لان كتاب الاغريق لم يهتموا كثيرا بكتاب «مانيتو» ، نظرا للروح الوطنية التي تميز بها ، ومن هنا لم نعثر على أي صدى له في كتابات المؤرخين الاغريق •

على أن الكتاب اليهود انما قد اعتمدوا عليه كثيرا في الدفاع عن قومهم ، كما فعل المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» ، حين أراد الرد على كاتب اغريقى متمصر ، يدعى «ايبون السكندرى» ، وماهم بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، فزعم يوسف بن متى (يوسفيوس فيلافيوس) هذا ، أنه وجد في مخطوطات «مانيتو» مايربط بين قومه اليهود والهكسوس ، ثم شفع دعواه هذه بتسجيل حكم الفراعنة تسجيلا يصطبغ بالخرافة في معظمه ، وهكذا أنقذ يوسف اليهودى — عن غير قصد — جزءا من تاريخ مانيتو ، ضمنه كتابه «الرد على ايبون» (ضد ايبون = Contra Apionem) •

هذا وقد نقل عن «مانيتو» كذلك كتاب آخرون ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، منهم «جوليوس الافريقى» (افريكانوس حوالى عام ٢١٧م) و «يوسبيوس» (٢٦٤ — ٣٤٩م) و «بوسيديوس» (أوزيب حوالى عام ٣٢٧م) ، وكان آخر من نقل عن «مانيتو» جورج الراهب المعروف باسم «سينكلوس» (حوالى القرن الثامن) في مؤلفه المسمى «كرونوجرافيا»

24. P. Montet, Tanis, Paris, 1942, p. 164.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 47.

والذى تحدث فيه عن تاريخ العالم منذ بدء الخليقة ، وحتى الامبراطور «دقلديانوس» (٢٨٤ ــ ٣٠٥م)[٢٥] .

وهناك بجانب كتاب التاريخ العام ، كتاب التاريخ الخاص ، والذين قاموا بدور هام فى تسجيل أحداث عهود فراعيتهم على جدران المعابد والمسلات والمقابر الملكية والفردية على السواء ، كما اهتم بعض الافراد بتسجيل تاريخ حياتهم على مقابرهم الخاصة ، ومن أمثلة ذلك الكاهن «عنخت ــ ان سخمت» الذى كان كاهنا للاله «بتاح» والالهة «سخمت» فى الاسرة الثانية والعشرين ، وقد كتب هذا الكاهن سجلا لنسبه،يرجع الى أيام الاسرة الحادية عشرة ــ أى حـوالى أربعة عشر قرنا قبل عهده ــ وترجع أهمية هذا السجل المحفوظ الان بمتحف برلين(رقم ٢٣٦٧٣) الى أن صاحبه ذكر أمام كثير من أجداده أسماء من عاصروهم من الفراعين ، ورغم مافيه من أخطاء ، فان ذلك لا يقلل من قيمته كمصدر تاريخى هام هو وغيره من نصوص الانساب .

وهناك الاساطير والقصص الروائى . الذى تناقله المصريون على مر السنين ، وسجلوه بوجه خاص على البردى ، واستطاع المؤلفون أن يصفوا فيه الاحوال القائمة ، وأن يكشفوا عن أنفسهم ومشاعرهم فى حرية لم تتوفر فى السجلات الرسمية ، وهكذا وجـد لدينا من هـذا القصص ما يصور الاحداث على عهد الراوى ، دون تغيير كبير ، ومنها ما استمدوا عناصره من وقـائع تاريخية قديمة ، امتزج بها الخيال وداخلها الخلط والخرافة ، ولكنها جميعـا أعطت المؤرخ فرصـا كبيرة ليستخلص منها الحقائق التاريخية ، والدلائل السياسية[٢٦] .

ولعل من أشهر الاساطير المصرية ، أسطورة «أوزير وايزة» التى

---

(٢٥) الكسندر شاف : تاريخ مصر ــ القاهرة ١٩٦٠ ص٢١ ــ ٣٠ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 46.
W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, p. 107.

(٢٦) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٩٠ .

تصور قصة الكفاح بين «أوزير» و «ست» من ناحية ، وبين «حور» و «ست» من ناحية أخرى ، والتى تناولت سياسة البلاد وحضارتها فى عصور لم تكن مصر قد عرفت فيها الكتابة بعد،كما صورت حياة المصريين وتجاربهم فى ذلك العهد السحيق ، ووصلت تاريخ الفراعنة بالهتهم العظام(٢٧) .

وهناك كذلك «قصة خوفو والسحرة» التى كتبها كهنة هليوبوليس ، ثم نسبوها الى عهد الملك خوفو ، وضمنوها أسماء يكن الشعب لها عميق الاحترام ، أمثال «زوسر» و «سنفرو» و «خوفو» ، والقصة ، على أى حال ، تتصل بأوضاع سياسية أدت الى تولى كهانة اله الشمس من ملوك الاسرة الخامسة عرش الكنانة ، كما أنها تبين الوسائل التى يلجأ اليها الفراعين لتثبيت عروشهم فى نظر الشعب ، حين أعوزهم الحق الشرعى فيه(٢٨) .

وهناك «قصة الفلاح الفصيح» التى تصور لنا الحالة الاجتماعية فى مصر فى أخريات عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، وكيف يستغل بعض الموظفين وظائفهم فى ظلم الفقراء من الناس ، بينما يعنى كبارهم بتقبل شكوى المظلومين ، ورد حقوقهم اليهم ، لانهم هم المسئولون عن ذلك، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب الضخم ليست فى كل الاحوال سياجا تحمى صاحبها من ظلم الناس ، وتصور لنا كيف ساء الحال ، وأهمل الموظفون واجبتهم وكيف اضطرب الامن فى الطرقات ، وانتشرت السرقات ، وتفشى الغش والخداع ، وكيف فسد الحكم حتى وصل الامر

---

(٢٧) انظر جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى ص ٢٣٧ – ٢٧٠ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة – الجزء الاول – الاداب والعلوم ، الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ – ٢٨ .

J. A. Wilson, ANET, p. 14-17.

A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, 1932, p. 37-60.

(٢٨) جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٣٦ – ١٥٨ ، أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية – الادب المصرى – ص ٣٩٦ – ٤٠٢ محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٠ – ٧٩ .

الى القضاء ، فانحرف عن واجبه المقدس ، غير أنها من ناحية أخرى ، تصور لنا كيف أثرت الثورة فى المجتمع ، فأعلت من شأن الفرد ، وأعطت الفرصة لأقل الناس فى أن يتقدم ويطالب بحقــه ، بل وكيف كتب له النجح فى مسعاه[٢٩] .

وهناك «قصة سنوهى» التى تلقى أضواءا على الاحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية فى مصر فى مطلع الاسرة الثانية عشرة ، ونحن فى هذه القصة نرى أنفسنا أقرب الى الواقعية منا فى أية قصة مصرية أخرى،ثم هى،من الناحية الادبية ، انما تتفوق على ما عداها بأسلوبها وتركيبها ولغتها ، وما أجتمع لها من العناصر اللازمة للقصة الناجحة ، حتى ذهب البعض الى أنهــا جديرة بأن توضــع بين روائع الاداب العالمية[٣٠] .

وهناك «قصة ونأمون» التى ترجع الى أخريات أيام الأسرة العشرين وتصور بوضوح ضعف النفــوذ المصرى فى الخــارج فى ذلك الوقت، وتضاؤل سلطان فرعون ، ما لاقاه رسله من مشقة فى آداء مهمته،ولكنها

---

(٢٩) محمــد بيومى مهــران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٥ ــ ٢١ ، الحضارة المصرية ١/ ٨٠ ــ ٩٣ .

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 407-410.

A. Erman, LAE, 1927, p. 116-232.

A. H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939. p. 183-193.

(٣٠) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٩٤ ــ ١٠٩ ، وكذا

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 18-22.

A. Erman, LEA, 1927, p. 14-29.

J. W. B. Barns, The Achmolean Ostracon of Sinuhe, Oxford, 1952.

A. H. Gardiner, Notes on The Story of Sinuhe, Paris, 1916.

31. A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, p. 61-76.

J. A. Wilson, Op. Cit., p. 25-29.

A. Erman, The Literature of Ancient Egyptians, London, 1977, p. 174-185.

W. Golenischeff, in Recueil de Travaux, 21 1899, p. 74-102.

وانظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٢٧ ــ ١٣٩ .

تصور كذلك أن نفوذ مصر الدينى والثقافى كان ما يزال له سلطانه على الاسيويين[٣١] ... وهكذا .

هذا هو المصدر الاول لدراسة تاريخ مصر القـــديم ، ولكنه ـ فى الغالب ـ تاريخ سياسى ، وهو لا يساعدنا فى كل الاحوال على معرفة ما كان عليه الشعب ، أو ما كان من تطورات فى المجتمع أو فى الفنـــون المختلفة أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى جميعا على أكبر جانب من الاهمية لفهم الحضارة المصرية ، ولدينا ـ ولله الحمد ـ مصادر لا حصر لهـا تساعدنا على تلك الدراسة ، وتمدنا بالكثير من المعلومات ، فالمتاحف فى جميع أرجاء العالم تمتلىء بما خلفته الحضارة المصرية القديمة ، من تماثيل ولوحات وتوابيت وحلى وأوان وأدوات منزلية ، وأدوات الصناع ، وذوى الحرف المختلفة ، هـذا فضلا عن التعاويذ والتمائم وقراطيس البردى وغيرها ، وعليها الكتابات المختلفة، بعضها قطع أدبية ، والاخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى على نصوص طبيـــة (بردية أودين سمث الجراحية ـ بردية ابرس ـ بردية برلين الطبية ـ بردية تشستر بيتى الطبية ـ بردية كاهـــون ـ بردية لنـــدن ـ بردية هـــرست)[٣٢] أو رياضية (بردية رند) أو هندسية[٣٣] .

---

(٣٢) انظر : حسن كمال : الطب المصرى القديم ـ اربعة اجزاء ـ فى مجلدين ـ القاهرة ١٩٦٤ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٧٩ ـ ٤١٠ .

(٣٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٦٣ ـ ٣٧٨ .

ثانيا : كتابات المؤرخين اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين ، السادس قبل الميلاد والثانى بعد الميلاد،بزيارة عدد كبير من الاغارقة لمصر ــ مؤرخين كانوا أم رحالة ــ وشجعهم على ذلك أن مصر قد بدأت منذ الاسرة الساددسة والعشرين (٦٦٤ ــ ٢٢٥ق٠م) تستخدم كثيرا من الايونيين والكاريين والاغريق كجنود مرتزقة فى جيوشها ، وزيادة العلاقات التجارية بينهم وبين مصر، هذا فضلا عما سمعوه عن حكمة مصر وثرائها وآثارها ،الى جانب ماتواتر عن صلات أسلافهم فى آسيا الصغرى وجزر بحر أيجة بمصر ، فضلا عن الامتنان والاحترام الشديد للبلد الذى ذكرت «أوديسة هوميروس» أنها «بلد الاطباء» أحكم أهل العالم ، وما تواتر اليهم ورووه من أن حكمتها كانت الملهمة للمشرع «سولون» ، والفلاسفة طاليس وبيتاجوراس وأفلاطون ويودكسوس وغيرهم ٠

على أن الباحثين انما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الاغارقة والرومان عدة نقاط ضعف ، منها (أولا) أن البعض منهم قد تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم ، الا أن كثيرا منهم انما قد أساءوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه ، أو وقعت عليه أبصارهم ، ومن هنا فان المؤرخين المحدثين انما ينظرون الى هذه الكتابات بعين الحذر ، ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه الكتابات انما قد زاروا مصر فى أيام ضعفها ، وفى عصور تأخرها واضمحلالها ، ولو أتاحت لهم الظروف زيارتها خلال عصور نهضتها وفى أيام مجدها ، لتغير الكثير من آرائهم وانطباعاتهم ٠

ومنها (ثالثا) أن اقامة هؤلاء الكتاب كانت فى أغلب الاحايين فى مدن الدلتا ، حيث اتخذت الحياة طابعا خاصا ، به مسحة أجنبية ، ومن ثم فلم يتبينوا أوجه الحياة المصرية الصادقة ، كما كانت فى الصعيد ،

ومن ثم فقد أخطأوا فى الكثير مما صوروه من مظـــاهر الحضارة المصرية القديمة[1] .

ومنها (رابعـــا) أن هؤلاء الكتاب انما قد اعتمدوا فى الكثـــير من معلوماتهم على الاحاديث الشفوية التى كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من المصريين ، وبخاصة صغار الكهنة والتراجمة الوطنيين وخدم المعابد والاغارقة المتمصرين،الذين حدثوهم عن عصور موغلة فى القدم لايعرفون عنها الكثـــير ، كما كانوا يفسرون لهم النصوص الهيروغليفية ، تفسيرا لا يتفق والحقيقة فى الكثير ، ومنها (خامسا) أن كثيرا منهم قـــد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثـــيرا ما كانت كتاباتهم فى وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح مصر .

ومنها (سادسا) روح التعصب التى عرفت عند الغربيين لحضارتهم، واظهارها وكأنها أرقى من غيرها ، وذلك عن طريق عرض نواحى الغرابة فى الحضارات الشرقية التى عاصرتها أو سبقتها ، ومنها (سابعا) عدم معرفة كتاب اليونان والرومان للغة المصرية القديمة ، مما أدى الى سوء فهمهم للكثير مما ذكره المصريون ونقلوه عنهم محرفا .

ومنها (ثامنا) أن كثيرا من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد وفدوا الى مصر ، كما يفد السائح العادى يلتمس الشوادر والنوادر ، أكثر مما يلتمس الحقائق ، ومنها (تاسعا) أن كثيرا منهم احتفظ بذكرياته عن مصر فى ذاكرته ، وبملاحظات دونها فى أيجاز ، ولم يكتب باسهاب ، الا بعد أن طوف فى بلاد أخرى ، وبعد أن عـــاد الى وطنه ، فاختلط عليه بعد ما شاهده واحتفظ فى ذاكرته وعمم أمورا ماكان ينبغى له أن يعممها[2] .

وبدهى أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله،أن كتابة هؤلاء المؤرخين

---

(١) محمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٢ .

(٢) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القـديمة وآثارها ـ الجـزء الاول ـ ص ٢٤٠ .

قد امتلأت بالكثير من الاخطاء والاراجيف والتناقضات ، وبالتالى فقد أدت الى خلق الاساطير والخرافات عن الحياة فى مصر الفراعنة •

وأما أشهر هؤلاء المؤرخين فقد كانوا : هيكاتة الميليتى وهيرودوت وهيكاتة الابدرى وديودور الصقلى وسترابو وبلوتارك الخيرونى وغيرهم •

١ ـ هيكاته الميليتى :

ينسب هيكاتة هذا الى ميليتوس الاغريقية فى آسيا الصغرى ، وقد كان من أوائل الاغارقة الذين زاروا مصر (حوالى عام ٥١٠ ق٠م) وليبيا ، وربما فارس ، ويبدو أنه كان أكثر اهتماما بفيضان النيل وتكوين الدلتا ومزروعات البلاد ، منه بالسكان وتاريخهم ، وقد ضاع كتابه (تخطيط الارض) الذى ناقش فيه كل هذه الامور ، والذى قيل أنه ضمنه خريطة لرحلته ، أو على الاقل ضمنه صورة من خريطة مواطنه الفيلسوف الجغرافى «أنا كسيمندر الميليتى» وأثبت عليها البلاد التى زارها ، ويحتمل أنه صاحب العبارة المشهورة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر» التى رددها هيرودوت من بعده ، ثم نسبت اليه[٣] •

٢ ـ هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق٠م) :

ولد هيرودوت أو «هيرودتس الهاليكارناسوس» فى مدينة «هاليكارناسوس» (وهى مستعمرة دورية فى اقليم كاريا تدعى الان Budrnn) فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى وذلك فى عام ٤٨٠ ق٠م[٤] •

ويبدو من كتاب هيرودوت أن صاحبه قد شاهد بعض أحداث الحرب

---

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤١ •
A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 3.

(٤) اختلف الباحثون فى ميلاد وموت هيرودوت ، فرأى البعض أنه ولد فى عام ٤٨٩ ق٠م ، ورأى آخرون أنه ولد فى عام ٤٨٤ ق٠م ، وأنه مات فى عام ٤٣٠ ق٠م ، على رأى ، وفى عام ٤٣٥ على رأى آخر (أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢ ، ١٠ ج ايفانز : هيرودوت ص ٥) وكذا • A, H. Gardiner, op - cit, p. 3

البيلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) فى مرحلتها الاولى ، ومن ثم فمن المرجح أن يكون هيرودوت قد عاش فيما بين الحرب الميدية (٥٠٠ — ٤٧٥ ق.م) التى دفعت بحضـــارة اليونان الى المجـــد ، وبين الحرب البيلوبونيزية التى كادت أن تودى بهذه الحضارة ، أى أنه كان يعيش فى العصر الذهبى من التاريخ اليونانى[٥] .

وأيا ما كان الامر ، فان هيرودوت انما قد نشأ فى أسرة معروفة ، وربما قد شارك فى أحداث بلده السياسية ، ومن ثم فقد تعرض لالوان من المحن التى أثرت فى حياته ، ودفعته الى الهجرة الى «ساموس» ، ومنها قام برحلاته العديدة ، حيث زار مصر وسورية ، بل وجاوز بابل وهمدان ، ثم تنقل بين شواطىء البحر الاسود وجنوب روسيا ، وفى عام ٤٤٤ قبل الميلاد ، توجه الى بلدة «توريم» (ثورى) بجنوب ايطاليا مع فئة من المستعمرين الذين أرسلهم «بيريكليس» الى ايطاليا ومن ثم فقد صار من أوائل مستوطنى «توريم» التى بقى فيها حتى وافـــاه أجله ، ودفن فى سوق المدينة التى كان يحبها جبا دفع بعض المؤرخين الى نسبته اليها فدعوه «هيرودوت الثورى» .

وهناك فى ثورى عكف هيرودوت على كتابة سفره الضخم الذى قسمه النحويون السكندريون الى تسعة أجزاء ، كل جزء منها لاحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» ، أما هيرودوت فقد كان عندما يشير الى أجزاء كتابه لايسميها بغير عبارات عامة ، كالاحاديث الليبية ، أو الروايات الاشورية ... وهكذا[٦] .

كانت زيارة هيرودوت لمصر ابان الحكم الفارسى لها ، وبعد ثورة «ايناروس» فى عام ٤٦٠ ق.م ، ذلك لانه انما يقرر أنه رأى جماجم القتلى فى معركة «بابريمس» التى انتصر فيها الثائر المصرى ، واستولى

---

(٥) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر — القاهرة ١٩٤٦ ص ٥ .
(٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣ — ١٧ .

على الدلتا[٧]،ولكن يجب ألا تكون هذه الزيارة بعد هذه المعركة بوقت طويل ، والا لما استقبل فى مصر بهذا الترحاب الذى سمح له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها •

وليس هناك من شك فى أن الحكم الفارسى ، وانتشار الاغريق فى مصر ، قد سهلا الزيارة أمامه ، وسمحا له بحرية التنقل بين أقاليم البلاد ومشاهدتها ، بل أن هناك من يرجح أن هيرودوت انما قد زار مصر بتوصية من الفرس[٨] ، وان رأى آخرون أنه لم يعتمد عليهم ، فقد كان الفرس ينظرون الى اليونان بعين الريبة والتوجس ، بل ان هيرودوت انما كان يتجنب الاوساط الحكومية ، حتى أنه لم يعلم أن اللغة الرسمية فى الدواوين الحكومية انما كانت وقت ذاك هى اللغة الارامية[٩] •

وأيا ما كان الامر ، فان هيرودوت استطاع أن يزور الكثير من مدائن الدلتا ، كما تجول فى الصعيد حتى الجندل الاول عند أسوان ، كما شاهد اقليم الفيوم ، وان رأى نقاده من المؤرخين المحدثين أن رحلته ، التى كانت حوالى عام ٤٦٠ ق٠م[١٠] ، لم تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر ، وربما أربعة ، وأنها قد تمت فى أيام الفيضان ، وأن اقامته فى مصر انما كانت مقصورة على الدلتا واقليم الفيوم •

ولعل هذا يفسر لنا عدم الاستطراد فى الوصف لمدينة «طيبة» وآثارها ، حتى خلا كتابه من وصف مقابر الملوك وتمثالى ممنون (وكانا يمثلان أمنحتب الثالث عند مدخل معبده الجنائزى فى طيبة الغربية) •

Herodotus, III, 12, VII, 7.

(٨) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٩ •

(٩) وهيب كامل ، المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ •

(١٠) هناك خلاف على تاريخ زيارة هيرودوت لمصر ، فمن يجعلها عام ٥٤٩ ق٠م ، ومن يجعلها عقب عام ٤٥٠ ق٠م ، ومن يجعلها فيما بين عامى ٤٤٨ ، ٤٤٥ ق٠م،ومن يجعلها عام ٤٣٠ ق٠م،ومن يجعلها ما بين عامى ٤٦٠ ، ٤٥٥ قبل الميلاد •

وربما كان جهله باللغة المصرية القديمة ، وكثرة اليونانيين فى الدلتا ، سببا فى أن تكون زيارته للصعيد عابرة .

وعلى أى حال ، فلقد استطاع هيرودوت أن يزور أهم المدن المصرية، وأن يسجل كل ما رآه وسمعه فى الجزء الثانى من كتابه المشهور[11] ، فتحدث عن جغرافية مصر ومدنها ، والحوادث التاريخية التى مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر الحياة فيها ، دونما تدقيق أو تمحيص ، فضلا عن سرده للكثير من القصص الساذج ، ومن هنا جاء كتابه جامعا الغث والسمين ، حاويا الكثير من الحقائق والمفتريات فى آن واحد ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع أمامنا بحسبانه تاريخا ، وهو من التراث الشعبى فى معايير غير دقيقة الرواية ، وتأكيدات بها نواة الحقيقة وان غلفت بالمبالغة والتحريف[12] .

ومن هنا فقد اختلف المؤرخون فى الحكم على هيرودوت ، وعلى كتبه، اختلافا بينا،فعلى حين رأى «سيشرون» (١٠٦ — ٤٣ق٠م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية ، حتى لقبه «أبو التاريخ» اتهمه «بلوتارك» (٤٦ — ١٢٠م) بالتحيز لأعداء بلده ، وبأنه صديق البرابرة ، وسماه بعض المؤرخين المحدثين «أبو الاباطيل» ، وأنه كان عاجزا عن ادراك الحقائق ، كما كان ينقل عمن سبقوه،دون الاشارة اليهم ، وان وقف آخرون موقف التأييد له[13] .

---

(١١) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر ــ ترجمة محمد صقر خفاجه ، تقديم وشرح أحمد بدوى ــ القاهرة ١٩٦٦ .

The History of Herodotus, Translated by G. Rowlison, 2 Vols, London, 1920.

Herodotus, The Histories, Translated, by A. de Selincourt, Penguin Classics, 1954.

W. C. Waddell, Herodotus, Book, II, (The Loeb Classical Library), London, 1939.

12. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 3.

(١٣) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٩ ــ ١٢ ، ١٩ ــ ٢٤ ،

=

وعلى أى حال ، فليس هناك من شك فى أن هيرودوت ، انما قد بذل الكثير من الجهد فى اخراج كتابه عن «مصر» ، وليس هناك من ريب كذلك فى أن الرجل لم تفته دقة الملاحظة وبراعة التعليل فيما كان يشهده ويكتب عنه ، من الظواهر البيئية والاجتماعية ، وأنه قد أنصف المصريين فى كثير مما كتبه عنهم ، يبدو ذلك واضحا حين نراه يعترف بتفوقهم وعظمتهم فى ميادين العلوم والمعارف ، ثم يمتدح فضائلهم ونزواتهم، ويثبت لهم الفضل فى الكثير من العلوم والمعارف التى أفادت الانسانية منها بعامة ، وأفاد منها قومه الاغريق بخاصة •

على أن هناك أمورا كثيرة تجعلنا ننظر بعين الحذر والحيطة ، بل والشك كذلك، فى كل ما كتبه هيرودوت ، ومنها (أولا) أنه لم يكن يعرف من لغة المصريين كثيرا ولا قليلا ، ولا نستطيع أن نزعم أن من بين المصريين من كان يعرف لغة الاغريق ، الا أن تكون قلة نادرة لن يلقاها الرجل فى كل مازار من مكان، ومن ثم فلم يكن هناك من سبيل الى ادارة الحديث بين هيرودوت وبين من زعم أنه لقيهم من كهان ، الا بين يدى ترجمان، أو واحد من بنى قومه ، يلم بشىء من لغة المصريين على الاقل•

أما التراجمة فقد كانوا — كما هم اليوم — ولعين بالاغراب والمبالغة، معتمدين فى ذلك على جهل الاجانب بلغة النقوش واستعدادهم للتصديق، بسبب فرط اعجابهم بالاثار المصرية ، وأما الاغارقة من بنى قومه ، والذين لانشك كثيرا فى أنه اعتمد عليهم ، فهم قوم — مهما طال مكثهم فى مصر — أجانب عن البلاد ، لا يستطيعون فهم حضارتها ، ولا هضم تقاليدها ، ولا الايمان بعقائدها •

ومنها (ثانيا) أن هيرودوت يقرر فى مواطن كثيرة ، أن مصدر أخباره

W. A. Heidel, Hecataeus and The Egyptian Priests in H. Book, II, Boston, 1935, p. 113 F.

Save - Soderbergh, Zuden Aethiopischen Episoden hei Herodotus, Eranos, 44, 1946, p. 68-80.

De Meulenaere, Herodotus over de 26 te Dyn, Lruvrn, 1951.

كهنة منف ، بل انه انما يزعم أن ثبتا بأسماء الملوك قد قرىء عليه فى معبد بتاح بمنف ، ولو كان ذلك صحيحا لما زل هيرودوت زلته الكبرى، حين اعتبر بناة الاهرام (الدولة القديمة) تاليا لعصر الدولة الحديثة ، ولما جهل ترتيب المشاهير من الملوك ، ولما جاء كتابه خـــلوا من الملاحم التاريخية الهامة ، وخاصة ملحمة الهكسوس وثورة المصريين ضـــدهم وطردهم من البلاد •

وهو أمر لا نظن أن المصريين قد نسوه ، مهما طال العهد عليه ، ولو جاز ذلك لما وقع على تلك الملحمة مؤرخنا الوطنى «مانيتو» بعد ذلك بما يقرب من قرن ونصف القرن ، وليس لذلك كله من تعليل ، سوى أن يكون هيرودوت قد اتصل بصغار الكهنة ، أو أن يكون قد ضنوا عليه بأسرارهم[١٤] ، وان كان أول التعليلين أفضل،فيما نميل اليه ونرجحه•

ومنها (ثالثا) ان رغبة هيرودوت فى اظهار علمه ، وارضاء قرائه قد دفعه الى وصف ما لم يكتب له رؤيته من الاثار المصرية ، والى أن يكتب فيما لا علم له به ، مع ان اقامته فى مصر لم تتجاوز أشهرا أربعة ، وهى فترة قصيرة فى حدود امكانات وسائل انتقالات عصره[١٥] ومنها ، (رابعا) أن هيرودوت[١٦] لم يكن يختلف كثيرا عن سائر بنى قـــومه ، أو عن غيرهم من الغرباء الطامعين فى مصر،بدليل أنه لم يستسغ ثورة المصريين ضد الفرس فى سبيل الحرية ، بل ظل يمتدح الفـــرس ، ويشيد بنبل مسلكهم ، ازاء من أخضعوا من شعوب الارض •

وبدهى أن تلك أمور أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها تقلل من قيمة ما كتبه ، ذلك الذى ادعى العلم والمعرفة والثقـــافة والتقوى وحصافة الرأى ، حتى خدع قراءه دهرا ، وحتى بات لديهم «أبو التاريخ» فأكثر

---

(١٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٧ ــ ٢٨ ، ٣٢ ــ ٣٤ ،
Herodotus, II, 100, 125, 154, 264.

(١٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٢ •

(١٦) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٩ ــ ٣٠،

Herodotus, II, 12.

الحقائق كانت يومئذ ماثلة أمامه،وأمور البلاد كانت عارية غير مستورة، والاحتلال الفارسي قد مهد له سبيل الزيارة،وأتاح لم مالم يتح لغيره.

وهكذا يمكننا القول أن كتاب هيرودوت في جزئه الاول الذي ينتهي عند مطلع العهد الصاوي ، يكاد يخلو من الحقيقة التاريخية ، ومن ثم فلايمكن الاعتماد عليه ، سواء من ناحية ترتيب الاحداث التاريخية ، أو من ناحية عدد الملوك وسني حكمهم ، أما الشطر الثاني الذي أفتتحه بعصر «بسماتيك الاول» (٦٦٤ ــ ٦١٠ ق.م) فقد ظاهره فيه التوفيق، ذلك لان رواته كانوا من الاغريق ، وكانوا على صلة بفرعون الذي احتضنهم وأشركهم في بعض أموره ، هذا فضلا عن أن هناك روايات كانت متداولة،يمكن الاعتماد عليها ــ مع كثير من الحذر ــ وفوق ذلك كله ، فان ما كتبه هيرودوت عن مشاهداته الشخصية ، وعن عادات المصريين وتقاليدهم ، ووصف آثارهم ، لذو قيمة كبيرة،ان نحن تناولناه بمزيد من الحذر[١٧] .

أما فيما يتصل بالجغرافية ، فان هيرودوت يقدم بعض المعلومات القيمة ، بخاصة فيما يتصل بالدلتا ، أما فيما وراء الفيوم جنوبا ، فانه لايذكر سوى مدن قليلة ، مثل أخميم[١٨] ، وطيبة وسيين[١٩] ، والفانتين

---

(١٧) أحمد بدوي : المرجع السابق ص ٣٧ ،
Herodotus, II, 147-157.

(١٨) أخميم ، أو خمين عن أصل قديم يعني وجه المعبود مين أو واجهة معبده ، وكان مين الها لاخميم وقفط ، وحاميا للقوافل ، وربا للسيول في الصحراء الشرقية،وهي الان مدينة كبيرة في مقابل سوهاج عبر النهر ، وكانت عاصمة الاقليم التاسع من أقاليم الصعيد ، واسمها بالمصرية «آبو» ، كما سميت «خنت مين» نسبة الى معبودها مين ،وهواصل اسمها في القبطية «شمين» وسماها الاغريق «خميس» و «بانو بوليس» وعلى مقربة منها عدة جبانات على حافة الهضبة كمقابر الحواويش ، وتنتمي الى الدولة القديمة والوسطى ، ومقابر «السلاموني» من العصر البطلمي والروماني ، حيث يوجد في أعلى المقابر معبد منحوت من الصخر،يرجع الى عهد «تحوتمس الثالث» على الاقل ، ثم قام الملك «آي» بترميمه ، فنسب اليه خطأ (عبد العزيز صالح) : المرجع السابق ص ٣٥ ، الموسوعة المصرية ١/٨٥) .

(١٩) سين أو سويني أو سييني،وهو الاسم الاغريقي لمدينة أسوان =

(جزيرة أسوان) ، ثم «نيوبوليس» الغامضة ، ومن بين الاقاليم الثمانى عشرة التى ذكرها ، لا نستطيع تحديد أكثر من نصفها بسهولة ، ومع ذلك فان قائمته تحوى أسماء لا نجدها فى غيرها من المصادر ، وربما كان مرجع ذلك سوء فهم الواحد أو الاخر[٢٠] .

وأما روايته عن الديانة المصرية ، فرغم ما تتسم به من افاضة ، فانها تدعو لليأس ، وقد ذكر بعض المعلومات عن الالهة : آمون وبوباستس وايزة وأوزير ، بأسمائها المصرية ، وان فضل مقابلاتها اليونانية ، لانه انما كان يعتقد أن الهيلينيين قد استقوا آلهتهم وأخيلتهم الدينية من مصر .

وأما عن العادات المصرية القديمة ، فقد أخطأ فى الكثير منها ، فمثلا ادعى أن النساء المصريات اعتدن أن يخرجن الى الاسواق دون الرجال، وعلى أن يحملن البضائع فوق رؤوسهن دون الرجال ، ولم يكن فى ذلك الحكم العام شىء من الصحة ، وانما حدث اللبس عنده عندما شاهد صور النساء فى مناظر المقابر والمعابد يحملن الهدايا والقرابين فوق رؤوسهن ويمشين بها فى صفوف،فظنها تعبر عن الحياة الفعلية فى عصور تصويرها ، بينما لم تكن فى حقيقة أمرها غير رموز مجسمة لأسماء الضياع والقرى والمدن التى امتلكها أصحاب المقابر والمعابد ، وتمنوا أن تشترك بخيراتها فى أداء القرابين الضرورية لمقابرهم ومعابدهم ، ولما كانت أغلب الضياع والقرى والمدن أسماء مؤنثة ، عبر المصريون عنها بصور الاناث ، كما عبروا عن أسمائها القليلة المذكرة بصور الرجال[٢١] .

= الحالية ، وكانت تدعى بالمصرية ،منذ الاسرة العشرين،«سونو» ثم تحور فى القبطية الى «سوان» و «سويان» ، والاسم بمعنى السوق ، اشارة الى دور أسوان التجارى بين مصر والنوبة والسودان (عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣) .

20. A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 4.

(٢١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٢ .

٣ ـ هيكاته الابدرى :

ينسب هيكاته الابدرى الى بلدة «أبديرا» فى بلاد اليونان،وقد زار مصر حوالى عام ٣٢٠ ق٠م ، على أيام «بطليموس الاول» (٣٢٣ ـ ٢٨٤ ق٠م) وقام بوضع كتاب عن مصر ، فقد معظمه ، تحدث فيه عن مصر بصفة عامة ، وعن العقائد والاساطير الدينية المصرية بصفة خاصة، وقد اتسمت كتاباته بروح التعصب والتحيز لوطنه ٠

٤ ـ ديودور الصقلى : (حوالى ٨٠ ـ ٣٠ ق٠م)

قام ديودور الصقلى فى عام ٥٩ قبل الميلاد برحلة سياحية لمصر ، ولفترة قصيرة ، ثم ألف كتابا عن «التاريخ العام» منذ فجر التاريخ حتى حملة «يوليوس قيصر» على بلاد الغال فى عام ٥٨ ق٠م،وقد أفرد الجزء الاول منه لتاريخ مصر،وهو يروى مرة أو اثنتين من تجاربه الشخصية، وأما مصادره الاصلية فكانت للكتاب الذين سبقوه مثل «هيكاته الابدرى» و «أجاثارخيدس السفودى» الجغـرافى المؤرخ (القرن الثـانى قبل الميلاد) ، ولم يستطع «ديودور» أن يتجنب الاستعانة بهيرودوت على نطاق واسع ، وان انساق وراء جمهرة نقاده[٢٢] ٠

هذا وقد تناول ديودور أوضاع مصر السياسية والاجتماعيةوالدينية، كما تناولها هيرودوت ، ولكنه كان أكثر منه انصافا للمصريين ، وأكثر فطنة فى تفسير عقائدهم وأساطيرهم ، فكتب عما تواتر اليه من آرائهم فى نشأة الوجود وتعاقب المعبودات وعمران الكون ، ثم يتبع هذا قسم مستفيض عن أرض مصر ونهرها والحياة الزراعية والحيوانية بها،وعن الفيضان وأسبابه ، ثم يتحدث عن تاريخ مصر ، فيسلم بأن «مينا» هو أول ملوكها ، ثم يتحدث عن «طيبة» حديثا مدعما بالمعالم القديمةالبالغة الدقة لآثار «أوزيمانديـاس» (رعمسيس الثانى) المعـروف اليوم باسم «الرمسيوم» فى طيبة الغربية ، وان كان يؤخذ عليه أنه جعل تأسيس «منف» تاليا لتأسيس طيبة ولحكم رعمسيس الثانى ٠

---

22. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 5.

ومع ذلك فان ما كتبه عن القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يجعل كتابه بالغ الاهمية ، فهو يقف فى هذا المضمار ، جنبا الى جنب مع «ثيوسيديدس» و «اكسنفون» (٤٣٠ ــ ٣٥٥ ق٠م) كمؤرخ حجة ، أما عن العصور القديمة فان كثيرا مما يرويه لا يمكن التحقق منه عن طريق مصدر آخر ، ولما كان مؤلفه بعد تجميعا ، فانه يصبح ذا قيمة لاتبارى٠

وأيا ما كان الامر ، فان «ديودور» يمتاز باعتماده على الكثير من المصادر ، وبحسن عرضه لآراء من سبقوه وبدقته ونزوعه الى البحث عن الحقيقة ، كما كانت له عبارات صائبة ، مثل قوله «ان مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها» ، كما استطاع أن يقدر آثارها ، ويقدر أصحاب الفضل فيها تقديرا سليما ، فهو ــ مثلا ــ يرجع شهرة الاهرام الى دقة مبانيها،ومهارة صناعتها وليس فقط الى ضخامة مبانيها ، وكثرة تكاليفها،ويعجب بمهندسيها أكثر من اعجابه بالملوك الذين أمروا ببنائها، ودبروا نفقات انشائها ، ذلك لان الاولين انما بذلوا من أرواحهم وجهودهم ، وخلاصة أفكارهم ، حتى تم انجاز هذه الصروح الشامخة، بينما استغل آخرون ذلك كله لمصلحتهم الخاصة[٢٣] ٠

٥ ــ سترابو : (حوالى ٦٣ ــ ٢١ ق٠م)

سترابو ، أو استرابون هذا من مواطنى (بونتس) زار الاسكندرية حوالى عام ٢٥ قبل الميلاد،على أيام الامبراطور «أغسطس» (٣٧ق٠م ــ ١٤م) وأقام بها نحوا من خمس سنوات ، ثم صحب صديقه الوالى الرومانى «اليوس جالليوس» فى حملة حتى الجندل الاول (حوالى عام ٢٥/٢٤ق٠م) ، وقد تحدث عن مصر فى الجزء السادس عشر من مؤلفه

---

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٣ وهيب كامل ٠ ديودور فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ٠

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 5.

A. F. Miot, Diodore de Sicile, Paris, 1834.

W. G. Waddell, an Account of Egypt by Diodorus the Sicilian, in the Univeristy of Egypt, Bulletn of the Faculty of Arts, I, Part, I, 1933, p. 1-47, Part, 2, 1933, p. 162-28.

«الجغرافية» (Geographica) [٢٤] ، فوصف النيـــل ومصر ، وان اهتم كثيرا بالدلتا كما صحبه فى حملته على اليمن عام ٢٤ ق٠م ٠

وكان اهتمام «سترابو» جغرافيا فى الدرجـــة الاولى ، فهو يبدأ بحديث موجز عن النيــل ، ثم يتابعه بوصف مفصل عن الاسكنـــدرية والاقليم المتاخم لها شرقـــا ، ثم يتابع الكتابة بعد ذلك تبعا للترتيب الطبوغرافى ، وتنال أقاليم ومدن الدلتا حظا من التفصيلات الكاملة ، وهـــذا الضغط على الدلتـــا يستحق أكثر الترحيب ، ذلك لان الوثائق الوطنية عن الدلتا جد شحيحة فى هذه الناحية،هذا وقد أشار «سترابو» كذلك الى مقيـــاس النيـــل فى «اليفانتين»[٢٥] ، وهو نموذج مشهور من طراز من الدرج كانت تسجل على جدرانها سنويا الارتفاعات التى يصل اليها فيضان النيل ، كما قدم لنا تسجيلات هامة عن المبانى والعبادات٠

أما ملاحظاته على التاريخ والعادات الدينية فخاضعة للنقد الذى أشرنا اليه بالنسبة للمؤلفين السابقين ، وان كان كان يذكر له أنه أول من أشار الى تمثالى ممنون ، والى أن أحدهما كان يصدر عنه عند الفجر صـــوت كان يستطيع تمييزه الكثيرون من الزوار الاغريق والرومان ، وأخيرا فلقد أفاد استرابو كثيرا من «ايراتو سثينيس» (٢٧٦ — ١٩٢

---

(٢٤) انظر :
The Geography of Strapo, Translated by Hamilton, London, 1912.
The Geography of Strabo, Translated by H. Jones, 8 Vols, London, 1949.

(٢٥) اليفانتين : وتعرف الان باسم جـزيرة أسوان فى مقابل مدينة أسوان عبر النهر ، ويعنى اسمها فى المصرية (فيل) ،وقد نقل الى اليونانية تحت اسم «اليفانتين» ونظرا لتحكم جزيرة اليفانتين (يب) ومدينة أسوان فى مدخل مصر الجنوبى ٠ اقيمت قلعه فى كل منهما ، وكان «خنوم» سيد الشلال معبود اليفانتين (آبو = يب) الرئيسى ، ومعه المعبودتان «عنقت» و «ساتت» وقد عثر فى خرائب المدينة على أطلال معابد كثيرة ، اهمها معبد خنوم ، ومعبد من الاسرة الثامنة عشرة،كما وجد خلفها مقابر حكام أسوان من عهد الدولة القديمة والوسطى (انظر :
H. Goedick, ZAS, 81, 1956, p. 81-124 E. G. Kraeling, The Brooklyn Museum Aramic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.)

ق٠م) فى كتابه عن «الجغرافية» ، وأما كتـــابه فى التاريخ الذى جمع مادته من كتابه فى الجغرافية ، فلم يصل الينا للاسف الشديد[٢٦] •

٦ ـ بلوتارك الخـــيرونى :

يعد «بلوتارك الخيرونى» (٥٠ ـ ١٢٠ م) من أصـــدق المؤرخين القدامى ، وأكثرهم أمانة فى النقل ، وقـــد ولد «بلوتارك» عـــام ٥٠ (وربما عام ٤٦م) بمدينة «خيرونيا» فى وسط بلاد اليونان ، ثم أرسله أبوه حوالى عام٦٦م الى أثينا لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعةوالخطابة، غـير أنه برع فى علم الاخلاق ، ثم تنقل فى بلاد كثيرة ، فزار روما واسبرطة وكورنثه والاسكندرية وغيرها فى عام ٩٥م عين كاهنا بمعبد «أبو للون» بمدينة «دلفى» وبقى فيها حتى توفى عام ١٢٠م (وربمـــا عام ١٢٧م) •

وقد ألف بلوتارك (بلوتارخوس) كثيرا من الرسائل زاد عددها على الستين ، سميت بالاخلاقيات ، تناول فيها موضوعات شتى فى الاخلاق والدين والسياسة والفلسفة ، كما ألف فى الطبيعـــة والفلك والتاريخ الطبيعى والآثار والتراجم[٢٧] •

هذا وقد اهتم بلوتارك فى كتاباته بالعقائد المصرية ، واهتم بصفة خاصة بقصة «أوزير وايزة» والتى كان قد رواها من قبل تيودور،فكتب كتابه "Die iside et Osiride" الذى يروى فيه ـ بعد المقـــدمة ـ بلغة بسيطة ، قصة «أوزير» الذى اغتاله أخوه الشرير «تيفون» (ست)،ثم انتقم له ولده «حور» الذى كانت أمه «ايزه» قد نشأته فى عزلة خفية،

---

26. K. Baedeker, Egypt and Sudan, Leipzig, 1939, p. 345.
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 6-7.
B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, II Oxford 1927, p. 160.

(٢٧) بلوتارخوس : ايزيس وأوزريس ـ ترجمة حسن صبحى البكرى ومراجعة محمد صقر خفاجة ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٣ ـ ٥ •

وتتفق قصة بلوتارك هذه مع القصة التى يمكن بناء هيكلها من النصوص المصرية ؛ وان حملها بالكثير من التفصيلات التى استقى بعضها على الاقل من بعض مصادر مصرية لم تصل الينا(٢٨) .

وعلى أى حـال ، فقد كانت له ومضـات طريفة فى تفسير الديانة المصرية القديمة وشطحات أخرى عنيفة،فمن الاولى ما رآه من أن القصة الاوزيرية لا ينبغى أن تؤخذ بحرفيتها ، وأن لها كثيرا من الالوان كألوان «قوس قزح»(٢٩) المتعددة،وان يكن فى تصويره لهذه الالوان قد أصاب الحقيقة مرة ، وأخطأها مرات ، كما أننا آخر الامر لانستطيع أن نجزم بأن التفسيرات التى قدمها بلوتارك ليست من أصل مصرى(٣٠) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ــ فضلا عما ذكرنا من المؤرخين ــ انما يوجد عدد كبير من الكتاب الذين اعتمدنا على كتاباتهم فى دراسة التاريخ المصرى القديم ، فهناك «افلاطون» (٤٢٩ ــ ٣٤٧ ق٠م) الذى نلتقى فى كتاباته من وقت لآخـر ببعض الاشارات التى لا تخلو من أهمية فهو يعرف مثلا اسم «نيت» آلهة «سايس» (ساو = صا الحجر ــ مركز بسيون ، بمحافظة الغربية) ، كما يحـدد تحديدا صحيحا اختصاصات «تحوت» اله الاداب والعلوم والفلك ، وكذا لعبة «الداما»(٣١) .

---

(٢٨) بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٢٩ ــ ٣٩ ،
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 8-9.

(٢٩) ينشأ قوس قزح فى السماء ، أو على مقربة من مسقط الماء من الشلال ونحوه ، وتكون فى ناحية الافق المقابل للشمس ، وترى فيه ألوان الطيف متتابعة ، وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء،وقد أخطأت التوراة (تكوين ٩ : ١٣ ــ ١٥) عندما رأت أن الله سبحانه وتعالى أنشأها لتكون تذكرة له بألا يعود الى اغراق الارض أبدا،بعد طوفان نوح المشهور، وقزح من أسماء الشيطان ، ولهذا نهى رسول الله ، ﷺ ، عن هذه التسمية، مؤثرا تسميتها «قوس الله» .

(٣٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ، بلوتارخوس : المرجع السابق ص ٣٩ ــ ٤١ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 9.

31. A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 4.

وهنـــاك كذلك «بلينى الاكبر» (٢٣ — ٧٩ م) صـــاحب موسوعة (Historia Naturalis, [٣٢] ، وهى تجميع ضخم لقدامى المؤلفين ، نالت مصر فيها نصيبها الوافى ، وعلى أى حال ، فالرجل يعد حجة فى جغرافية مصـــر .

وهناك «كلوديوس بتولمايوس» ، وهو من مدينة «بطلمية»[٣٣] ، وقد قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثانى الميـــلادى (١٣١ — ١٥٠م) ، وقد أخرج كتابه فى الجغرافية ، حوالى عام ١٥٠م ، المعروف باسم «جغرافية بطليموس»[٣٤] ، غير أن الاجـــزاء التى تناولت مصر والنواحى المتاخمة لها فى هذا الكتاب قصيرة ، وتحوى أساسا قائمة فى المقاطعات فقط ، ومع كل مقاطعـــة دائرتها الاقليمية ، وأخـــيرا هناك «كليمنت السكندرى» (١٥٠ — ٢١٥م) والذى كتب فى الديانة المصرية وطقوسها ومواكبها ، وفى الرموز الهيروغليفية ومفهوماتها[٣٥] .

---

32. Pliny, Natural History, Translated by H. Rackham. London, 1967-1957.

(٣٣) بطلميـــة : ثانى مدينـــة اغريقية أقيمت فى مصر بعـــد الفتـــح المقدونى (نقراطيس ــ الاسكندرية ــ بطليموس) على أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا» ، وقد أطلق عليها فى عهد البطالمة «بسى بطليموس» أى «بسى» التى انشأها بطليموس ، وأصبحت فى عهد «كلوديوس بتولمايوس» عاصمة مقاطعة ثنى ، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الاغريقية ، وتقع أطلالها الان تحت مدينة المنشاة ، على مبعدة بضعة كيلو مترات جنوبى مدينة سوهاج .

(Ptol. II, 5, 66)

34. Ptolemy, Geographia, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols. 1843-1845.

(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

A. H. Gardiner, Op. Cit., p. 8-9.

ثالثا : المصادر الاجنبية المعاصرة

وأما ثالث المصادر الرئيسية لتاريخ مصر القديم ، فهو المصادر المعاصرة فى منطقة الشرق الادنى القديم ، ذلك أن مصر انما كانت على علاقة ببلدان هذه المنطقة فى فترات من تاريخها ، وخاصة فى عصر الدولة الحديثة ، فتبادل حكامها مع الفراعين رسائل كثيرة ، اختلفت فى عصور السلام عنها فى عصور الحرب ، ففى الاولى نجد الود والاحترام المبالغ فيه ، ان لم يكن الخضوع والتذلل ، وفى الثانية نجد ادعاءات مبالغ فيها كذلك،وواجب الباحث ازاء هذه الكتابات مقارنتها بما يعاصرها فى مصر ، فهى — شأنها فى ذلك شأن أمثالها فى مصر — تبالغ فى النصر التافه فتحيله الى نصر عظيم ، كما أنا تخفى الهزائم أحيانا ، أن لم تحيلها الى نصر مبين ، ومن المقارنة بينها جميعا يستطيع الباحث أن يتبين — ولو بقدر — الحقائق التاريخية .

هذا الى أنها انما تعين الباحث كذلك على تعيين عهود الفراعين بالنسبة الى من عاصرهم من ملوك الشرق وأمرائه ، كما أن هذه الرسائل المتبادلة انما تعطى فكرة عن العلاقات الدولية والحالة الحضارية لهذه المنطقة العامة من العالم ابان كتابها[1] .

ولعل من أوضح الامثلة على ذلك ما عرف باسم «رسائل العمارنة»

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ — ٣ .

التى عثر عليها عام ١٨٨٧م فى أطلال مدينة العمارنة،فى المبنى الذى كانت تحفظ فيه المراسلات الملكية ، وهى مكتوبة بالخط المسمارى على لوحات من الطين المجفف ، وليس من شك فى أهمية هذه الرسائل والمراسلات الملكية ، ذلك لانها انما تعتبر من أهم المصـــادر الاساسية المعاصرة فى دراستنا لحالة الامبراطورية المصرية فى أخريات أيام «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ ق٠م) وطوال عهد ولده اخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ق٠م)، فضلا عن علاقات مصر بدول الشرق الادنى القديم[٢] ٠

---

(٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «رسائل العمارنة» (انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٥) ٠

رابعا : المصادر اليهـــودية

١ ـ التــــوراة :

التوراة كلمة عبرية تعني الهـــداية والارشاد ، ويقصد بها الاسفار الخمسة الاولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتى تنسب الى موسى عليه السلام ، وهى جزء من «العهد القديم» ، والذى يطلق عليه تجاوزا اسم «التوراة» (Torah) من باب اطـــلاق الجزء على الكل ، أو لاهمية التوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام[١] .

والتوراة أو العهد القديم ، تمييزا له عن العهد الجـــديد[٢] (كتاب النصارى المقدس) هو كتاب اليهود الذى يضم ، الى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبـــار يهود فلسطين ، وليس يهـــود الاسكندرية ، الى ثلاثة أقسام : الناموس والانبياء والكتابات[٣] .

هذا ويتفق اليهـــود والنصارى على قدسية العهد القـــديم ، وان اختلفوا فى أسفاره ، عددا وشرعية ، فاليهود يتفقون جميعا على أسفار موسى الخمسة ، ولكنهم يختلفون على بقية أسفار العهد القديم ، ذلك لان السامريين منهم لا يعترفون الا بأسفار موسى الخمسة[٤] ، وربما

---

(١) قدم الدكتور محمد بيومى مهران دراسة مفصلة عن التوراة ، حيث خصص لها الجزء الثالث من سلسلة كتابه «اسرائيل» (انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١ ـ ٣٧٩) .

(٢) انجيل متى ٢٦/٢٨ ، رسالة كورنثوس الثانية ٣/٦ ، ١٤ .

3. Epstein, (I.) Judaism, A Historical Pressentation, (Penguin) Books) 1970, p. 23.
Unger, (M.F.) Unger's Bibie Dictionary, Chicago, 1970, p. 1109.

(٤) حبيب سعيد : المدخل الى الكتاب المقدس ـ القاهرة ـ ص ٣٥ ـ

يضيفون اليها أحيانا سفر يشوع ، ومن ثم فان كتابهم المقدس انما يتكون من ستة أسفار فقط[5] ، وأما بقية يهـــود فيؤمنون بكل أسفار العهد العبرى ، وعددها ٣٩ سفرا[6] .

ولم يكن الامر عند النصارى بأفضل منه عند اليهود ، ذلك لان هنالك على الاقل طبعتين للعهد القديم، الواحدة تستعملها الكنائس البروتستانتية، والارثوذكسية الشرقية ، بأسفار عـــدة اعتبرها البرتستانت ، الذين احتفظوا فقط بأسفار العهد القديم العبرى، أسفارا زائفة (أبو كريفا = Apocrypha) ، هذا الى جانب الاختـــلاف فى عـــدد اصحاحات توراة البروتستانت عن تلك التى فى توراة الكاثوليك[7] .

هذا فضلا عن أن هنالك خلافا طفيفا فى بعض التسميات ، الى جانب الخلاف فى الترتيب الذى وضعت به الاسفار فى العهد القديم العبرى ، عن الترتيب الذى وضعت به نفس الاسفار فى العهد القديم المسيحى ، ذلك لان اليهود فى فلسطين انما قد راعوا التسلسل التاريخى للاسفار ، وهو نفس الترتيب الذى نجده فى الطبعات العربية للعهد القديم ، ومن هنا نشأ الخلاف فى أسفار العهد القديم بين اليهود والنصارى[8] .

=

٣٦ ، محمد بدر ، الكنز فى قواعد اللغة العبرية . القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٨ — ٢٩ ، قاموس الكتاب المقدس — الجزء الاول — بيروت ١٩٦٤ ص ٤٥١ .
Unger, (M. F.), Op. Cit., p. 1050.

(٥) حسن ظاظا : الفكر الدينى الاسرائيلى — القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٦) هناك من أحبار اليهود من يرى أنها ٢٤ سفرا ، بضم بعض الاسفار الى بعض ، بينما يرى آخرون أنها يجب أن تتفق وعدد الحروف الابجدية العبرية ، وهى ٢٢ حرفا (فؤاد حسنين : التوراة الهيروغليفية — القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣ — ١٤) ، وكذا (Josephus, Contra Apion, I; 8)

(٧) انظـــر : الطبعـــة البروتستانتية (القاهرة ١٩٧٠) ، والطبعـــة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١) مع ملاحظة أن الطبعة الكاثوليكية تزيد عن الطبعة البروتستانتية بسبعة أسفار ، فضلا عن ١٥ اصحاحا ثم انظـــر الجداول المقارنة للطبعتين (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/٨ — ١٠) .

(٨) حبيب سعيد : المرجع السابق ٣٦ ، ٦٧ — ٦٨ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ١٤ — ١٥ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦ — ٧ ، ١٩ .

وأما المسلمون فلهم رأى يختلف كثيرا عن اليهود والنصارى ، ذلك لان الاسلام الحنيف انما يؤمن بموسى عليه السلام ، رسولا نبيا ، ثم يقرر بعد ذلك أنه قد جاءته صحف[9] ، وأنزلت عليه توراة[10] . ومن البدهى أن التوراة شيء ، والعهد القديم شيء آخر ، فالتوراة لاتعدو أن تكون جزءا من العهد القديم ، بل هى أسفار خمسة من جملة أسفار العهد القديم البالغ عددها ٣٩ سفرا ، على الاقل،كما رأينا آنفا .

ومن ثم فان حديث القرآن الكريم عن توراة موسى لا ينطبق أبدا على كتاب اليهود المتداول اليوم ، والمعروف بالعهد القديم ، وبالتالى فان من يعتقدون أن القرآن الكريم يؤمن بالعهد القديم انما يخطئون الخطأ كل الخطأ،هذا فضلا عن أن التوراة التى يؤمن بها القرآن الكريم، انما هى التى أنزلها الله تعالى هدى ونورا ، فهى تقرر وحدانية الله تعالى ، وتنزيهه عن كل مظاهر النقص ، وترتكز على الاعتراف باليوم الاخر ، والايمان بما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، والتى تضمنت عظات وأفكار ، وشريعة لبنى اسرائيل يحكم بها أنبياؤهم ، فضلا عن الاعتراف لهؤلاء الانبياء بالعصمة والاسوة الحسنة .

غير أن هذه التوراة الاصيلة الاصلية ببنودها ونصوصها وتعاليمها السماوية وموادها الكاملة ، لا وجود لها الان بهذه الصورة الالهية ، التى كانت عليها وقت موسى عليه السلام ، فلقد امتدت اليها يد أثيمة من يهود فحرفت وبدلت ، ثم كتبت سواها بما يتلائم من اليهود،ويتواءم مع مخططاتهم ، ثم زعموا ، بعد كل هذا ، أنها التوراة التى أنزلها الله

---

(٩) انظر : سورة النجم : آية ٣٦ ، سورة الاعلى : آية ١٩ .

(١٠) جاءت كلمة التوراة فى القرآن الكريم ١٨ مرة (انظر : سورة آل عمران : آية ٣ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٩٣ ، ٩٣ ، سورة المائدة، آية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ١١٠ ، سورة الاعراف : آية ١٥٧ ، سورة التوبة : آية ١١١ سورة الصف : آية ٦ ، سورة الجمعة : آية ٥) .

تعالى على موسى «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا»[11] .

هذا وقد روى أن سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، رأى يوما ورقة من التوراة فى يد الفاروق عمر بن الخطاب ، فأمره بالقائها ، لما بها من أباطيل ، وما فيها من تحريف ، فلقد أخرج الامام أحمد بن حنبل وابن أبى شيبة والبزار من حديث جابر بن عبد الله ، أن عمر بن الخطاب أتى النبى ، ﷺ ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه فغضب فقال : أمتهوكون[12] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده ، لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه الا أن يتبعنى»[13] .

---

(11) انظر : سورة الكهف : آية ٥ وانظر : تفسير البيضاوى ٤/٢ (القاهرة ١٩٦٨) ، تفسير الفخر الرازى ٧٧١/٢١ ــ ٧٨ (القاهرة ١٩٣٨) تفسير الطبرى ١٩٣/١٥ ــ ١٩٤ (ط الحلبى) ،تفسير الطبرسى ١١٥/١٥ ــ ١١٨ (بيروت ١٩٦١)تفسير القرطبى ص ٣٩٧٠ (ط دار الشعب ــ القاهرة ١٩٧٠) ، تفسير روح المعانى ٢٠٤/١٥ (بيروت ١٩٧٨) ،عبد الله محمود شحاته : فى نور القران ص ١٢٧ ــ ١٢٩ (القاهرة ١٩٧٣) .

وانظر : عن الايات القرآنية التى تعرضت لتحريف اليهود لتوراة موسى عليه السلام (سورة البقرة : آية ٧٩ ، ١٥٩ ، سورة آل عمران : آية ٧٨ ، سورة النساء : آية ٤٦ ، سورة المائدة : آية ١٣ ، ١٥ ، سورة الانعام ، آية ٩١) ، وانظر : تفسير الطبرى ٢٦٧/٢ ــ ٢٧٤ ، ٥٣٥/٦ ــ ٥٣٧ ، ٤٣٠/٨ ــ ٤٣٩ ، ١٢٥/١٠ ــ ١٣٥ ، ١٤٠ ــ ١٤٤ (دار المعارف ٥٧/١٩٦٠) ، تفسير الكشاف ١٥٧/١ ــ ١٥٨ ، ٥١٦ ــ ٥١٨ ، ٦٢٤ــ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، (القاهرة ١٩٦٦) ، تفسير النسفى ٦٥/١ ، ٣٢٠ ــ ٣٢١ ، ٣٩٧ ــ ٣٩٨ (بيروت ١٩٨٠) ،تفسير الطبرسى ٣٢٥/١ ــ ٣٢٨ ، ٤٦/٢ ــ ٤٨ ، ٥١/٦ ــ ٥٧ ، تفسير روح المعانى ٣٠١/١ ــ ٣٠٣ ، ٢٦/٢ ــ ٢٧ ، ٤٥/٣ ــ ٤٨ ، ٨٨/٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ،تفسير الفخر الرازى ١٣٨/٣ ــ ١٤٠ ، ١١٧/١٠ ١١٩ ، ٧٧/٢١ ــ ٧٨ ، تفسير المنار ٢٩٨/٢ ــ ٢٩٩ ، ٣ ٢٨٢ = ٢٨٤ ، ١١٠/٥ ــ ١١٦ ، ٢٣٣/٦ ــ ٢٣٥ ، ٥٠٨/٧ ــ ٥١٠ (القاهرة ١٩٧٣) ، تفسير ابن كثير ١٦٧/١ ــ ١٦٩ ، ٥٣/٢ ــ ٥٤ ، ٦٠ ــ ٦١ ، ٢٩٣/٣ ــ ٢٩٤ ،فى ظلال القرآن ٨٥/١ ، ٩٧/٥ ــ ٩٩ ، ٦ ١٠٨ ــ ١١٠ ، ١١٣ ــ ١١٤ ، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٩٠/١ ــ ٩٢ ، ١٣٦ ــ ١٣٧ ، ٥٠/٣ ــ ٥١ ، ١٥٣ ، ٥٨/٤ /القاهرة ١٩٧٣) .

(١٢) المتهوك : المتحير الشاك .

(١٣) فتح البارى ٤٠٤/١٣ (ط الخيرية) ، مسند الامام أحمد =

وهكذا يقرر الاسلام بمصدريه ـ الكتاب والسنة ـ أن التوراة وليس العهد القديم كله كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم موسى عليه السلام، غير أن اليهود ، من بعد موسى ، قد حرفوه وبدلوه، ثم كتبوا سواه بأيديهم ، ثم زعموا بعد ذلك كله ، كذبا على الله وعلى الناس ، أنه من عند الله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا»(١٤) .

وسؤال البداهة الان : اذا كانت هناك توراة أنزلت على موسى حقا، وهذا ما نؤمن به ، واذا كانت هذه التوراة المتداولة اليوم ، ليست هي توراة موسى، وهذا ما لا نشك فيه ، فما حكم الرواية عن هذه التوراة؟ والجواب عند العلماء : أن هناك كثيرا من الادلة التى تشير الى منع النقل عن هذه التوراة ، منها ما جاء فى القرآن الكريم من الايات الدالة على تحريف التوراة ، مما أفقد الثقة فيها وفيما يحدثون به منها ، وقد سبق لنا أن عرضنا لهذه الآيات القرآنية آنفا .

ومنها مارواه الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة أنه قال : «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام ، فقال رسول الله ، ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل اليكم .. الآية»(١٥).

ومنها ماروله أيضا الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس حيث قال : يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الاخبار بالله تقرأونه لم يشب ، وقد حدثكم

٣/٢٨٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ١/٢٩٨ (بيروت ١٩٦٦)، على عبد الواحد وافى : الاسفار المقدسة فى الاديان السابقة للاسلام ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧ ـ ١٨ .

(١٤) سورة الكهف : آية ٥ .

(١٥) صحيح البخارى ٩/١٣٦ (ط دار الجيل ببيروت ـ عن دار الحديث بالقاهرة ـ تقديم أحمد محمد شاكر ١٩٨٦) ، والاية فى سورة البقرة : آية ١٣٦ ، وانظر أيضا : سورة البقرة : آية ١٥٩ ، سورة آل عمران : آية ٧٨ ، سورة المائدة : آية ١٥ ، سورة الانعام : آية ٩١ .

الله أن أهل الكتاب بدلوا ماكتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسايلتهم ، ولا والله ما رأينا منهم رجــلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم»[١٦] .

غير أن هناك أدلة تجيز النقل عن التوراة ، منها قــول الله تعالى، مخاطبا نبيه ، ﷺ ، «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين»[١٧] وهذا صريح فى جواز الرجوع الى التوراة والاحتكام اليها[١٨] .

ومنها ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمــرو، أن النبى ﷺ قال : بلغوا عنى ولو آية ، وحــدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[١٩] .

ومنهـــا ما ثبت أن النبى ﷺ استمع لبعض اليهـــود وهم يتلون التوراة ، ومن ذلك ما رواه الامام أحمد بسنده الى عبد الله بن مسعود قال : «ان الله عز وجل ابتعث نبيه لادخال رجل الجنة ، فدخل الكنيسة، فاذا يهودى يقــرأ عليهم التوراة ، فلما أتوا على صفة النبى ﷺ ، أمسكوا ، وفى ناحيتها رجل مريض ، فقال النبى ﷺ : ما لكم أمسكتم؟ فقال المريض : انهم أتوا على صفة نبى فأمسكوا ، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ ، حتى أتى على صفة النبى ﷺ ، وأمته ، فقال: هذه صفتك وصفة أمتك ، أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله[٢٠] .

---

(١٦) صحيح البخارى ٢٣٧/٣ (باب لايسال اهل الشرك عن الشهادة وغيرها)
(١٧) سورة آل عمران : آية ٢١ .
(١٨) محمد حسين الذهبى : الاسرائيليات فى التفسير والحديث - القاهرة ١٩٨٦ ص ٤٥ .
(١٩) صحيح البخارى ٢٠٧/٤ (باب ماذكر عن بنى اسرائيل) .
(٢٠) مسند الامام أحمد ٤١٦/١ .

ويقول الدكتور الذهبي : فقول الرسول ﷺ ، لهم : مالكم أمسكتم، ثم استماعه للرجل المريض وهو يقرأ التوراة فى رضا وعدم انكار عليه، دليل على اباحة الاخذ عن كتب أهل الكتاب[21] .

هذا وقد حاول بعض العلماء التوفيق بين الاتجاهين ، فذهب الامام ابن حجر العسقلانى الى أن النهى كان قبل استقرار الاحكام الاسلامية والقواعد الدينية ، خشية الفتنة ، فلما زال المحظور وقع الاذن فى ذلك، لما فى سماع الاخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار[22] ، فضلا عن الاحتياج الى الرد على المخالف ، بدليل نقل الائمة قديما وحديثا من التوراة والزام اليهود بالتصديق لسيدنا محمد ، ﷺ ، بما يستخرجونه من كتبهم[23] .

وبدهى أن جواز الرجوع الى كتب أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، انما يصح فيما لم تصل اليه يد التحريف والتبديل من الحقـــائق التى تصدق القرآن وتلزم المعاندين منهم ومن غيرهم الحجة ، ومن ثم فلا يجوز لمسلم أن يقبل مايحدثون به على اطلاقه،ولا أن يرده على اطلاقه، بل يقبل منه ما جاء موافقا لما فى القرآن أو السنة ، لان هذه الموافقة دليل على أنه مسلم من التحريف والتبديل ، ويرد منه ماجاء مخالفا لما فى القرآن والسنة ، أو كان لا يتفق مع العقل ، لان هذه المخالفة دليل على أنه مما تطرق اليه التحريف والتبديل .

وخلاصة القول فى حكم روايات الاسرائيليات ، فيما يرى الدكتور الذهبى ، أن ماجاء موافقا لشرعنا صدقناه ، وجازت روايته ، وما جاء مخالفا لما فى شرعنا كذبناه وحرمت روايته، الا لبيان بطلانه ، وما سكت عنه شرعنا توقفنا فيه ، فلا نحكم عليه بصدق ولاكذب ، وتجوز روايته،

---

(٢١) محمد حسين الذهبى : المرجع السابق ص ٤٦ .
(٢٢) ابن حجر العسقلاني : فتح البـارى بشرح البخـارى ٦/٣٨٨ (القاهرة ١٣٨٠هـ) .
(٢٣) فتح البارى ١٧/٣٠٩ .

لان غالب ما يروى من ذلك راجع الى القصص والاخبار،لا الى العقائد والاحكام ، وروايته ليست الا مجرد حكاية له ، كما هو فى كتبهم أو كما يحدثون به ، بصرف النظر عن كونه حقا أو غير حق[٢٤] .

ويقول العلامة ابن خلدون فى تاريخه : والقوم أعلم بأخبارهم ، اذا لم يعارضها مايقدم عليها ، وكما قال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب» فقد قال ، ﷺ «ولا تكذبوهم» ، مع أن ذلك راجع الى أخبار اليهود ، وقصص الانبياء التى كان التنزيل فيها من عنـــد الله تعالى، لقوله ، ﷺ ، بعد ذلك «وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم»، وأما الخبر عن الواقعات المستندة الى الحس فخبر الواحد كاف فيه ، اذا غلب على الظن صحته ، فينبغى أن نلحق هذه الأخبار بما تقدم من أخبارهم ، لتكمل لنا أحوالهم من أول أمرهم الى آخره ، والله أعلم[٢٥] .

وعلى أية حال ، فلقد تحدثت التوراة ، أو العهد القديم ، فى كثير من أسفاره عن علاقة مصر ببنى اسرائيل منذ تشريف أبى الانبياء ابراهيم عليه السلام أرض الكنانة بالزيارة (فى حوالى عصر الاسرة الثانية عشرة على الارجح)[٢٦] ، وحتى نهاية دويلتهم التى أقاموها فى أرض كنعان فى عام ٥٨٦ق.م ، وحدوث السبى البابلى المشهور (٥٨٦ ــ ٥٣٩ق.م) ثم قيام الجالية اليهودية فى مصر ، وعلى أيام الحكم الفارسى ، كما فى أسفار التكوين والخروج والعدد والتثنية والقضاة والملوك الاول والثانى

---

(٢٤) محمد حسين الذهبى : المرجع السابق ص ٤٩ ــ ٥٣،وانظر : آراء أخــرى فى : ابن تيمية : مقدمة فى أصــول التفسير ص ١٧ ــ ٢٠ ، ٤٥ ــ ٤٦ ، تفسير ابن كثير ٤/١ ، البداية والنهاية ٦/١ ــ ٨ ، تفســير القاسمى ٤٤/١ ــ ٤٥ ، تفسير البقاعى ص ٨٩ ــ ٩٠ ، عمــدة التفســير ١٥/١ ، تعليق أحمد محمد شاكر .

(٢٥) عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ١٣٤/٢ ــ ١٣٥ (بيروت ١٩٨١) ، وانظر : البداية والنهاية ١٣٢/٢ ــ ١٣٤ .

(٢٦) انظر : عن رحلة الخليل الى أرض الكنانة (محمد بيومى مهران: اسرائيل ٨٢/١ ، ٩٩ ــ ١٠٤) ، مصر ــ الجزء الثانى ص ٤١٥ ــ ٤٣٦ (الاسكندرية ١٩٨٨) .

ونحميا والمزامير واشعيا وأرمياء وحزقيال وهوشع وناحوم والمكابين الاول والثاني وغيرها[٢٧] .

وقد تحدثت التوراة في هذه الاسفار عن المصريين وعلاقاتهم ببني اسرائيل ، فضلا عن الحديث عن أنبياء بني اسرائيل ذوى الصلة بمصر ، كما يبدو واضحا في قصص ابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون ، عليهم السلام ، فضلا عن العلاقات المصرية اليهودية على أيام داود وسليمان عليهما السلام كما جاء ذلك في أسفار التكوين والخروج والملوك الاول والثاني ، وأخبار الايام الاول والثاني .

هذا الى جانب ما جاء في التوراة عن بعض الملوك المصريين من أمثال: سيشنق الاول[٢٨] وطهراقا[٢٩] ونخاو الثاني[٣٠] وابريس[٣١] ، ثم ذلك الذي دعته «سوا»[٣٢] وقبل هؤلاء وأولئك الملوك الذين عاصروا ابراهيم الخليل ويوسف الصديق وموسى الكليم[٣٣] صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فضلا عما جاء في التوراة عن امرأة فرعون التي ربت موسى[٣٤] ، وابنة فرعون التي تزوجت من سليمان[٣٥] ، وفي أثناء ذلك كله انما تحدثت التوراة كثيراً عن مصر ، وبسطت طرفا من

---

(٢٧) قدم الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن هذه الاسفار (انظر : محمد بيومي مهران : اسرائيل ١٨/٣ ـ ٩٦) .

(٢٨) ملوك أول ٢٥/١٤ ـ ٢٧ ، أخبار أيام ثان ٢/١٢ ـ ٩ .

(٢٩) ملوك ثان ٩/١٩ ، اشعياء ٩/٣٧ ، وانظر : (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٩٧٢/٢ ـ ٩٧٧ ـ الاسكندرية ١٩٧٨) .

(٣٠) ملوك ثان ٢٩/٢٣ ، أخبر أيام ثان ٢١/٣٥ ـ ٢٥ ، ارمياء ٢/٤٦ .

(٣١) ملوك ثان ٣٠/٢٤ ، ارمياء ٣٠/٤٤ .

(٣٢) ملوك ثان ٤/١٧ ، وانظر عن الاراء التي دارت حول «سوا» هذا (محمد بيومي مهران : اسرائيل ٩٤٠/٢ ـ ٩٤٦) .

(٣٣) انظر عن ابراهيم (تكوين ١٠/١٢ ـ ٢٠ ، ١/١٣ ـ ٣) وعن يوسف (تكوين ١/٣٩ ـ ٢٦/٥٠) وعن موسى (خروج ١/٢ ـ ٢١/١٥) .

(٣٤) خروج ٥/٢ ـ ١٠ .

(٣٥) ملوك أول ١/٣ ، ٢٤/٩ .

مناحي الحياة المصرية ، وبخاصة النواحي السياسية والاقتصادية والعمرانية وغيرها •

هذا ومن المعروف أن اليهود قد سجلوا في كتابهم المقدس «التوراة أو العهد القديم» تاريخهم منذ برأ الله الخليقة ، وذرأ البشر ، وحتى القرن الثاني قبل مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، بل أن التوراة انما سجلت الى حد ما كثيرا من الاحداث التاريخية التي وقعت في منطقة الشرق الأدنى القديم ، في الفترة فيما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وخاصة تلك التي تتصل بتاريخ اليهود •

ورغم أن التوراة انما تمثل مصدرا تاريخيا لا غبار عليه في بعض الاحايين ، غير أنها كانت ومازال — الى أن يمن الله علينا بمزيد من كشوف حفرية عن أحقاب مافتئنا نجهل الوجه الذى كانت عليه — ركامات من متناقضات ، أو ربما عقدا منظوما من حلقات متباينات — صحيح أنه قد توصل عديد من باحثين الى التحقق من عدة وقائع ، ولكنه صحيح أيضا أن الوقائع في حد ذاتها ليست هي التاريخ،الا أن تتداخل وتترابط فتتطرد[٣٦] •

ان التوراة — ولو كره المفتتنون بها — ليست من التاريخ بشيء ، وان سلمنا أنها قد اشتملت على وقائع لها سند من تاريخ[٣٧]، ولا يسعنا — كما فعل علماء القرن الماضي — أن نأخذ بتلك المعطية ، من أن الوثيقة التاريخية ، انما تنطوى أساسا على ما ظن صاحبها أنه قد حدث ، وربما ماود أن يكون قد حدث ، وأحيانا مايريد لغيره ، أن يظنوا

---

36. Mendenhall, (G.), Bible History in the Transition in their and the Bible and Ancient Near East, N. Y. p. 37.

37. Bright, (J.), Modern Study of the Old Testament Literature in the Bible and the Ancient Near East, N. Y., 1961, p. 14.
Mendenhall, Op. Cit., p. 34.

أن قد حدث ، فانا لو فعلنا لما وجدنا تفسيرا منطقيا لما اشتملت عليه التوراة من تناقضات[٣٨] .

وفى الواقع أن التوراة ليست بوثائق تاريخية ، وانما هى قد تشكلت من واقـــع تدوينات متعاقبة لاصول من مأثورات قديمة ، وأن المأثور ــ بوصفه أصلا قصـــة محكية تناقلتها ذاكرة الناس جيلا اثر جيل ــ ليخضع لقوانين غير تلك التى تهيمن على الكلمة،اذ تكتب تسجيلا لتاريخ .

صحيح أن التـــوراة قد استقرت آخـــر الامر فى صورة من وثيقة مكتوبة ، فيما بين القرنين الخامس والثانى قبل الميلاد ، ولكنها أصلا مجموعة من قصص محكى ، لم يتهيأ لحرف منها أن يدون فيسجل الا بعد أحقاب طوال ، قد بلغ ثمانية قرون فى بعض الاسفار ، وعشرة فى أسفار أخرى .

ولو أخذنا مثلا ، قصص الاباء الاولين ، ودققنا النظر فيها لوجدنا أنها مجموعة من قصص ، لكل طابعها الخاص ، ومغزاها المنفرد ، تتجه الى وعظ وقـــد تنحو الى سخرية أو ترفيه ، لا تحفـــل بالتزام دقة ، ولا تسعى الى تحقيق ، بقدر ما يعنيها التأثير على السامعين ، لا روابط بين بعضها البعض ، الا ما ابتدع من بعـــد ، خيوطا واهية من أنساب واضحة الافتعال ، ومن ثم فلا يعول عليها علميا ، تحديدا لمواقعها من حيث زمان ، أو تنسيقا فيما بينها من حيث تتابع[٣٩] .

ومن ثم فلا عجب أن يكون الطابع العام الاول الذى يبقى فى نفس قارىء التوراة ككتاب تاريخ ، أنها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من

---

(٣٨) حسين ذو الفقار صبرى : توراة اليهود ــ المجلة ــ العدد ١٥٧ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢ ــ ١٣ .
Carr, (E. H.), What is History ? N. Y., 1962, p. 15-16.

(٣٩) حسين ذو الفقار صبرى : المرجع السابق ص ١٣ ،
Lods (A.), Israel, From its Beginninges to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 159.
وأنظر : عن كتابة التوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٨/٣ ــ ٩٦) .

الخرافات والقصص التى صيغت فى جـو أسطورى ، حافل بالاثارة ، مجـاف للعقل والمنطق ، غاص بالمتناقضـات ، مشبع بالسخف ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش الى الدماء[40] .

وعلى أى حال ، فما يهم فى هذا الصدد أن تكون التوراة بعد ذلك كتابا مقدسا ، أو لاتكون ، فذلك شأن من يريدون أن يروها فى نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك ، ولكن الذى يهم ألا تكون كتاب تاريخ يحـاول فرض مضمونه على الحـاضر والمستقبل ، كما حاول فرضه على الماضى .

واذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لايجد له سندا ، الا فيما يزعم لها من قداسة ، فالذى لاشك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ ، وقيمتها ككتاب مقدس ، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس ، تضاءلت الريبة فى صدق ما تضمنه من وقائع ، وسهل وصول هذه الوقائع الى يقين الناس ، على أنها من حقائق التاريخ التى لا ينبغى الشك فيها،وقد أدركت اليهودية الصهيونية هذه الحقيقة، فأحسنت استغلالها اعلاميا فى الغرب المسيحى ، لدعم مازعمت أنه حقها فى انشاء دويلة اسرائيل .

ولكن أية قيمة موضوعية تبقى لتاريخ لا يجـد سندا له ، الا فيما يزعم لكتاب واحد من قدسية ؟ وهى بعد «قدسية» ، توجه اليها سهام الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى فوق مظان الشبهات[41] .

وانطلاقا من كل هـذه ، فاننا سنتعامل مع التـوراة ــ أو العهد القديم ــ فى دراستنا هذه وغيرها ــ كمصدر تاريخى ، دون أن نتقيد كثيرا بتلك الهالة التى فرضتها التوراة على المؤمنين بها . ذلك لأن من

---

(٤٠) صبرى جرجس : التراث اليهودى ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ٥١ .
(٤١) نفس المرجع السابق ص ٥٨ ــ ٥٩ .

كتبوا التوراة كانوا بشرا مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرا عن نظائرهم من معاصريهم فى الشرق[٤٢] .

هذا فضلا عن أنه ليس هناك تاريخ لايحتمل المناقشة ، بل لايحتمل أن نخطئه ، ومادامت التوراة كتاب تاريخ ، كما هى كتاب دين ، فليس هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها مناقشة حرة ، دون تمييز ، يتقبل ما تقوله بصدر رحب ، ان كان يتفق مع الاحداث التاريخية ، ويوافق المنطق والمعقول ، ويرفضه حين يذهب بعيدا عن ذلك ، تحيزا لليهود ، أو جهلا بحقائق التاريخ ، وما أكثر هذين النوعين من المواد التاريخية فى توراة يهود[٤٣] .

٢ - كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى :

ولـد «يوسف بن متى» أو «يوسفيوس فيلافيوس» فى أورشليم القدس عام ٣٧م ، وتوفى فى روما عام ٩٨م (أو عام ١٠٠م) ، وكان قد أرسل الى روما من قبـل المحكمة العليا عند اليهود (السنهدرين)[٤٤] للدفاع عن الأحبار الذين سجنوا بأمر المفـوض الرومانى ، وقد أدى مهمته بنجاح ، ثم عاد الى القـدس ، واشترك فى ثورة ضد الرومان انتهت بأسره .

غير أن القائد الرومانى «فسباسيان» أنقذه من الاسر ، ثم سرعان ما نال يوسف اليهودى تقدير القائد الرومانى،ثم صحب ابنه «تيتوس» عـام ٧٠م الى القدس ، ثم عـاد معه الى روما ، حيث حمـل اسم

(٤٢) انظر : نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٧٣ ،
Sayce, (A. H.), Early History of the Hebrew.
(٤٣) انظر : عن التوراة والحقائق التاريخية (محمد بيومى مهران اسرائيل - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٦٣ - ٢٩٦) .
(٤٤) انظر عن «السهندرين» (محمد بيومى مهران : اسرائيل - الجزء الرابع - الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٨٥ - ١٨٧) .

«فيلافيوس» باعتباره عبدا حرره سيده «فسباسيان» ثم منح بعد ذلك حقوق المواطن الرومانى[٤٥] •

وهنالك فى روما كتب يوسف اليهودى كتبه المعروفة ، والتى من أهمها «آثار اليهــود» (The Jews Antiquities) و «الحــروب اليهــودية» (The Jewish Wars) فى سبعة أجــزاء بالارامية ، ترجمت فيما بعد الى اليونانية ، ثم كتب «تاريخ اليهود القديم» فى عشرين جزءا ، منذ بدء الخليقة ، وحتى عام ٦٦م[٤٦] •

هذا وقد تحدث يوسف اليهودى هذا كثيرا عن «مصر» ، وخاصة فى العلاقات بين مصر وبنى اسرائيل ، وقد تميزت كتاباته بتحيزه لقومه اليهود ، واعطائهم من البطولات ما لم يكن لهم أبدا ، وتفسير الاحداث التاريخية بما يتفق وهواه ، فضلا عن هوى قومه اليهود ، حتى ان كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية ، بل هو كذلك فى أغلب الاحايين ، هذا الى جانب اعتماده الى حد كبير على العهد القديم فى كتاباته •

وهكذا بدأ يوسف اليهودى يتحدث عن «مصر» ، عندما أراد الرد على كاتب أغريقى متمصر يدعى «ايبون السكندرى» فى كتابه «الرد على ايبون» (Against Apion) ، والذى رمى اليهــود بالرجس والتشرد ، ووضاعة الاصل ، وبكل شائنة ونقيصة ، وهنا زعم يوسف اليهودى أنه يروى الكلمات الاصلية لمانيتو عن الغزو الهكسوسى لمصر ، فى عهد ملك دعاه «توتيمايوس»[٤٧] (تيمايوس ، فيما يرى وليم أولبرايت)[٤٨] •

---

(٤٥) باروخ سبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة ــ ترجمة حسن حنفى ــ القاهرة ١٩٧١ ص ١٦٧ ، فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ الجزء الاول ــ ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق ــ بيروت ١٩٥٨ ،

Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, p. 228.

(٤٦) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣١ ــ ٣٢ •

47. Waddell, (W. C.), Manetho, (With an English Translation), London 1940, p. 79 F.

48. Albright, (W. F.), BASOR, 99, No. 44.

ثم زعم بعد ذلك أنه وجد فى مخطوطات«مانيتو» المؤرخ المصرى القديم، ما يربط بين قومه اليهود والهكسوس •

وهكذا ربط بين قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر وخروجهم منها ، وبين قصة الهكسوس وطردهم من مصر ، بقيادة «أحمس الاول» حوالى عام ١٥٧٥ ق٠م(٤٩) •

وانطلاقا من هذه الدعوى الكذوب ، فان يوسف اليهودى لم يقبل تفسير «مانيتو» لكلمة «الهكسوس» ، من أنها تعنى «الملوك الرعاة» ، على أساس أن «هك» تعنى فى اللغة المقدسة «ملك»،وأن «سوس» تعنى فى اللغة الدارجة «راعى» ، فيتابع يوسف هذا الاشتقاق باشتقاق آخر لاسم الهكسوس من مصدر آخر ، بمعنى «الاسرى الرعاة» لان كلمة «هك» تعنى «أسير» ، لان قصة التوراة عن دخول بنى اسرائيل مصر، ثم الخروج منها ، فى نظره ، لهما أصول فى احتلال الهكسوس لمصر، ثم طردهم منها(٥٠) •

وأكبر الظن أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللفظين المصريين «حقا» بمعنى (حاكم) ، و «حاق» بمعنى (غنيمة) ، ويوسف اليهودى لم يكن مؤلفا ، وانما كان ناقلا ، نقل عن مانيتو ، وحرف مانقل لحاجة فى نفسه ، وهو بعد ذلك قد كان غريبا على مصر ، وعن لغة المصريين ، وكان اعتماده على الرواية (ان صدقنا أنه كان أمينا فيما يروى)،أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحرى ، سمع تأويل المصريين لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون(٥١) •

---

(٤٩) انظر : قصة دخول الهكسوس مصر وطردهم منها (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١١٩ ـ ٢٢٣) •

50.. Gardiner, (A. H.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 154-156.

(٥١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

والواقع ، فيما يرى سير ألن جـــاردنر ، أنه على الرغم من وجود أسس لغـــوية للاشتقاق ، فان يوسف قـــد جانبه الصواب وأن كلمة «هكسوس» مشتقة من غـــير شك من اصطلاح «حقا خست» بمعنى «رئيس أو حاكم البلد الاجنبية الجبلية» ، ويجمع على «حقـــاو ــ خاسوت» أى «حكام البلاد الاجنبية الجبلية» ، والكلمة كانت تعنى منذ عهد الدولة الوسطى «مشايخ البدو»[٥٢] .

ومن البدهى أن يوسف اليهودى انما كان يعنى بربط قومه اليهود بالهكسوس ، رفع شأنهم،وهم الذين كان الاغريق وقت ذلك يحتقرونهم ويحطون من شأنهم ، فضلا عن أن يبرهن للملأ ، أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد ، وأنهم قد خرجوا من مصر منذ حوالى ألف سنة قبل حرب طروادة ، التى كانت ، فى نظر الاغريق ، تاريخا سحيقا فى القدم.

ومن ثم ، فان دعوى يوسف هذا فى الربط بين الهكسوس وأجداده العبرانيين ، لم تكن الا من نوع تلك الدعاية الكاذبة التى لايزال يحذقها أحفادهم الصهاينة المحدثون ، وأنه ليست هناك أية صلة بين اليهـــود والهكسوس ، من ناحية الجنس ، وان عاش بنو اسرائيل فى مصر حينا من الدهر ، تحت ظـــلال الهكسوس[٥٣] ، كمـــا أن اقتباسات يوسف اليهودى من مانيتو ، ربما توحى بحـــوادث وقعت فى أوائل الاسرة التاسعة عشرة ، ثم اختلطت بذكر حوادث الهكسوس[٥٤] .

---

52. Griffith, (F. L.), in PSBA, 19, 1897.
Gardiner, (A. H.), Op. Cit., p. 154.

(٥٣) انظر محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣٦١/١ ــ ٣٧٦ .

54. Gardiner, (A. H.), The Geography of the Exodus, JEA, 10, 1924, p. 87-88.

خامسا : المصـــادر الاســـلامية

١ - القـــرآن الـــكريم :

القرآن الكريم كتاب الله[1] الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[2] ، نزل على مولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، منجما فى ثلاث وعشرين سنة[3] (فيما بين عامى ١٣ ق٠م ، ١١ هـ = ٦١٠ - ٦٣٢م) ، حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وكانت الآيات والسور تدون ساعة نزولها اذ كان رسول الله ، ﷺ ، اذا ما نزلت آية أو آيات يقول : «ضعوها فى مكان كذا ٠٠٠ من سورة كذا» ، فقد ورد أن جبريل ، عليه السلام ، كان ينزل بالآية أو الآيات على النبى ، فيقول : «يا محمد ان الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا» ، ولهذا اتفق العلماء على أن جمـــع القرآن «توقيفى» بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقـــة التى نراه عليها اليوم فى المصاحف ، انما هو بأمر ووحى من الله[4] ٠

وهكذا تمر الايام بالرسول الكريم ، ﷺ ، وهـــو على هذا العهد

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن القـــرآن الكريم كمصدر تاريخى (انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - الرياض ١٩٨٠ - الفصل الاول - القرآن الكريم ص ١٧ - ٨٨) ٠

(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ ٠

(٣) قارن : صحيح البخارى ٩٦/٦ ٠

(٤) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن - الجزء الاول ، القاهرة ١٢٧٨ هـ ٠ ص ٤٨ ، ٦٣ ، الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، السجستانى : كتاب المصاحف ،القاهرة ١٩٦٦ ص ٣١ ، مقدمتان فى علوم القرآن ، صححه ونشره آرثر جفرى ، القاهرة ١٩٥٤ ص ١٦ - ٣٢ ، ٤٠ - ٤١ ،٥٨ ، محمد أبو زهرة : القرآن ٢٧ ، ٤٧ - ٤٩ ٠

يأتيه الوحى نجما بعد نجم ، وكتاب الوحى[٥] يسجلونه آية بعد آية، حتى اذا ما كمل التنزيل،وحين انتقل الرسول الاعظم الى الرفيق الاعلى (فى يونية ٦٣٢م) كان القرآن كله مسجلا فى صحف ـ وان كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراء توالى سورها ـ وفى صدور الحفاظ من الصحابة[٦] ، رضوان الله عليهم ، هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبى المختار ، والذين كانوا يتسابقون الى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظــه ، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم فى البيوت .

ومن هنا كان حفظة القرآن الكريم فى حيــاة الرسول ـ ﷺ ـ لايحصون ، وتلك ـ ويم الله ـ عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم ، حين يسره للحفظ ، وصدق جل من قال «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»[٧]،فكتب له الخلود،وحماه من التحريف والتبديل، وصانه من أن يتطرق الضياع الى شىء منه عن طريق حفظه فى السطور وحفظه فى الصدور[٨] مصداقا لقوله تعالى «وانه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»[٩] ، وقوله

---

(٥) لعل أشهر كتاب الوحى ـ والذين يقال أن عددهم ٢٩ كاتبا ـ هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبى ابن كعب وزيد بن ثابت والمغيرة ابن شعبة والزبير بن العوام وشرحبيل وعبد الله بن رواحة (فتح البارى ١٨/٩) وكانوا يضعــون ما يكتبون فى بيت النبى ، ﷺ ، ثم يكتبــون لانفسهم منه حبورا ، يحفظون منها (البرهان ٥٨/١ ، الاتقان ٥٨/١ ؛ محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ـ الكويت ١٩٧٤ ص٣٤ ـ ٣٥) .

(٦) الاتقان ٥٩/١ ، البرهان ٢٣٥/١ ، كتــاب المصــاحف ص ٥ ، مقدمتان فى علوم القرآن ص ٣٢ .

(٧) سورة القمر : آية ٣٢ ، وانظر : تفسير القرطبى ص ٦٣١٠ ـ ٦٣١٣ ، تفسير ابن كثير ٤٥٤/٧ ـ ٤٥٥ ، صفوة التفاسير ٢٨٨/٣ ، فى ظلال القرآن ٣٤٣٣/٦ ، تفسير النسفى ٢٠٣/٠.

(٨) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ـ الكويت ١٩٧٠ ص١٢ـ١٤.

(٩) سورة فصلت : آية ٤١ ـ ٤٢ .

تعالى «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[١٠] ، وقوله تعالى «ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه»[١١] .

وليس هناك من ريب فى ان القرآن الكريم كمصدر تاريخى ، انما هو أصدق المصادر وأصحها على الاطلاق،فهو موثوق السند ــ كما بينا آنفا ــ ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم فلا سبيل الى الشك فى صحة نصه[١٢] ، بحال من الاحوال ، لانه ذو وثاقة تاريخية لاتقبل الجدل ، فلقد دون فى البداية باملاء الرسول ، ﷺ ، وتلى فيما بعد أمامه ، وحمل تصديقه النهائى قبل وفاته[١٣] ، ولان القصص القرآنى انما هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تلتبس بشىء من الخيال ، ولم يدخـــل عليها شىء من غير الواقع[١٤] .

ثم ان الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد تعهد ، كما أشرنا آنفا ، بحفظه دون تحريف أو تبديل ، ومن ثم فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلهـــا الى حفظ النـــاس[١٥] ، فقال تعالى «والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله»[١٦] ، أى بما طلب اليهم حفظه .

---

(١٠) سورة الحجر : آية ٩ ، وانظر تفسير الطبرى ٦/١٤ ــ ٨ ، تفسير روح المعانى ١٦/١٤ ،تفسير الكشاف ٥٧٠/٢ ، تفسير الفخر الرازى ١٥٨/١٩ ــ ١٥٩ ، تفسير الطبرسى ١١/١٤ ــ ٢٤ ،تفسيرالنسفى ٢٤/٣، تفسير الدر المنثور للسيوطى ٩٤/٤ ــ ٩٥ ،تفسير ابن كثير ٣٤٤/٤ ــ ٣٣٥ .

(١١) سورة القيامة : آية ١٧ ــ ١٩ .

(١٢) طه حسين : الادب الجاهلى ــ القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٨ .

(١٣) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٤٩ .

(١٤) عبدالكريم الخطيب : القصص القرآنى ــ القاهرة١٩٦٤ ص٥٢ .

(١٥) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٢ ــ ١٤ .

(١٦) سورة المائدة : آية ٤٤ ، وانظر تفسير الطبرى ٣٣٨/١٠ ــ ٣٥٨ ، تفسير القرطبى ص ٢١٨٥ ــ ٢١٨٨ ، تفسير ابن كثير ١٠٥/٢ ــ ١١٢ ، فى ظلال القرآن ٨٩٦/٢ ، تفسير النسفى ١(٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، تفسير المنار ٣٢٨/٦ ــ ٣٣٠ ، صفوة التفاسير ٣٤٥/١ .

والسر فى ذلك أن سائر الكتب السماوية انما جىء بها على التوقيت، لا التأييد ، وأن هذا القران جىء به مصداقا لما بين يديه من الكتب • ومهيمنا عليها ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه» ومن هنا كان القرآن الكريم جامعا لما فى هذه الكتب من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها ما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شىء منها يسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة الى يوم القيامة ، واذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم(١٧) •

ومع ذلك — ويا للعجب — فان ميدان الدراسة فى التاريخ القديم قد حرم من هذا المنهل الغزير ، ربما لان هذا الميدان قد ظل الى عهد قريب يتصدر الحلبة فيه العلماء الاوربيون ، ومن نحا نحوهم من العلماء العرب ، وأن هؤلاء وأولئك لم يتطرقوا فى دراساتهم الى الاحداث التاريخية التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، وربما لان هذه الدراسة بعيدة عن أهدافهم فى البحث ، أو أن مجال البحث فيها قد لا يستهويهم لسبب أو لاخر ، وأيا ما كان السبب ، فان ميدان البحث فى التاريخ القديم،انما قد خسر بذلك أصح مصادره وأصدقها على وجه الاطلاق • ومن عجب فان المؤرخين المحدثين — الاوربيين منهم والعرب — انما ينظرون الى التوراة وكأنها المصدر الاساسى لدراسة فترة معينة من تاريخ الشرق الادنى القديم ، رغم أنهم يجمعون — أو يكادون — على أنها غير موثوقة السند ، ورغم أن هناك الكثير من الابحاث التى كتبها المؤمنون بالتوراة ، فضلا عن غير المؤمنين بها ، وهى جميعا انما تثير جدلا حول وثاقة نصها،بل حول نسبة هذا النص لهذا الشخص أو ذاك•

ورغم ذلك كله لم يفكر واحد من هؤلاء المؤرخين فى أن يرجع الى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب السماوى العظيم ، الذى تجمع آراء العلماء فى العالم كله على وثاقة نصه،أو كما يقول «سير وليم موير» (١٨١٩ —

(١٧) محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٣ — ١٤ •

١٩٠٥) ــ وهو من أشد المتعصبين ضد الاسلام ــ «ان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن الكريم ظل أربعة عشر قرنا كاملا ، بنص هذا مبلغ صفائه ودقته» ، ثم يؤكد بعد ذلك أن المصحف الذى جمعــه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد ، حتى وصل الينا بدون أى تحريف ، وأنه قد حفظ بعناية شديدة ، بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير على الاطـــلاق فى النسخ التى لا حصر لها ، والمتداولة فى البلاد الاسلامية الواسعة ، فلم يوجد الا «قرآن» واحد ، لجميع الفرق الاسلامية فى كل العصور وكل الازمان ، وهذا الاستعمال الاجماعى لنفس النص المقبول من الجميع ، انما يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل من الله ، والموجود معنا الآن[١٨] .

ويؤكد العالم الفرنسى «لوبلوا» أن القرآن الــكريم هو الكتاب الربانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير[١٩] ، كما يقرر العالم الالمانى «تيودور نولدكه» (١٨٦١ ــ ١٩٣٠) أن النص القرآنى انما بقى على أحسن صورة من الكمال والمطابقة[٢٠] .

هذا ويؤكد العلماء فى كل أنحاء العالم أن المصحف الذى كتب على أيام أبى بكر الصديق (١١ ــ ١٣ هـ = ٦٣٢ ــ ٦٣٤ م) هــو نفس المصحف الذى كتب على أيام الرسول ، ﷺ ، وهو نفس المصحف الذى كتب على أيام عثمان بن عفان (٢٤ ــ ٣٥ هـ = ٦٤٤ ــ ٦٥٦م) ، ومن ثم فان كل قراءة قرآنية يجب أن تكون متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه أبدا لن تجوز ، وأنه القــرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة[٢١] .

---

18. B. St. Hilaire, Mahomet et le Koran, p. 33.
W. Muir, The Life of Mohammad and History of Islam. Edinburgh 1923.
19. Lellois la Koran et la Bible Hebraique, Paris, 1887, p. 47.
20. T. Noeldeke, Geschicht des Qurans, Leipzig, 1961, p. 16.
(٢١) محمد أبو زهرة ، القرآن ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٣ ، تفسير القرطبى ١/ ٨٠ ــ ٨٦ ، فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٤٢٠ ــ ٤٢١ ؛

=

وليس هناك من ريب فى أن القرآن الكريم انما يقدم لنا — عن طريق القصص القرآنى — معلومات هامة وصحيحة تماما عن عصور ما قبل الاسلام ، وأخبار دولها ، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد •

وفى التاريخ المصرى القديم يقدم لنا القرآن الكريم — عن طريق قصة موسى — كثيرا من المعلومات عن الحيـاة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر الفراعنة،فيتحدث القرآن الكريم عن الملكية الالهية فى مصر ، بل انه انما يشير،بطريقة أو بأخرى ، الى أن ألوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبى الكريم والملك الفرعون ، بل هى الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما •

ولعل مما يزيد الامر أهمية أننا لانعرف بين دعوات الانبياء الكرام، دعوة يتعرض صاحبها لزعم من أرسل اليه ، على أنه «اله الناس»،غير موسى عليه السلام ، بل ان الفرعــون انما يهدد النبى نفسه ، «لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين»[٢٢] ، ثم يعلن للناس كافة «ما علمت لكم من اله غيرى»[٢٣] ، وعندما يتقدم موسى بآياته الكبرى، اذا بفرعون يعلن رفضه للدعوة ، «ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى»[٢٤] •

ويقدم لنا القرآن الكريم ، عن طريق قصة موسى كذلك ، شيئا عن السحر ، الذى شاع فى مصر فى فترة من تاريخها القديم ، حيث نرى المصريين ، فيما تشهد قصص أدبهم ، يحبون أحاديث السحر ، وخوارق الاعمال ، وفيما نسبوه الى خوفو فى «بردية وستكار» أو «قصة خوفو والسحرة» ، والتى سبقت الاشارة اليها ، من حب للسحر واقبال عليه،

=

وكذا محمد حسين هيكل : حياة محمد — القاهرة ١٩٦٥ ص٥١ — ٥٥،
W. Muir, Op. Cit., p. XIV-XIX

(٢٢) سورة الشعراء : آية ٢٩ •
(٢٣) سورة القصص : آية ٣٨ •
(٢٤) سورة النازعات : آية ٢٢ — ٢٤ •

ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها الى السحر ، ويستعينون عليها •

بل ان القرآن الكريم انما يشير الى أن القوم قد برعوا فى سحرهم، لدرجـــة جعلتهم واثقين من نصرهم على النبى الكريم ، ومن ثم فقد خيروه ، ثقة فى أنفسهم وفى سحرهم،بأن يبدأ فى سحره أو أن يكونوا هم البادئين ، وأعطاهم حق السبق فى عرض مهارتهم ، وحين فعلوا خيل للنبى الكريم أن حبالهم وعصيهم التى ألقوا بها أمامه ، انما هى حية تسعى على الارض ، فأوجس من ذلك فى نفسه خيفة ،لولا أن تداركته عناية الله،ومن ثم فقد التهمت عصاه حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم •

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة : «قالوا يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين،قال القوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم،وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلف ما يأفكون»[٢٥] •

هذه أمثلة ، وغيرها كثير وكثير ، مما يقدمه القرآن الكريم من حقائق ترقى فوق كل شك الى الباحثين فى التاريخ المصرى القديم،غير أن ذلك لايعنى ــ بحال من الاحوال ــ أن القرآن الكريم كتاب تاريخ ، يتحدث عن أخبار الامم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وانما هـــو كتاب هداية وارشاد للتى هى أقوم[٢٦] ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين فى حياتهم ويدعوهم الى التوحيد[٢٧] ، والى تهذيب النفوس،

---

(٢٥) انظر : سورة الاعراف : آية ١١٦ ــ ١١٧ ، سورة طه : آية ٦٥ ــ ٦٧ •

(٢٦) سورة الاسراء : آية ٩ •

(٢٧) انظر : سورة نوح : آية ٢٠ ، سورة يوسف : آية ٣٧ ــ ٤٠ ، سورة النساء : آية ١٧١ ــ ١٧٢ ،سورة آل عمران : آية ٥٩ ،سورة المائدة: آية ٧١ ــ ٧٦ •

والى وضع مبادىء للاخلاق[٤٨] ، وميزان للعدالة[٣٩]،واستنباط لبعض الاحكام[٣٠] ، فاذا ما عرض لحادثة تاريخية فانما للعبرة والعظة[٣١].

ومع ذلك فيجب ألا يغيب عن بالنـا ، دائما وأبدا ، أن القصص القرآنى ان هو الا الحق الصراح ، وصدق الله العظيم حيث يقول : «ومن أصـدق من الله حديثا»[٣٢] ، ويقول «ان هـذا لهو القصص الحق»[٣٣] ، ويقول «نحن نقص عليـك نبأهم بالحق»[٣٤] ، ويقول «والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق»[٣٣] ، ويقول «انا نزلنا اليك الكتاب بالحق[٣٦] ، ويقول «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون»[٣٧] .

وايمانا ويقينا بكل هذه الآيات الكريمة ، يمكننا القول ، على وجه اليقين ، أن القرآن الكريم هو الذى يصدق الاحداث التاريخية،وليست الاحداث التاريخية هى التى تصدق القرآن الكريم ، فهو كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،تنزيل من حكيم حميد»[٣٨].

وانطلاقا من هذا يمكننا أن ننظر الى ما جاء فى قصة يوسف عليه السلام ، عن السنوات السبع العجاف التى كانت ستحل بالبلاد ، لولا رحمة الله وحكمة الصديق عليه السلام .

---

(٢٨) انظر : سورة البقرة ٤٤ ، سورة الاعراف : آية ٨٥ ـ ٨٨ ، سورة هود : آية ٨٤ ـ ٨٨ .

(٢٩) انظر مثلا : قصة داود (سورة ص : آية ٢١ ـ ٢٦) .

(٣٠) انظـر : سورة المائدة : آية ٢٧ ـ ٣٢ ، ٤٢ ـ ٥٠ ، سـورة البقرة : آية ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٣١) انظر عن أهداف القرآن مقاصـده (تفسير المنـار ١/٢٠٦ ـ ٢٩٣) .

(٣٢) سورة النساء : آية ٨٧ .

(٣٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .

(٣٤) سورة الكهف : آية ١٣ .

(٣٥) سورة فاطر : آية ٣١ .

(٣٦) سورة الزمر : آية ٢ ، ٤١ .

(٣٧) سورة الجاثية : آية ٦ .

(٣٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

يقول الله تعالى «وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون،قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين،وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا انبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبلة ، الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن ، الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون»(٣٩) •

وقـــال الامام الزمخشرى : تأول عليه السلام البقرات السمان، والسنبلات الخضر ، بسنين مخاصيب،والعجاف اليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيىء مباركا خصيبا ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى(٤٠) ، لان هذا العام الثامن لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ، فهو اذن من العلم اللدنى ، الذى علمه الله يوسف : فبشر به من أرسله الملك ليبشر به الملك والناس جميعا ، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد •

والمعروف من أحداث التاريخ المصرى ، أن مصر انما كانت عرضة للمجاعات ، وفترات من تدهور الانتاج الزراعى والحيـوانى على مر العصور ، وقد كان ذلك فى أغلب الاحايين من آثار اضطرا بالنيـــل

---

(٣٩) سورة يوسف : آية ٤٣ ـ ٤٩ ،/وانظر : تفسير الطبرى ١٦/ ١١٦ ـ ١٣٢ (القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٩)،تفسير المنار ٢٦١/١٢ـ٢٦٤ (القاهرة ١٩٧٣)،فى ظلال القرآن ١٩٩٢/٤ ـ ١٩٩٤ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الجلالين ص ٣١٠ ـ ٣١٢ (بيروت ١٩٨٥) ، تفسير القرطبى ص ٣٤٢٧ ـ ٣٤٣٤ (القاهرة ١٩٧١) ، صفوة التفاسير ٥٤/٢ ـ ٥٦ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الفخر الرازى ١٤٧/١٨ ـ ١٥٢ (القاهرة ١٩٣٨)،تفسير ابن كثير ٧٤٢/٢ ـ ٧٤٣ (بيروت ١٩٨٦)،تفسير النسفى ٢٢٢/٢ ـ ٢٢٥ (دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٤) •

(٤٠) الزمخشرى : تفسير الكشاف ٤٧٧/٢ (القاهرة ١٩٦٦) •

وامتناع فيضه ، واخلاله بالوفاء ، كما تعود،وتعود منه الناس كل عام، فاذا ماتدهور وأقام على نقائصه ، لم تكد مياهه لتصل الى الارض التى تتحرق شوقا اليه ، وتنتظر العام كله أو جله للقائه،فعندئذ فلا رى ولا استنبات ، ثم لا زرع ولا ضرع ، فتكــون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد[41] .

والتاريخ يحدثنا أن الله تعالى ماجعل بلدا فى العالم ، تتوقف حياته ووجوده ، ومصيره ومستقبله ، فى السلم أو فى الحرب أو يرتبط سكانه وتاريخه ، بنهر ، مثلما تفعل مصر والنيل،ومن ثم اذا ما بلغ النيل فى فيضه أحيانا فتعظم أمواهه ، وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شىء ، ثم لايكاد ينحسر عن الارض ، الا وقد انقضى من أوان البذر وقت ، قد يكون على الانتاج أيام الحصاد سىء المسغبة ، وأن لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء ، ذلك أن النهر أن هبط عن معدله الطبيعى ، فهى «الشدة» التى قد تصل الى «المجاعة»، واذا كان الفيض المغرق يعنى «الطاعون» فان المجاعة تعنى «الموتان»، الذى قد ينتشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك ، حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة[42] .

ويقدم لنا التاريخ المصرى أمثلة كثيرة لانخفاض النيل فى مصر قبل وبعد عصر يوسف عليه السلام ، ومايننتج عن ذلك من كوارث اقتصادية، ومن أشهر الامثلة ، ما حــدث على أيام الثــورة الاجتماعية الأولى (الاسرات ٧ ــ ١٠) ، يقول المتنبىء «نفرتى» : «لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه

(٤١) انظر : احمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ــ القاهرة ١٩٧٣ ص٥٥،تفسير ابن كثير ٣٢١/٤ ، تفسير النسفى ٢٨٨/٢، تفسير القرطبى ص ٣٤٤٦ ــ ٣٤٤٧ ، صفوة التفاسير ٥٧/٢ .

(٤٢) جمال حمدان:شخصية مصر ــ القاهرة ١٩٧٠ ص٢٤١ ــ ٢٤٥.

السفين ، فيجدوا أن الطريق صـــار شاطئا ، وأن الشاطىء قد صار مـــاء»[٤٣] .

وهكذا رأينا «عنخ تفى» حاكم «نخن»[٤٤] فى نفس الفترة،يتحدث عن سنى المجاعة فيقول ، انه أمد خلالها مدنا أخرى ، الى جانب مدينته، بالهبات والقمح،وقد امتدت دائرة نشاطه حتى «دندرة» (على مبعدة

---

43. Erman, (A.), The Literature of the Ancient Egyptian London, 1927, p. 113.

(٤٤) نخن : أو مخن هو اسم عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد، وقد ترجمها«كورت ريته»بمعنى الحصن وقد تغير الاسم فى العصر الاغريقى الى «هيراقونبوليس» بمعنى مدينة الصقر ، رمز الاله الباشق «حورس» الذى كان الاله الرئيسى فيها،وموقعها الان على حافة الصحراء الغربية ، على مبعدة ١٧ كيلا شمالى ادفو ، بمحافظة أسوان ، ويفصله عن النيل قريتى المويسات والجمعاوية وترعــة الرمـــادى ، ويواجهها على الضفــة الشرقية للنيل مدينة «نخب» (الكاب) .

ويرجع تاريخ «نخن» (البصيلية) الى عصر ما قبل الاسرات ، فقد عمرت منذ عصر البدارى،وأثناء عصرى نقادة،وعند بداية التاريخ قامت مصر العليا بتكوين اتحاد،كانت عاصمته «نخن» ومعبوده الاله «حور» الذى رمز له بالصقر ، وكان معبودا أصيلا هناك فيما يرى البعض ، وقد تجمع حكام مصر العليا (الصعيد) وكذا آلالهة المحلية،والذين أطلق عليهم «أتباع حور» وقد عرفوا فى التاريخ باسم أصحاب «مملكة مصر العليا» وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر كلها ، تحت قيادة الملك «مينا» مكونين أول أسرة ملكية فى التاريخ البشرى،حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وذلك بدأ المظهر الختامى لتاريخ ماقبل الاسرات من «نخن» (هيراقونبوليس البصيلية) ، وانتهى بغزو مصر السفلى على يد الملك «مينا» ، ثم توحيد القطرين .

هذا وقد ظلت «نخن» محتفظة بمركزها السياسى طوال عصرالتاسيس (الاسرتين الاولى والثانية) ، ثم عاصمة للاقليم الثالث من قاليم الصعيد (مصر العليا) ، حتى سلمت الراية الى مدينة «الكاب» ، وهذه بدورها قد سلمتها الى «اسنا» فى عصر البطالمة ، انظر : محمد بيومى مهران : مصر ــ الكتاب الاول ــ الاسكندرية ١٩٨٢ ص ٣٠٥ ــ ٣٢٣ ،

Gardiner, (A. H.), Oram., I, Oxford, 1947, N. 320.

Quibell, (J. E.) and Green. (F. W.), Hierakonpolis. I, II, London, 1900-1902.

Kess, (H.), Goettergglaube, Leipzig, 1941, p. 178.

Sethe, (K.), in ZAS, LIII, p. 55 F.

Wilson, (J. A.), Buto and Hierakonopolis in The Geography of Egypt, in JNES, 14, 1955, p. 209-236.

٥ كيلا شمال غرب مدينة قنا عبر النهر)وبذا أنقذ الصعيد الاقصى الذى كاد أن يموت جوعا ، حتى ليكاد كل رجل هناك أن يغتال أطفاله»[٤٥] .

على أن المصريين اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير،اد كانوا يدخرون غلة الارض من الرى لايام الجفاف ، ومن يسرهم لعسرهم ، ومن رخاهم لشدتهم ، وكانت حكمة الملوك والامراء وحكام الاقاليم وحسن تدبيرهم ، خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون[٤٦] .

ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط ، على أيام الاهناسيين يقول : اننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الارض فى جفاف ، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز ، وسمحت لكل مواطن أن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ، وقد أعطيت الارملة وولدها، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى،وملأت المراعى بالمواشى»[٤٧]

ويقول «ببى» أمير الكاب من الاسرة الثالثة عشرة ، التى سبقت قليلا جدا عصر يوسف عليه السلام ، وربما قد عاصرته ، أو عاصرت أوائله ، يقول «لقد كنت أكدس القمح المطلوب ، وكنت يقظا فى فصل البذر ، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين ، أعطيت مدينتى القمح فى كل مجاعة»[٤٨] .

على أن العلماء ، على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر

---

45. Gardiner, (A. H.), Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. III. Breasted, (J. H.), ARE, I, 9906, p. 181.

(٤٦) احمد عبد الحميد يوسف :المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤٧) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٢٨ — ١٣٩ .

48. Vandier, (J.), La Famine dans l'Egypte Ancienne, le Caire, 1936, p. 101 F.

القديمة ، انما يقفون خاصة موقف الفاحص من مجاعة نقشت أخبارها على الصخر فى جزيرة سهيل جنوبى أسوان ، ولئن كان الخبر منسوبا الى أيام الملك «زوسر» من الاسرة الثالثة،فالذى لاشك فيه انما نقش بعده بعشرين قرنا ، نقشه كهان المعبود «خنوم» ربما عام ١٨٧ ق٠م، على أيام «بطليموس الخامس» (٢٠٥ — ١٨٠ ق٠م) ، وربما العاشر (١٠٧ — ٨٨ ق٠م) ، فى أكبر الظن ٠

وربما غير بعيد أن يكون النص صوتا من واقع بعيد ، يرجع الى أيام يوسف عليه السلام ، وأن كهان «خنوم» حين كتبـــوه ، انما كانوا تحت تأثير ما كان شائعا يومئذ من أصداء الماضى السحيق ، وبما ورد فى التوراة[٤٩] من أصداء السنين السبع الشداد التى جرت بها ألسنة من كان بمصر من يهـــود يومئذ ، بخـــاصة وأن الترجمة السبعينية للتوراة[٥٠] ، انما تمت بمصر على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤ — ٢٤٦ ق٠م) ، وأن هناك جالية يهودية كانت تقيم فى «اليفـــانتين» (جزيرة أسوان) ، وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل ، حيث نقش نص المجاعة[٥١] ٠

وعلى أية حال ، وأيا ما كان أمر هذه المجاعات التى كانت بسبب عدم فيضان النيل ، فان المجاعة التى كانت ستحدث على أيام يوسف الصديق عليه السلام فى عهد الهكسوس ، انما كانت حقيقة لاريب فيها. لولا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة نبى الله يوسف الصديق،

---

(٤٩) تكوين ١/٤١ — ٥٧ ٠

(٥٠) انظر عن «الترجمة السبعينية للتوراة»:(محمد بيومى مهران: اسرائيل ١٠٧/٣ — ١١٢) ٠

(٥١) انظر عن «الجالية اليهودية فى أسوان» (محمد بيومى مهران: اسرائيل ١٠٧٦/٢ — ١١٠٢) ٠

انظر عن : نقش المجاعة على جزيرة سهيل جنوبى أسوان (محمد بيومى مهران : مصر ٣٦٣/١ — ٣٦٦ ؛

Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 31-32.

Parguet, (P.), La Stele de la Famine a Shael, Cairo, 1935.

Vandier, (J.), Op. Cit., p. 132-139.

ومن ثم فقد كانت أيام الصديق فى مصر خيرا كلها — دينا ودنيا — بل ان وجود يوسف فى مصر ، حينا من الدهر ، شرف مابعده شرف ، وأن دعوته انما كانت رحمة وهداية للمصريين ، ما فى ذلك من ريب ، وأن الصديق عليه السلام ، قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة ، كادت تهلك الحرث والنسل ، وأنه ، عليه السلام ، قـد نشر فى مصر دعوة التوحيد ، وبث العقيدة الصحيحة ، مافى ذلك شبهة من شك .

وهكذا حمل الصديق عليه السلام ، الى مصر ، نور الايمان،وهداية التوحيد ، وعدالة الله رب العالمين ، وكل ما هو خير وطيب من نعم الله التى يجريها سبحانه وتعالى ، على أيدى المصطفين الاخيار من أنبيائه الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن دعوة التوحيد ، التى نادى بها يوسف الصديق عليه السلام ، انما قد انفرد بها القرآن الكريم ، من دون التوراة ، فالقرآن العظيم انما يشير الى أن الصديق انما قد انتهز الثقـة المكينة التى اكتسبها بين السجناء ، بسبب تأويل الرؤيا ونفسير الاحلام ، فيقوم بدعوته الدينية ، شارحا عقيدة الانبياء جميعا فى وحدانية الله الخالق العظيم ، وهاتفا بمستمعيه[٥٢] «انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينـا وعلى الناس ، ولكن أكثر النـاس لا يشكرون، يا صاحبى السجن أرباب متفرقون خـير ، أم الله الواحـد القهار، ماتعبدون من دون الله الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهـا من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ،ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[٥٣] .

---

(٥٢) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى ص٢٢٥ ، عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء — القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ .

(٥٣) سورة يوسف : آية ٣٧ — ٤٠،وانظر : تفسير الطبرى١٦/١٠٠— ١٠٦ ، تفسير المنار ١٢/٢٥٠ — ٢٥٦ ، صفـوة التفاسير ٢/٥٦ — ٥٢ ،
=

وذلك لان يوسف عليه السلام ، لم يكن عالما يؤول الرؤيا فحسب، بل كان رسولا نبيا أرسله الله هاديا للناس فى دنياهم وآخرتهم ومعاشهم ومعادهم ، فما كان يرى فرصة يتنفس فيها برسالته ، الا انتهزها ، ولا نهزة صالحة للدعوة الا علق بها(٥٤) ، ولهذا فالاشارة الى الاخرة فى قصة يوسف مقصورة على القرآن(٥٥) ، من دون التوراة .

أضف الى ذلك،أن القرآن الكريم انما يتحدث بوضوح عن رسالة يوسف عليه السلام ، أثناء عرضه لقصة موسى عليه السلام ، يقـــول تعالى«ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيانات ، فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب»(٥٦) .

وفى الواقع انها المرة الوحيدة فى القرآن الكريم التى يشار فيها الى رسالة يوسف عليه السلام ، للقوم فى مصر،وقد عرفنا من سورة يوسف أنه وصل الى أن يكون على خزائن الارض أمينا ، وأنه أصبح «عزيز مصر»(٥٧) .

وهى أول دعوة لنبى فى مصر ، جاء ذكرها فى القرآن الكريم ، فما حدثنا القرآن الكريم عن أنبياء بعثوا فى مصر قبل يوسف ، وان أشار

=
تفسير البيضاوى ٢٦٤/١ ـ ٢٦٥،تفسير البحر المحيط ٣٠٦/٥ ـ ٣٠٩ ، تفسير النسفى ٢٢٢/٢ ـ ٢٢٣ ، تفسير ابن كثير ٧٣٩/٢ ـ ٧٤١ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ١٩/٤ ـ ٢٠ .

(٥٤) محمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص ١٠٣ .

(٥٥) سورة يوسف : آية ٥٧ .

(٥٦) سورة غافر : آية ٣٤،وانظر : تفسير ابن كثير ١١٩/٤ ـ ١٢٠، فى ظلال القرآن ٣٠٨١/٥ ، صفوة التفاسير ١٠٢/٣ ، تفسير البحر المحيط ٤٦٤/٧ ـ ٤٦٥ ، تفسير القرطبى ص ٥٧٥٦ ـ ٥٧٥٧ ، تفسـير النسفى ٧٨/٤ ـ ٧٩ .

(٥٧) فى ظلال القرآن ٣٠٨١/٥ .

الحديث الشريف الى زيارة أبى الانبياء ، ابراهيم الخليل،عليه الصلاة والسلام ، لمصر[٥٨] .

٢ ـ الحــــديث الشريف :

الحديث هو ما ورد عن سيدنا رسول الله ، ﷺ ، من قول أو فعل أو تقرير[٥٩]،وللحديث مكانة كبرى فى الدين تلى مرتبة القرآن الكريم مباشرة ، وصدق رسول الله ، ﷺ ، حيث يقول «تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى»[٦٠] .

والحـديث الشريف مفسر القرآن ، ذلك أن كثيرا من آيات الذكر الحكيم مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء رسول الله ، ﷺ ، فبينها أو قيدها أو خصصها[٦١] ، قال الله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم»[٦٢] ، ومن هنا كان الحديث هو المصدر الثـانى للشريعة الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية ، بعد القرآن الكريم[٦٣].

ولاريب فى أننا نجد فى الحديث الشريف تفسيرا لكثير من الاحداث التاريخية التى تعرض لها القرآن الكريم عن مصر ، كقصـــة يوسف، وقصة موسى ، عليهما السلام ، فضلا عن الحديث عن مصر نفسها،وكما أشرنا من قبل ، فان سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، انما قد بشر المسلمين بفتح مصر ، فقال ، ﷺ ، «اذا افتتحت مصر،فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما» وفى رواية «ستفتح عليـــكم بعدى

---

(٥٨) انظر : صحيح البخارى ١٧١/٤، ٢٧/٩ ـ ٢٨ (دار الحديث ـ القاهرهة) ، فتح البارى ٣٩٤/٦ .

(٥٩) انظر : تعريفات أخرى (مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٦٠) الحديث رواه أصحاب السنن .

(٦١) فتــاوى ابن تيميــة ٤٤٣/١٥ ، ١٩/١٣ ، ٤٣١/١٧ ـ ٤٣٢ (الرياض ١٣٨٣/٨١هـ) .

(٦٢) سورة النحل : آية ٤٤ .

(٦٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن الحديث الشريف (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجـزء الاول ـ الرياض ١٩٨٠ ص ٨٩ ـ ٩٨) .

مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة»،وفى رواية ثالثة «ستفتحون أرضـــا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا، فان لهم ذمة ورحما»[٦٤] •

وأما الذمة ، فان «مارية» أم ابراهيم ، ولد المصطفى ، ﷺ ، انما كانت امرأة صعيدية من قرية ، بمحافظة المنيا ، تعرف الان باسم «قرية الشيخ عبادة» ، نسبة الى الصحابى الجليل «عبادة بن الصامت» الذى بنى بها مسجدا ، فعرفت القرية به[٦٥] ، وأما الرحم ، فان «هاجر» رضى الله عنها ، زوج أبى الانبياء ابراهيم ، وأم ولده اسماعيل ، عليهما السلام ، مصرية كذلك[٦٦] •

هذا وقد حدثنا الرسول ، ﷺ ، كذلك ، عن امرأة فرعون ، التى احتضنت موسى عليه السلام وآمنت به،ثم ضربت المثل الاعلى للمرأة فى كل عصر ، حين وقفت مع الحق ، أيا كان الثمن ، وأيا كان من تقف ضده ، حتى وان كان زوجها فرعون مصر ، أعظم ملوك الارض وقت ذاك ، حتى ضرب الله بها المثل للمؤمنين •

والتاريخ يحدثنا أن تلك السيدة الجليلة ، قـــد استطاعت أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الاواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير فى ركاب زوجها الفرعون،وأن تنساق فى تيار المجتمع الذى تعيش فيه، بل وتعلن عن موقفها فى ثبات وايمان ، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون وكفره ، وتبين لها الحق فى دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشـــدة وطأته،ورغم مغريات الحياة الرخية الناعمة فى قصر أعظم ملوك الارض، ورغم آصرة الزوجية التى تربطها بفرعـــون ، فكانت مثلا للشخصية

---

(٦٤) انظر:صحيح مسلم ١٩٧/٤ ، الكندى : فضائل مصر ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ، سـيرة ابن هشـام ٦/١ ـ ٧ ، طبقات ابن سـعد ٩٢/١ ـ ٩٣ •

(٦٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣٨١/١ ، ٢٩٥/٢ (بيروت ١٩٥٥) القاموس الجغرافى ٢٣٢/١ •

(٦٦) الكندى : المرجع السابق ص ٢٧ ـ ٢٨ •

الانسانية المستقلة فى الايمان بالمبادىء والقيم[٦٧] ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين»[٦٨] .

ويقول صاحب الظلال ، عن امرأة فرعون ، فى تفسيره لهذه الآية : وافراد امرأة فرعون بالذكر هنا،مع مريم ابنة عمران ، يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر ، بسبب الملابسات فى حياتها التى أشرنا اليها ، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المتصدقة القانتة،يضرب بهما الله لأزواج النبى ، ﷺ ، بمناسبة الحادث الذى نزلت فيه آيات صدر سورة التحريم ، ويضربهما للمؤمنات من بعد فى كل جيل[٦٩] .

ومن هنا يروى الامام مسلم بسنده فى صحيحه عن أبى موسى قال قال رسول الله،ﷺ «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، غير مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون»[٧٠] .

وروى الامام البخارى فى صحيحه (باب قول الله تعالى : وضرب الله مثلا امرأة فرعون الى قوله : وكانت من القانتين) عن أبى موسى رضى الله عنه،قال قال رسول الله ، ﷺ ، «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، الا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وان فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[٧١] .

---

(٦٧) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٤٠١ .
(٦٨) سورة التحريم : آية ١١ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٦١٥/٤ ـ ٦١٦ ، صفوة التفاسير ٤١٢/٣ ، تفسير القرطبى ص ٦٦٨١ ـ ٧٦٨٢ تفسير البحر المحيط ٢٩٥/٨ ، تفسير النسفى ٢٧٢/٤ ، فى ظلال القرآن ٣٦٢١/٦ ـ ٣٦٢٢ .
(٦٩) فى ظلال القرآن ٣٦٢٢/٦ ، وانظر ٣٦٠٨/٦ ـ ٣٧٢٢ (بيروت ١٩٨١) .
(٧٠) صحيح مسلم ١٩٨/١٥ (دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٨١) .
(٧١) صحيح البخارى ٩٢/٤ ـ ١٩٣ (دار الجيل ـ بيروت) .

وروى الامام أحمد فى المسند والفضائل ، والترمذى فى السنن والحاكم فى المستدرك ، وأبو نعيم فى الحلية ، وابن عبد البر فى الاستيعاب وغيرهم ، عن أنس أن النبى ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين : مريم أبنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»[٧٢] .

وأخرج الامام أحمد فى الفضائل ، والحاكم فى المستدرك،أن عائشة قالت لفاطمة بنت رسول الله ، ﷺ : ألا أبشرك ، انى سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم بنت عمران : وفاطمة بنت رسول الله،وخديجة بنت خويلد،وآسية امرأة فرعون»[٧٣] .

٣ ـ كتب التفسير :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب،وعلى أساليب العرب وكلامهم[٧٤]، قال تعالى «أنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»[٧٥] وهذا أمر طبيعى لانه أتى يدعو العرب ـ بادىء ذى بدء ـ ثم الناس كافة،الى الاسلام، ومن ثم فلابد أن يكون بلغة يفهمونها،تصديقا لقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم»[٧٦] .

هذا ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين،وفى بيئة عربية كانت تفاخر من نواحى الحضارة بفن القول ، فانه لم يكن كله فى متناول الصحابة جميعا ، يستطيعون أن يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد سماعه،

---

(٧٢) مسند الامام أحمد ١٣٥/٣ ، الامام أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ـ الجزء الثانى ـ بيروت ١٩٨٣ ص ٧٥٥،سنن الترمزى ٧٠٢/٥ ، ابن حيان ص ٥٤٩ ، المستدرك للحاكم ١٥٧/٣ ، أبو نعيم الاصفهانى حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ـ الجزء الثانى ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٤ ص ٣٤٤ ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ٣٧٧/٤ ، مجمع الزوائد للهيثمى ٢٢٣/٩ .

(٧٣) الامام أحمد بن حنبل : كتاب فضائل الصحابة ٧٦٠/٢(بيروت ١٩٨٣) .

(٧٤) ابن قتيبة : تاويل مشكلات القرآن ص ٦٢ .

(٧٥) سورة يوسف : آية ٢ .

(٧٦) سورة ابراهيم : آية ٤ .

لان العرب،كما يقول ابن قتيبة[٧٧] ، لا تستوى فى المعرفة بجميع مافى القرآن من الغريب والمتشابه،بل ان بعضها يفضل فى ذلك على بعض[٧٨].

غير أن هذا لا يمنعنا من القول بأن الصحابة ، رضوان الله عليهم، كانوا أقدر الناس على فهم القرآن،لانه نزل بلغتهم ، ولانهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها،ومع ذلك فقد اختلفوا فى الفهم حسب اختلافهم فى أدوات الفهم،وذلك لاسباب ، منها أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان كانت العربية لغتهم ، ومنها أن منهم من كان يلازم النبى ، ﷺ ، ويقيم بجانبه ، ويشاهد الاسباب التى دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك[٧٩] .

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبره،ولتبيان ما أوجز فيه، أو ما أشير اليه اشارات غامضة ، أو لما غمض علينا من تشابيهه واستعاراته وألفاظه ، أو لشرح حكمه [٨٠] هذا وقد نشأ علم التفسير فى عصر الرسول ، ﷺ ، فكان النبى أول المفسرين للقرآن ، ثم تابعه أصحابه من بعده[٨١] ، على أساس أنهم الواقفون على أسراره،المهتدون بهدى النبى ، ﷺ[٨٢] .

ولعل أشهر المفسرين من الصحابة ، سيدنا الامام على بن أبى طالب، كرم الله وجهه فى الجنة ، ورضى الله عنه ، وعبد الله بن عباس ، حبر

---

(٧٧) ابن قتيبة : رسالة فى المسائل والاجوبة ص٨ ، ثم قارن : مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦ .
(٧٨) قدم المؤلف دراسة عن التفسير (انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٩٩/١ ـ ١١٢ ، الرياض ١٩٨٠) .
(٧٩) أحمد أمين : فجر الاسلام ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٨٠) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٦٤ ص ١٦ ، وانظر : الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١٣/٢ .
(٨١) فتاوى ابن تيمية ٣٣١/١٣ ـ ٣٣٣ .
(٨٢) انظر : شروط المفسر وآدابه (السيوطى:الاتقان فى علوم القرآن ١٨٧/٢ ـ ١٨٩ ،الصابونى : التبيان فى علوم القرآن ـ بيروت ١٩٧٠ ص ١٧٧ ـ ١٨١ ، تفسير المنار ١٧/١ ـ ٢٦ .

الأمة وترجمان القرآن — وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم أجمعين[٨٣] .

وفى عصر التابعين تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لسبب أو لآخر ، مما دفع الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١هـ) الى أن يقول «ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازى» أى ليس لها اسناد، لان الغالب عليها المراسيل[٨٤] ، والى أن يقول الامام ابن تيمية : «والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة»[٨٥] .

ومع ذلك ، ورغم هذه الشوائب ، فالذى لاشك فيه أن كتب التفسير تحتوى على ثروة تاريخية قيمة،فلقد قدم لنا المفسرون بعض المعلومات التي تدل على أن سند الرواية والتواتر موصول ، فمثلا حين يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك المصرى الذى قتله موسى عليه السلام ، فان الامام النسفي انما يروى أن اسمه «فاتون» ، ولا ندرى كيف استقام لمفسرى الاسلام هذا الاسم ، الذى تدل صيغته المصرية على أن سند الرواية والتواتر موصول ، ذلك أن اسم «فاتون» انما هو اسم مصرى خالص ، مؤلف من اسم الشمس (أتون) ، مع «فاء التعريف»[٨٦] .

وهناك مثال آخر فى تفسير قوله تعالى «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع الى اله موسى ، وأنى لاظنه من الكاذبين»[٨٧] .

ولعل من الاهمية بمكان أن نقف قليلا عند هذه الآية ، وأقوال

---

(٨٣) انظر عن أشهر المفسرين من الصحابة/حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — استنبول ١٣٢١هـ ، ٢/١٧٨ ، الاتقان فى علوم القرآن ٣/١٨٧ — ١٨٩ ، فتاوى ابن تيمية ١٣/٣٦٤ — ٣٦٦ ، أحمد أمين : المرجع السابق ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .
(٨٤) ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير — دمشق ١٩٣٦ ص ١٤ .
(٨٥) ابن تيمية : المرجع السابق ص ١٩ .
(٨٦) تفسير النسفى ٣/٢٢٩ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٨ .
(٨٧) سورة القصص : آية ٣٨ ، وانظر : سورة غافر : آية ٣٦ .

المفسرين فيها ، ذلك أن ما عرف عن فراعين مصر ، وما تشهد به اليوم آثارهم ، أنهم انما كانوا يتشئون ، ما شاءوا ، من الحجر ، وهو كثير وافر يغنيهم عما سواه ، إن أرادوا ، لما ينشئون ، الدوام وطول البقاء، فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ، ولم يصطنعوا الطوب المحروق،ولغير ذلك كانوا يتخذون «اللبن» من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم ، سواء أكانت للعلية من القوم والملوك ، أم للعامة وغمار الناس ، وربما تردد القارئ غير المسلم فيما يسمع من قول الله في أمر فرعون أن يوقد له هامان على الطين ، وقد عرف أن المصريين ، فيما خلفوا من آثارهم ، لم يتخذوا الآجر المحروق في البناء قبل عصر الرومان[88] .

ولعل سائلا يتساءل : ماذا عن الطوب المحروق الذى جاء فى الآية الكريمة على عهد فرعون موسى ، وقد سبق عصره عصر الرومان بأكثر من ألف عام ؟

يروى الامام الطبرى فى تاريخه عن قتادة : أن فرعون موسى كان أول من طبخ الآجر ليبنى به الصرح[89] ، وروى الامام النسفى فى تفسيره لقوله تعالى «فأوقد لي يا هامان على الطين» ، أى اطبخ لي الآجر واتخذه ، وانما لم يقل مكان الطين هذا ، لانه أول من عمل الاجر، فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ، ولانه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة، اذ أمر هامان وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بـ «يا» فى وسط الكلام ، دليل التعظيم والتجبر[90] .

وروى الامام السيوطى[91] فى تفسيره عن ابن أبى حاتم عن قتادة: كان فرعون أول من طبخ الآجر ، وصنع له الصرح ، وأخرج ابن المنذر

---

(٨٨) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٨٩) تاريخ الطبرى ٤٠٥/١ (القاهرة ١٩٦٧) .
(٩٠) تفسير النسفى ٢٣٧/٣ .
(٩١) السيوطى : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٢٩/٥ (طهران ١٣٧٧هـ) .

عن ابن جريج قال : فرعون أول من صنع الآجر وبنى به ، وأخرج ابن عبد حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى «فأوقد لى يا هامان على الطين» ، قال : أوقد على الطين حتى يكون آجرا •

وروى الامام القرطبى عن ابن عباس ، حبر الامة وترجمان القرآن، أن فرعون موسى كان أول من صنع الآجر وبنى به[٩٢] ، وقال الامام البيضاوى : أول من اتخذ الآجر فرعون ، ولذلك أمر باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة ، ولذا نادى هامان باسمه بـ «يا» فى وسط الكلام[٩٣] ، ويقول ابن الاثير فى تاريخه : أمر فرعون هامان بعمل الآجر ، وهو أول من عمله ، وجمع الصناع وعمله فى سبع سنين، وارتفع البنيان ارتفاعا لم يبلغه بنيان آخر[٩٤] ، ومن ثم فان أكبر الظن أن المفسرين ، كما بدا لنا من قبل ، كانوا يستندون الى طائفة من الخبر الصحيح كانت بين أيديهم، وان اختلط ذلك بما لاقيمة له من الاوهام •

ومهما يكن من أمر ، فلقد أعثرتنا الاحافير على ما يوافق أقوال المفسرين ، من حيث البناء بالآجر ، فلقد عثر «سير فلندرز بترى» على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، وأقيمت به بعض أسس المنشآت ، ترجع الى عصور الفراعين : رعمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى ، من الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ — ١١٨٤ ق•م) ، وكان عثوره عليها فى «نبيشة» و «دفنة» ، غير بعيد من «بى رعمسيس» (قنتير) عاصمة هؤلاء الفراعين فى شرق الدلتا •

وقال «بترى» فى ذلك : ان حرق اللبن كان نادرا الى عصر الرومان، وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى ، وهو كذلك من قرائن القرآن الكريم التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر خروج بنى اسرائيل من مصر، على أيام

---

(٩٢) تفسير القرطبى ص ٥٠٠٤ •
(٩٣) تفسير البيضاوى ١٢٨/٤ (القاهرة ١٩٦٨) •
(٩٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٨٥/١ (بيروت ١٩٦٥) •

الاسرة التاسعة عشرة ، والتى بدأت ـ كما ألمع القرآن ، وأثبتت الحفائر ـ تصطنع فى بنائها الطوب المحروق (الآجر)[٩٥] .

وهناك قصة قطع الايدى والارجل من خلاف، التى هدد بها فرعون السحرة الذين آمنوا بموسى وهارون ، قال تعالى على لسان فرعون «قال آمنتم قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولاصلبنكم فى جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى»[٩٦] ، وقال تعالى «لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم أجمعين»[٩٧] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الوعيد من فرعون لسحرته ، انما انفرد به القرآن من دون التوراة ، وهو خبر خليق بالمؤمنين قبوله والايمان به ، لانه تنزيل «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[٩٨]، ومع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصداقا لما بين أيدينا من القرآن ، وأن ينحدر الينا من وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب فى زمان فرعون، قال ابن عباس ، رضى الله عنهما ، «كان أول من صلب، وأول من قطع الايدى والارجل من خلاف فرعون ، وقد جاءت هذه الرواية فى معظم كتب التفسير[٩٩] .

---

(٩٥) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١٣٨ ، وكذا
Petrie, (W. M. F.) Nebesheh and Defeneh, p. 18-19, 47.

(٩٦) سورة طه : آية ٧١ .

(٩٧) سورة الاعراف : آية ١٢٤ ، وانظر : تفسير النسفى ٧٠/٢ ، تفسير المنار ٦٢/٩ ـ ٦٦ ، تفسير الطبرى ٣٣/١٣ ـ ٣٤، تفسير القرطبى ص ٢٦٩٦ ـ ٢٦٩٧، صفوة التفسير ٤٦٤/١ ـ ٤٦٥ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٤/٤ ـ ٣٦٥ ، فى ظلال القرآن ١٣٥٠/٣ ـ ١٣٥١ ، تفسير ابن كثير ٣٨٠/٢ ـ ٣٨١ .

(٩٨) سورة فصلت : آية ٤٢ .

(٩٩) تفسير الفخر الرازى ١٣٥/٤ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٥/٤، تفسير الطبرى ٣٤/١٣ ، تفسير النسفى ٧٠/٢ ، تفسير البيضاوى ٢٣/٣، تفسير الدر المنثور ١٠٧/٣، تفسير ابن كثير ٣٨٠/٢ ، البداية والنهاية فى التاريخ ٢٥٨/١ .

وأما النص الذى يصور وسائل التعذيب فى زمان فرعون ، فقد ورد فى معبد «عمدا» من بلاد النوبة المصرية ، ويرجع الى السنة الرابعة من عهد «مرنبتاح» أى حوالى عام ١٢٢٠ ق.م ، ويؤكد أن مرنبتاح هذا ، والذى شاع فى الناس أنه فرعون موسى (وهذا ما نميل اليه ونرجحه)[١٠٠] ، لنما قطع من خلاف وصلب ، وقد نشر هذا النص الزميل الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف[١٠١] .

غير أن هناك فى بعض كتب التفسير خيالا كثيرا ، وبعض روايات أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التاريخ ، فمثلا يروى المفسرون والمؤرخون المسلمون مبالغات كثيرة فى تقدير عدد رجال جيش فرعون الذى طارد به بنى اسرائيل عند خروجهم من مصر ، حتى ذهبت رواية الى أن فرعون تبع بنى اسرائيل فى ألف ألف (مليون) ، وأخرى ذهبت الى أن الجيش كان من الفرسان ، فى ألف ألف وسبعمائة حصان (مليون وسبعمائة ألف) . وتذهب رواية ثالثة الى أنهم مليون وستمائة ألف ، وتذهب رواية رابعة الى أنهم مليون ومائة ألف ، وتذهب رواية خامسة الى أنهم مليون وخمسمائة ألف ، بل ان رواية سادسة تذهب الى أن فرعون كان فى سبعة آلاف ألف (٧ مليون) ، وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب ، ومائة ألف ألف حراب ، ومائة ألف ألف معهم الاعمدة .

وبدهى أن سكان مصر جميعا وقت ذاك ، ربما لم يبلغوا هذا العدد، ثم اننا ، حتى لو صدقنا مبالغات التوراة ، ومن تابعها من المفسرين عن أعداد بنى اسرائيل وقت الخروج ، فان عددهم (وهو جد مبالغ فيه) «ستمائة ألف ، غير الاولاد والشيوخ»[١٠٢] ، ولا يتطلب ، بحال من

---

(١٠٠) انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٣١٤ — ٤٣٦ .
(١٠١) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ١١٠ ، وكذا
Youssesf, (A. A.), Merenptah's fourth year Text at Amada, in ASAE, LVIII, 1964, p. 273 F.
(١٠٢) انظر : محمد بيومى مهران ، اسرائيل ١/٢٦٦ — ٢٦٨ ، ٤٤٣ — ٤٤٤ ، وكذا
Petrie, (W. M. Egypt and Israel, London, 1925, p. 41-46.

الاحوال ، هذه الملايين من جنود مصر ، لمطاردتهم،ثم كيف تمكن فرعون من جمع هذه الملايين من الخيل والرجال من كل أنحاء مصر ، حين علم فجأة بخروج بنى اسرائيل ، ثم خرج وراءهم مطاردا •

ولعل أقل الاعداد مبالغة ، تلك التى قدرها الامام النسفى ، حيث يقول : ان موسى خرج ببنى اسرائيل من أول الليل ، وكانوا سبعين ألفا، وقد استعاروا حليهم ، فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط ، فقص أثرهم(١٠٣) •

والامر كذلك بالنسبة الى عدد السحـــرة ، فلقد اضطرب الناقلون للاخبار فى عدد السحرة اضطرابا متناقضا يعجب العاقل ـ كما يقـول أبو حيان فى بحره المحيط ـ من تسيطره فى الكتب ، فمن قائل تسعمائة ألف ساحر ، ومن قائل سبعين ساحرا ، لما بينهما من الاعـــداد المعينة المتناقضة ، كالقول بأنهم ١٢ ألف ، ١٥ ألف ، ١٧ ألف ، ٣٠ ألف ، ٨٠ ألف ، ٧٠ ألف ، على أن من أغرب الروايات أنهم كانوا ٧٢ ساحرا ، اثنان من المصريين ، ٧٠ من بنى اسرائيل ، أو تسعمائة ، ثلاثمائة من الفرس ، وثلاثمائة من الروم ، وثلاثمائة من الاسكندرية(١٠٤) •

وبدهى أن المبالغة واضحة فى هذه الاعداد ، فما كان التنافس بين السحرة وموسى يحتاج الى تسعمائة ألف ساحر ، وربما كان رقم ٧٢

=

Cook, (S. A.), The Rise of Israel, in CAH, II, Cambridge, 1031, p. 358.

(١٠٣) تفسير أبى السعود ٢٤٤/٦ ، تفسير البنوى ٥٨/١ ، تفسير الخازن ٥٨/١ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٨٤/٥ ، تفسير الطبرى ٢٧٥/١ ـ ٢٧٩ ، تفسير النسفى ٦٠/٣،تاريخ الطبرى ٤١٤/١ ـ ٤١٥، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٧٠/١ ، تاريخ اليعقوبى ٣٦/١ ، ثم قارن : خروج ١٤/٥ ـ ٩ •

(١٠٤) انظر : تفسير الطبرى ٢٥/١٣ ، تفسير النسفى ٥٧/٣،تفسير الدر المنثور ١٠٦/٣ ، تفسير القرطبى ٢١٤/١١ ، تفسير البحـر المحيط ٣٦٠/٤ ، ٢٦/٦ ، ابن كثير : مختصر التفسير ٤٨٦/٢ ، البداية والنهاية ٢٥٤/١ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١٠٣/١ •

ساحرا مقبولا نوعا ما ، وأما الاماكن التى جاء منها السحرة ، كبلاد الفــرس والروم والاســكندرية ، فليت الذين كتبوا ذلك يعلمون أن الاسكندرية أنشئت عام ٣٣٢ ق٠م ، وبعد هذه الاحداث بما يقرب من ألف عام ، وأن الفرس ظهروا فى مصر عام ٥٢٥ ق٠م ، أى بعــد هذه الأحداث بحوالى ٧٠٠ عام،والروم بعدها بما يقرب من اثنى عشر قرنا، وأن مصر كانت تموج بالسحرة ، الذين بلغوا فى السحر شأوا عظيما ، وما كانوا فى حاجة الى بنى اسرائيل ، الذين ما كانوا يعرفون علما أو فنا أو صناعة ، غير السخرة فى بناء المدن ورعى مواشيهم ، ثم كيف يستعين فرعون على موسى ببنى اسرائيل ، وهو الذى جاء لانقاذهم من فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم،ثم أن سياق القصة فى القرآن الكريم يشير الى استعانة فرعون بالسحرة المصريين ، وليس ببنى اسرائيل ٠

٤ ـ كتب التاريخ والجغرافية :

كتب المؤرخون والجغرافيون العــرب بعض صفحات من كتبهم عن تاريخ مصر القديم ، وذلك حين كان يتعرض الواحد منهم غالبا لقصص الانبياء ذوى الصلة بمصر ، كابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون والمسيح ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٠

وكتاباتهم ، فى معظمها ، ان لم تكن جميعها، روايات اعتمدت فى الدرجة الاولى على الاسرائيليات والنصرانيات ، بل وحتى هذه ، رغم قيمتها العلمية الضئيلة ، ان كانت ذات قيمة علمية أصلا ، لم تؤخذ من مصادرها الاصلية ، وانما اعتمدت على الرواية من أفواه الرجال ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبــار ، حتى ان كانوا بعيدين عن الميول والاهواء ، وحتى ان كانوا من أصحاب الملكات التى تستطيع التمييز بين الغث والسمين ، فان للذاكرة آمادا لا تستطيع تجاوزها ٠

ولعل عذرهم فى ذلك أن عصر الاكتشافات الحــديثة الذى نعيشه

الان لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد فى التاريخ انما كان على ماجاء فى التوراة أو العهد القديم، كما نقل اليهم عن طريق مسلمة أهل الكتاب، ممن كانوا يقيمون فى بلاد العرب ، وهم ليسوا بأفضل منهم فى هـــذا الميـــدان[١٠٥] .

وآخـــــر دعوانا أن الحمـــد لله رب العـــالمين
والصلاة والسلام على مولانا وسيـــدنا وجـــدنا
محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

(١٠٥) انظر دراسة نقدية لكتب المؤرخـين والجغرافيين المسـلمين (محمد بيومى مهـران : مصر ـ الجزء الاول ـ الاسـكندرية ١٩٨٨ ص ١٣٣ ـ ١٥١) .

المراجـــع المختـــارة

أولا : المراجع العـــربية

القــرآن الكريم

كتب الحـــديث

التـــــوراة

ابن أبى حاتم (عبد الرحمن) : الجـرح والتعديل (٨ أجزاء) ط الهنـد ١٩٥٣

ابن الاثير (عز الدين) : الكامل فى التاريخ ـ المجلد الاول ـ بـــيروت ١٩٦٥

ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمـن) : مقـــدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث بـــيروت ١٩٧٨

ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ نشر حسام الدين القدسى القــاهرة ١٣٥٠هـ

ابن المدينى : العلل ـ تحقيق مصطفى الاعظمى بـــيروت ١٩٨٠

ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) : مقدمة فى أصول التفسير دمشـــــق ١٩٣٦

ابن حجر العسقلانى : نخبة أهل الفكر فى مصطلح أهل الاثر القــاهرة ١٣٠٨هـ

ابن حجر العسقلانى : فتح البـــارى بشرح صحيح البخـــارى القــاهرة ١٣٨٠هـ

ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة ابن خلدون بـــيروت ١٩٨١

ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ تحقيق احسان عباس بـــيروت ١٩٧٨

ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث القـــاهرة ١٩٦٦

الدكتور أحمد بدر : أصول البحث العلمى ومناهجه الـــكويت ١٩٨٢

الدكتور أحمد شلبى : كيف تكتب بحثا أو رسالة ؟ القـــاهرة ١٩٧٤

الدكتور أحمد محمد الحوفى : الطبرى القـــاهرة ١٩٦٣

الدكتور أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ الاسكندرية
الدكتور اسد رستم : مصطلح التاريخ بـــيروت ١٩٥٥
الدكتور أكرم ضياء العمرى دراسات تاريخية ـ مع
تعليقه فى منهج البحث وتحقيق المخطوطات المدينة المنورة ١٩٨٣
الدكتور التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن
الكـــريم تونـــــس ١٩٧٤
الثعلبى (أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى) :
قصص الانبياء ـ المسمى عرائس المجالس ـ ط الحلبى القـــاهرة
الحافظ العراقى : ذيل ميزان الاعتدال ـ جـــامعة
أم القـــرى مكة المكرمة ١٤٠٦هـ
الحاكم النيسابورى : معرفة علوم الحديث بـــيروت ١٩٧٧
الخطيب البغدادى : الكفاية فى علم الرواية حيدر آباد ١٣٥٧هـ
الخطيب البغدادى : تقييد العلم ـ تحقيق يوسف العش دمشـــق ١٩٤٥
الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ـ تحقيق
على محمد البجاوى القـــاهرة ١٩٦٣
الذهبى : تذكرة الحفاظ ـ تحقيق عبد الرحمن المعلمى حيدرآباد ١٣٧٥هـ
الذهبى : المشتبه ـ تحقيق على محمد البجاوى القـــاهرة ١٩٦٢
السخاوى (محمد بن عبدالرحمن) : الاعلان بالتوبيخ
لمن ذم التاريخ ـ دار الكتاب العربى ـ بـــيروت ١٩٨٣
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : الشماريخ فى
علم التاريخ ـ نشر وتقديم ابراهيم السامرائى بغـــدات ١٩٧١
الشافعى (الامام محمد بن ادريس) : الرســـالة ـ
تحقيق أحمد محمد شاكر القـــاهرة ١٩٤٠
الطبرى (الامام محمـــد بن جرير) : تاريخ الرسل
والملوك (تاريخ الطبرى) تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهـــيم القـــاهرة ١٩٦٠
الغزالى (الامام أبو حامد محمد) : آراؤه فى التربية
ـ كتاب آداب المتعلمين ـ تحقيق أحمد عبد الغفور
عطـــــــار بـــيروت ١٩٦٧
الغزالى (الامام ابو حامد محمد) : المستصفى فى علم
الاصول (جزءان) ـ ط مصطفى محمود القـــاهرة ١٩٣٧

المسعودى : التنبيه والاشراف — القاهرة ١٩٦٨

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر — بيروت ١٩٧٣

الدكتور جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (١٠ أجزاء) — بيروت ١٩٧١/٦٨

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — استنبول ١٣٢١هـ

الدكتور حسن حلاق : مقدمة فى مناهج البحث التاريخى بيروت ١٩٨٦

الدكتور حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ـ دار المعارف — القاهرة ١٩٦٥

الدكتورة حكمت أبو زيد : التاريخ : تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر — القاهرة ١٩٦١

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان — حيدرآباد ١٩٥٢

الدكتورة سيدة الكاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه — القاهرة ١٩٧٦

الدكتور شاكر مصطفى : التاريخ هل هو علم أم فن؟ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الاول ـ العدد الاول ـ الكويت ١٩٧٤

الدكتور عادل حسن غنيم والدكتور جمال محمود حجر : فى منهج البحث التاريخى ـ دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية ١٩٨٩

عباس محمد العقاد : الفلسفة القرآنية — القاهرة ١٩٥٤

الدكتور عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن — القاهرة ١٩٦٦

الدكتور عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب — بيروت ١٩٦٠

عبد القادر أحمد طليمات : ابن الاثير الجزرى المؤرخ — القاهرة ١٩٦٩

الدكتور عثمان موافى : منهج النقد التاريخى الاسلامى والمنهج الاوربى ـ دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية ١٩٨٤

الدكتور عزيز العظمة : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية — بيروت ١٩٨٣

عصام الدين حفنى ناصف : محنة التوراة على أيدى اليهود — القاهرة ١٩٦٥

على أدهم : تاريخ التاريخ ـ دار المعارف — القاهرة ١٩٧٧

الدكتور على عبد الواحد وافى : ابن خلدون : منشىء علم الاجتماع — القاهرة
على محمود اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية — القاهرة ١٩٨٤
الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ دار العلم للملايين — بيروت ١٩٨٣
الدكتور لطفى عبد الوهاب : مناهج الفكر التاريخى مطبعة كريدية — بيروت ١٩٧٩
الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث — مكتبة وهبة — القاهرة ١٩٨١
الدكتور محمد الطالبى: منهجية ابن خلدون التاريخية بيروت ١٩٨١
الدكتور محمد الطالبى : التاريخ ومشاكل اليوم والغد مجلة عالم الفكر — المجلد الخامس — العدد الاول — الكويت ١٩٧٤
الدكتور محمد رشاد خليل : المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره — القاهرة ١٩٨٤
الدكتور محمد بيومى مهران : محاضرات فى منهج البحث التاريخى — الاسكندرية ١٩٧٨
الدكتور محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦
الدكتور محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الاول — دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية ١٩٨٨
الدكتور محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى الثانى — دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية ١٩٨٨
الدكتور محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية ١٩٨٨
الدكتور محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الجزء الاول — الادا بوالعلوم — الاسكندرية ١٩٨٩
الدكتور محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم — الرياض ١٩٨٠
الدكتور محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم — الاسكندرية ١٩٩٠
الدكتور محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩
محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب — القاهرة ١٩٦١

الدكتور محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ـ مجلة عالم الفكر ـ المجلد الخامس ـ العدد الاول الكويت ١٩٧٤

الدكتور محمود قاسم : المنطق ومناهج البحث القاهرة ١٥٩٣

الدكتور مصطفى السباعى : السنة ومكانتها التشريع الاسلامى القاهرة ١٩٦١

الدكتور مصطفى العبادى : محاضرات في مناهج الفكر التاريخى بيروت ١٩٨٤

منح خورى : التاريخ الحضارى عند توينبى ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠

ياقوت الحموى : معجم الادباء ـ ط الحلبى القاهرة ١٩٣٦

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

ادواركار : ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالى ، وبيسار عقل بيروت ١٩٨٠

ارنست كاسيرر : فى المعرفة التاريخية ـ ترجمة أحمد حمدى محمود القاهرة

أ٠ل٠ راوس : التاريخ : أثره وفائدته ـ ترجمة مجدى حفنى ناصف ، ومراجعة محمد أنيس القاهرة ١٩٦٨

أرنولد توينبى : دراسة فى التاريخ (٤ أجزاء) ترجمة منح خورى بيروت ٠٠٠٠

ألبان ج٠ ويدجيرى : المذاهب الكبرى فى التاريخ ـ ترجمة ذوقان قرقوط بيروت ١٩٧٩

باروخ سبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة ـ ترجمة وتقديم حسن حنفى القاهرة ١٩٧١

جفرى باراكلو : الاتجاهات العامة فى الابحاث التاريخية ـ ترجمة صالح أحمد العلى بيروت ١٩٨٤

جوستاف لوبون : فلسفة التاريخ ـ ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٤

جولد تسهير : مذاهب التفسير الاسلامى ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ دار الكتب الحديثة القاهرة ٠٠٠٠

جوزف هورس : قيمة التاريخ ـ ترجمة نسيم نصر بيروت ١٩٨٢

جورج سارتون : تاريخ العلم ـ ترجمة لفيف من العلماء ، باشراف ابراهيم بيومى مدكور	بيروت ١٩٧٢/٦٣
حيدر بامات : مجال الاسلام ـ ترجمة عادل زعيتر	القاهرة ١٩٥٦
عبد الحميد صديقى : تفسير التاريخ ـ ترجمة كاظم الجوادى	الكويت ٠٠٠٠
ف.ج. هرنشو : علم التاريخ ـ ترجمة وتعليق واضافة عبد الحميد العبادى	القاهرة ١٩٣٨
فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ـ ترجمة صالح أحمد العلى ، ومراجعة محمد توفيق حسن	بغداد ١٩٦٣
فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ـ ترجمة أنيس فريحة ومراجعة وليد عرفات	بيروت ١٩٨٠
فردريك انجلز : التفسير الاشتراكى للتاريخ ـ ترجمة راشد البراوى	القاهرة ١٩٤٧
كارل بوبر : عقم المذهب التاريخى ـ ترجمة عبد الحميد صبرة ـ دار المعارف	الاسكندرية ١٩٥٩
كولنجوود : فكرة التاريخ ـ ترجمة محمد بكير خليل	القاهرة ١٩٦١
لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ ـ ترجمة عايدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة	بيروت ١٩٦٦
لانجلوا وسينيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية ترجمة عبد الرحمن بدوى	الكويت ١٩٨١
هـ. جب : علم التاريخ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون	بيروت ١٩٨١
هيوج أتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ـ ترجمة محمود زايد	بيروت ١٩٨٢
و. هـ. وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ـ ترجمة أحمد حمدى محمود	القاهرة ١٩٦٢

ثالثا : المراجع الاجنبية

Almack, (J. C.), Research and Thesis Writing, Boston, 1930.

Aron, (R.), Introduction a la Philosophie de L'Histoire Essai sur les Limites de L'objectivite Historique, Gallimard, 1948.

Barnes, (H. E.), A History of Historical Writing,

Carr, (E. H.), What is History, London, 1961.

Clark, (G. K.), Guide for Research Student Working on Historical Subjects, Camridge, 1958

Cole, (A. H.), and Bigelow, (K. W.), A Manual of Thesis Writing, New York, 1949.

Collingwood, (R. G.), The Idea of History, New York, 1956.

Derricout, (R. M.), Radio Carbon Chranology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

Fling, (F. M.), The Writing of History, an Introduction to Historical Method, New Haven, 1926.

Flint, (R.), History of The Philosophy of History, Edinburg, 1893.

Gardiner, (P.) Theories of History, London, 1954.

Geyle, (P.), Toynbee and Sorokin, The Pattern of The Past, Beacon Press, 1949.

George, (H. B.), The Relations of Geography and History, Oxford, 1924.

Haddon, (A.), A History of Anthropology, London, 1927.

Jaspers, (K.), The Origin and Goal of History,

Libby, (W. F.), Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

Margoliouth, (D. S.), Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.

Meinecze, (F.), Machiavellism in Politics and History, by D. Scott, 1975.

Minto, (J.), Reference Books, London, 1929.

Nicholson, (R. A.), A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962.

Oman, (C.), on The Writing of History, London, 1963.

Rosental, (F.), A History of Muslim Historiography, Leiden, 1952.

Roth, (L.), Thought of The Modern World, in The Legacy of Israel, Oxford, 1947.

Rowse, (A. L.), The Use of History, London, 1964.

Sarton, (G.), Introduction to The History of Science, IV, Cambridge, 1952.

Sauvaget, (J.), Historiens Arabes, Paris, 1946.

Seligman, (E.), The Economic Interpretation of History.

Schluter, (W. C.), Haw to Do Research Work, New York, 1927.

Simon, (R.), Histoire Critique de Vieux Testament, Paris, 1678.

Smith, (H. S.), Egypt and C. 14 Dating, Antiquity, 1964.

Steinmuller, (J. E.), Companion to Scripture Studies, II, N. Y., 1942.

Taylor, (H.), History as a Science, London, 1933.

Tholfson, (T. R.), Historical Thinking.

Toynbee, (A.), A Study of History, London, 1948.

Unger, (M. F.), Unger's Bible Dictonary, Chicago, 1970.

Vincent, (F. A.), Aids to Historical Research, New York, 1934.

Walsh, (W. N.), Introduction to Philosophy of History, London, 1951.

Wells, (H. G.), The Outline of History London, 1963.

Whitney, (F. L.), Elements of Research, New York, 1927.

Wilson, (J. A.), The Culture of Ancent Egypt, Chicago, 1963.

Woolley (L.), Digging up The Past, (Pelican Book), 1967.

Encyclopaedia of Islam.

Encyclopaedia of Religion and Ethics.

The Jewish Encyclopaedia.

مؤلفـــــــات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

اولا ـ التاريخ المصرى القديم :

١ ـ الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية	الاسكندرية	١٩٦٦
٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث	الاسكندرية	١٩٦٩
٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة	القـــاهرة	١٩٧٦
٤ ـ اخناتون : عصره ودعوته	القـــاهرة	١٩٧٩

ثانيا ـ فى تاريخ اليهود القديم :

٥ ـ التوراة (١) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٣	الاسكندرية	١٩٧٠
٦ ـ التوراة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٤	الاسكندرية	١٩٧٠
٧ ـ التوراة (٣) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٥	الاسكندرية	١٩٧٠
٨ ـ قصة أرض الميعـــاد بين الحقيقة والاسطورة ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٦	الاسكندرية	١٩٧١
٩ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العـــدد ٦٧	الاسكندرية	١٩٧١
١٠ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العـــدد ٦٨	الاسكندرية	١٩٧١
١١ ـ أخلاقيات الحـرب عنـد اليهـود ـ مجـلة الاسطول ـ العـــدد ٦٩	الاسكندرية	١٩٧١
١٢ ـ التلمود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٧٠	الاسكندرية	١٩٧٢
١٣ ـ اسرائيل ـ الجزء الاول ـ التاريخ	الاسكندرية	١٩٧٨
١٤ ـ اسرائيل ـ الجزء الثانى ـ التاريخ	الاسكندرية	١٩٧٨
١٥ ـ اسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الحضارة	الاسكندرية	١٩٧٩

١٦ ـ اسرائيل ـ الجزء الرابع ـ الحضارة — الاسكندرية ١٩٧٩

١٧ ـ النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل — الاسكندرية ١٩٧٩

ثالثا ـ فى تاريخ العـرب القـديم :

١٨ ـ الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصـلى — الريـاض ١٩٧٤

١٩ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة — الريـاض ١٩٧٦

٢٠ ـ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة — الريـاض ١٩٧٧

٢١ ـ الديانة العربية القديمة — الاسكندرية ١٩٧٨

٢٢ ـ العرب والفرس فى العصور القديمة — الاسكندرية ١٩٧٩

٢٣ ـ الفـكر الجـاهلى — القـاهرة ١٩٨٢

رابعا ـ فى تاريخ العراق القديم :

٢٤ ـ قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة — الريـاض ١٩٧٦

٢٥ ـ قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة — الاسكندرية ١٩٧٩

خامسا ـ سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

٢٦ ـ الجزء الاول ـ فى بلاد العرب — بـيروت ١٩٨٨

٢٧ ـ الجـزء الثانى ـ فى مصر — بـيروت ١٩٨٨

٢٨ ـ الجزء الثالث ـ فى بلاد الشام — بـيروت ١٩٨٨

٢٩ ـ الجزء الرابع ـ فى العـراق — بـيروت ١٩٨٨

سادسا ـ سلسلة مصر والشرق الادنى القديم :

٣٠ ـ مصر ـ الجزء الاول ـ — الاسكندرية ١٩٨٨

٣١ ـ مصر ـ الجزء الثانى ـ — الاسكندرية ١٩٨٨

٣٢ ـ مصر ـ الجزء الثالث ـ — الاسكندرية ١٩٨٨

٣٣ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الاول — الاسكندرية ١٩٨٩

٣٤ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الثانى — الاسكندرية ١٩٨٩

٣٥ ـ تاريخ العـرب القـديم — الاسكندرية ١٩٨٨

٣٦ ـ الحضارة العربية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٨

٣٧ ـ بلاد الشـام — الاسكندرية ١٩٩٠

٣٨ ـ تاريخ السودان القديم تحت الطبع

٣٩ ـ المغرب القديم الاسكندرية ١٩٩٠

٤٠ ـ العراق القديم الاسكندرية ١٩٩٠

٤١ ـ التاريخ والتاريخ الاسكندرية ١٩٩١

سابعا ـ سلسلة : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين :

٤٢ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الاول ـ بيروت ١٩٩٠

٤٣ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثانى ـ بيروت ١٩٩٠

٤٤ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث ـ بيروت ١٩٩٠

٤٥ ـ السيدة فاطمة الزهراء بيروت ١٩٩٠

٤٦ ـ الامام على بن أبى طالب (الجزء الاول) بيروت ١٩٩٠

٤٧ ـ الامام على بن أبى طالب (الجزء الثانى) بيروت ١٩٩٠

٤٨ ـ الامام الحسن بن على بيروت ١٩٩٠

٤٩ ـ الامام الحسين بن على بيروت ١٩٩٠

٥٠ ـ الامام على زين العابدين بيروت ١٩٩٠

٥١ ـ الامام جعفر الصادق تحت الطبع

ثامنا ـ معجم البلدان الكبرى فى مصر والشرق الادنى القديم :

(بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور/محمد جمال الدين مختار) ـ تحت الطبع

٥٢ ـ الجزء الاول : مصر ـ الجزيرة العربية ـ بلاد الشام تحت الطبع

٥٣ ـ الجزء الثانى : العراق ـ المغرب ـ السودان ـ تحت الطبع



المؤلف فى سطور

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم

كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

١ ـ ولد فى البيصلية ـ مركز ادفو ـ محافظة أسوان .

٢ ـ حفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا ، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩ .

٣ ـ عمل مدرسا بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ ـ ١٩٦٠) .

٤ ـ حصل على ليسانس الاداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٠م .

٥ ـ عين معيدا لتاريخ مصر والشرق الادنى القديم بكلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٦١م .

٦ ـ حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩م .

٧ ـ عين مدرسا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٩م .

٨ ـ عين أستاذا مساعدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤م .

٩ ـ عين أستاذا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٩م .

١٠ ـ أعير الى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧م .

١١ ـ عين عضوا فى مجلس ادارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢م .

١٢ ـ عين عضوا بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨١م .

١٣ ـ اعير الى جامعة ام القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧م.

١٤ ـ عين رئيسا لقسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م).

١٥ ـ اختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ ـ ١٩٨٩م).

١٦ ـ عين أستاذا متفرغا فى كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية فى عام ١٩٨٨م.

١٧ ـ عضو لجنة التراث الحضارى والاثرى بالمجالس القومية المتخصصة.

١٨ ـ عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.

١٩ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٠ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الادنى القديم.

٢١ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الاساتذة المساعدين فى التاريخ.

٢٢ ـ أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٣٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الادنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.

٢٣ ـ اسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية منذ عام ١٩٨٢.

٢٤ ـ شارك فى حفائر كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية فى الوقف ـ مركز دشنا ـ محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق ـ محافظة كفر الشيخ (فى عام ١٩٨٣/٨٢).

٢٥ ـ عضو اتحاد المؤرخين العرب.

فهرست الموضوعات

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفنية للطباعة والنشر
٤٨ شارع جوده - راس التين - الاسكندرية
تليفون ٨٠٣٢٥٠

